

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي. جامعة أم القرى

كلية الآداب والعلوم الإدارية للبنات بمكة المكرمة

قسم اللغة العربية

تخصص البلاغة والنقد

الحوار في الحديث النبوي الشريف

دراسة تحليلية بلاغية لأحاديث مختارة

متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية

تخصص(البلاغة والنقد)

إعداد الباحثة

علوة بنت عابد عبد الله الحساني

إشراف

أ.د /عبد الموجود متولي بهنسي

أستاذ البلاغة والنقد بكلية الآداب والعلوم الإدارية للبنات بمكة المكرمة سابقاً

الفصل الدراسي الثاني ١٤٢٩هـ -١٤٣٠هـ

ملخص الرسالة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على خير من نطق فأسمع ، وأبان فأقنع ، وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد : فإن هذه الدراسة (**الحوار في الحديث النبوي الشريف دراسة تحليلية بلاغية لأحاديث مختارة**) تشتمل على مقدمة بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره و الدراسات السابقة و منهج البحث وحدوده .

وعلى تمهيد بينت فيه : مفهوم الحوار والجدل والفرق بينهما و أهميته وسر إيثار الرسول ﷺ إياه في الكثير من حديثه الشريف و طرق الحوار ومظاهره.

وقسمت فصول الدراسة إلى بابين الأول: (حوار المشافهة) وتحته ثلاثة فصول :

الفصل الأول : (حواره ﷺ مع أصحابه) ويشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث تدور حول توثيق عرى الإيمان و العبادات و الجهاد و العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

الفصل الثاني : (حواره ﷺ مع زوجاته) ويشتمل على مبحثين يدوران حول العلاقات الأسرية و حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

الفصل الثالث : (حواره ﷺ مع الطارئين على المدينة) ويشتمل على ثلاثة مباحث هي: حواره مع الملائكة و حواره مع الوفود و حواره مع الأعراب.

الباب الثاني : (حوار الرواية) وينطوي هذا الباب على فصلين :

الفصل الأول : (الحوار في الملأ الأعلى) ويشمل مبحثين هما الحوار مع الملائكة و الحوار مع الجنة والنار وأهلهما.

الفصل الثاني : (الحوار على الأرض) ويشتمل على مبحثين هما حوار الملائكة مع الناس و حوار الناس بعضهم مع بعض.

الخاتمة : وتشمل أهم نتائج البحث وتوصياته.

***الفهارس وتشمل : فهرسة الآيات القرآنية و فهرسة الأحاديث و فهرسة الموضوعات.**

***المصادر والمراجع .**

وأثبتت هذه الدراسة ما يلي:

١/قلة استخدام النبي ـ ﷺ لفن التورية .

٢/ من طرق الحوار استخدام النبي ـ ﷺ للتعريض في بعض الأحاديث دون التصريح بالاسم تأدبا مع من يخاطبهم ، وحملهم على امتثال أمره دون أن يجرح مشاعرهم ، بالإضافة إلى الاستعارة والكناية .

٣/ ومنها تقديم النبي ـ ﷺ قصة قصيرة ؛ ليثير بها الصحابة فيبادرونه بالسؤال ، إذ لا يكتفي فقط بإيراد القصة للعظة كما في بعض الأحاديث ، بل يثير بذلك اهتمامهم حتى يسألوه ويبين لهم بعض ذلك ما غمض أو يعقب عليها بعبارة بليغة.

٤/ تفسيره ﷺ لبعض الألفاظ التي جاءت من قبل المجاز اللغوي والإتيان بمعان أخرى مناقضة لما تعارف عليه الصحابة كالمفلس والرقوب .

٥/حواره ـ ﷺ ـ كرسه لإقناع الناس بالدين الإسلامي وإرساء عقيدته في نفوسهم مع شيء من الإيجاز المكثف للمعاني بأسلوب سهل لكنه ممتنع عند غيره.

الباحثة / علوة بنت عابد عبد الله الحساني .

مقرر اللجنة الأستاذ الدكتور : جميل عبد الغني محمد علي .

عميدة كلية الآداب والعلوم الإدارية بمكة المكرمة (الأقسام الأدبية) الدكتورة: أنجب غلام نبي.

Abstract

Praise be to Allah who taught man with pen, and taught him what was unknown to him; blessing and peace b upon on the best man who spoke to people to hear him and gave clear guidance that convinced people and on his kinsfolk and companion all. This study, titled (Dialogue in the Prophet Tradition (Hadith) - Rhetorical and Analytical Study for Selected Hadiths). It includes **a preamble, introduction, two chapters and conclusion, biographies and sources and references .**

In the **preamble,** I elucidated the significance of the study subject, reasons for its selection, and previous relevant studies as well as research methodology and its limitations.

In the **introduction** I explained the concept of dialogue and argument as well as the difference between them and its importance as well as the secret behind the Prophet's preference for it in many of his Hadiths as well as the ways and features of dialogue.

In **chapter one and chapter two**, which constitute the body of the study, I mentioned the subject in details. **Chapter one** (Verbal dialogue) was divided in the following three sections.

Section one: (His dialogue with his companions). This includes four sub-sections, which are focused on strengthening principles of faith, worship acts, Jihad (Fighting for the cause of Allah, and social as well as human relations)

Section two: (His dialogue with his wives). This includes two sub-sections that revolve on family as well social and humanitarian relations.

Section three (His dialogue with inhabitants of places surrounding Madinah). This consists of three sub-sections titled his dialogue with angles, his dialogue with delegations, and his dialogue with Bedouins.

Chapter Two, titled (Dialogue of narration) comprised two sections:

Setion one : (Dialogue in the Heavenly host). This comprises two sub-sections, namely his dialogue with angles, his dialogue with delegations, and his dialogue with Paradise as well as Hellfire and those dwelling in them.

Section two: (His dialogue on earth). This is composed of two sub-sections, namely angles's dialogue with people and dialogue of people with each other.

The **conclusion** consists of the most significant results and recommendations

The **biographies** are composed of biographical sections on Holy Qur'an verses, Hadith and subjects.

Sources and references are detailed at the end of the study.

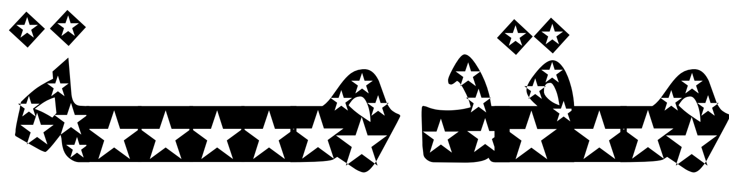
This study has proved the following:

1- The Prophet rarely used the art of linguistic dissimulation.
2- Among the employed by The Prophet (Blessing and peace be upon him) employed in some of his dialogue methods the art of linguistic metonymy in particular Hadiths without expressing directly the name of the person intended in full respect for those whom he addressed and for encouraging them to implement his commands with hurting their feelings. Additionally he used metaphor and allusion.
3- The Prophet sometimes narrated a short story to his companions so as to excite them to ask him. I It was not sufficient that he just he narrated for exhortation as in some Hadiths but for provoking their attention so that they ask himand he explained to them certain ambigoius point or commented on them with eloquently.
4- The Prophet (bpuh) explained certain expression that were metaphorically used to give meanings contrary to what was the normally known by his companions such the two Arabic words of (Mophlis and Raqoob which are translated literally as meaning bankrupt and having no children) where as the desired meaning was (the one who come in the Judgment Day with many worship acts but with other minor many sins and the other means the one who he no son that died in fight in the way of Allah)
5- The Prophet consecrated his dialogue for persuading people to embrace Islamic religion and inculcating its tenets and principles in their minds with some sort of intensive briefness for meaning with an easy, lucid and direct style which was difficult to be used by other people.

Researcher: Alwah Abid Abdullah AlHasani

Committee's Rapporteur : Prof. Dr. Jameel Abdulghani Mohammad Ali

Dean of College Arts & Administrative Sciences (Literary Section) Dr. Anjab Ghulam Nabi


مقدمة

مقدمة:

الحمدُ لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلمْ، والصلاةُ والسلامُ على خيرِ من نطقَ فأسمعَ، وأبانَ فأقنعَ، وعلى آلهِ وصحبهِ ومَنْ سارَ على دربه إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها... وبعد:

فالسنةُ المطهرةُ هي فيضُ ذلكَ القلبِ الكبير، الذي تأملَ أطواءَ[1] الكونِ، وغاصَ في أعماقه، واستجلى ما فيه من ظواهرِ الجمال، وملامحِ الكمالِ، وروعةِ الجلالِ، فانسابَ رقراقاً يروي ظمأ النفوسِ التواقةِ إلى سحر القول وفتنةِ البيان.

يقرأُ المرءُ طائفةً من حديثهِ – صلى الله عليه وسلمَ – فيقفُ مشدوهاً يأخذه العَجَبُ عن نفسهِ فيسألُها: كيف تهيأتْ تلك الفتنةُ البيانيةُ[2]؟ أو كيفَ اقتنصَها؟ وكيف فاضَ بها لسانُ ذلك الأميّ الذي لم يَجْلِسْ إلى معلمٍ إلا جبريل عليه السلام، ولم يَقْرأْ في كتابٍ، ولم تُمْسِكْ يَمينُه بقلمٍ؟!

وقد خرجتُ بعدَ قراءةِ ما قرأتْ أسيرةَ هذا البيانِ النَبَويِّ عاقدةً العزمَ على أن أجعلَ دراستي في ظلالِ هذا الروضِ المونقِ [3]، ومع هذا العزمِ الوثيقِ وَجَدْتُنِي حيرى. أيَّ الجوانب أتناولُ؟ فقد رأيتُ المضمارَ تتبارى فيه جيادُ الأقلامِ وأنَّى لقلمي أن يجدَ لِنفسهِ مساراً فيه؟

وشاءت إرادةُ اللهِ أن أُلْهَمَ النظرَ في ظاهرةٍ لم يَتَنَاوَلْها قلمٌ من قبل – في حدودِ علمي– وهي ظاهرةُ الحوارِ، فأثلجتْ صدري وأراحتني من حَيْرة استبدت بي وقتاً ليس بالقصير. وقبل أن أخوضَ غِمَارَ البحثِ في هذه الظاهرةِ كان لابدَ لي من التعرفِ على جِدَّتَها، فلم أجدْ أحدا

---

(١) ومنه طوى الصحيفة يطويها فأطوى وانطوى، والحديث كتمه، والبلاد قطعها، والأطواء في الناقة: طرائق الشحم في سنامها، ومطاوي الحية والأمعاء والشحم والبطن والثوب: أطواؤها والواحد مطوى. القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب الواو فصل الطاء، ص ١٦٨٦- ١٦٨٧، مؤسسة الرسالة ببيروت ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢) الفتن منه العيش فتنان أي: لونان حلو ومر. ومنه الإحراق (على النار يفتنون) والفتنة الخبرة، ومنه (بأيكم المفتون) ومنه إعجابك بالشيء. المصدر السابق، باب النون فصل الفاء، ص ١٥٧٥.

(٣) الأنق: محركة: الفرح والسرور، والكلأ أَنِقٌ كفَرِحٌ والشيء: أحبه وبه أعجب، وآنقني إيناقا: أعجبني. المصدر نفسه باب القاف فصل الهمزة ص ١١١٧.

تناولَها بإحاطةٍ كما أتطلعُ إليه، ولكني وجدتُ دراسةً للحوارِ إما جزئيةً، وإما في مجالِ آخَر عبر الحديثِ النبويِ الشريفِ، وتتمثلُ الدراسةُ الجزئيةُ في مؤلفين:

الأول للدكتور لطفي الصباغ، وعنوانه: "التصوير الفني في الحديث النبوي" والثاني للدكتور محمد حسن الزير، وعنوانه: "القصص في الحديث النبوي، دراسة فنية موضوعية"؛ فالدكتور الصباغ كان معنياً بالصورة الفنية، ومن ثم فقد كان الحوار في دراسته لمعا سريعة أو ملمحاً من ملامح الصورة، ولم يكن من الشمول والإحاطة بحيث يلم بالجوانب الموضوعية التي أفرغت في إطار الحوار. والدكتور الزير كانت غايته إبراز القصة الفنية في الحديث النبوي، ومقارنتها بالقصة الفنية باعتبارها فناً أدبياً، فلم يقف أمام الحوار إلا ريثما يكشف عن وجوده باعتباره عنصراً من عناصر القصة في البيان النبوي وعليه فإن دراستهما معاً لم تكن شاملة لجوانب الظاهرة ولا متعمقة في ملامحها البلاغية على النحو الذي تبلوره هذه الدراسة أما المجال الآخر فتتمثل في البحوث التالية:

الأول: بحث للدكتورة سناء محمود عبد الله وعنوانه: "الحوار في القرآن الكريم معالمه وأهدافه "وهو كتاب في جزأين، مطبوع بدار الأندلس الخضراء بجدة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

الثاني: بحث للدكتور السيد أحمد عمارة، وعنوانه: "الحوار في القصيدة العربية إلى نهاية العصر الأموي، التركي للطباعة، طنطا، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

الثالث: بحث للدكتور عبد الرحمن عبد العزيز الفايز وعنوانه: "الحوار في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي دراسة بلاغية نقدية، وهو بحث نال به درجة الدكتوراه عام ١٤٢٥هـ.

و من العنوان يتبين أن مجالها بعيد عن هذه الدراسة. والذي يلفت النظر للحوار أن النبي– صلى الله عليه وسلم – استخدم الحوار أسلوباً بيانياً لما للحوار من أهمية خاصة تتمثل في:

١. إن الحوار ظاهرة أسلوبية لها مكانها في الإبداع الأدبي، ويكفي في الإبانة عن مكانتها تصريح القرآن بها في سياق حكايته لما كان بين صاحب الجنتين، والرجل المؤمن من

مراجعة القول حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

٢. الحوار وسيلة من وسائل التشويق للغرض الذي يود البليغ أن يمكنه من نفوس مخاطبيه وذلك إذا كان متمكناً من فنه ومن أمثلة التشويق قوله – صلى الله عليه وسلم – (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم...)[2].

٣. الحوار – إلى ذلك – وسيلة من وسائل الإقناع بالفكرة، وذلك إذا كان المحاور محيطاً بالفكرة مدركاً لأبعادها ويتجلى ذلك في قوله – صلى الله عليه وسلم – للأعرابي الذي أخبر بأن امرأته ولدت غلاماً أسود فقال له: (أعندك إبل؟ قال: نعم...)[3].

٤. الحوار – مع ذلك – عنصر مهم من عناصر المسرحية، وبه نجاحها أو فشلها في البيان عن تطور الحدث وصولاً به إلى العقدة ثم إلى التنوير، وبه يمضي القارئ إلى النهاية والخاتمة، أو ينصرف عنها، وهو عنصر ثانوي في القصة؛ فالقصة ضرب من البيان النبوي له أثره وخطره، كما سبق أن ذكرت[4].

وبعد أن استوثقت من جدة البحث على الصورة في ظاهرة الحوار في الحديث النبوي عقدت العزم على المضي في اختياره موضوعاً لهذه الدراسة لسببين: الأول جدة الموضوع، حيث لم يسبق لقلم تناوله بإحاطة وشمول كما سبق بيانه.

---

(١) سورة الكهف آية (٣٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي، تقديم وتقريظ وتعريف أ.د/ وهبة الزحيلي ٢/٢٩٩، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٣) صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي ٤/١٠٣.

(٤) تناول الدكتور محمد حسن الزير القصة في بحثه وكشف عن أهميتها في بيانه صلى الله عليه وسلم وقدم هذا البحث لنيل درجة الدكتوراه وكتابه معروف لدى بعض الدارسين وهو (القصص في الحديث النبوي دراسة فنية موضوعية) كان أستاذاً بجامعة محمد بن سعود ويعمل الآن عميداً بالجامعة نفسها.

والثاني: الرغبة في إثراء المكتبة العربية بإضافة أعرض فيها روعة البلاغة النبوية في صورة من صور بيانه تتجلى في الحوار الذي وظفه توظيفاً رائعاً في شتى الأغراض التي يقوم عليها صرح الإسلام الشامخ.

وهنا شمرت عن ساعد الجد، ومضيت أجيل النظر في تلك الظاهرة فتبين لي بعد إطالة الفكر أنها تتراءى في إطارين اثنين هما: إطار المشافهة، وإطار الرواية، تتراءى لي في داخل كل منهما محاور يدور كل منها حول أفكار رئيسة؛ فإطار المشافهة - وهو الباب الأول - يضم داخله محاور ثلاثة هي:

حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه، حواره مع زوجاته، حواره مع الطارئين على المدينة، وتلك المحاور هي فصول الباب الأول، فجعلت الإطار باباً، والمحاور فصولاً، والأفكار الرئيسة مباحث، وبذلك بلورت خطة البحث.

فالمحور الأول: حواره مع أصحابه – وهو الفصل الأول – ويدور حول توثيق عرى الإيمان، وبيان ما للعبادات من أثر في حياة المسلم، ورفع درجته عند الله، وحول فضل الجهاد، وأثره في حياة الأمة، وما للمجاهد عند الله من جزاء، ثم حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية، حتى يكون المجتمع الإسلامي صورة حية للإنسانية بمعناها الأسمى، وهذه الأفكار هي مباحث هذا الفصل.

والمحور الثاني: حواره مع زوجاته – وهو الفصل الثاني – ويدور حول أمرين:

الأول: العلاقات الأسرية وما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين فوق قيام كل من الطرفين بواجبه وما يحسن أن يكون بينهما من الملاطفة، أو الترفع عن بعض الهنات التي قد تصدر عفو الخاطر أو تنزع إليها الطبيعة البشرية؛ لتنعم الأسرة بحياة هادئة هانئة.

والثاني: العلاقات الاجتماعية والإنسانية؛ فالأسرة لا تعيش منعزلة عما حولها، ولابد أن تكون لها علاقة مع غيرها قائمة على المبادئ الإنسانية الكريمة.

والمحور الثالث: حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الطارئين على المدينة – وهو الفصل الثالث والأخير من الباب الأول – ويقوم على ركائز ثلاثة:

حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الملائكة، حواره مع الوفود، حواره مع الأعراب، وهذه الركائز الثلاث تستهدف أموراً عديدة منها:

بيان معان قد تخفى على الناس كحواره مع جبريل حين جاءه في صورة رجل حسن الهيئة، وأخذ يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، وعن الساعة وعلاماتها، ويتلقى جوابه – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك.

ومنها الترغيب في القيام بأركان الإسلام وما يتحقق وجوده بها، وما يتضمنه الإسلام من تشريعات يلزم المسلم أن يقوم بها، ولا يخفى أن هذه الركائز هي مباحث الفصل الثالث.

أما الإطار الثاني – حوار الرواية – وهو الباب الثاني والأخير من خطة البحث فيضم محورين: الحوار في الملأ الأعلى، والحوار على الأرض.

فالمحور الأول: الحوار في الملأ الأعلى – وهو الفصل الأول – ويقوم على ركيزتين: الحوار مع الملائكة، وينطوي على الترغيب في ذكر الله تسبيحاً، وتحميداً، وتكبيراً، وتهليلاً، وما لذلك من جزاء يشمل الذاكرين ومن يجالسهم، وينطوي – كذلك – على الحوار مع الجنة والنار، وغايته الترغيب بالجنة، والترهيب من النار، وهذان المبحثان يتحقق بهما كينونة هذا الفصل.

والمحور الثاني: الحوار على الأرض – وهو الفصل الثاني والأخير من الباب الثاني – وينطوي على حوار الملائكة مع الناس، وفيه دعوة ضمنية إلى المحبة في الله، ومعرفة نعمة الله وشكرها، وما يجسد ذلك من الجود والعطاء، والتحذير من جحود النعمة ونكرانها، وما يجسد ذلك من الشح والبخل، كما ينطوي على حوار الناس بعضهم مع بعض، ويدور حول أمور حيوية واجتماعية، وهذان هما المبحثان اللذان يحققان موضوع هذا الفصل.

وقد توخيت في هذه الدراسة المنهج التحليلي، فبدأت بالكلمة من ناحية طبيعة بنيتها، من حيث ما هي عليه من سلاسة وسهولة، وكونها مأنوسة حية جارية على ألسنة البلغاء، ومن ناحية صورتها في بنية الجملة تنكيراً أو تعريفاً، تقديماً أو تأخيراً، ذكراً أو حذفاً، اسماً أو فعلا، وما لذلك كله من ومض.

ثم انطلقت إلى الجملة من حيث طبيعتها: خبرية أو إنشائية، وصورة الخبرية من حيث الإرسال والتوكيد، وجريان ذلك على ظاهر مقتضى الحال أو على خلاف مقتضاه، وكون الجملة مفرغة في إطار القصر مع بيان طريق القصر ونوعه باعتبار الطرفين، أو باعتبار حال المخاطب وما إلى ذلك، وصورة الإنشائية من حيث كونها أمراً أو نهياً وما إلى ذلك، وبقاء مضمونها على أصله أو خروجه عن هذا الأصل إلى أغراض يوحي بها السياق.

ثم مضيت لبيان طبيعة العبارة – أعني ما هو أكثر من جملة – وذلك ببيان الصلة بين أجزائها من حيث كونها عضوية – وهو ما اصطلح على تسميته بالفصل ـ أو غير عضوية بأن تحتاج إلى رابط خارجي – أعني الواو- وهو ما اصطلح على تسميته بالوصل.

ثم إلى بيان ما فيها من إيجاز القصر أو الإطناب مع ذكر نوعه، وبيان سر الإيجاز والإطناب بمختلف ألوانه.

وبعد استيفاء أنواع التركيب وبيان السر في أي منها انتقلت إلى التصوير البياني سواء أكان تشبيهاً أو استعارة أو مجازاً مرسلاً أو كناية أو تعريضاً، أكشف عن نوعه مع محاولة بيان ما يوحي به، وما له من وقع على نفس المتلقي.

وإذا وفيت التصوير البياني حقه أنتقل إلى ألوان البديع من طباق وجناس وغيرهما، وما تضيفه على التعبير من حسن في اللفظ أو المعنى.

تناولت ذلك كله حسب قدرتي مع إدراكي أنني مازلت على عتبة البحث في هذا الميدان وأن عودي لم يستحصد بعد.

وينبغي أن أقرر هنا أنني توخيت في عنوان البحث أن تكون الأحاديث- موضوع الدراسة – مختارة ؛ لأن الدراسة المستوعبة لظاهرة الحوار في الحديث النبوي تستغرق زمناً طويلاً ، وتحتاج إلى معاناة لا تطيقها باحثة مبتدئة مثلي. كما رأيت أن يكون المختار مائة حديث راعيت فيها التمثيل لعناصر البحث أبوابه ، وفصوله ، ومباحثه ، وأن تكون مستمدة من كتب السنة الموثوقة المجمع على صحتها عند أهل العلم.

وقد أعانني على استجلاء ما خفي على بصيرتي ، وما دق على فهمي ما أتيح لي الوقوف عليه من شروح كتب السنة وكان أهمها في ذلك ما يلي :

١- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي ت ٧٤٣هـ.

٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

٣- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني.

٤- صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي.

٥- وغير ذلك من المصادر والمراجع التي أثبتها في نهاية هذا البحث.

وإن كان لابد أن ينسبَ الفضلُ لأهلهِ فمن الواجبِ علَّي أن أقررَ أن الأستاذَ الدكتورَ/عبدَ الموجود متولي بهنسي إبراهيم قنديلٌ كان له أكبرُ العونِ على إنجازِ هذا البحثِ منذ أن كان خاطراً يتردد بين جوانحي على أن استوى على سوقه وبدا بهذه الصورةِ التي بين يدي القارئ فله مني حسنُ الثناءِ وجزيلُ الشكرِ حاضراً وغائباً.

كما أشكر أستاذي القدير الدكتور/ جميل عبد الغني الذي تفضلَ بقبول متابعةِ الإشرافِ نيابةً عن أستاذي عبدِ الموجود فله من الشكر في هذا المقام شيء لا يستهانُ به....

وفي هذا السياق أتقدمُ بالشكرِ الجزيل إلى عميدةِ كلية الآداب والعلوم الإدارية للبنات بمكةَ المكرمةِ بجامعة أمِّ القرى الدكتورة/ أنجب غلام نبي وإلى رئيسةِ قسمِ اللغةِ العربيةِ السابقةِ الدكتورة/ روضة خيمي ورئيستهِ الحالية الدكتورة فوزية خان.

كما لا يفُوتُني أن أتقدمَ بعظيمِ الامتنانِ لوالديَّ اللذين كانا يترقبان هذه اللحظة في صبرٍ ورجاءٍ وكذلك إخوتي الذين تحملوا معي من المشقةِ والعناءِ ما الله به عليم.

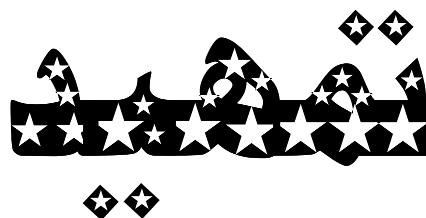
وأشكر كُلَّ من أمدني بمشورةٍ أو فائدةٍ وإن كان ثمَّ من هو أَوْلى بالثناءِ والتقديرِ فهما بلا شك أستاذاي الكريمان اللذان تفضلا بقبول مقولي أمامهما وهما :

الأستاذُ الدكتور/ عوض بن معيوض الجميعي الأستاذُ بكليةِ اللغةِ العربيةِ جامعةِ أمِّ القرى بمكةَ المكرمةِ.

والأستاذُ الدكتور/ السعيدُ عبد المجيد النوتي الأستاذُ بجامعةِ أمِّ القرى بمكةَ المكرمةِ.

هذا ولا يفوتني أن أقررَ أنني إذا كنت قد وُفِّقْتُ في هذه الدراسةِ فذلك بعون الله وتوفيقه أولاً وآخراً. وإلا فقد بذلت غايةَ الجهدِ واللهُ الموفقُ للصوابِ وهو حسبي ونعمَّ الوكيل.

علوة بنت عابد بن عبد الله الحساني


تمهيد

تمهيد:

الحوار مأخوذ من مادة (حور) وهي تدور حول المراجعة والتردد، يقول الراغب: "الحوار: التردد إما بالذات وإما بالفكر.[1]" أما في الاصطلاح: "فهو حديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر[2]. فلا شك أننا نجتمع مع غيرنا ونحاورهم، ونميل في كثير من لقاءاتنا إلى الكلام معهم، فالحوار ضرب من ضروب القول لا غنى عنه، وهو عامل حيوي يعوِّد الإنسان الشجاعة الأدبية في المقامات التي تستدعي الجرأة، وهو تعبير عن الرأي والأفكار والمشاعر قبل كل شيء. ولكن ما الحوار؟ وما الفرق بينه وبين الجدل؟ وما سر إيثار الرسول – صلى الله عليه وسلم – له؟ وهل هناك طرقٌ سلكها النبي الكريم في حواراته؟.

قد أصل بعض الباحثين الحوار ورده إلى العصر الجاهلي ، وبين كيف هذبه الإسلام وجعله أسلوباً راقياً فقال: "الحوار ضرب من الأدب عرف منذ الجاهلية في خطب المفاخرات والمنافرات، ويشهد تاريخ العرب أنهم توسلوا بهذا الفن الأدبي إلى مآربهم، لكثرة خصوماتهم ومفاخرهم وتنازعهم على الشرف، فكان الرجلان إذا تنازعا في صفات الشرف والصدارة تنافرا إلى واحد أو أكثر من حكماء العرب يقضي بينهما بمن أحق بالصفات الكريمة، والمآثر المشهودة التي ترجح كفته على كفة غريمه ولهذا السبب كان يقول لغريمه أنا أعز منك نفراً، ويظل يذكر الدليل إثر الدليل وكذلك يفعل غريمه إلى أن يحكم القاضي الذي اختاره لواحد منهما، وهي عادات ذميمة عاشت بين القوم ما عاشت الجاهلية، فلما جاء الإسلام حرمها وقضى عليها شيئاً فشيئا، ويمكن القول بأنه هذبها بالتدريج وهذب أساليب الحوار"[3].

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص (١٣٤) كتاب الحاء تحقيق وضبط/ محمد سيد كيلاني، الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م. وينظر لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ٢٦٤/ ٤ حرف الحاء، دار صادر بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ط٣، ٢٠٠٤م. وينظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ١١٧ باب الحاء والواو وما معهما من الحروف في الثلاثي ، لأبي الحسين أحمد بن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢) أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ٣/ ٦، وينظر الحوار بين الجماعات الإسلامية د/محمد سيد أحمد المسير ص ١٣، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) فن الحوار المصطلح والتطور، تأليف: زهير محمد كتبي، الجزء الأول ص (٧٣،٧٤،٧٥) ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

وهناك فرق بين الحوار والجدل، ويتبين هذا الفرق بالنظر إلى المادة اللغوية لكل منهما: فالحوار مأخوذ من مادة (حور) وهي تدور حول المراجعة والتردد، يقول الراغب: "الحَوْرُ: التردد إما بالذات وإما بالفكر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾[1]
إي لن يبعث، وحار الماء في الغدير تردد فيه، والقوم في حَوَارٍ: في تردد إلى نقصان، وقوله: نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكوْر أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه، أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها، والمحاورة والحَوَار المرادة في الكلام ومنه التَّحاور قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾[2].

أما الجدل فمأخوذ من مادة (جدل) وهي تدور حول المغالبة وما تستلزمه من القوة، وإحكام التدبير، يقول الراغب: "الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجَدَلْت البناء أحكمته، والأجدل الصقر المحكم البنية، ومنه الجدال، فكأن المتجادلين يفْتِلُ كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل الأصل في الجدال الصراع، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصُّلْبَة، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[3]
﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[4]﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[5]
﴿قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾[6] أما في الاصطلاح فالجدل: "دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة[7]".

---

(١) سورة الانشقاق، آية (١٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ١٣٤، ١٣٥ كتاب الحاء، والآية الأولى من سورة المجادلة.

(٣) سورة النحل، آية (١٢٥).

(٤) سورة غافر، آية (٣٥).

(٥) سورة الحج، آية (٦٨).

(٦) سورة هود، آية (٣٢).

(٧) التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري ص ١٠١، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤٠٥هـ، وينظر الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لأبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري، ص ٧٣، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر المعاصر بيروت، ط١، د ت. وينظر الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة، خالد بن عبد الله القاسم، ص ١٠٥، دار المسلم، الرياض دت. وينظر مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة د/ فرج الله عبد الباري ص ١٢٧ دار الآفاق العربية القاهرة ط١، ٢٠٠٤م. وينظر فن الحوار أصوله آدابه صفات المحاور تقديم/ الشيخ محمد إسماعيل العمراني والشيخ مقبل هادي الوادعي تأليف/ فيصل عبده قائد الحاشدي، دار الإيمان، إسكندرية، دت.

فليس يخفى - بعد النظر فيما ذكره الراغب- ما بين اللفظين من فرق في المعنى، فهما - وإن اشتركا في مراجعة القول - يختلفان في الغاية، فغاية المجادل الغلبة والانتصار للرأي حقاً كان ذلك أو باطلاً، ومن ثم فإنه يختار الوسيلة التي تحقق له الغلبة، ولذلك لما سمع الكفار قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [1]. قالوا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألست تزعم أن عيسى نبي، وتثني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، وعزير يُعبد، والملائكة يعبدون؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا إن نكون نحن وآلهتنا معهم فضحكوا وسكت النبي – صلى الله عليه وسلم – فأنزل الله عدة آيات تبين أنهم ما أرادوا وجه الحق، بل أرادوا بقولهم الغلبة في قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [2].

وقوله ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [3] قال الزمخشري: "إلا جدلاً" إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق والباطل"[4].

أما المحاور فغايته إبراز الحقيقة أخذ بها الآخر أو أعرض عنها، ومن ذلك قوله تعالى: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟؟ لكنه هو الله ربي ولا أشرك بربي أحد) [5] قال المحاور وذلك، ولم يحاول أن يثني صاحب الجنتين عن معتقده بأكثر من بيان قدرة الله التي تجلت في خلقه من تراب وتسويته رجلاً، وأنه هو لن يشرك بربه أحداً.

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٨- ٩٩.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٠١.

(٣) سورة الزخرف، آية آية ٥٧- ٥٨.

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ٣/٤٧٣، دار الفكر ببيروت د.ت. .

(٥) سورة الكهف آية ٣٧- ٣٨.

وللحوار أهمية عامة تتمثل في كونه وسيلة لعرض الفكرة في غير تعصب ومحاولة الإقناع بالتي هي أحسن وفي ذلك يقول بعض الباحثين: "يكتسب الحوار أهميته من كونه وسيلة للتآلف والتعاون، وبديلاً عن سوء الفهم والتقوقع والتعسف والفرقة والصراع، وبذلك يصبح الحوار ضرورة طالما تفاعل الناس وتدافعوا، واختلفت انتماءاتهم ومصالحهم، وأفكارهم ومشاعرهم تجاه الأشياء والأشخاص من حولهم [1] وله أهمية أدبية تبرز في فن من فنون الأدب وهو المسرح، ويكشف عن هذه الأهمية قول بعض المنظرين: "تتجلى قيمة الحوار في الفنون الأدبية المختلفة فهو في المسرحية من أهم الأدوات المباشرة في تطوير العمل المسرحي، وتعتمد عليه المسرحية من مبدئها إلى ختامها، وله دور بارز وقيمة عظيمة في إيضاح الأفكار، فكل طرف من أطراف الحوار يعرض فكرته، ويحاول إقناع الطرف الآخر بها، وعن طريق ذلك العرض ومحاولة الإقناع تبرز فكرة كل طرف وتتضح، كما أنه ذو اقتدار على التغلغل في أعماق النفس البشرية، وعلى معرفة نوازعها وميولها وما تفكر فيه [2] ثم في قدرة الأديب على التخير والانتقاء واستغلال عنصر المفاجأة، ثم إجادته في خلق عنصر التوتر لدى القارئ أو السامع" [3]
ولكون الحوار- بصفةٍ عامةٍ – ذا جاذبيةٍ، وله أثر فاعل في التغلغل في النفس البشرية بإيقاظ مشاعرها، وإثارة دواعي التفكير، وأسباب الوعي بما يدور حوله، ولما له من جدة في عرض الفكرة بالخروج على الأسلوب السردي وظفه النبي- صلى الله عليه وسلم- في الدعوة إلى الله، والكشف عن جوهرها، وأثرها في شتى مناحي الحياة؛ ليقوم على منهج الإسلام مجتمع مسلم ترفرف عليه راية الكمال الإنساني.

وفي بواكير الدعوة إلى الله استخدم- صلى الله عليه وسلم- الحوار ليكشف عن صدقه في الدعوة وأنه لا يبغي بها مالا ولا ملكا وهذا ما تحدثت به السيرة النبوية حيث جاء فيها" أن عتبة جاء إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فجلس إليه وقال: يا ابن أخي

---

(١) الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، د. منى إبراهيم اللبودي، ص(٢٠)، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) واضح أن الدكتور الفايز عدّ الفعل "تفكر" إلى مفعوله بحرف الجر "الباء" وهو إنما يعدّ بحرف الجر (في)مع الفعل (يفكر) ومن ذلك قوله تعالى (أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله ...).

(٣) الحوار في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي دراسة بلاغية نقدية د/عبد الرحمن بن عبد العزيز الفايز ص٨، ٩ ، ١٠، رسالة دكتوراه. بجامعة الإمام محمد بن سعود لعام ١٤٢٥هـ.

إنك منا حيث قد علمت، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : قل يا أبا الوليدّ! أسمع. قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك أطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فلما فرغ عتبة قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: افعل، فقرأ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- آيات من سورة (فصلت) إلى السجدة، فلما سمع منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدا عليهما، يسمع منه فلما انتهى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى السجدة منها، سجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك." [1] ولا يخفى ما في هذا الحوار من هدوء وحكمة، ورجاحة عقل، لقد أنصت النبي- صلى الله عليه وسلم- بكل حلم، وكان ينتقي الألفاظ الحسنة كما يلاحظ في قوله (يا أبا الوليد) فلم يقل على سبيل المثال: قل يا عدو الله ورسوله، أو قل يا كافر، بل سلك الحكمة فهو لم يرسل إلا رحمة للعالمين ينذرهم من عذاب عظيم، ويخرجهم إلى نور الهداية، وما أجدرنا أن نتعلم من هذا الحوار كيف نتأدب مع الغير ممن هم أعداء هذه الأمة ونكون موضوعيين في حواراتنا، صادقين مع أنفسنا نطلب الحق وننشد الحكمة [2]، وكما قال أحد الباحثين: " هذه القصة كلها دروس في أدب الكلام فالرسول- صلى الله عليه وسلم-

---

(١) السيرة النبوية: أبو الحسن علي الحسني الندوي، ص١٢٩- ١٣٠، دار الشروق بجدة، ط ١١، ١٤١٦ هـ.

(٢) هناك آداب للحوار ذكرها بعض الباحثين منها: التزام الموضوعية، وإبراز الدليل الساطع والمنطق السليم، التواضع وتجنب الغرور، طلب الحق دائما، تحديد المسائل والقضايا، الصدق والعدل، الأمانة، التزام المحاور بما يدعو إليه، الفراسة وحسن التصرف، مراعاة الأفهام والعقول، توقع المخالفة رغم الاقتناع، الاحترام المتبادل بين المتحاورين، نبذ التعصب. "ينظر أدب الحوار في الإسلام د/محمد سيد الطنطاوي نهضة مصر القاهرة د.ت. وينظر الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة د/يحيي محمد حسن زمزمي، دار التربية والتراث مكة، دار الرمادي الدمام، د.ت. وينظر أسرار التميز والنجاح. مهارات التميز، وفاء محمد مصطفى، دار ابن حزم ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. وينظر الحوار آدابه وأهدافه الشيخ/ منصور الرفاعي ط١، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٤م.

لم يحسن الإنصات ويترك المقاطعة فحسب، بل منحه فرصة أخرى لإضافة أي شيء ربما نسيه أو غفل عنه (أو قد فرغت يا أبا الوليد)وهذا خلق رفيع، وأدب جم، يستدعي حسن إصغاء من الطرف الآخر.[١]"

والملحوظ في الحوار النبوي أنه نوعان: خارجي يحدث مباشرة بين الأشخاص، وهو حوار مسموع وملحوظ، وهذا الحوار كثير في أحاديث المصطفى- صلى الله عليه وسلم- مثاله قوله- صلى الله عليه وسلم- : (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى شيئاً. فقال- صلى الله عليه وسلم- : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا[٢].

والحوار الآخر: الحوار الداخلي، وهو حديث النفس أو ما يسميه المحدثون بـ "المنولوج الداخلي"([٣])، وهذا النوع لا يمكننا أن نسمعه بطبيعة الحال؛ لأنه يدور في ضمير المتكلم وحده دون مشاركة الآخرين، ويتراءى مثاله في الحديث الذي ذكره النبي- صلى الله عليه وسلم- في قصة الرجل مع الكلب بقوله (لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني)[٤] والنوع الأول هو الغالب والكثير في الحديث النبوي، أما الثاني فهو بالإضافة إلى الأول قليل.

وأما بالنسبة إلى تقسيم الحوار من خلال هذه الدراسة فهو ينقسم إلى قسمين: أولهما حوار المشافهة، وهو يدور بين الرسول الكريم وبين غيره مشافهة، سواء أكان من يحاوره أصحابه أم أزواجه أم الأعراب، أم الوفود، أم كان الحوار بينه وبين الملائكة. وثانيهما حوار

---

(١) أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم د/ عودة عبد عودة عبد الله ص٢٦١، دار النفائس، الأردن ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥.

(٢) رواه مسلم قي صحيحه، صحيح مسلم ٢/٢٩٩.

(٣) المنولوج الداخلي :" الحديث المنفرد أو هو أثر أدبي تكشف فيه شخصية (ما)عن حقيقة طبيعتها والموقف المسرحي الذي تجد نفسها فيه ، أو هو أثر أدبي مركز على حادثة واحدة تقدمه شخصية خيالية أو حقيقية في حديث من جانب واحد يوجه للقارئ أو لشخصية أخرى أو لجماعة من الناس ." ينظر معجم مصطلحات الأدب لمجدي وهبة ،ص٣٢٩، مكتبة لبنان ١٩٧٤م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة الشيخ محمد القطب والشيخ هشام البخاري، ٢/٧٣٩، المكتبة العصرية، صيدا بيروت طبعة جديدة منقحة ومفهرسة ١٤٢٥هـ/٢٠٠١م.

الرواية، وهو الحوار الذي يرويه الرسول- صلى الله عليه وسلم- في شكل قصة قد تطول في بعض الأحيان وقد تقصر أحيانا أخرى.

وقد استخدم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في حواره طرقاً أسلوبيةً حكيمةً، أجملها الدكتور الصباغ في خمس نقاط: أولها أن يأتي بجملة تبدو لأول وهلة غريبة فتستثير سؤال الصحابة، كقوله- صلى الله عليه وسلم- (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً [١]) وثانيها أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في الجواب؛ كأن يذكر لهم أمراً عظيماً، ومقصداً هاماً، وهدفاً مرجواً، كقوله- صلى الله عليه وسلم- : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟...)[٢] وثالثها أن يوجه إلى الصحابة سؤالاً ويستمع إلى أجوبتهم ثم يناقشهم فيها، ويبين الصواب لهم، كقوله- صلى الله عليه وسلم- : (أتدرون من المفلس)؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..[٣].)

ورابع هذه الطرق أن يجري حوار بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وبين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ويكون حواراً عادياً لم يتعمده الرسول- صلى الله عليه وسلم- ولكن الوقائع أملته، وكان النبي يرحب بمثل هذه الحوارات، ومثله سؤال أبي ذر - رضي الله عنه- : أي الأعمال أفضل؟ فقال- صلى الله عليه وسلم- : (الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله...)[٤]

وآخر هذه الطرق، أحاديثُ صيغت على شكل قصص رواها النبي - صلى الله عليه وسلم - على الصحابة للعظة والعبرة، قد لا يخلو حديث منها من الحوار، ومنها حديث الأعمى والأقرع والأبرص[٥].

---

(١) صحيح البخاري ٤/٧٣٠.

(٢) المصدر السابق ٤/١٩٨٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم شرح النووي، ٦/١٠٥.

(٤) المصدر نفسه، صحيح مسلم بشرح النووي ١/٢٥٥.

(٥) الحديث النبوي مصطلحه وبلاغته وكتبه، تأليف د/ محمد الصباغ، ص٨٣، ٨٩، ط٧ ، ١٤١٨هـ/١٩٠٧م بيروت.

وبهذه الطريقة يكتفي النبي – صلى الله عليه وسلم- بسرد القصة فقط دون أن يعقب عليها بإثارة قضية ما ولكن - ما ظهر لي من هذه الطرق - أن النبي- صلى الله عليه وسلم- يذكر القصة ليبين من خلالها موقفا ما أو يعلق على أمر إما بالترغيب فيه أو الترهيب منه، كما في تقديم قصة الرجل مع الكلب اللاهث، وقصة المرأة التي فقدت ابنها في السبي. ومنها ما جاء على وجه التعريض حين لا يريد النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يصرح بالاسم تأدبا مع من يخاطبهم، وسماه أحد الباحثين بـ (الأسلوب الرمزي الإيحائي [1]. كما في قصة عائشة – رضي الله عنها- مع بريرة.

وقد يكون الحوار ذا نبرة عالية، وتناسبه الألفاظ القوية الجزلة، وقد يكون ذا نفس هادئ لطيف، وتناسبه الألفاظ الرقيقة السهلة، وما يصاحبها من تعبير بالإشارة أو اليد أو الحركة والوجه، والذي يلحظ غالبا في حواراته- صلى الله عليه وسلم- الألفاظ اللينة التي تنبع من نفس مطمئنة راضية.

ويحاول هذا البحث أن يبرز بلاغة الحوار في الحديث الشريف، باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي؛ لأنه يحمل في مضمونه المعاني الإنسانية العظيمة، في نسق أدائي يستولي على الحس، ويدخل القلب بلا استئذان.

---

(١) هو الدكتور/ محمد بن سعد الدبل في كتابه الموسم بـ (الخصائص الفنية في الأدب النبوي) ١٢٣، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الباب الأول

حوار المشافهة

يتضمن هذا الباب عدة مقاصد بينتها في نقاط محددة تتجلى للقارئ في :

- التعريف بالمشافهة قديما والمقصود بها من هذه الدراسة.
- أهمية الحوار مشافهة.
- خصائص الحوار بالمشافهة.
- أكثر أحاديثه - صلى الله عليه وسلم - كان مشافهة بالكلام.

معنى المشافهة:

ذكر ابن منظور معناها بقوله : "شافهه : أدنى شفته من شفته فكلمه وكلمه مشافهة ، ونقل عن الجوهريِّ قوله : المشافهة المخاطبة من فيك إلى فيه[1] "فهي إذن تعني مخاطبة الإنسان ومواجهته بالكلام دون حائل يعوق استماع الطرف الآخر لما يقوله ، فكان الإنصات غاية ينشدها المشافه مع من يقبل عليه ويأخذ عنه.

أهمية الحوار بالمشافهة في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم :

كان عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - قائما على نقل أخباره وأحاديثه عن طريقي الرواية والمشافهة ، وأكثر العلوم نقلت إلينا عن طريقهما ، وكانت المشافهةُ أهمَ وسيلة لنقل الموروث العربيّ إلى الأجيال الصاعدة وما زالت كذلك حتى استوت العلومُ وصقلها أهلها بالتدقيق والابتكار آنذاك ومن ثم كانت مهمةٌ في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن اتصل به من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ؛ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقل مبادئ الدين ، وأرسى قواعده ، وأثر في نفوس السامعين له وهذب أخلاقهم ، وجعل المجتمع المسلم مجتمعا إنسانيا عظيما هو أزهى العصور في تاريخ الإنسانية.

خصائص الحوار بالمشافهة:

تعتمد المشافهة على النقل والسماع ، ولما كانت كذلك كان لها تأثيرها الخطابي في نفوس السامعين ، خاصة إن وافقها سلوك فعلي ، يرسخ المعنى ويوضحه للمتلقين كما كان شأن الصحابة - رضوان الله عليهم - .

وأكثر أحاديثه - صلى الله عليه وسلم - كان مشافهة بالخطاب ، توجه به إلى من حوله من الصحابةِ - رضي الله عنهم - ، وهم أكثر الناس احتكاكا به ، ثم زوجاتِه - أمهات المؤمنين - ثم من سواهم من الناس على اختلاف طبقاتهم من أعراب ووفود حتى شملت مشافهته الملائكة المكرمين.

---

(١) لسان العرب لابن منظور١٠٦/٨.

الباب الأول
حوار المشافهة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه

الفصل الثاني: حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته

الفصل الثالث: حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الطارئين على المدينة

الفصل الأول

حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه

وفيه أربعة مباحث:

الأول: حول توثيق عرى الإيمان.

الثاني: حول العبادات.

الثالث: حول الجهاد.

الرابع: حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الصحابة

تمهيد:

كان الصحابة رضي الله عنهم – المهاجرون منهم والأنصار خاصة ـ أكثر من حاورهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وكان للحوار معهم طابعه الخاص فقد تدرج من الليونة والرفق إلى الشدة والحزم حسب ما كان يقتضيه المقام وإيا ما كانت الظروف والأحوال.

كان يهدف بحواره إلى كشف جوهر الحقيقة للإسلام، وغرس الإيمان الصادق في نفوسهم، والمحبة الخالصة لله ولرسوله، وتقرير فضيلة الجهاد في سبيل الله، وتحمل الصعاب لإعلاء صوت الحق في كل أرض، حتى يعم الخير وتتحقق العدالة، كما كان يهدف إلى توجيههم إلى ما يحسن من السلوك في مواقف الحياة الاجتماعية والإنسانية؛ ليعيش الناس حياة يعمها الطهر والنقاء، وهذه المعاني ستبلورها أحاديث الحوار التالية:

حول توثيق عرى الإيمان

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (أتدرون من المفلس؟) قالوا: المفلس[1] فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا ،وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[2].

المفلس الحقيقي في نظر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس هو ذاك الرجل الفقير المعدم الذي لا يملك الدرهم حتى يشتري ما يحتاج إليه، ولا الذي لا متاع لديه يكفيه ذل المسألة، واللجوء إلى الناس، بل المفلس الحقيقي يأتي يوم القيامة بأعمال صالحة، ولكن الناس لم تسلم من شره، فيقتص منه، فلا يبقى له عمل يثاب عليه. كما يقول أحد الباحثين: "الإفلاس الحقيقي حالة هذا الرجل الذي أضاع الحسنات يوم القيامة في ذلك اليوم الذي لا يتاح للمرء أن يكسب شيئاً ومن ثم يطرح في النار، إن العدالة الإلهية لن تدع مظلوماً في ذاك اليوم حتى تنتصف له من ظالمه"[3].

والحوار الذي تخلل الحديث جاء هادئاً، ومع هذا الهدوء كانت الألفاظ سهلة، ومعناها قريب إلى نفوس السامعين، ولو تأمل القارئ الحديث الشريف لوجد فيه أساليب بلاغية نادرة، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – (صلاة وصيام وزكاة) ثلاثة ألفاظ كلها نكرة والتنكير في ذلك للتكثير؛ فإن هذا المفلس قد أكثر من الصلاة والصيام والزكاة إلا أن سيئاته كانت أكثر، ومن رحمة الله به أنه احتسبها له في ميزان حسناته، ثم اقتص للمظلومين يوم الحساب، فأعطى كل ذي حق حقه. كما يقول أحد الباحثين: "في قوله – صلى الله عليه وسلم – (فإن فنيت

---

(١) "الفلس في القلة (أفلس) وفي الكثير (فلوس)، وقد أفلس الرجل صار مفلساً كأنما صارت دراهمه فلوسا وزيوفاً، ويجوز أن يراد به أنه صار إلى حال يقال فيها ليس معه فلس." ترتيب مختار الصحاح للرازي، تحقيق شهاب الدين أبي عمر، ترتيب محمود خاطر، ص ٦١٦، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة، المطبعة الأميرية، ١٩٠٥م.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/ ٦.

(٣) التصوير الفني في الحديث النبوي، محمد لطفي الصباغ، ٤٩٥، المكتب الإسلامي ببيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

حسناته) باستخدام حرف الشرط (إن) الذي يدخل على فعل شرط مشكوك في حصوله، أو نسبة حصوله في الأفراد المتعددين أقل من غيرها، إشارة إلى واسع رحمة الله التي يضاعف بها ثواب الحسنات، حتى يقل في المسلمين من تفنى حسناته قبل أن يسدد ما عليه من مظلمات لأصحاب الحقوق"[(١)].

ومن بلاغته العجيبة استخدامه – صلى الله عليه وسلم – لاسم الإشارة (هذا) فالسامعين – وهم الصحابة – يتخيلون أصحاب الحقوق قد ظلموا من قبل هذا الظالم، وأن رب العزة والجلال لن يخذلهم بل سوف يقتص لهم منه، ويحكم بينهم بالعدل؛ لذا كانت براعة الرسول الكريم في اختيار الكلمات المعبرة عن المعنى. كما يقول أحد الباحثين "قد استخدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – اسم الإشارة "هذا" في (ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا.....) ولم يقل ذاك وذلك للدلالة على أن أصحاب المظلمات يكونون محيطين به يوم الحساب، مطالبين بحقوقهم، فمن البلاغة المطابقة لمقتضى الحال الإشارة إليهم بإشارة القريب"[(٢)].

وفي قوله – صلى الله عليه وسلم – (يأتي يوم القيامة) التعبير عن الفعل الماضي بالمضارع، كأن السامع يستحضر في ذهنه الصورة البشعة لتلك الأفعال، وتنفر نفسه منها، ولا يريدها لغيره، ومما يؤكد بشاعتها تأكيدها بـ (قد) والفعل الماضي (شتم) و (قذف) و (أكل) و (سفك) و (ضرب).

وقوله (المفلس من أمتي) بعد سؤاله (من المفلس) يشير إلى أن في الكلام حذفاً؛ لأن ما ذكره لا يصح أن يكون جواباً لسؤاله، بل هو جواب عن سؤال أعقب النفي، لما أجابوا به من أن المفلس من ليس له دينار ولا درهم، فهو يشير إلى أن أصل الكلام: لا. ليس هذا هو المفلس، فسئل – صلى الله عليه وسلم – فقيل له: فمن المفلس إذاً؟ فقال: المفلس من أمتي من... الخ. وهكذا يطالع القارئ الإيجاز الماثل في طي ما يدل عليه السياق من القول، وبسط ما يحتاج إلى البسط من مثل قوله: وقد شتم هذا، وقذف هذا. وكان يمكن أن يعبر عن ذلك بلفظ

---

(١) روائع من أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – "دراسات لغوية وفكرية وأدبية" تأليف/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٤١٢، دار القلم، دمشق، ط ٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤١١.

أقل، ومع قلته يحيط بالكثير من المعنى بأن يقال: وقد ارتكب الكثير من المعاصي. ولكن الإيجاز بمثل ذلك يعبر عن الغرض من حيث التنوع، ومن حيث الرغبة في التنفير من هذه الأنواع المتعددة من المعاصي. ويطالعه الإيجاز كذلك في بناء الفعل للمجهول في قوله – صلى الله عليه وسلم – (أخذ، وطرحت، وطرح في النار). وتقدير الكلام أن الملائكة الموكلة بالعذاب قد أخذت تجره بالقوة، وهو يمتنع ويصرخ، ولكن لم تقبل توسلاته ورجاءه لهم؛ لأنها مأمورة من الله – عز وجل -، ثم بعد ذلك طرحوه في النار.

وفي التعبير باختيار الأفعال أسرار جميلة تزيد من الإعجاب ببلاغة هذا الأمي الذي لا ينطق عن الهوى، كما في (سفك دم هذا) كناية عن كثرة القتل، وأن دماءً تراق على الأرض لأنفس معصومة، ومحرم عليه قتلها إلا بحقها، وفي (أكل مال هذا) كناية عن طمعه وحبه الجم للمال، وكأنه شيء يؤكل، ففيه أيضاً مجاز مرسل؛ فالمال لا يؤكل وإنما الذي يؤكل هو الطعام؛ ولكن لما كان المال سبباً في جلب الطعام جعله شيئاً يؤكل فأطلق السبب وأرد المسبب.

ويجد القارئ جمال القصر في قوله – صلى الله عليه وسلم – (المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة........) وجاء القصر بتعريف الطرفين؛ المسند إليه معرف بـ "أل" والمسند معرف بالموصول "من" وإنما أفاد (تعريف الطرفين) القصر من خلال السياق؛ فتقدير الكلام: ليس هذا المفلس بل هو من يأتي.... الخ. التي تفيد التأكيد لحقيقة المفلس في الدار الآخرة، من باب قصر الموصوف على الصفة، فمن يقدم على كل هذه الفعال القبيحة يخسر كل شيء، ولا يملك لنفسه مثقال الذرة ليوزن في ميزان حسناته.

وفي قوله – صلى الله عليه وسلم – (شتم، وقذف، وأكل، وسفك وضرب) كناية عن كثرة ما ارتكب من الجرائم وانطلاق نفسه على هواها ومطاوعته لها في كل ما سولت له من سوء، وأنه ليس دين يحجبه، أو عقل يرده.

وفي (قذف هذا) استعارة تبعية، وقد شبه – صلى الله عليه وسلم – الكلام السيئ بالشيء الذي يرمى ويقذف وما نجد في كلمة "قذف" من الشدة والغلظة ، ووجه الشبه شدة الألم في كل.

بهذا الوصف الحي أدى لنا الرسول فكرة صادقة، رسخت في أعماق الصحابة الكرام، وفي خلد من سمع الحديث النبوي الشريف، أو صادف سمعه كلماته القليلة.

وحين صدّر النبي – صلى الله عليه وسلم – كلامه بسؤال الصحابة أراد بذلك إثارة انتباههم، وهو سؤال لطلب المعرفة بالشيء؛ حتى يختبر علمهم وما قد يتراءى لهم فيما سألهم عنه، وبعد هذا السؤال، والوقوف على المعنى الذي استقر في أذهانهم للمفلس، بين لهم معنى آخر، هو أولى من المعنى الذي تعارفوا عليه، وأفرغ هذا المعنى في إطار تعبيري مؤكد (إن المفلس من أمتي....)، وكأنه بهذا البيان المؤكد بـ "إن" قد اتبع أسلوباً حكيماً فمن الحكمة أن يكون المفلس هو ما قرره النبي – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه الكرام لا ما كانوا يعتقدون في أنفسهم من الإفلاس الدنيوي، ويقول عنه بعض الباحثين: "من بديع البيان النبوي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – استخدم صورة من صور الحياة الدنيا الشائعة بين الناس ليطبقها على قضية من قضايا الجزاء الأخروي هي أحرى بأن تطبق عليها، فالناس يعرفون في أسواقهم التجارية من هو المفلس، ويعرفون كيف يحدث له الإفلاس عند اجتماع الدائنين عليه، وعجز أمواله عن الوفاء بحقوقهم" [1].

---

(١) روائع من أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم – "دراسات لغوية وفكرية وأدبية" ص ٤٠٥.

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان:

ما روي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرّ بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كنفتيه[1]، فمرّ بجدي أسكّ ميت، فتناوله، فأخذه بأذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: (أتحبون أنه لكم؟) قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم.)[2].

كان حوار النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الصحابة بطريقة محسوسة، تتوفر فيها دواعي الإثارة والرغبة الحقيقية في التعبير عن المغزى، بضرب المثل في شيء اعتاد عليه القوم، وتلك الطريقة من أنجع الأساليب في تقرير المعنى؛ لأنه إذا أبرز في معرض فعلي مشاهد، مدعم بوسيلة معينة، فإنها تكون مقنعة للمحاوَر، دون الاعتماد على سرد الكلام، الذي يخلق الرتابة والضجر إلى نفس المتلقي، وقد أصاب المعنى؛ فهذه الدنيا حقيرة لا تساوي عند الله شيئاً، كهذا الجدي الذي لا يساوي درهماً واحداً لدى بعض الصحابة، فكان الأولى بالمؤمن عدم الاغترار بها، والزهد فيها.

ويظهر في حوار الصحابة الاستغراب الشديد، وهذا واضح في قولهم: والله لو كان حياً كان عيباً فيه؛ لأنه أسك فكيف وهو ميت؟!، وهذه العبارة حكت حال الهوان الذي أظهروه تجاه ذلك الجدي، فعبرت عما في نفوسهم من رفض شديد؛ نظراً لاحتقارهم إياه.

والحديث يزدان بكثير من المعاني البلاغية الجميلة، التي تنقل المعنى المراد في حلل متنوعة من أساليب القول منها: استخدام النبي – صلى الله عليه وسلم – للفظ (جدي أسك)؛ وهذه نكرة موصوفة، ولكون هذا الجدي موصوفاً بـ (أسك) فهو عيب خلقي تتردد فيه نفوس الصحابة كما أخبروا بذلك؛ لذا كان التنكير؛ لبيان حقارته، وقلة شأنه لديهم، وهي مناسبة لما قصد إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – في بيان حقيقة الدنيا، وقد تضافر مع ذلك - لبيان تلك الحقارة- الإشارة إليه بـ (هذا) للقريب؛ زيادة في التحقير، وأيضاً وضع المضمر موضع الاسم الظاهر في (إنه)؛ لتحاشي الصحابة ذكر اسمه لازدرائهم له، وتنكير

---

(١) كنفه: أحاط به، النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، ٥٦٦/ ٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣٩٥/ ٦.

(شيء)، واستعمال اسم التفضيل (أهون) دون (هينة)؛ إمعاناً في الهوان حتى أنه قد وصل به إلى أقصى درجاته التي لا يمكن أن يكون هناك هوان غيره - وكل ذلك- مبالغة في التحقير والهوان والضعة.

والاستفهام في الحديث له دلالته البلاغية التي تكشف عن بعض المعاني الخفية من وراءه؛ فالاستفهام في قول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) قصد من ورائه تقرير حقيقة ما من خلال سماع تعليق الصحابة على سؤاله؛ فالنبي ليس جاهلاً بكرههم له، ويعلم أنهم سوف يرفضون مثل هذا العرض، لكن ترتب على هذا السؤال مطلب آخر، هو تقرير معنى الحقارة في نفوس الصحابة. أما في استفهام الصحابة (وما نصنع به؟)؛ فهو لاستنكارهم، فما الفائدة التي سوف يحصلون عليها بشرائهم له؟!، وما القيمة المرجوة من وراء شرائه؟! وماذا عساهم أن يفعلون به؟! كل ذلك مدعاة للاستنكار والتعجب. وفي تكرار النبي – صلى الله عليه وسلم – عرض الجدي عليهم مرة أخرى (أتحبون أنه لكم؟) ليقرهم برفضهم؛ حتى يكون ما يقوله بعد ذلك بمثابة الدليل على كل ما تقدم. والاستفهام في قولهم (والله لو كان حياً كان عيباً فيه؛ لأنه أسك فكيف وهو ميت؟!) استفهام للتعجب والاستنكار، فهم يبينون السبب في رفض هذا العرض؛ لكونه أسك، وجمع مع هذا العيب أنه ميت، فما الذي سيحفزهم إليه ويدفعهم في شرائه من الرسول الكريم؟!.. وما قصد النبي الكريم من وراء تلك الأسئلة إلا إقناعهم بطريقة مشاهدة تكون من واقع حياتهم المعتادة.

وألقى الصحابة الخبر مؤكداً في قولهم (والله لو كان حياً كان عيباً فيه...)؛ حتى ينزلوا النبي الكريم منزلة من يشك في رغبتهم في شراء ذلك الجدي فأكدوا له الخبر مع أنه لا يحتاج إلى ذلك؛ لكن لما بدا عليه، وما أظهره لهم من شك، وتكرار عرضه عليهم ـ وهو عالم بعيوبه ـ أكدوه له بالقسم والجملة الشرطية مع جوابها. أما في إلقاء النبي – صلى الله عليه وسلم – للخبر مؤكداً بالقسم، ولام الابتداء، واسمية الجملة، ما يوحي بعظمة ما يقوله لهم، وأنه مما لا يمكن أن يستنفذ فيه المؤمن كل وقته؛ لأنه لا يستحق تضييع عمره في شيء تافه لا قيمة من وراءه.

والإيجاز بالحذف يظهر في حذف المسند إليه - وهو اسم كان- في قولهم (لو كان حياً) وتقديره: لو كان الجدي حياً، لكن حذف للإيجاز فالمقام مقام رفض وإنكار.

ومن صور البيان النبوي الذي يؤكد المعنى في النفس ويقره في الوجدان التشبيه في قوله (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم.) وهو تشبيه توجه فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاستدلال من تجربة واقعة لدى كثير من الصحابة – رضي الله عنهم – فنقل المعنى العقلي إلى معنى محسوس، فشبه هوان الدنيا على الله تعالى بهوان ذلك الجدي على الصحابة، ومثل هذا التشبيه مما لا يمكن أن يستحيل على العاقل فهمه والتسليم به(١). وقد يكون كذلك من المذهب الكلامي [٢].

---

(١) التشبيه الضمني:" هو ما يلمح من المعنى لمحا، ويؤتى عادة للدلالة على أن الأمر الذي أسند إلى المشبه ممكن ومعقول." البيان في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين، ص ١٠٣، دار الفكر العربي القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) المذهب الكلامي:" احتياج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة." بديع القرآن لابن أبي الإصبع العدواني ص ٣٨، تحقيق حفني محمد شرف، نهضة مصر للنشر، د. ت، وينظر القول البديع في علم البديع للإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، تحقيق د/ عوض بن معيوض بن زويد الجميعي، ١٥٣، دار التراث بمكة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان:

ما روي عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : (لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.) فقال عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي – صلى الله عليه وسم – : (الآن يا عمر.)[1].

إن محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – وتعليق القلب بأسباب تلك المحبة دليل على الإيمان بالله تعالى؛ لأن محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – تفضي إلى إتباع ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، وعمر ـ رضي الله عنه ـ صرح بحبه للرسول الكريم، لكن استثنى من ذلك محبة نفسه، وهذا الحب طبعي[2] في ذات الإنسان، فقد جبل على حب الذات، ولا يمكن أن يتصور أن هناك إنساناً يكره نفسه إلا إذا اعتراه عارض من مرض أو نحوه، وعمر ـ رضي الله عنه ـ لم يعرف حكم تلك المحبة إلا بعد أن بين له النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم آثر محبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – على نفسه؛ حتى يتمكن الإيمان التام في قلبه، وشواهد هذه المحبة تظهر على أفعاله، وهذا شأن الصحابة لشدة حبهم النبي – صلى الله عليه وسلم – يضع بعضهم قدمه على أثر قدمه – صلى الله عليه وسلم – ويتسابق البعض الآخر لنيل شيء من ريقه أو عرقه الطاهر للتبرك به، بل ودفاعهم عنه باللسان والتضحية بالروح والمال من أجله – صلى الله عليه وسلم – خير شاهد ينطق به التاريخ.

فقد جرى حوار بسيط بين عمر – رضي الله عنه – والرسول الكريم بني على المصارحة والمكاشفة عما في الضمير من دواعي المحبة؛ ولذا كانت طبيعة الحوار في الحديث هادئة عذبة، تنساق في سكينة غامرة، وتعبر عن صدق المحبة وصفائها، فالحب الخالص لله لا يشوبه أي غرض دنيوي يزول بزوال ذلك الغرض بل هو حب أبدي من أجل الله تعالى.

والأساليب البلاغية في الحديث تتنوع، فتتنوع من أجلها طرق البيان، ولذا كان جديراً بالملاحظة العناية بشأن المفردة من حيث تركيبها في نظم الكلام وتآزرها مع جاراتها في توضيح المغزى المقصود ومن ذلك تنكير (شيء) وإضافة لفظ العموم (كل) إليه، والتنكير يطلق لكل سامع الخيال لتصور مدى عظم هذا الشيء، وجلالة قدره عند عمر ـ رضي الله عنه ـ أيا ما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري (٢٠٧٣/ ٤).

(٢) الطبع: "الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان". لسان العرب لابن منظور (٨٦/٩) حرف الطاء المهملة.

كان، وليس هناك أجمل من التعبير عنه باسم التفضيل (أحب) الذي يعطي انطباعاً عن أفضليته وتميزه في نفسه، وبندائه للبعيد مع قربه منه وكأن السامع يتخيلهما ينظران إلى بعضهما، ويتقابلان وجهاً لوجه؛ لتأكيد تلك المشاعر الصادقة، ثم تأكيد هذا الخبر بلام الابتداء في قوله (يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)، ثم استثناؤه من تلك المحبة محبة النفس؛ لئلا يدعيها نفاقاً، فدل بذلك على تكثيف الخبر، وكأن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان في حكم من يشك في ذلك مع أنه – صلى الله عليه وسلم – كان خالي الذهن منه؛ لكن عمر نزله هذه المنزلة حتى يعظم الأمر في نفس النبي الكريم؛ فيزداد به يقيناً ولا يحصل به أدنى شك.

أما تأكيد الخبر في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لعمر (والذي نفسي بيده حتى أكون...) بالقسم؛ لأنه نزله منزلة الشاك الذي يطلب توضيحاً للأمر حتى لا يكون فيه منافقاً؛ ولذا لما أحس النبي الكريم أن عمر يحرص على أن لا يكون كذلك أكد له الخبر، وفي التعبير بالمضارع (أكون) دليل على استمرار تلك المحبة في كل حين، فهي حاضرة في نفسه لا تزول في أي ظرف كان؛ ولذا سبق الفعل بـ (حتى) التي تدل على الزمان والغاية.

وعبر عمر عن حاله - في تلك اللحظة - بضمير الشأن في قوله (فإنه الآن والله...)؛ حتى يشد انتباه النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى ما يقول، فيترقب ما يقوله، وحين يعلم به يتأكد الأمر في نفسه فلا يزول؛ لأن النفس كلما ترقبت الشيء حين يعرض لها في صورة مبهمة تتطلع إليه في شغف، وتستجمع له كل حواسها، ثم بعد أن تدري به يتعمق في النفس، ويستقر في الوجدان [1]. أما الفاء في قوله (فإنه الآن...) فصيحة[2]، وهي تشير إلى شرط محذوف والتقدير: (أما إذ تحقق ذلك فإنه الآن).

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/٨٢ شرح وتعليق وتنقيح د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت، ط٣، د.ت.

(٢) الفاء الفصيحة: "فاء عاطفة تحذف بعدها فاء عاطفة أخرى مع معطوفها نحو قوله تعالى: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عينا) أي: فضرب، فانفجرت، الفاء في (فانفجرت) هي الفاء الفصيحة وسميت بذلك؛ لأنها تفصح وتكشف عن الكلام". والآية ٦٠ من سورة البقرة، موسوعة الحروف في اللغة العربية ص ٣١٤، د/ إميل بديع يعقوب، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ومن إيجاز الحذف ما يظهر جلياً في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لعمر: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) أي: لا يكون الإيمان حتى أكون أحب إليك من نفسك؛ فحذف المسند الفعلي؛ لدلالته فيما تقدم من كلام عمر، ومثله الحذف في (الآن يا عمر) أي: الآن كمل أو تم إيمانك يا عمر.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان:

ما روي عن حنظلة الأسيدي قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عافسنا(١) الأزواج والأولاد والضيعات(٢)، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (وما ذاك؟) قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.) ثلاث مرات(٣).

عندما يسمع الإنسان مثل تلك المواعظ التي فيها ترهيب وترغيب فلا شك أنه سيخلو بنفسه ويحاسبها دائماً، حتى تترك القبيح وتعمل الحسن، وهذا يصدر عن نفس تلوم صاحبها حتى لا يقع في المنكر ولا تزل قدمه في وحل المعاصي، ويدل على تيقظ الضمير ونقاء السريرة، وبطبيعة الحال كان الصحابة هم خير قرون الأمة المحمدية صدقاً وصلاحاً وإيماناً وما حصل لحنظلة وأبي بكر – رضي الله عنهما – دليل على تقواهما وورعهما عن كل ما يريبهما، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: "إن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا وأنصت بحضور قلبه فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها وكيف يصح أن يكون كما كان؟! وهذه حالة تعم الخلق إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر؛ فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير التفات فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه: نافق حنظلة، ومنهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحياناً ويدعوهم ما

---

(١) المعافسة:" المداعبة والممارسة، يقال: فلان يعافس الأمور أي يمارسها ويعالجها، والعفاس: العلاج، والمعافسة: المعالجة." لسان العرب لابن منظور ٢٠٦/ ١٠ – حرف العين.

(٢) الضيعات: المفرد منه ضيعة، وضيعة الرجل معاشه كالصنعة والتجارة والزراعة وغير ذلك. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٢٩٨ باب الضاد مع الياء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٢٢٢.

تقدم من المواعظ إلى العمل أحياناً فهم كالسنبلة تميلها الرياح ، وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه كماء دحرجته على صفوان".(١)

وفي الحديث حوار بسيط استمع فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى ما عرضه عليه حنظلة من أمر شغله وأحس نحوه بالوجل والاضطراب ، فالمشكلة بدأت عند حنظلة ببث شكواه إلى أبي بكر ، والغريب أن تكون تلك الأحاسيس نفس الأحاسيس التي يجدها أبو بكر – رضي الله عنهما – فيشعر أبو بكر حينها بعظم الأمر وخطورته كيف؟ وقد رأى حنظلة يلوم نفسه ويخشى أن يكون في عداد المنافقين الذين توعدهم الله تعالى بالدرك الأسفل من النار ، فهنا تتحد مشكلتهما معاً ويشتركان في نفس القضية فيزمعان على الذهاب فوراً إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأن لديه القول الفصل في كل الأمور عظيمها وحقيرها ، فيكشف النقاب عن كل ما التبس عليهما ، ثم تنفرج العقدة بعبارة الرسول – صلى الله عليه وسلم – الجامعة التي أراحتهما من تلك المخاوف.

فألفاظ الحوار كما يراها المتلقي واضحة لا يجد فيها أي غموض هذه من جهة ، ومن جهة أخرى كانت طبيعة الحوار هادئة بين الطرفين وإن كانت القضية التي دار حولها الحوار قد شغلت الصحابيين ، لكن كان عرضها بطريقة هادئة نوعاً ما.

والخصائص البلاغية في هذا الحديث تأخذ حظها من البروز والظهور ، وإن المتذوق لينعم النظر في ألفاظه وعباراته ، وتراكيب جمله ، وبديع نظمه وأول ما يشد انتباهه البراعة في انتقاء المفردة التي تعبر عن الحال الراهنة ، والدقة المتناهية في توظيفها في تراكيب الكلام ، حتى تنتظم مع جاراتها في سلاسة وإحكام ، كهذه الألفاظ: (يذكرنا ، انطلقت ، عافسنا ، تدومون ، صافحتكم) فقد عبر الصحابي بلفظ (تذكرنا) دون أن يقول (تخبرنا) وما شابهه ؛ لأن التذكير مناسب لمقام الموعظة ففيه بيان عن علم بالشيء لكن يأتي التذكير لتدارك الغفلة والنسيان ، فيكون مع العلم به زيادة تقرير ، وليس في معنى (الخبر) سوى العلم به. وفعل الانطلاق يوحي بالسرعة في المبادرة على فعل الذهاب دون تؤدة ؛ لذا كان مناسباً لمقام الخوف الذي أحسه حنظلة في نفسه ، فخوفه هو الذي دفعه إلى نحو من العجلة بالمسير إلى رسول الله – صلى الله

---

(١) صيد الخاطر لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ص ١٢،اعتنى به وعلق عليه خالد العواد،مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان ،ط١ ،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

عليه وسلم - ؛ولذا سبق الفعل بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب فانطلاقه كان عقب إخباره أبا بكر. ولفظ (عافسنا) مناسب كذلك لمقام الاشتغال بملهيات الأمور؛ لأن معناه من الملاعبة ولا تكون عادة إلا مع الأزواج والأولاد ونحوه. أما فعل المداومة (تدومون) دون غيره كـ (تظلون) للاستمرار دون انقطاع الفعل، والمداومة عليه في كل وقت وهذا محال أن يقدر عليه المرء؛ لأنه كما أخبر النبي الكريم: (لن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا) [1] ولو كان حال حنظلة على الدوام من الذكر والطاعة دون أن يأخذ نصيبه من الدنيا لصافحته الملائكة كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم - ؛ ولذا قال (صافحتكم...) من باب المبالغة في نفي أن يكون هذا حاله على الدوام.

وحين يلقى الخبر خالياً من أي أداة توكيد في قوله (نافق حنظلة) فهو مناسب للمقام؛ لأن أبا بكر كان فعلاً خالي الذهن من مضمون الخبر، فلما قال حنظلة ما قال تعجب من قوله؛ لأن حنظلة معروف لدى الصحابة بالخلق والدين فكيف يكون منافقاً؟! ويقر على نفسه بذلك؟! ولذا عدل عن ضمير المتكلم إلى الاسم الظاهر (نافق حنظلة) كأنه يتحدث عن شخص آخر يسمى بهذا الاسم استقباحاً منه دون أن يسند الفعل إلى ضمير المتكلم فيقول (نافقت) وهذا لبيان أمر يختلج في نفسه فلو لم يكن يقلقه حين حدث به نفسه اللوامة لما قال (نافق حنظلة)، وهذا ما جعل حنظلة يقدم المفعول (النار) على (الجنة) مراعاة لمقام الخشية من الله تعالى. كما لا يخفى ما في اسم الإشارة في قول أبي بكر له (إنا لنلقى مثل هذا) من تعظيم له وإقرار.

ويلاحظ كذلك التأكيد المكثف للخبر في قول أبي بكر: (فوالله إنا لنلقى مثل هذا) وكان التأكيد بـ (القسم، وإن الداخلة على ضمير المتكلم للجماعة، ولام الابتداء، والفعل المضارع الدال على الاستمرار "نلقى") أكد ما يقوله لاقتناعه بالفكرة فهو يؤكد لنفسه حدوث هذا الفعل منه؛ وفي ذلك من تعظيم الخبر أو تهويله ما فيه. أما في إلقاء الخبر مؤكداً في قول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم...) فقد كثف النبي الكريم الخبر بمجموعة من

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ١/ ٣٧.

المؤكدات تمثلت في (القسم "والذي نفسي بيده"، والجملة الشرطية وجوابها، ولام الابتداء) حتى يطمئن فؤاد الصحابي حنظلة فهو في موقف قد بلغ به الكرب مبلغه فكان لابد من جلائه بتلك المؤكدات.

ومن بلاغة هذا الحديث التعبير بالفعل المضارع الدال على فعل الجماعة (نكون) دون (أكون) فوضع الجمع موضع المفرد؛ لأنه وغيره يحصل له مثل هذا، فقصد به التعميم دون أن يختص الأمر بنفسه.

ومن تلك البلاغة التعريف في (الأزواج، الأولاد، الضيعات، الذكر، الملائكة)؛ فالتعريف في الأزواج للعهد العلمي فكل ذلك معروف ولهم عهد به، ومثله التعريف في (الأولاد والضيعات، الذكر) ،أما التعريف في (الملائكة) فهو للجنس وقصد به النبي الكريم جميع الملائكة دون ملك معين منهم. أما التنكير ففي لفظ (ساعة) غير محددة بفترة معينة فقد يراوح المرء بين ساعة الجد في العبادة، وبين ساعة الانشغال بمعايشه الدنيوية فربما قصد ساعة يسيرة ينشط فيها لأموره الخاصة، وساعة لأمور العبادة بشكل عام.

وكذلك يتجلى ذكر المضاف (رسول الله) في صورة الاسم الظاهر دون الضمير، وكان الأصل أن لا يذكره مرة أخرى لذكره في قوله (نكون عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكرنا...)؛ والعلة في ذلك هي التلذذ بذكر اسمه – صلى الله عليه وسلم - .

ويلاحظ إيجاز الحذف في قول حنظلة (يذكرنا بالنار والجنة) وتقدير المحذوف: يذكرنا بالنار وعذابها ، والجنة ونعيمها، وحذف لعلم السامع بما يكون من شأنها فلابد أن يكون التذكير بالنار من التحذير من عذابها، وكذلك الجنة لا تكون إلا بالترغيب في النعيم الدائم فيها، ولذا حذف كل هذا ليعمق المعنى في هذين اللفظين لدى السامع. ومثله ما كان في قول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (وما ذاك؟) في استخباره لحنظلة عن شأن النفاق وكأنه قيل: وما ذاك النفاق الذي تزعمه؟، وحذف لضيق المقام فحال حنظلة بصحبة أبي بكر لا يسمح بالخوض في تفصيلات كثيرة. والحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم – (ساعة وساعة) أي: ساعة تذكرون الله، وساعة تتفرغون لمعايشكم المباحة، وحذف كل هذا؛ للعلم به فحنظلة سبق وأن حدث النبي الكريم عنهما فكان في حذفه الإيجاز الذي يحمل في طياته كثيراً من المعاني. أما الإطناب في قول النبي (ساعة وساعة) بتكراره ثلاث مرات؛ فهو لزيادة التأكيد

على عدم تحمل الناس المداومة على وتيرة واحدة دون أن يتخللها نوع من المراوحة بين ساعة الجد والهزل.

ومن الفصل بين الجمل ما يتجلى في قول أبي بكر (سبحان الله ما تقول) فالجملة الأولى إنشائية قصد بها التعجب من شأن حنظلة، والثانية إنشائية كذلك جاءت في صورة الاستفهام، فهما متفقتان كونهما إنشائيتين ولكن ليس بينهما جامع فليس هناك رابطة بين التسبيح والاستخبار، فوجب الفصل بينهما لكمال الانقطاع.

وبإدامة النظر في الحديث يلمح المتذوق من بين كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – كناية فريدة تزيد المعنى توكيداً وبياناً في قوله (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم) فقوله (صافحتكم الملائكة) كناية عن قمة الهداية والصلاح والرضا التام بفعل الطاعة حتى كأنه أصبح يصافح الملائكة على الدوام في كل وقت عندما يكون على فراشه مستلقيا أو يسير في طريقه.

ومن جماليات البديع في هذا الحديث المقابلة بين مقام الموعظة، ومقام الانشغال بالحياة الدنيا في قول حنظلة (نكون عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات...) والمقابلة بين المعنيين تزيد من تقرير المعنى وتوضيحه لدى السامع(١).

ولا يخفى الطباق بين الجنة والنار؛ فهو من باب تداعي المعاني؛ لأن الضد أقرب حضوراً بالبال عند حضور ضده[٢].

---

(١) المقابلة: "هي إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة." "معجم البلاغة العربية د/ بدوي طبانة ص ٥٣٣، دار المنارة، جدة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) الطباق لغة: "من طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده، وفي الاصطلاح: هو الجمع بين الشيء وضده". ينظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري تحقيق د/ حفني محمد شرف، ص ١١١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة ١٣٨٣هـ.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى).

قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[1].

حوار قصير بين النبي الكريم وصحابته صدر بجملة خبرية، ثم استثنى من الخبر فئة معينة هي صلب القضية المتنازع عليها. حوار يبدو عليه الهدوء، والجزالة، والإيجاز، والبيان، لكن بطريقة مدهشة ولأول وهلة من إلقاء الخبر وهو ما يميز بعض حواراته – صلى الله عليه وسلم – مع الصحابة خاصة، ولكن لم آثر مثل هذا النوع من الحوار؟ ألا يمكن أن يقول مثلاً "من عصاني لا يدخل الجنة"؟ بلى هو يستطيع ذلك، لكن عدوله إلى هذه الطريقة أبلغ للمقام، ولحال المخاطبين؛ أبلغ لمقام الدعوة إلى الله تعالى وللمخاطبين في إيقاظ هممهم لامتثال الأمر، فيبادروا بالسؤال عما ينجيهم من عذاب الله.

وعند الوقوف على أسرار بلاغة هذا الحديث فإن ما يمكن أن يلفت النظر بشكل ملحوظ لفظ (أبى)؛ لما يحمله هذا اللفظ من معان الرفض الشديد، والمكابرة والإصرار على الخطأ وهو أفصح من غيره فالآبي يعلم صدق ما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – لكن ذلك يتعارض مع هواه ويحرمه من إتيان ملذاته فكان إقدامه على مخالفة أوامر نبيه مدعاة للرفض والإباء ،وفي اللفظ تكمن قوة الرفض فكان مناسباً لمقام المعاند المدعي حبه للنبي الكريم دون امتثاله لما جاء به في سنته الطاهرة.

والاستفهام في قول الصحابة (ومن يأبى يا رسول الله؟) استفهام خرج عن مقتضى الظاهر؛ لإرادة التعجب مما قاله النبي الكريم إذ كيف تكون جنة الرحمن التي هي غاية كل مجتهد ، ومطلب كل راغب فلا يشمر لها، ولا يقدم عليها؟! ثم جاء جوابه – صلى الله عليه وسلم – بعد أن هيأ للصحابة مجالاً ليتساءلوا ويستوضحوا ما خفي عنهم بقوله (من عصاني فقد أبى)، وهذا نسق بليغ، ومنهج رائع في الدعوة إلى الإيمان، والعمل الصالح الذي هو مضمون (أطاعني) بإلقاء الخبر مثيراً للتساؤل، بعيداً عن أسلوب الأمر والنهي، فإن النفس كثيراً ما تعزف عن الاستجابة لما تؤمر به وتنهى عنه فلما ألقى الخبر بهذه الصورة جعل النفوس

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٧٣/ ٤.

تتشوف إلى معرفة ذلك الذي يتصور إباؤه دخول الجنة، وبلور هذا التشوف ذلك الاستفهام التعجبي (ومن يأبى؟) فإنه ينم عن استبعاد حصول الإباء من إنسان ما إلا أن يكون مغطى على بصيرته، فلما قال (ومن عصاني فقد أبى) أدركوا أن الإباء بهذا المعنى ليس بمستبعد، فكثير من الناس يقعون في المعصية وذلك أمر مشاهد لا مشاحة فيه.

والحديث بهذه الصورة يتضمن أمراً، ونهياً، فكأنه – صلى الله عليه وسلم – يريد أن يقول: أطيعوني لتدخلوا الجنة، ولا تعصوني حتى لا تحجبوا عنها، ولكنه – صلى الله عليه وسلم – تحاشى الأمر والنهي المباشر، وسلك هذا المسلك الذي يجعل الطاعة أمراً محبباً، والمعصية أمراً مكروهاً، والغاية من وراء الطاعة، وترك المعصية دخول الجنة.

هذا، وقد ألقى الخبر (كل أمتي يدخلون الجنة...) خالياً من التأكيد؛ لخلو ذهن المخاطبين ـ رضي الله عنهم ـ من مضمون الخبر، وجاء المسند إليه بلفظ (كل) مضافاً إلى (أمتي)؛ لإفادة العموم، وللإشارة إلى الكثرة، فإنه من يطيعه بالإضافة إلى من يعصيه كثير، وفي الاستثناء إشارة إلى القلة، ولا غرو فمن عرف صدقه، وحرصه على أمته، ولم يكن مقدراً له الشقاء لا يسعه إلا أن يطيعه، ومن ثم كان أهل الجنة من أمته كما تواتر الخبر بذلك[1].

وفي الحديث إيجاز بالحذف؛ حيث حذف مفعول (أبى)؛ إذ التقدير: ومن عصاني فقد أبى دخول الجنة، ولا يخفى أن إباء دخول الجنة كناية عن دخول النار.

وفي الحديث كذلك مقابلة؛ حيث قابل – صلى الله عليه وسلم – الطاعة ودخول الجنة بالمعصية ودخول النار المكنى عنه بالإباء وبهذه المقابلة يستقر المعنى في نفوس المتلقين.

---

(١) لقوله – صلى الله عليه وسلم – للصحابة: (أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة...) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٢/ ١٠٣٢.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – حول توثيق عرى الإيمان ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي – صلى الله عليه وسلم – (أترون هذه طارحة ولدها في النار). قلنا لا وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1].

أجل، إنه مشهد مؤثر...

مشهد امرأة من السبي يفيض ثدياها باللبن ويفيض صدرها بالرحمة كلما وجدت صبياً في السبي يبكي ضمته إلى صدرها وأرضعته.

ترى! لماذا تفعل هذا؟ ألأنها فقدت وليدها فهي متلهفة عليه، ودفعتها لهفتها إلى أن ترى في كل صبي وليدها؟ أم لأن الصبي الباكي فقد أمه فهي تحنو عليه؛ لشعورها بلهفة أمه عليه، وشدة حاجته إليها؟؟

تأثر النبي – الإنسان – بهذا المشهد المثير للعواطف الإنسانية وأراد من خلاله أن يصور رحمة الله التي وسعت كل شيء، فكان هذا الحوار الهادئ المثير.

سؤال يطرحه على أصحابه وهو يعلم مسبقاً جوابه: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ وكان الجواب المعلوم سلفاً (لا وهي تقدر على أن لا تطرحه❖) هنا. وصل التنبيه إلى أقصى مداه، فالجواب لم يقتصر على مجرد النفي بأن يقول الأصحاب (لا) بل أضاف قيداً مفاده أنها لا تقدم على طرحه في النار مختارة وفي هذه اللحظة سنحت الفرصة له ليمضي إلى الهدف الذي أراده فأخبرهم على سبيل التوكيد بأن رحمة الله بعباده أعظم من رحمة هذه المرأة بولدها.

إن أول ما يمكن ملاحظته في هذا الحوار السهولة في الألفاظ مع ما يتضمنه من خصائص بلاغية تمثلت فيما يلي:

استفهام النبي – صلى الله عليه وسلم – عن هذا الموقف المؤثر الذي يبعث في النفس المشاعر الإنسانية الحانية بقوله (أترون هذه طارحة ولدها في النار) فهو لا يقصد الاستفهام على

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٤/ ١٨٩٨ ١٨٩٩.

حقيقته، بل أراد إثارة الوعي عندهم ليشاركوه التأثر بهذا المشهد الذي تلين له القلوب القاسية، وآية ذلك أنه يعلم سلفاً أنهم سيجيبونه بالنفي، وفي لفظ الطرح – إن حدث – إيماء إلى قسوة القلب خارجة عن حد التصور لاسيما إذا أخذ في الحسبان الشيء المطروح والموضع المطروح فيه، فالمطروح وليدها والمطروح فيه النار.

وأوثر التعبير بالفعل (ترون) على الفعل المؤدي لحقيقة المعنى المراد وهو (تظنون) ؛ لما له من إشارة إلى قوة الظن حتى إنه ليقرب من حيث اليقين؛ لما في مادته (ر. أ. ى) من دلالة على المشاهد بالبصر، واستخدم اسم الإشارة (هذه) ؛ للإيماء إلى نبلها وعظمة الجانب الإنساني فيها تنزيلاً المكانة منزلة قرب المكان.

وكان الجواب المعلوم سلفاً (لا) ، ولكنه قيد بجملة الحال الدالة على القدرة على عدم الطرح أي: أنها لا يمكن أن تطرحه في النار حال كونها مختارة ، وفي هذا الجواب إيماء إلى أنها إذا أكرهت أو ذهب عقلها أقدمت على طرحه في النار ، ولكن ذلك ليس مناط السؤال.

وإضافة لفظ (العباد) إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة (عباده) للتشريف، ولبيان السبب في عظم رحمته إياهم، فهم خلقه وصنعته، وعباده، ومن ثم فهو جدير بأن يفيض عليهم رحمته ، والمتأمل في قوله – صلى الله عليه وسلم – : (لله أرحم بعباده من هذه بولدها) يدرك أن فيه تشبيهاً ضمنياً؛ حيث شبه رحمة الله بعباده برحمة الأم بوليدها، ومثل هذا التشبيه يشبه فيه الأقوى بالأضعف لتقريب المشبه إلى الأذهان، فرحمة الله تعالى أعظم من أن يحاط بها، ولتقريبها إلى العقول شبهت بأمر مقرر يدرك بأثره الذي يظهر في معاملة الأم لولدها، وهذا التشبيه جار مجرى التشبيه في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ ﴾[1].

---

(١) سورة النور، آية ٣٥.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . وددت أنا قد رأينا إخواننا . قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. فقالوا :كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال : أرأيت لو أن رجلاً له خيل غير محجلة[(١)] بين ظهري خيل دهم بهم [(٢)] ألا يعرف خيله؟ قالوا : بلى يا رسول الله. قال : فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم[(٣)] على الحوض ألا ليذدان رجال عن حوضي كما يزاد البعير الضال أناديهم ألا هلم[(٤)] فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك . فأقول : سحقاً سحقاً[(٥)]"[(٦)].

أي فضل يناله المؤمنون، وأي امتنان يُمتن به عليهم، إن كان نبي الرحمة – صلوات الله وسلامه عليه – يود لقياهم في الجنة؟!

---

(١) الغرة: "بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم. والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أو في ثلاث منها أو في رجليه قل أو كثر" ترتيب مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، تحقيق شهاب الدين أبي عمر، ترتيب محمود خاطر، ص١٦٤باب الحاء للتحجيل ، ص ٥٧٠ باب الغين للغرة ، دار الفكر، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة، د.ت .

(٢) الدهم:" السواد ومنه أدهام أي سواد، وقيل: "روضة مدهامة أي: شديدة الخضرة المتناهية فيها كأنها سواد لكثرة خضرتها. أما بهم: جمع بهيم وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه. "النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥٩٣- ١/١٩٦، باب الدال مع الهاء.

(٣) قوله: فرطكم أي: متقدمكم إليه، وفرط: إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء، ويهيئ لهم الدلاء والأرشية" المصدر السابق ٣٦٠/ ٢ باب الفاء مع الراء.

(٤) قال ابن منظور: "هَلمّ بمعنى أقبل وهذه الكلمة مركبة من (ها) التي للتنبيه و(لُمَّ) ولكنها قد استعملت استعمال الكلمة المفردة البسيطة. وقال الزجاج: زعم سيبويه أن هَلمّ ها ضمت إليها لُمّ وجعلتا كالكلمة الواحدة، وأكثر اللغات أن يقال: هَلمَّ للواحد والاثنين والجمع والذكر والأنثى، وبذلك نزل القرآن (هَلمَّ إلينا) و (هَلمَّ شهداءكم) وقال سيبويه: هَلمَّ في لغة أهل الحجاز يكون للواحد أو الاثنين والجمع بلفظ واحد، وأهل نجد يصرفونها، وأما في لغة بني تميم وأهل نجد فإنهم يجرونه مجرى قولك: رد، يقولون للواحد هَلمَّ كقولك رد ، و للاثنين هلما كقولك ردا، وللجمع هلموا كقولك ردوا وللأنثى هلمي كقولك ردي، وللثنتين كالاثنين ولجماعة النساء هلممن كقولك اردن، والأول أفصح "لسان العرب لابن منظور حرف الهاء ١٥/٨٧ .

(٥) السحق:" البعد، وسحقه الله و أسحقه أي أبعده." لسان العرب حرف السين المهملة ٧/١٣٨.

(٦) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٤٨٥- ١/٤٨٦.

ومن هم الذين لم يأتوا بعد؟ إنهم بلا شك قوم من أمته، قد كرمهم الله بفضله ومنته بشامة تميزهم، وترفع قدرهم بين الخلائق في يوم مشهود، مما يزيد في النفس الثقة بالخير الآتي والرجاء بأن نكون منهم.

حوار يأخذ طريقه في إثارة الوجدان فتظل للنفوس به شغفة، ففي يوم القيامة يهيئ النبي الكريم بيديه الشريفتين الدلاء لهم حتى يرتووا من حوض الكوثر، فهو في ترقب دائم، ينتظرهم ويتحرى قدومهم، ولكن يرى عجباً، لقد عرفهم وناداهم (هلم) ولكنهم يحيدون الطريق عن الوصول إليه، فيمضي يسأل نفسه، ويغتم بهم، ولكن قائلاً يجيبه عما اكتنفه من هم وحيرة (قد بدلوا بعدك) فما يكون منه – صلى الله عليه وسلم – إلا أن يحزن عليهم حزناً شديداً ويأسى لحالهم بالرغم من أنه لم يقصر في دعوة الناس للخير، بل لقد ترك لمن وراءه المنهج الواضح والدليل الساطع (الكتاب والسنة) فينشأ قائلاً بعد ما سمع ما سمع (سحقاً سحقاً) وأي سحق يكون بعد كل ما رآه، ولكن الأمل يلوح له بكلتا يديه فلعل شفاعته تدركهم فيرحمهم ربهم برحمته.

وهكذا، كان الحوار هادئاً واضح المضمون، سهل المرتقى، لا يعتري طريق القارئ أي لبس، ولا يعرقل فهمه أي لفظ، بل تتأتى المعاني إلى نفسه حين يطرق بابها، فتصادف شعوره، وتسكن شغاف قلبه.

ولكن يظل يتلمس جواهر كلامه لإدراك بعضها وإن لم يسعه إدراك جميعها، ومما يظهر على سبيل المثال ما يلي:

التعبير بلفظ (وددت) دون (تمنيت) في معرض الأخوة دون الصحبة، وما فيه من دقة المعنى وخفاء المغزى، وإن بدا اللفظان متقاربين لكن عند النظر في المعنى اللغوي لكل منهما يتبين له اختلافهما فالود كما ذكر الراغب: "محبة الشيء وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين على أن التمني يتضمن معنى الود ؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما توده، والمودة تقتضي المحبة المجردة"[1] فالتمني يستعمل للشيء المحبوب ولكنه يستبعد حصوله، وليس الاجتماع يوم العرض الذي هو سبب الرؤية شيئاً مستبعداً ؛ ولذا كان لفظ المودة أقرب إلى

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٥١٦، كتاب الواو.

المعنى المقصود فكما أنه – صلى الله عليه وسلم – يتمنى ذلك فهو أيضاً يحبهم لصدق إيمانهم به.

وجيء في كلامه بـ (قد) التي تفيد تحقق الفعل مع التعبير بالفعل الماضي (رأينا) دون (نرى) بالمضارع ليفيد مودة تحقيق الرؤية كأنه – لشدة حبه إياهم – يتمنى أن يطوى الزمن ويراهم في الدنيا قبل الآخرة، ولكنه لعلمه أن ذلك لن يكون قال لأصحابه (وأنا فرطهم على الحوض).

والتعبير بالمضارع (ليذادن) ليصور تألمه – صلى الله عليه وسلم – لما آل إليه أولئك الرجال من التبديل لما عهدهم عليه ، وما يترتب على ذلك من الذود عن حوضه فعبر بالمضارع ؛ ليصور لأصحابه موقفه وهو يناديهم متلهفاً، ويجسد هذا التلهف فعل الأمر المسبوق بأداة الاستفتاح مؤكداً له بلام الابتداء ونون التوكيد الثقيلة مع أن الخبر لم يسبق لأصحابه علم به، تنزيلاً لهم منزلة المنكر ليتلقى الخبر بالقبول لأول وهلة، وإنما نزلهم منزلة المنكر لغرابة الخبر، فمن غير المتوقع أن يبدل بعض أصحابه بعد معايشتهم للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهم قد عرفوا صدقه، وعرفوا جزاء من أطاعه أو عصاه، ولكن لما كان ذلك محققاً أكد الخبر هذا التأكيد المكثف ؛ لينفي غرابته ويتلقى بالقبول.

وقد آزر هذا التأكيد المكثف التمهيد بأداة الاستفتاح (ألا) وهي بطبيعتها تهيئ الأذهان لما هو غريب من الأخبار لعظمته، أو لبعده عن التصور.

وأكد النبي الكريم الخبر للصحابة بأن في قوله (فإنهم يأتون غرا محجلين...) ؛ لأنهم في حكم الطالب إلى ما يزيل عن نفسه أي شك، فيسكن نفوسهم اليقين بلقياهم في الجنة.

كما يلحظ التعبير بالجملة الاسمية (السلام عليكم) للدعاء لهم بالسلامة على الدوام، ومثله القول في (دار قوم مؤمنين) مع ما فيها من الحذف وتقديره : حللتم دار قوم مؤمنين، كما أن المسند إليه في قوله (أنتم أصحابي) جاء ضميراً، لبيان أن الصحبة جمعت لهم كل الفضل على من سواهم ممن يأتون من بعده ؛ فهم رأوه وأخذوا عنه وصاحبوه طويلاً كمصاحبة الظل وبذلك كانوا أفضل الناس فخير القرون قرنه ثم الذين يلونهم، ولذا قال الطيبي : "قوله – صلى الله عليه وسلم – (أنتم أصحابي) ليس نفياً لإخوتهم، ولكن ذكره مزية لهم بالصحبة

علـى الأخـوة، فهـم إخـوة وصـحابة، واللاحقـون إخـوة فحسـب لقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وتنكير (رجلا، خيل، غرا، رجال) فالتنكير في رجل لبيان أنه فرد غير معين من أفراد الرجال يمكن تصور حاله، ومثله التنكير في خيل والتنكير في رجال للتكثير ووصف الإخوان بأنهم غراً لبيان خلوص هذا البياض من أي شائبة تشوبه.

أما التعريف في (أصحابي، إخواننا) بالإضافة فتعريف (أصحابي) للتشريف بنسبة صحبتهم إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإسناد الرؤية إلى ضمير المتكلمين (إننا) وإضافة الإخوان إليه في (إخواننا) فيه مزيد تشريف، ذلك أنه لو قال: إخواني، لكان التشريف بانتسابهم إليه وحده أما وأنه قال "إنا – إخواننا" فإنه يريد أنهم إخوانه وإخوان أصحابه وفي ذلك من تكريم أصحابه ما فيه.

أما تعريف (البعير الضال) بـ (ال) ووصفه بالضلال للعهد العلمي؛ فهذا الوصف يشير إلى شدة تدافع المبدلين إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وشدة ذودهم كما أن شأن البعير الضال كذلك، فكل من يسمع النبي الكريم يدرك ما يكون عليه حال البعير الضال، ومن ثم يتصور حال المبدلين حين يذادون فطوى ذكره؛ ليتراءى من خلال السياق، مسارعة إلى ذكر ما تتعلق به النفس لأنه الغاية المبتغاة.

ويطالع القارئ إيجاز الحذف في قوله (غراً محجلين من الوضوء) أي من أثر الوضوء والحذف في قوله (سحقاً) أي سحقهم الله سحقاً والحذف في قوله (يأتون غراً) أي يوم القيامة والحذف في قول الصحابة (بلى يا رسول الله) أي بلى يعرف خيله من بين تلك الخيول الدهم، والحذف في جميعها لعلم الصحابة به وخرج الاستفهام في قول الصحابة (أولسنا إخوانك؟!) عن ظاهر معناه الحقيقي إلى إبداء العجب والاستغراب مما قاله صلى الله عليه وسلم. ولكن الاستفهام في قولهم (كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك؟) فهو على الحقيقة وأما الاستفهام

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، إعداد مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – الرياض، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. ٣/٧٥٤. والآية ١٠ من سورة الحجرات.

في قوله (أرأيت) لو أن رجلاً له خيل.... (ألا يعرف خيله) فقد خرج عن مقتضى الظاهر إلى تقرير الصحابة بذلك مما جعلهم يجيبونه بالإثبات (بلى يا رسول الله).

كما أن لحرف العطف (الفاء) في قوله (أناديهم ألا هلم فيقال إنهم قد بدلوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً) دور في توضيح المشهد فكل أحداث هذا الموقف تأتي سريعة في ذلك اليوم ويعقب بعضها بعضاً.

ويلحظ الوصل في قوله (أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد) فالجملتان مختلفتان معنى وهما خبريتان لفظاً ومعنى وبين المسند إليه فيهما تناسب فالصاحب والأخ بينهما من التقارب ما لا يخفى، وبين المسندين فيهما شبه التضاد، لأن الصحبة تفيد المعية، والإتيان بعده يفيد نفيها، فالتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع حسّن الوصل بينهما.

ويلحظ الفصل في قوله (السلام عليكم دار قوم مؤمنين)؛ فقد فصلت الثانية (دار قوم مؤمنين) عن الأولى (السلام عليكم) لاختلافها خبرًا وإنشاء؛ ذلك أن الأولى خبرية لفظاً، إنشائية معنى، لأنها دعائية، حيث دعا لهم بالسلامة - أعني - النجاة من العذاب في الآخرة، والثانية خبرية لفظاً ومعنى، فهي تعني أنهم حضروا دار قوم مؤمنين، فبينهما كمال الانقطاع، أما قوله (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) فيحتمل أن يكون موصولة بالجملة الخبرية قبلها، كأنه – صلى الله عليه وسلم – علم أنه هو وأصحابه لاحقون بهم على الإيمان، فأخبر به، فيكون بينهما التوسط بين الكمالين. ويحتمل أن يكون دعاء، فتكون الواو للاستئناف، كأنه– صلى الله عليه وسلم – بعد أن أخبر أهل المقبرة أنهم حضروا دار قوم مؤمنين دعا الله أن يُلحقه وأصحابه الذين معه بهم على الإيمان فيكون بينهما كمال الانقطاع؛ فالأولى – كما سبق– خبرية لفظاً ومعنى، والثانية خبرية لفظاً إنشائية معنى، والاحتمال الأول أقوى؛ لأن الدعاء – وإن كان ممكناً – ليس قوي الظهور كالإخبار، وقوله (وددت أنا قد رأينا) جملة مستأنفة لأنها انتقال من خطاب أهل المقبرة إلى تمني أن يكون قد رأى هو وأصحابه إخوانه، وذلك معنى مختلف عما قبله منفصل عنه ، ومن ثم لم تكن هناك جهة جامعة تقتضي الربط بالواو، بل ولا الربط العضوي في أي صورة من صوره.

ومن البيان النبوي التشبيه في قوله (ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال) شبه ذود هؤلاء الذين يأتون من بعده وما كانوا عليه من تغيير لما جاء به ، وضلالهم بعد تبين

الحق لهم بذلك البعير الضال الذي يطلب الهداية فيذاد عنه ، وقد جيء بأداة التشبيه ؛ فهو تشبيه مرسل [1]، وكما هو واضح فالتشبيه بيّن المعنى في نفوس السامعين لاسيما أنه من الواقع المشاهد.

ومن خفي الاستعارات ما جاء في قوله (فإنهم يأتون غرًا محجلين) فاستعار الغرة والتحجيل مع من يأتي بعده فكأنه شبههم لشدة حبهم لإسباغ الوضوء على المكاره بالفرس التي من صفاتها التحجيل ، وبياض الغرة ، فتنوسي التشبيه ، وحذف المشبه به ، وجيء بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية ، يقول ابن منظور: "استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه" [2] وعلى قول ابن منظور تكون الاستعارة تصريحية أصلية وليست مكنية ، وربما كان من المجاز المرسل الذي من علاقاته المسببية فالبياض مسبب عن الإسباغ في الوضوء ، فأطلق المسبب ، وأراد السبب ليلفت الناظرين إلى أهمية الإسباغ في الوضوء وبذلك يتقرر المعنى في نفوسهم.

ومن التكرار المعنوي ما كان بين (دهم ، بهم) فكلا اللفظين يعنيان السواد وهذا للتأكيد على شمول هذا السواد ، وكثرته حتى ليتبين من بينه ذلك البياض الساطع ، وكذلك الذين يأتون من بعد النبي ممن يسبغ الوضوء فهم يعرفون بهذا البياض الذي يتوسط ذلك السواد العظيم من الناس جميعاً ، وفي التضاد بين (غير محجلة بهم دهم) ما يؤكد حثهم على الإسباغ كما يقول : (فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله) [3] فيزداد المعنى في نفوسهم وضوحاً وجلاء.

---

(١) ينظر: علم البيان د/ عبد العزيز عتيق، ص ٦٠، دار الأفق العربية القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م

(٢) لسان العرب لابن منظور حرف الحاء، ٤٥/ ٤ حرف الحاء.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ١/ ٤٨٣.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول توثيق عرى الإيمان ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : اسقه عسلاً، فسقاه، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً. فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً. فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ"[1].

هذا الحديث لا يحتاج إلى إيضاح فقد وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – الرجل أن يسقي أخاه عسلاً ففعل، ولكن الإسهال لم يتوقف وتكرر التوجيه ثلاث مرات فلما كانت المرة الرابعة التي تحمل معنى الشك في نفع التوجيه، كان جوابه- صلى الله عليه وسلم- يشير إلى تأكيد النفع بقوله: صدق الله فيما أخبر به ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾[2] وما حدث لأخيك أنه لم يأخذ المقدار المناسب، فسقاه الرجل فشفي.

وصور الحوار حيرة هذا الرجل، لقد فكر ملياً في حل يجدي له نفعاً فلم ير بداً من اللجوء إلى نبيه الكريم فعرض له مشكلة أخيه (إن أخي استطلق بطنه) فماذا يفعل؟ وكيف السبيل للبرء مما أصابه؟، فيحثه الرسول الكريم بالعسل ؛ فالشفاء يكمن فيه بعد الله ، ويبادر على الفور يطبق ما سمع لكن العسل يزيد من استطلاق بطن أخيه فيأخذه العجب ما الذي يحدث؟! فيهرع إلى النبي يخبره بما حصل ، لقد ظن أن هذا لا ينفعه ـ جهلاً منه مع كثرة محاولاته ـ لكن النبي يؤكد حقيقة العسل إذ فيه شفاء كما أخبر تعالى فيقول : صدق الله وكذب بطن أخيك. وهكذا بث الحوار حياة في رقي الأحداث ، والوصول بها إلى نهاية تقرر حقيقة في نفس المتلقي.

وحين يقف المتذوق على أسرار بلاغته- صلى الله عليه وسلم- سيجد سهولة الألفاظ إذ لا يتعثر في فهم مدلولاتها بل هي تطالعه بها دون أدنى تأمل كما أنه سيجد أسراراً بلاغية قد تستوقفه وذلك فيما يلي:

تأكيد الخبر بإن في قوله الرجل (إن أخي استطلق بطنه) مع أنه- صلى الله عليه وسلم- كان خالي الذهن من مضمونه ولكن الرجل أكده لبيان حرصه على شفاء أخيه مما

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٣٦٩.

(٢) سورة النحل، الآية (٦٩).

أصابه ولذا نزله منزلة من يشك في ذلك الأمر العارض. مع ما تعطيه صيغة استفعل في (استطلق) من بيان تلك الحال.

أما تأكيد الخبر بإن في قوله (إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقاً) والنبي الكريم يعلم بأمر أخيه وليس هو في حاجة إلى تأكيده فليبين حيرته في شأن أخيه مع إفادة القصر لهذا التأكيد ؛ فهو قصر الصفة (الاستطلاق) على الموصوف (بطن الأخ) وهو من قصر القلب ؛ لأن المخاطب قد يتوقع الشفاء.

وفي الحديث إيجاز بالحذف فالسياق يدل على أن هناك ألفاظاً طويت مثل قوله (إن أخي استطلق بطنه) على أنه أراد : ما تنصحني به أو ماذا أفعل؟ فقال : اسقه عسلاً ، وكذلك الحذف في قوله (سقيته) أي : سقيته عسلاً ، الحذف في قوله : (صدق الله وكذب بطن أخيك) وتقدير المحذوف : صدق الله حين أخبر في كتابه أنه شفاء للناس ، وكذب بطن أخيك ؛ لأن ما حصل له بطريق العرض لا الحقيقة ، وكل هذا الحذف للعلم به ، فذكاء المتحاورين كفيل باستنطاق المراد ، وفي ذكر المحذوف إملال يترفعان عنه.

ولفظ الأمر هنا (اسقه عسلاً) ينم عن التوجيه والإرشاد إلى الدواء الذي يشفي به ، وهو العسل وليس المراد به الأمر على وجه الاستعلاء الذي من شأنه الدلالة على الإلزام.

ومن بيان الحديث الاستعارة في قوله- صلى الله عليه وسلم- (كذب بطن أخيك) فهي استعارة مكنية حيث شبه البطن بإنسان يكذب في الحديث ، فتنوسي التشبيه ، واستعير الإنسان للبطن ، ثم حذف المستعار – وهو الإنسان – ورمز إليه بشيء من لوازمه – وهو الكذب – و هذا حسن أدب منه ـصلى الله عليه وسلم إذ هو لا يتهم الرجل بالكذب بل يتهم البطن ، وفي هذه العبارة طباق بين الصدق والكذب ، وفي الاستعارة والطباق بيان لخطأ الرجل وتوهمه ، والجزم بحقيقة ما جاء به النبي- صلى الله عليه وسلم- دون تأويل أو تشكيك.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم مع أصحابه- حول توثيق عرى الإيمان ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خطبنا النبي- صلى الله عليه وسلم- يوم النحر قال (أتدرون أي يوم هذا). قلنا: الله ورسوله أعلم .فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: (أليس يوم النحر). قلنا بلى، قال: (أي شهر هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم .فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال (أليس ذو الحجة؟) قلنا بلى، قال: (أي بلد هذا؟) قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال: (أليست بالبلدة الحرام؟) قلنا: بلى، قال: (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت؟) قالوا: نعم، قال: (اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض"[1]

توجه النبي- صلى الله عليه وسلم- ببعض الأسئلة إلى الصحابة مع علمه بحقيقتها وتلك طريقة انتهجها في بعض حواراته؛ لما لها من تأثير بالغ في نفوسهم، فحين يخبرونه بما ألفوه واعتادوا ويسألهم بقوله (أليس يوم النحر، أليس ذو الحجة، أليست بالبلدة الحرام) ويجيبونه بالإثبات يتقرر في نفوسهم ما قصده من هذه الطريقة.

إنه حوار هادف تبين من خلاله عناية الدين الإسلامي بحقوق الإنسان، وحفظ كرامته وحرمته، سواء في ماله، أو عرضه، أو نفسه، وسار في هدوء وانسياب إلى أن ارتقى بالسامعين مرتقى صعباً، يلمح منه شدة التحذير من المساس بحق المسلم في قوله- صلى الله عليه وسلم- (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا...)؛ فالإسلام كفل حقوق الإنسان ، ومن بينها حفظ الأموال والدماء؛ ليعيش المجتمع ناعماً آمناً لا تؤرقه المخاوف على الأموال والأنفس.

وناسبت هذه الخطبة مقام الدعوة إلى الله فراعى النبي- صلى الله عليه وسلم- قدسية المكان والزمان وجعلها سبباً لتعظيمها في نفوس السامعين وهذا له أثر بالغ في تأكيد ما يأمرهم به وينهاهم عنه.

ولا يخفى على القارئ إدراك معاني الحديث فالألفاظ التي حملتها سهلة واضحة، والتراكيب قوية جزلة، تأخذ بالألباب والأفئدة.

---

(١) صحيح البخاري، ١/٥١٣.

وفي الحديث خصائص بلاغية تتضح أمام المتذوق فيما يلي:

التنكير في بعض المفردات مثل (يوم، شهر، بلد، حرام، مبلغ، سامع) فتنكير الثلاث الأولى للتعظيم من شأنها جميعاً فلليوم حرمته، وللشهر حرمته، وللبلد حرمتها كذلك، أما تنكير (حرام) فهو لتصور تلك الحرمة العظيمة في نفوس الصحابة- رضي الله عنهم- ، وتنكير (مبلغ، سامع) للتكثير فكثيراً ما يكون المُبلَّغ الذي نقل إليه الحديث أكثر وعياً به من الذي سمعه، وإذا كانت "رُب" في أصل الوضع اللغوي تفيد التقليل، فإنها قد تخرج عن هذا الأصل فتفيد التكثير كأن يقال: رب رجل مؤمن غني يتصدق، وهي هنا للتكثير كما يلمح إلى ذلك السياق. أما التعريف في بعض الألفاظ مثل (دمائكم، أموالكم، شهركم، بلدكم، ربكم، الشاهد، الغائب)؛ فالتعريف بـ (أل) في كل من (الشاهد، الغائب) للاستغراق أي: كل شاهد يبلغ كل غائب، والتعريف بالإضافة في البقية فهو لتعظيمها، وشرف مكانتها في النفوس.

وقد ألقي الخبر مؤكدًا بـ (إن) في قوله (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بدلكم هذا إلى يوم تلقون ربكم) مع خلو ذهن المخاطبين، بتنزيلهم منزلة السائل المتردد؛ للمبالغة في حرمة الدماء والأموال، وقيدها بزمن محدد، هو يوم لقاء المولى- عز وجل- ؛ لاستدامة الحرمة، وعدم انقطاعها مما لا يدع للنفس أي فرصة للإقدام على ما يوجب العقوبة في الدنيا والآخرة، ويلحظ فيه إيجاز القصر؛ فهذه ألفاظ قليلة تحمل في نفسها معاني غزيرة، وتلك بلاغته- صلى الله عليه وسلم- التي حوت جوامع الكلم.

وخرج النهي عن حقيقته في قوله (فلا ترجعوا بعدي كفاراً) والمراد به التوجيه والإرشاد، ومثله الأمر في قوله (اللهم فاشهد)؛ فقد خرج إلى معنى الدعاء، وطلب الشهادة منه- تعالى- على وجه الحجة القاطعة لكل ما يفضي إلى الجحود والنكران يقول أحد الباحثين: "طلب الشهادة من الله بعثاً للرهبة في النفوس التي يطوف بها الإثم، وتمكيناً للطمأنينة في النفوس المؤمنة المفعمة بزاد التقوى، وبرد اليقين"[1].

(١) الحديث النبوي رؤية فنية جمالية، د/صابر عبد الدائم، ص١١١، دار الوفاء، إسكندرية،د.ت.

و خرج الاستفهام عن مقتضى الظاهر في قوله (ألا هل بلغت؟) إلى معنى التقرير مع تضمن (ألا) التنبيه إلى ما بعدها وهو الاستفهام حتى يتلقوه وهم في غاية اليقظة ؛ ليقروا بما قررهم به وهو التبليغ عن وعي وبصيرة، وكما يقول العقاد: " هذه هي السمة اللازمة التي رددها النبي في أطول خطبة الأخيرة وهي لازمة عظيمة في مقامها ؛ لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات فما حياة النبي- صلى الله عليه وسلم- كلها بعملها، وقولها، وحركتها، وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ. "[1] وكذلك الاستفهام في قوله (أي يوم هذا؟ أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ فهو يسألهم مع علمه بها ليؤكد على عظم حرمتها في نفوسهم حتى أنهم كانوا على دراية بذلك، وحين سألهم مقرراً أيضاً (أليس يوم النحر؟، أليس ذو الحجة؟ أليست بالبلدة الحرام؟) لم ينكروا ذلك ، وهذا الاستفهام الذي ساقه النبي مع علمه بحقيقة الأمر من تجاهل العارف حتى يتقرر بهذا الأسلوب المعني في نفوس السامعين ويرسخ في أعماقهم.

والتعبير بالدماء من المجاز المرسل الذي من علاقاته المسببية ذكر المسبب وأراد سببه وهو القتل بغير وجه حق، وقدم الدماء على الأموال لأنه أعظم حرمة منها، كما أن التعبير بالأموال من المجاز المرسل كذلك وليس أخذ الأموال إلا سرقتها أو اغتصابها ظلماً وعدواناً فذكر المسبب وهو أخذ الأموال وأراد سببه وهو الظلم والاعتداء.

ومن الصور البيانية كذلك التشبيه في قوله (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا...) من تشبيه المعنوي المجهول أمره ـ وهو حرمة الدماء والأموال ـ بأمر معنوي آخر، ولكنه مقرر في نفوس المسلمين، وهو حرمة الزمان في يوم النحر، وشهر ذي الحجة، وحرمة المكان في مكة، ووجه الشبه التساوي في الحرمة، وهذا يبعث في النفس الخشية والمهابة والجلال، وبذلك يعمق هذا الإحساس في الوجدان فلا يمكن أن يزول عن النفس.

وقوله (يوم النحر، والبلد الحرام) فكل منهما كناية عن موصول، فالأول كناية عن يوم عيد الأضحى، والثاني كناية عن مكة ومن الكناية كذلك قوله (يضرب بعضكم رقاب

---

(١) عبقرية محمد لعباس العقاد، ص١٠٥، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٦٩م.

بعض) فهو كناية عن التناحر والقتل والفرقة وبذلك يتقرر المعنى الذي عناه النبي- صلى الله عليه وسلم- في نفوس السامعين.

هذه بعض من بلاغته – صلى الله عليه وسلم- والبعض قد يكون كالأصداف لا يعرف مكنونها إلا من حاول اكتشافها ، وأدراك أسرار ما تحمله من معان جميلة.

حواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أصحابه حول العبادات .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي- صلى الله عليه وسلم- فرد وقال : (ارجع فصل فإنك لم تصل)، فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال : (ارجع فصل فإنك لم تصل)، ثلاثا . فقال : والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني. فقال : (إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، وافعل ذلك في صلاتك كلها"[1].

في كثير من المواقف يتحتم على المربي توجيه وتعليم المتلقين بشيء من الحكمة والفطنة ، وقد جعل النبي- صلى الله عليه وسلم- الرجل يمارس خطأه ، وفي الوقت نفسه كان يأمره بأداء الصلاة أكثر من مرة ، وكان الأجدر بالرجل أن لا يضل هكذا في محاولة قد تنجح وقد تفشل ، بل كان لابد أن يسأل سؤال طالب للعلم ؛ لجهله بالأمر ، وهذا هو المغزى الذي قصده النبي- صلى الله عليه وسلم- في نهاية الأمر ؛ لأن الرغبة في بيان ما خفي ولم تظهر حقيقته ، وصعب التوصل إليه جعلت الرجل يبادر بالسؤال ، ويطلب توضيحاً له ، وهذا التوجيه النبوي لا يخص فردا بعينه من أفراد الصحابة ، بل هو عام لكل الصحابة ، وكل الأمة حتى هذا الوقت. وتلك طريقة أخرى من طرقه في حواره مع أصحابه ؛ حيث لم يكن القصد منها إلا مبادرة الرجل بالسؤال لحاجته إلى ذلك ، ولم يكن سؤاله سؤال متعنت يسأل عما لا يعنيه ؛ ولذا كانت الإجابة صريحة لا تحتمل إلا البيان والوضوح.

وحوار النبي- صلى الله عليه وسلم- يتسم بالهدوء واللين مع الرجل ، والرفق بحاله ، كما يتضح في حوار الرجل مع النبي – صلى الله عليه وسلم- الرغبة الملحة في البيان ، والحاجة الشديدة إلى السؤال ، دون الشعور بالحرج من النبي الكريم وذلك في قوله (والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني).

وعند تأمل الحديث الشريف في محاولة لاستجلاء خصائصه البلاغية وإبرازها فإن اكتشافها لن يعسر على المتذوق لبلاغة النبي الكريم كما يظهر ذلك فيما يلي :

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ١/٢٣٤.

إلقاء الخبر مؤكدا في قول النبي – صلى الله عليه وسلم- (فإنك لم تصل) ؛ لأنه لما أساء صلاته ولم يؤدها صحيحة تامة نزله منزلة من يجهل الأمر- وتغيب عنه حقائقه، فأبطل بذلك اعتقاده فيه حين أكده له بـ (إن)، فأمره بأداء الصلاة كان على سبيل الوجوب. وفي قول الرجل للنبي- صلى الله عليه وسلم- (والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره) تأكيد للخبر بالقسم (والذي بعثك بالحق) وبأسلوب القصر (ما أحسن غيره) فالرسول- صلى الله عليه وسلم- لم ينكر أنه لا يحسن صلاته بل هو عالم بذلك لكن الرجل قصد المبالغة في القسم؛ لعظم الموقف الذي هو فيه، حتى وصل الأمر به إلى طلب التعليم على سبيل الرجاء (فعلمني) وهذا سر المبالغة في التوكيد بالقسم. يقول صاحب الفتح: "يستحب الحلف من غير استحلاف، إذا كان في تفخيم أمر من أمور الدين، أو حث عليه، أو تنفير من محذور." [1].

ويلحظ التعريف في (الحق، الصلاة، القرآن) إذ التعريف في جميعها للعهد العلمي الحضوري؛ بمعنى أنها معهودة عند الصحابي، قد سبق إليه علمه بها، أما تعريف (صلاتك) بالإضافة فهو لبيان عظم الصلاة، وبيان فضلها، وما تجلبه من خير لصاحبها. وتنكير (رجل) جاء لبيان أنه فرد من أفراد الصحابة ممن جاء إلى المسجد لأداء الصلاة.

أما عن الإيجاز بالحذف في الحديث فهو كثير؛ فمنه حذف المسند إليه في (فرد وقال) أي فرد النبي – صلى الله عليه وسلم – على الرجل السلام، وحذفه أيضاً في (فرجع يصلي) أي: رجع الرجل، والحذف في (فعلمني) أي علمني الصلاة وحذف المفعول الثاني لعلم هنا لأن الاهتمام متوجه إلى إثبات الفعل للفاعل، وما بعد الفاء في قوله (فكبر) حذف المفعول والتقدير: فكبر تكبيرة الإحرام، والحذف في جميعها جاء للاختصار في القول ،ومن إيجاز القصر (وافعل ذلك) أي افعل ما ذكرته لك من ركوع وسجود، والإشارة للبعيد إلى ما سبق؛ للاختصار في مقام لا يحتمل إلا القصد مراعاة لحال المخاطب فهو في مرحلة تعلم، والتعليم يقتضي أداء الفرض بأوجز لفظ؛ لأن الشرح والتطويل يضر بالمتعلم فلا يعي ويفقه كل ما يطرح أمامه؛ ولذا كان الإتيان باسم الإشارة مما يقتضيه المقام يقول أحد الباحثين: "من المزايا البارزة لأسماء الإشارة أنها تعين المتكلم على التركيز والإيجاز وتفادي التكرار الذي تترهل به

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تعليق أبو عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش ١٤٧/١ مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الأساليب ويتثاقل به وثوبها إلى القلوب، وقد تجد اسم الإشارة في بعض آيات القرآن مثلاً يلخص ويطوي صفحة كاملة من الأوامر والنواهي، بل أكثر من صفحة وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾[1] واستمر حتى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[2] فاسم الإشارة فيها يعود على المذكور ويطوي هذه الأوامر والنواهي الواقعة بين الآيتين[3].

واستخدام النبي – صلى الله عليه وسلم – لأداة الشرط (إذا) دون غيرها كـ (إن) ونحوها؛ لأن الشروع في أداء الصلاة أمر يقيني لاشك فيه، أو احتمال لظن وما شابهه، ولأن أداء الصلاة واجب إذ لا يمكن أن يظن في ذلك إنسان آثر استعمال (إذا) على غيرها. أما مجيء اسم الفاعل (راكعاً، قائماً، ساجداً، جالساً) فقد قصد الثبوت والدوام من حيث ثبوت الفعل من الفاعل في المستقبل القريب المفهوم من أداة الشرط إذا[4].

---

(١) الإسراء آية (٢٢).

(٢) السورة نفسها آية (٣٩).

(٣) خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى ص ٢٠٧ – ٢٠٨، مكتبة وهبة القاهرة، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٤) يقول صاحب قطر الندى: "يكون اسم الفاعل بمعنى الحال أو الاستقبال، لا بمعنى المضي." شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري، محمد محي الدين عبد الحميد، ص ٢٩٥، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العبادات ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟)قالوا: لايبقى من درنه شيء. قال: فذالك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[1].

ما أجمل معاني هذا الحديث الشريف ، لقد ساقها النبي الكريم في أسلوب جذاب، ومعرض رائع، ولم لا وقد جذب اهتمام الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، وبعُد عن الأسلوب التقريري الواعظ ، وبهذا رغبهم فيها ، وحثهم عليها ، دون أن يأمرهم بصريح العبارة ؛ فالصلاة هي عماد الدين وقد أمرنا الله بأدائها ، ولها فضل على صاحبها حيث تنهاه عن الفحشاء والمنكر، وتدله على الخير، وتريح نفسه من الوساوس والظنون، وتطهرها من الآثام والمعاصي، وبدلاً من هذا الأسلوب التقريري جاءت صورة الصلاة ممثلة في أبدع منظر طبيعي، يتخيل كل فرد من الصحابة نفسه ذلك الرجل الذي يجاور منزله نهر جار، فيغسل فيه بدنه كله خمس مرات في اليوم الواحد على فترات متقاربة ، ومثل ذلك الصلوات الخمس تزيل الخطايا والذنوب عن صاحبها، وبهذا الحوار الذي جاء في شكل سؤال أراد به النبي – صلى الله عليه وسلم – تقرير أمر (ما) للصحابة – رضي الله عنهم – وصل النبي الكريم إلى إقناعهم بالحجة الواضحة، والدليل القاطع، ولم يكن فيه أي شك، أو غرابة بل جاء حواراً مفهوماً هادئاً يدخل إلى القلب بدون استئذان.

وبالنظر إلى أسراره البلاغية فهي تتمثل فيما يلي:

التنكير في قوله (نهراً ، شيء) ؛ فالنكرة في (نهرا) لبيان كثرة تدفق ماء النهر وجريانه، بحيث جاور منزل أحدهم وبلغه ، والنكرة كما هو معروف تعطي السامعين بعداً من الصور المتخيلة في ذهنهم ، وكأنهم عايشوا أبعادها ، وكان التعبير بهذه الكلمة دون كلمة البحر، من سر فصاحته – صلى الله عليه وسلم – ويعلم ما بينهما من فرق شاسع ؛ فالنهر رمز الرقة واللطافة ، ودليل العذوبة والصفاء والنقاء ، أما البحر ففيه يتغير لون الماء ، ويتغير طعمه ، وتشوبه بعض الأوساخ وما إلى ذلك ، والنهر متجدد دائماً ؛ ولذا تتجدد الحياة به وتستمر،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٩٩/ ٢.

فناسب هذه اللفظة الفعل المضارع (يغتسل) الذي يدل على التجدد والاستمرار، وأضيف إلى ذلك كله لفظ العموم (كل) المؤكد لهذا المعنى ، كما يقول أحد الباحثين: "إن الصورة الممثل بها فرضية محبوبة ، يتشهاها كل فرد يشعر بالحياة ويحس بالجمال: نهر ببابه يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، وحسبك ما توحي به كلمة نهر من رقة ، وصفاء ، وعذوبة ، وعظمة ، وما يخيل لنا الفعل المضارع (يغتسل) من استحضار الصورة مع التجدد والحدوث في طرفي النهار وزلفاً من الليل يدل عليهما العدد المحصور في اليوم ، ثم يطرد هذا مع العمر صعوداً بإضافة لفظ العموم عليه (كل يوم)دلالة على اتصال النعيم ودوامه"(١) وبالنسبة إلى لفظ (شيء) فهي لبيان مقدار هذا الشيء وحقارته وضآلته ، بحيث لا يعتد به.

أما التعريف في قوله (الصلوات الخمس ، الخطايا) ؛ للعلم السابق بها ؛ فهي محل التشريف والتعظيم ، أما الخطايا فجاءت معرفة على صيغة منتهى الجموع ، وما توحي به من الكثرة ، والعظم والفداحة ، وهذا مما لا ينكره أحد منهم بل كان من دواعي خوفهم وقلقهم.

واستخدام لفظ الإشارة للبعيد للتعظيم ، وفيه زيادة تقرير للصحابة – رضي الله عنهم – وفيه أيضاً إيجاز بالحذف فلم يرد النبي الكريم تكرار ما قاله بل اكتفى بالإشارة إليه ، ففي الإشارة ما يغني عن العبارة.

وحذف المسند في قوله (نهراً) والتقدير: (نهراً يجري بباب...) ؛ لمعرفة الصحابة به فكان حذفه أولى من ذكره ، وفي الحذف اختصار وإيجاز اقتضاه المقام ؛ لأن انتباه السامعين محصور في هذه الصورة (صورة النهر) فكان التطويل يبعد عنهم عنصر التشويق والمتابعة.

وعند الانتقال إلى الجمل وارتباطها ببعضها يلحظ جمال الفصل في قوله: (فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا) جاءت الجملة الثانية مبينة للأولى ؛ لأن في الأولى إبهاماً ، فالمثلية التي هي مضمون الأولى خفاء فجاءت الثانية مبينة لها مزيلة لخفائها ؛ لأن الصلوات مثل النهر كما أشار النبي بذلك آنفاً ، تزيل الخفاء في المثلين وحين قال: يمحو الله بهن الخطايا وضحت المعنى في نفوس الصحابة - رضي الله عنهم - .

---

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د/ عز الدين علي السيد، ص ١٥٠، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

ثم تأتي الصورة البديعة التي بها قابل النبي الكريم بين النهر والصلاة، في تقابل متزن يفضي بالدليل والحجة، حين يغسل النهر أوساخ البدن ويطهرها كذلك الصلاة تطهر النفس مما يشوبها من معاصٍ وذنوب كثيرة وهذا ما يعرف بالمذهب الكلامي في عرف البلاغيين (١) ، كما في الحديث صورة جميلة من التشبيه البليغ ؛ حين شبه الصلاة وما تتركه في نفس المؤمن من تقوى وصلاح بالنهر الذي يجري فيغتسل منه الإنسان خمس مرات فيطهر بدنه . إنه التقابل الفريد المنتظم في الذهن ، تقابل بين النهر والصلاة ، وبين الدرن والخطايا ، وبين الطهارة البدنية الحاصلة من الاغتسال والطهارة البدنية والروحية الحاصلة من الصلاة ، كما أشار بهذا أحد الباحثين بقوله : "من التناسق الفني الجميل في الحديث أن يجعل المعصية وسخاً ودرناً تتقزز النفس البشرية منه وتنفر، والصلوات الخمس كنهر جارٍ يغتسل فيه المرء خمس مرات كل يوم فماذا يبقى عليه من درنه ودنسه؟ إنه لا يبقى شيء فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[٢] .

---

(١) ينظر: تحرير التحبير، ص ١١٩.

(٢) ينظر التصوير الفني في الحديث النبوي، ص ٣٠٠.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العبادات ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: (أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدى ذلك عنها؟) قالت: نعم. قال: (فصومي عن أمك). [1]

استخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – مع المرأة طريقة حوارية اعتمدت على ضرب المثل من خلال التجارب اليومية الجارية في معاملات الناس ، فحين سألت المرأة النبي – صلى الله عليه وسلم – بدافع البر والوفاء لأمها المتوفاة تبرئة للذمة ، وراحة للضمير فحينما سألته رد سؤالها بسؤاله هو عن حكم قضاء الدين إن كان على أمها دين ولابد من قضائه ، فجعلها تجيب نفسها عما سألت عنه ، وتثبت بالدليل جواز الحكم بموضوعية ، وبشيء من منطق العقل.

ويلحظ في الحديث هدوء الحوار ، وسهولة ألفاظه ؛ فكما كانت المرأة تسأل بدون حرج كان سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم – لها كذلك بروية وفطنة قاصداً بذلك توجيه المرأة إلى التفكير الجاد الذي يبحث عن الحقيقة حين تنطق عنها الحال.

وبالنظر إلى ما حوته ألفاظ وعبارات الحديث من فنون بلاغية على الرغم من وجازة الحوار وقصر جمله فإن المتذوق لتلك الفنون سيجدها ماثلة فيما يلي:

إلقاء الخبر مؤكداً بـ (إن) في قول المرأة (إن أمي ماتت وعليها صوم نذر) فالنبي لم يكن شاكاً في ذلك حتى تؤكد له الخبر بـ (إن) لكنها حين خافت على أمها حين ماتت ، ولم تقض ما عليها من صيام واجب ؛ لأنه نذر وعليها الوفاء به خافت أن لا يجزئ صيامها عنها شيئاً ، فظنت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سيقول هذا ؛ ولذا أتت بالنداء في أول كلامها (يا رسول الله) مع قرب النبي – صلى الله عليه وسلم – منها حين سألته وليس كل ذلك إلا رجاء أن يكون صيامها عن أمها مجزئاً عنها.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٢١٥.

وعندما صدّر النبي – صلى الله عليه وسلم – الاستفهام بـ (لو) وهي قد ربطت الشرط بجزائه وكما هو معروف أن (لو) تستعمل فيما مضى من الزمان فيكون الفعل معها ماضياً، وقد يكون مضارعاً وهو هنا ماض[1] ؛ بمعنى لو كان هذا الدْين في الماضي فقضيتيه عنها فهل سيجزئ عن أمك؟، وقد اقترن الجواب بالفاء لدلالة على سرعة القضاء ، والاستفهام في قوله (أكان يؤدى ذلك عنها؟) خرج عن معناه الحقيقي فقصد بالاستفهام التقرير بقضاء ذلك الدين عن أمها، ولا يخفى ما في الإشارة (ذلك) من كناية عن قضاء الدين ، وكأنه شيء معلوم لا يحتاج إلى بيان بل هو مشاهد حتى كأنه يشار إليه بالبنان.

والحذف في بعض ألفاظ الحديث واضح في مثل قول المرأة (نعم) وهو جواب عن سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم - ؛ ولذا حذف ما بعدها من كلام وتقديره: نعم يؤدى ذلك عنها ؛ وذلك اختصار للكلام، ومثله الحذف الملاحظ من كلامه – صلى الله عليه وسلم – (فصومي عنها) حيث يقدر في كلامه حذفاً تقديره: إن كان ذلك يؤدى عنها فصومي عن أمك ولذا كانت الفاء (فصومي) فصيحة.

والتعريف يتجلى للمتذوق في حكاية المرأة عن أمها (إن أمي ماتت) فالمسند إليه جاء معرفاً بالإضافة للإيجاز في القول دون الخوض في تفاصيل لا طائل من ورائها. أما التنكير في المسند إليه في قوله – صلى الله عليه وسلم – (دين) فقد جاء للعموم فإن كان هذا الدين قليلاً أو كثيراً يلزمها الوفاء بقضائه عنها.

---

(١) "(لو) تصرف المضارع إلى المضي ولا يكون جوابها إلا فعلاً ماضياً مثبتاً أو منفياً بـ (ما) أو مضارعاً مجزوماً بـ (لم) والأكثر في الماضي المثبت اقترانه باللام وقد يحذف." ينظر موسوعة الحروف في اللغة العربية د/ إميل بديع يعقوب، ص ٤١١، دار الجيل بيروت ط٢ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. وينظر البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) د/ فضل حسن عباس ص ٣٥١، دار الفرقان الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – حول العبادات ما روي عن أبي ذر:

أن أناسا من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[1].

إن وجوه الخير كثيرة ينالها المرء أنى اتجه وسار، وفي أي وقت وظرف كان، وليست تلك الوجوه محصورة على فئة معينة ممن يملكون الجاه والمال الكثير، لكن المعدوم ، ومن كان بسيط الحال يستطيع فعلها سواء بالكلمة الطيبة التي تدخل القلب بلا استئذان، أو كان في إماطة الأذى عن طريق المسلمين، أو الإصلاح فيما بين المتخاصمين، أو كما أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث الشريف بذكر الله – تعالى – وتسبيحه، وحمده، وفي الأمر بالمعروف، وفي المقابل النهي عن المنكر، وغيرها كثير لا يمكن إحصاؤه ، وكلها أمور تستدعي الحرص والإقبال عليها، والتمسك بها أو ببعضها، ربما يكون في أخذ القليل الخير الكثير، وما هي إلا توجيهات نبوية صريحة، كفيلة بصلاح لبنات المجتمع في كل حين، يقول أحد الباحثين: "لو تدبر المسلمون هذه المعاني الكريمة، وأخذوا بها أنفسهم، إذاً لرأينا مجتمعًا سليمًا متكافلاً لا قرار فيه لأنانية ، ولا موضع لفرقة أو بغضاء"[2].

ويلحظ في الحديث أن الحوار بدأ مع الصحابة ـ وهم هنا فقراء المهاجرين ـ والنبي – صلى الله عليه وسلم – وقد توجه فريق منهم إليه شاكين افتقارهم إلى فضل الله تعالى، تدفعهم الرغبة الملحة لكسب مزيد من الأجر والثواب الجزيل، وبهذا تبرز بداية المشكلة، ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – يكشف لهم عما في استطاعتهم فعله دون أن يكلفهم أي مشقة أو

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧٦/ ٣.

(٢) من روائع الهدي النبوي، د/ محمد خليل الهراس، ص ١٣٧، جمعها: عبد الكريم بن عبد المجيد الدرويش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

عناء، ولكن كيف؟ وأنى لهم فعل ذلك دون بلوغ مشقة، أو إحساس بنصب وتعب؟! قال لهم بكل صراحة: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ ثم ما يصاحب هذا الاستفهام الذي جاء في معرض الإخبار من دهشة وحيرة تكتنف مشاعر هؤلاء الفقراء، تحدث بها نفوسهم: كيف قد جعل الله لنا ما نتصدق به؟! وحين يكشف سر هذا الغموض في قوله (إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) تكون هنا لحظة التنوير التي تكشف المغزى، وتصرح بالمستور، وتزيل الإبهام والخفاء عن نفوسهم. ولذا كان الحوار في جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – هادئاً رزيناً ينبع من نفس راضية بما قسم الله لها متوكلة عليه في كل الأمور، أما الحوار في جانب الصحابة فيبدو عليه الدهشة والاستغراب وذلك حينما أخبرهم النبي بأشياء هي بعض من وجوه الخير والمعروف وقد عبروا في سؤال جاء في موضع الاستغراب من أمر أثار نفوسهم وأيقظ انتباههم "يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!" وعبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بطريقة مقنعة من طرق حواره مع الصحابة بعقد موازنة بسيطة بين قضاء الوطر فيما حلل الله لهم، وبين قضاء ذلك بارتكاب المحرم.

وألفاظ الحوار واضحة لا يمكن أن يجد القارئ فيها ما ينبو عن الطبع أو يخالف السليقة العربية بل جاءت في سلاسة وعذوبة، كأنها عذوبة الماء يجري صافياً في النهر. وحين يتطلع إلى خصائص الحديث البلاغية ليدرك جمالها في نظم عباراته وجمله فسيجد بعضاً منها متمثلة له فيما يلي:

البراعة النبوية في اختيار المفردة الموحية بالمعنى المراد الذي يخامر النفس كلفظ (تصدَّقون، بُضع، وزر)؛ فالفعل (تصدَّقون) فعل مضارع يستحضر من خلاله الصورة ليدل بذلك على التجدد حيناً بعد حين كما يرى في التشديد ما يدل على المبالغة في جعل ذلك بملك أيديهم يتصدقون وقت ما يشاءون، ولفظ (بضع) فهو كناية عن الجماع، ولفظ (وزر) يوحي بثقل الحمل وعناء النفس؛ لاجتلابه لكل شر، وسوء مآل صاحبه وقد تناسب مع حرف الجر (على) وكأنه قد حمل على ظهره ما تنوء به نفسه وليس كذلك فحسب بل تقدم الجار والمجرور (عليه وزر) على الوزر حتى يوحي ذلك باختصاص المنكر بصاحبه دون غيره.

وبالنسبة لإلقاء الخبر سواء في قول الصحابة (ذهب أهل الدثور بالأجور) فهنا ألقى الصحابة الخبر على مسمع النبي – صلى الله عليه وسلم – خالياً من أدوات التوكيد وهو مناسب لمقام النبي – صلى الله عليه وسلم – وقتئذ ؛ لخلو ذهنه من مضمون الخبر، أما إلقاء النبي – صلى الله عليه وسلم – الخبر على مسامعهم مؤكداً بـ (إن) فهو لتأكيد الخبر حال كونهم قد بدا عليهم شيء من أمارات الشك والتردد في القضية المطروحة، فحسن تأكيد الخبر لهم بـ (إن).

أما التنوع في أساليب الاستفهام وما تخرج إليه من مقاصد أخرى لا تقتصر على الاستفهام المجرد، فهي تدل دلالة قاطعة على براعة النظم، وقوة المعنى في اللفظ ؛ فالاستفهام في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟) فهو للتقرير، وكأنه قال: قد جعل الله لكم ما تصدقون، والاستفهام في قول الصحابة (أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!) فهو لبيان تعجبهم واستغرابهم أن يكون مثل ذلك، ولذا كان تصور هذا بالفعل المضارع (يأتي) فلذا كان في الاستفهام استحضار للصورة المستغربة في كل حين. أما الاستفهام في قوله – صلى الله عليه وسلم – (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟!) والمعنى (أرأيتم لو وضعها في الحلال أكان له فيها أجر؟) فهو كذلك للتقرير، بمعنى لو وضعها في الحلال كان له فيها أجر.

وفي مقابل ما سبق فإن التعبير بالفعل الماضي (وضعها) لثبوت الفعل من صاحبه وتحققه من أحد أصحابه – صلى الله عليه وسلم – على سبيل الفرض ، والضمير عائد إلى الشهوة التي تكون في الحلال ، وهنا يمكن عد هذا من باب وضع المضمر موضع الاسم الظاهر لاستهجان التصريح بالاسم . وفي الإشارة إلى قضاء الوطر فيما أحل الله بيان لعظم الأمر وتنبيه عليه، وعادة ما يكون ذلك مما يتوقع حدوثه ممن التزم بشرع الله ، ولم يتعد حدوده ولذا استخدم (إذا).

ومن الخصائص البلاغية التعريف والتنكير في بعض الكلمات الواردة في الحديث ؛ كالتعريف في (أهل الدثور، الأجور، الحلال، المعروف) ؛ فتعريف المسند إليه (أهل الدثور) بالإضافة يرمي إلى مغزى جليل هو إظهار علو قدرهم ومكانتهم بين الناس، وتعريف الأجور بـ (أل) فهو للاستغراق الحقيقي ؛ أي ذهبوا بكل الأجور، والتعريف بـ (أل) في (الحلال) للعهد

العلمي الحضوري ؛ فالحلال طرقه معروفة وواضحة لا تحتاج إلى بيان بل الحلال أشهر من علم على جبل. ومثله تعريف (المعروف). أما تنكير (أناسا) جاء للتقليل أو النوعية ؛ كأنه قيل أناسا قليلين أو أناسا معنيين وهم فقراء المهاجرين ، أي : جاءوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يشكون افتقارهم إلى فضل الله وثوابه العظيم ، وتنكير (منكر) جاء للتعميم وفي هذا بيان لكثرة طرقه المنحرفة وتشعبها حتى أن الصحابة ليتصورونها كل حسب مداركه في صور شتى ، ومثله تنكير (حرام) ، وتنكير (أجر) ؛ جاء للتكثير لما يترتب على الأجر من الخير والثواب العظيم عند الله لهؤلاء ، وتنكير (وزر) ، جاء للتهويل لبيان عظم الذنب وخطورته وبشاعته حتى إنه ليثقل بموازين صاحبه ويحمله الإثم والعار[1].

وتنكير (صدقة) يوحي بعظمها لاسيما قد وردت في أكثر من موضع مكررة وتكرارها جاء للتأكيد على هذا الفضل العظيم الذي يناله المرء إذا قام ببعض الطاعات والنوافل.

ويلحظ في قول الصحابة (ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم) إطناباً في الكلام ؛ فهم أولاً أبهموا (ذهب أهل الدثور بالأجور) ثم بينوا (يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم) وربما كان في هاتين الجملتين فصلاً ؛ فالجملة الثانية مبينة للأولى وعلى غرار ذلك كان في أسلوب النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة) إطناب ؛ فقد أبهم الكلام (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟) ثم فصّل وبيّن (إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة...) وكذلك قد يكون هذا من الفصل بين الجمل أي تكون الجملة الثانية مبينة للأولى وقد تكون الثانية بدل بعض من كل بالنسبة للأولى فبينهما كمال اتصال في كلا الحالتين.

---

(١) الوزر: "الحمل والثقل، وأكثر ما يطلق في الحديث على الذنب والإثم يقال: وزر يزر فهو وازر، إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب وجمعه أوزار". ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٨٤٤، باب الواو مع الزاي.

ومن بديع هذا الحديث المقابلة في قوله – صلى الله عليه وسلم – (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)؛ فقد قابل بين قضاء الوطر بالحلال وبين إتيان المحرم، وكذلك التضاد بين الحلال والحرام، وبين المنكر والمعروف، وبين الأجر والوزر، وبين حرفي الجر (عليه، له) وكلا من المقابلة والتضاد توضِّح المعنى في النفس وتقرره.

ومن البديع السجع بين (أجر، وزر) لتناسب الوزن ونهاية الفاصلة، وتناسق الجملة في كلمة (أجر). ومثلها (دثور) لتناسب الوزن بحيث يحدث في النفس إيقاعاً صوتياً يبعث على النشوة والتفاعل مع (أجور).

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العبادات ما ذكره معاذ بن جبل حيث قال: كنت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار. قال: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)، قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل)، قال: ثم تلا "تتجافى جنوبهم عن المضاجع" حتى بلغ (يعملون) ثم قال: (ألا أدلك برأس الأمر كله ، وعموده ، وذروة سنامه؟) قلت: بلى يا رسول الله. قال: (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه فقال: (كف عليك هذا) ، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!)[1].

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – حريصاً كل الحرص على تعليم الصحابة كل ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم ، والحوار الذي دار بينه – صلى الله عليه وسلم – وبين معاذ – رضي الله عنه – خير شاهد على ذلك ، استغل معاذ ـ رضي الله عنه ـ الفرصة أثناء خلوته مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في المسير، فسأله عن أعظم عمل يدخله الجنة ، وما أن سأل معاذ بادر النبي – صلى الله عليه وسلم – في إجابته برحابة صدر، ولم يكتف بذلك فنفسه تتوق لنشر الدين؛ ليعم الخير في أمته بل عرض عليه إخباره بأشياء أخرى تهمه، ولها مكانتها في شرع الله؛ فأركان الإسلام من صلاة ، وصيام ، وصوم ، وحج ، هي صلب العقيدة وعليها المعول، ثم يأتي التحذير بشكل خاص من اللسان؛ لعظم خطره، وسوء جرائره على صاحبه، فآفاته كثيرة لا يمكن حصرها – منها على سبيل المثال - : الوقوع في أوحال الغيبة والنميمة، وبراثن الفحش والبذاءة، وارتكاب الخطأ والزلل، وربما وقع المرء في المحظور دون أن يدري، ورب كلمة يتكلم بها العبد من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في نار جهنم ،

---

(١) مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني ٢٩/ ١ المكتب الإسلامي بيروت دمشق ط٣، ١٤٠٥/ ١٩٨٥م.

فلابد من توخي الحذر وعدم التكلم إلا بالخير وترك التدخل في شئون الغير إلا في قول الحق وإذا دعت إليه الحاجة.

وكان للحوار دور في إبراز المواقف والإفصاح عن ردود أفعال الشخصيات فالنبي – صلى الله عليه وسلم – بحواره يقرر قضية كانت مغيبة عن ذهن معاذ – رضي الله عنه – لم يتخيل معاذ مطلقاً المؤاخذة بكلام يقال ثم ما يلبث أن ينساه ، فاستفهامه مبطن بالاستغراب والدهشة (وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟) ، لكن يرد عليه النبي الكريم، ويقلب عليه ما اعتقده وحكم به زاجراً له بقوله(ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!) ؛ ومعنى ذلك كما جاء في النهاية: إن كنت تجهل هذا فخير لك أن تفقدك أمك لئلا تزداد سوءاً بسوء فعلك[1]" فكانت نبرة حواره مرتفعة تدل على التوبيخ بطريقة مهذبة وهادفة بينت موقف النبي الكريم تجاه ما سمعه من معاذ، وبعبارته ترك في نفس معاذ أثراً عميقاً ومساحة واسعة من التفكير والتدبر، فتدرج بذلك الحوار من رتابة الهدوء إلى إثارة الانفعال.

واللمحات البلاغية التي تسم الحديث يمكن إبرازها بوضوح فيما يلي:

سهولة الألفاظ وجزالتها، مع قوتها حتى أن بعضها لا يمكن التعبير إلا به دون غيره لما له من قوة البيان والإفصاح عما في نفس المتكلم كما يظهر في التعبير بـ (جنة) دون (وقاية) وما يأتي في معناها، و (يكب) دون يطرح، فمعنى (جنة) لغة " جنَّه الليل ستره ، وكل ما ستر عنك فقد جنَّ عنك ، والجُنَّة كل ما وقى[2]" فدل على الوقاية والستر ؛ فالصيام يقي صاحبه من الوقوع في الشهوات أو أنه يسترها عنه ويحجبها. أما لفظ الكب في اللغة " إسقاط الشيء على وجهه(٣)" فدل على أن الله – عز وجل – يهوي بهم في قعر جهنم لهوانهم عليه واحتقارهم لفداحة ما ارتكبوا من الإثم الذي استحقوا به دخول النار.

وفي قول معاذ – رضي الله عنه – للنبي (أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) خرج الأمر عن مقتضى الظاهر إلى الالتماس فهو يأمره بالإخبار، على جهة الطالب

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢١٤/ ١ باب الثاء مع الكاف.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب النون فصل الجيم، ص ١٥٣٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٤٢٠ كتاب الكاف.

الملتمس ممن هو أعلى منه ونكَّر (عمل) ليدل على عظم هذا العمل الذي به يستحق الجنة ، ثم أردفه بصيغتي (يدخلني ، يباعد) فالأولى لتخيل حدوث الجنة ، والأخرى لتخيله ، مع المبالغة في هذا الإبعاد[1] ؛ ولذا كانت (عن) تعني المجاوزة ؛ أي يتجاوز به عن دخول النار[2].

وحتى لا يواجه معاذ – رضي الله عنه – بما يشق عليه ، ويجد فيه صعوبة ، أوعدم احتمال أكد له الخبر ، مع أنه كان خال الذهن منه في قوله (وإنه ليسير على من يسره الله عليه) ، ولما حصل تأكيده اطمأنت نفسه به ، وزادت ثقته بقدرته عليه ؛ وهذا ما جعل النبي – صلى الله عليه وسلم – يجيبه بالفعل المضارع (تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة...الخ) ؛ دون توجيه الأمر إليه على جهة الاستعلاء "اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وأقم الصلاة... الخ ؛ حتى يحمله على امتثال ذلك.

والاستفهام كذلك خرج عن مقتضى الظاهر – كما هو واضح – إلى التحضيض على الفعل ؛ لحرصه – صلى الله عليه وسلم – على تبليغ الدعوة ، فلم يعط معاذ فرصة ليجيبه بالقبول بل مضى يخبره عن أبواب الخير ، وهي لا تخفى على كل مسلم ، ممثلة في صيام التطوع ، والصدقة ، والصلاة في جوف الليل ؛ وهذا سر مجيئها معرفة بـ (أل) للعهد العلمي.

والاستفهام كذلك في قوله (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟!) للاستنكار ؛ فتقدير الكلام : "لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم" فيكون هذا من باب الاستثناء بالنفي المقدر والاستثناء.

وربما كان في الحوار إيجاز حذف في معرض إجابة معاذ – رضي الله عنه – على كل سؤال يعرضه عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – وتقدير ذلك : نعم يا رسول الله دلني عليه ، أو أخبرني به ، وحذف للعلم به ولذكره في سياق كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) يقول صاحب التحرير: "صيغة تفاعل ترد كناية عن قوة الفعل وشدته مثل قولك : تواصل الحبل." التحرير والتنوير لابن عاشور الشيخ محمد الطاهر، ج١٤، ص٩- دار سحنون للنشر- تونس – دار مصر ، للطباعة ، عام ١٩٩٧م.

(٢) ينظر معاني الحروف للإمام أبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق وتعليق الشيخ/ عرفان بن سليم العشاحسونة الدمشقي ص ٧٣- ٧٤، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ومن صور الإطناب في هذا الحوار التفصيل بعد الإجمال ؛ فأجمل في قوله (ألا أدلك على أبواب الخير؟) ثم فصل ذلك في قوله (الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل) ، ومثله في قوله (ألا أدلك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟) أجمل ثم فصَّله بقوله (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد) ، وكذلك في قوله (أخبرك بملاك ذلك كله؟) أجمله ثم فصله بقوله (كف عليك هذا) ؛ وكل ذلك حتى يزداد شغفه بمعرفتها ، وتتمكن هذا المعرفة بعد ذلك من نفسه.

ومن صور الوصل بين الجمل ما يلحظ في قوله (تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت) والوصل كذلك في قوله (الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل) ؛ فالوصل بين هذه الجمل جاء لاختلاف كل واحدة عن الأخرى من حيث المعنى ، وإن توافقت من ناحية الخبر.

ومن البيان في هذا الحديث كثرة الاستعارات في بعض الألفاظ في قوله" رأس الأمر..."حيث شبه الأمر بالجمل وتنوسي التشبيه واستعيرالمشبه به " الجمل" للمشبه "الأمر" ثم حذف المستعار ، ورمز إليه بشيء من خصائصه وهو الرأس والذروة والسنام على سبيل الاستعارة المكنية ثم فصّل هذه الاستعارة الواقعة في حيز الاستفهام فقال:

رأس الأمر الإسلام ، فشبه الإسلام بالرأس ، وعموده الصلاة شبهها بالصمود والمقصود به "هيكل الظهر" ، وشبه الجهاد بذروة السنام وهذه التشبيهات هي تُفصيل للألفاظ التي دلت على الاستعارة المكنية.

وهذه الاستعارة ترسم صوراً كاملة للإسلام يكمل بعضها بعضا فلا حياة بدون رأس ولا بدون عمود ، كما أن أشرف شيء فيه السنام الذي يقصد به الجهاد وشبيه بذلك ما جاء في قول امرئ القيس[1] :

وليل كموج البحر أرخ سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

---

(١) شرح ديوان امرئ القيس ، ويليه أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، جمعها وشرحها أسامة صلاح الدين ميمنة ، ص ١٧٣ ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

فقد شبه الليل بالجمل في البيت الثاني ، ثم تنوسي الشبه وادعى أن المشبه من أفراد المشبه به (الليل من أجزاء الجمل) ؛ حيث استعار الجمل لليل ثم حذف المستعار ـ وهو الجمل ـ ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الصلب و الأعجاز والكلكل.

وقد اعتبر الشريف هذه الألفاظ استعارة حيث قال : " هذه الألفاظ مستعارة كأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ جعل الإسلام رأس دين الله المقدم ورئيسه المعظم ، وجعل الصلاة عموده الذي به قوامه ، وعليه قيامه ، وجعل الجهاد ذروة سنامه ؛ لأنه يعد الرأس أعلى مشارفه ، وأرفع مراتبه ، وله يشاد بناؤه ، ويقام لواءه ، ويقمع أعداؤه"(١) والصواب أنها لوازم دالة على المستعار ـ وهو الجمل ـ كما سبق توضيحه ، ومن بيانه أيضاً الاستعارة في حصائد ؛ حيث شبه الأحاديث في أعراض الناس بالزروع التي تحصد ، ثم تنوسي التشبيه ، واستعيرت الزروع للأحاديث في الأعراض ، ودل عليها بشيء من خصائصها وهو الحصاد ، ويلمح في إيرادها على صيغة منتهى الجموع الإيحاء بكثرة الكلام الذي لا يترك إلا المخاطر والمصائب العظيمة.(٢) .

وقدّم – صلى الله عليه وسلم- الدليل على صدق دعواه بشاهد محسوس مدرك في (كما يطفئ الماء النار) مما لا يدع مجالاً للشك بل يجزم بذلك ويقتنع به ، وربما كان هذا على سبيل المذهب الكلامي.

ويظهر أيضاً بديع هذا الحديث في التضاد بين (الجنة ـ النار) ، وبين (عظيم ، يسير) ، وبين (الصدقة ـ الخطيئة) ، وبين (الماء ـ النار) ؛ فالتضاد فيها جميعا يبيّن المعنى ويوضحه.

كما يلحظ الجناس بين لفظتي (الناس ، والنار) مما يمنح النفس شيئا من الانسجام والتناغم الصوتي بين الألفاظ .

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضي، أبي الحسين محمد بن أبي أحمد الحسين ضبط وشرح /طه عبد الرؤوف سعد، ص٢٧٥، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، د.ت.

(٢) يقول ابن الأثير في النهاية "معنى حصائد ألسنتهم: ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير فيه واحدتها حصيدة تشبيهاً بما يحصد من الزرع وتشبيهاً للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به ." النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٣٨٦، باب الحاء مع الصاد.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم مع أصحابه- حول العبادات:

ما روي عن أبي هريرة قال: أتى النبي – صلى الله عليه وسلم- رجل أعمى فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن يرخِّص له فيصلي في بيته، فرخَّص له، فلما ولى دعاه فقال: (هل تسمع النداء بالصلاة؟)، قال: نعم، قال: (فأجب.) [1]

في هذا الحديث دار حوار لطيف بين النبي- صلى الله عليه وسلم- والرجل الأعمى، قام على انتهاج طريقة مقنعة في الحوار، لأنه- صلى الله عليه وسلم- يقر للرجل على سماع النداء بالصلاة فكيف لا يجيب الداعي؟! فالذي تعذر به ليس مسوغا لترك الصلاة في المسجد مع جماعة المسلمين، ولكن النبي- صلى الله عليه وسلم- حين عذره في بداية الأمر كان هذا من رحمته بالرجل الأعمى، ولكنه لم يعذره في النهاية بل حثه على إجابة الداعي لما يترتب على الصلاة مع الجماعة من الأجر العظيم، لقوله- صلى الله عليه وسلم- : (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.)[2] ولذا كان الالتزام بالصلاة جماعة أمر لابد من إتباعه، وشيء لابد من الحرص عليه، وهذا تفتقده مساجدنا اليوم حين أصبحت على كثرتها لا تعج بالمصلين إلا قليلا ممن هداهم الله، والله المستعان.

والحوار بدأ بعرض الرجل الأعمى لمشكلته (ليس لي قائد يقودني إلى المسجد) وعدم وجود القائد بالنسبة إليه معضلة[3] صعبة؛ فهو أولا أعمى ضرير لا يقدر على الذهاب وحده إلى المسجد ليصلي مع الناس، وثانيا لا يجد القائد الذي يهديه إلى طريق المسجد، خصوصا إذا اجتمع إلى كل هذا الكبر، والضعف، وأصبح الاحتياج إلى وجود القائد ضروريا، وحين يكون نصف الحل في الرخصة بالصلاة في بيته تكون لحظة التنوير في نهاية الأمر، فتكشف عن الحل الوحيد الذي يتمثل في إجابة الداعي للصلاة مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة، ولكنها مع الصبر والاحتساب فلن يكون هناك ثمة مشكلة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم، بشرح النووي ٢/٢٨٧.

(٢) صحيح البخاري ١/٢٠٦

(٣) عضل الأمر: اشتد واستغلق، وأمر معضل: لا يهتدي لوجهه، والمعضلات: الشدائد. "ترتيب مختار الصحاح، ص٥٣٣، باب العين.

وعند الوقوف على خصائص الحديث البلاغية التي تلمح بعضها من هذا الحوار فلا يخفى على كل ناقد متذوق لبلاغته- صلى الله عليه وسلم- حين يراها جلية في اختيار المفردة التي تصيب المعنى، وتوحي بحقيقته، وحين تنتظم مع جاراتها فإنها ستوضحه أكثر مثل (النداء) وما تعطيه هذه اللفظة من فرق بسيط بينها وبين (الدعاء)؛ فالنداء كما ذكره الراغب: "رفع الصوت وظهوره، وقد يقال ذلك للصوت المجرد وإياه قصد بقوله تعالى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾[1] أي لا يعرف إلا الصوت المجرد دون المعنى الذي يقتضيه تركيب الكلام، ويقال للمركب الذي يفهم منه المعنى كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾[2] ونداء الصلاة مخصوص في الشرع بالألفاظ المعروفة[3] " أما الدعاء في مثل قوله (فدعاه..)أي: دعا النبي الكريم الأعمى فهو أيضا كما ذكرالراغب: " الدعاء كالنداء قد يقال بـ (يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم ، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو: يا فلان، ويستعمل استعمال التسمية نحو: دعوت ابني زيدا أي سميته. (٤)" ومما تبين يتضح أن النداء يقصد به رفع الصوت حتى يسمع البعيد، أما الدعاء فهو لمن يكون قريبا منك؛ ولذا حسن النداء بالصلاة حتى يسمعه كل الناس القريب والبعيد، وقال (فدعاه) أي: دعا النبي الكريم الرجل باسمه حين أعرض عنه، ولذا قال (فلما ولى دعاه).

ومن خروج الكلام على مقتضى الظاهر قول الرجل الأعمى (إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد) فوضع المضمر موضع الاسم الظاهر في (إنه) وهو ضمير الشأن ، حتى يكون ما يعقبه من كلام موقع اهتمام النبي- صلى الله عليه وسلم- فلما قال: (إنه) تنبه النبي الكريم إليه وكان متيقضا لما يعقبه، وبعد ما قال (ليس لي قائد..) تأكد المعنى في نفسه – صلى الله عليه وسلم- يقول الخطيب القزويني: " قد يخرج المسند إليه على خلافه فيوضع المضمر موضع المظهر مثل (هو زيد عالم) مكان الشأن: زيد عالم ، ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه

---

(١) سورة البقرة، آية (١٧١).

(٢) سورة الجمعة، آية (٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب ، الأصفهاني، ص٤٨٩. كتاب النون.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٩، ١٧٠. كتاب الدال.

فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرا لعقبى الكلام: كيف تكون؟ ، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن ، وهو السر في التزام ضمير الشأن أو القصة قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[1] وقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]"[3].

ثم تقديم الجار والمجرور (لي) على المسند إليه (قائد) يفيد اختصاص القائد بقيادته ، لأنه أعمى، ولشدة حاجته إليه فهو يقوده نحو المسجد ، فلما تعذر وجوده، قدّم ما هو محط اهتمام بشأنه.

والاستفهام الموجه للرجل الأعمى قد خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى يفيد تقرير الرجل بسماعه للنداء بالصلاة في كل وقت ، وكانت إجابته: (نعم) مقرة بذلك؛ ولذا لم يعذره حين قال: فأجب، فالفاء هنا فصيحة لإفصاحها عن محذوف والتقدير: إذا كنت تسمع النداء فأجب. أما الفاء في الأفعال (فسأل، فرخص، فقال) فهي عاطفة ، تدل على أن كل فعل تلا الذي بعده وأعقبه بلا تراخ.

وفي قوله- صلى الله عليه وسلم- (فأجب) إيجاز بالحذف ، وتقديره: فأجب النداء بالصلاة ، وهذا الحذف اختصار للكلام ، ومراعاة للمقام؛ لأنه حين ولى عنه فدعاه ، ثم سأله ، وأجاب اختصر وقال ما قال لمراعاة مقام المخاطب فنأى عن الإطالة بذكر ما يفهم من السياق.

---

(١) سورة الإخلاص، آية:١.

(٢) سورة المؤمنون آية (١١٧).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب، القزويني ٨١- ٢/٨٢.

كذلك من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العبادات ما روي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: "أمرنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن نتصدق، فوافق ذلك مالا ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: (يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟). قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: "والله لا اسبقه إلى شيء أبدا [1]

حرص الصحابة- رضوان الله عليهم - على فعل الخير وتنافسوا فيه ، كما فعل عمر- رضي الله عنه- حين حاول جاهدا أن يفوز بقصب السبق على أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- وهيهات أن يصل إلى مرتبته ؛ لأنه قدم كل ما عنده من مال طلبا لمرضاة الله- تعالى- ورسوله- صلى الله عليه وسلم- ولا يخفى على القارئ سهولة ألفاظ الحديث ، مع جزالتها ، وما تخلله من حوار هادئ عبّر عن شخصية عمر الخيرة ، وموقفه مما رآه من أبي بكر- رضي الله عنهما- ويدل على حرص عمر على الإنفاق في سبيل الله، وسرعة امتثاله لأمر النبي- صلى الله عليه وسلم- ، فما أن أمر النبي الكريم بالإنفاق والتصدق حتى سارع إليه بقلب صادق النية ، قوي العزيمة، فهذه فرصته التي لابد أن ينتهزها ولا يضيعها ، فحدّث نفسه بذلك (اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما)، ثم بادر على الفور وقسم ماله نصفين ، أودع نصفه لأهله، والآخر مضى به إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- يحمله بين يديه، تغمره السعادة والرضا، متوقعاً أن أبا بكر لن يتصدق بهذا القدر ويرقب عمر صنيع أبي بكر ويتأمل حواره المؤثر مع الرسول- صلى الله عليه وسلم- ، يأتي أبو بكر ومعه كل ماله ، لم يبق لأهله شيئا يقتاتون منه ، فيسأله الرسول الكريم سؤال ا لمشفق عليه (يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟!) ويجيبه الصديق (الله ورسوله) وهنا يكشف الحوار عن مفاجأة لم يتوقعها عمر فذهل عن نفسه ، ولكنه سرعان ما أفاق على حقيقة واقعة ، فحاور نفسه ، مؤكداً لها على سبيل القسم والتأبيد (والله لا أسبقه إلى شيء أبداً).

والنواحي البلاغية في هذا الحوار تكمن فيما يلي :

---

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح.، ينظر الجامع الصحيح لسنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ٥/٦١٤، تحقيق/ محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت، د.ت.

إلقاء الخبر دون تأكيد (أمرنا رسول الله أن نتصدق) ؛ لخلو ذهن السامع من مضمونه ، ثم اقترنت الجملة التالية بالفاء ؛ وهي عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب ، فلما أمر النبي- صلى الله عليه وسلم- بالتصدق صادف أمره وجود مال لدى عمر ، وفي الإشارة بـ- (ذلك) للبعيد دلالة على هذا الحذف تقديره : فوافق أمر النبي- صلى الله عليه وسلم- بالنفقة وجود مال عندي ، والتنكير يشير إلى الكثرة أي : مال كثير عندي ، وجملة (فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما) فيها إيجاز ؛ أي : فقلت في نفسي كذا ، حذف الجار والمجرور للعلم به ، وقدم الظرف (اليوم) على فعل المضارعة (أسبق) ثم جيء بـ (إن) في (إن سبقته يوما) وكأن عمر يستحضر هذا السباق في نفسه مرة بعد مرة ، ويحتمل وقوعه دون أن يجزم حقيقة ، لأنه لم يسبق أبا بكر في فضل يوما فهذه المرة حاول سباقه ، وظن أنه قادر عليه في ذلك اليوم خاصة.

والباء في قوله (فجئت بنصف مالي) للمصاحبة [1] فعبر بلفظ المجيء ثم عدّاه بالباء ، فعمر لما جاء لم يأت وحده بل جاء ومعه المال.

ثم سأل النبي- صلى الله عليه وسلم- عمر ـ رضي الله عنه ـ (ما أبقيت لأهلك) وهو استفهام حقيقي ويجيب عمر عليه بقوله (مثله) فحذف المسند (أبقيت) للدلالة عليه من سياق الاستفهام النبوي.

وعبر النبي- صلى الله عليه وسلم- بلفظ (البقاء) دون (الترك) لاختلافهما وإن بدا اللفظان متقاربين عند القارئ العجل ؛ فالبقاء لغة : "الدوام ، وهو ضد الفناء ، أما الترك فهو التخلية عن الشيء ؛ ولذلك تسمى البيضة بالعراء تريكة [2]ولعله اتضح ما قصده النبي الكريم وأدرك القارئ الفرق بين اللفظين ، فإبقاء عمر شيئاً لأهله يتعيشون به أياما هو ما قصده النبي الكريم.

والاستفهام الذي وجهه النبي- صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر في قوله (يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟) قصد به الإشفاق على أهل أبي بكر فلم يُبْقِ لهم الصديق شيئا ، وما ويحيه النداء بكنيته- رضي الله عنه- من تكريم له وتشريف ، فأبو بكر آثر الله ورسوله عليهم

---

(١) ينظر معاني الحروف للرماني، ص٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس،تحقيق عبد السلام هارون ١/ ٢٧٦، ٣٤٥، باب الباء والقاف وما يثلثهما في الثلاثي، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

حين قال (الله ورسوله) أي أبقيت لهم رضا الله ورسوله ، فحذف المسند (أبقيت) ؛ للدلالة عليه من سياق استفهام النبي الكريم ؛ مسارعة إلى ما هو مناط الاهتمام ، وهو ما وقع عليه الإبقاء.

وتعقيب عمر بن الخطاب لما حصل بقوله (والله لا أسبقه إلى شيء أبدا) حيث ألقى الخبر مؤكدا بـ (القسم ، ولفظ" أبداً) ؛ لما تبادر إلى ذهنه أنه يستطيع اللحاق بأبي بكر في الفضل ، ثم تبين له عكس ذلك ، فحين رأى ما رآه من الصديق تيقن أنه واهم في ذلك ، فهو لن يبلغ ما بلغه أبا بكر ، فحسن تأكيد الخبر بهذه المؤكدات لدفع كل هذا التوهم.

حواره- صلى الله عليه وسلم – مع الصحابة حول الجهاد

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- :(ما تعدون الشهيد فيكم؟) قالوا : يا رسول الله ، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: (إن شهداء أمتي إذاً لقليل). قالوا : فمن هم يا رسول الله؟ قال: من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون فهو شهيد ، ومن مات في البطن فهو شهيد). وفي رواية (والغريق شهيد). رواه مسلم. (١)

لقد بدأ النبي الكريم حواره بسؤال أثار اهتمام الصحابة من حوله مع علمه- صلى الله عليه وسلم- بحقيقة الشهيد ، لكنه أراد اختبار علمهم به ، وتقرير معناه في نفوسهم ، فالشهيد ليس هو من قتل في سبيل الله فحسب ، وإنما الشهداء من أمته- صلى الله عليه وسلم- كثيرون ، وهم من نالوا نفس منزلة الشهيد الذي يقتل في سبيل الله ، وهم من صبروا واحتسبوا الله تعالى ، كالمبطون ، والذي أصابه داء الطاعون ، والغريق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وفيه دليل على عظم ثواب من احتسب وصبر، وعظم من تحمل مرارة الألم ، ومشقة العناء والضرر ، فكلها آهات وآلام ، يتحملها الإنسان بمشقة ، فهو ضعيف القدرة ، رهين الألم ، ولأن هنا ك قلباً مُليء بالإيمان ، ومن هذا المنطلق كان الذي يصبر على البلاء في منزلة الشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الله تعالى.

والنبي- صلى الله عليه وسلم- لم يرفض قولهم وإنما زاد عليه قولاً آخر ، فيه من عمق المعنى ما يؤثر في سامعه ، ويجعله يزداد علماً بجهله ، وضيق دائرة علمه ، كما يجعله يبادر بالعمل ، ويرضي بقضاء الله فيما لا يقدر على دفعه. وكان رده لهم فيه اللين ، والهدوء ، ورحابة الصدر ، وجاءت عباراته واضحة ، دالة على معناها ، كل عبارة تفضي للتي بعدها في نسق واحد ، يدل على السلاسة والجزالة معاً.

والحديث الشريف يزخر بالملامح البلاغية التي تتمثل فيما يلي :

التعريف والتنكير في قوله- صلى الله عليه وسلم- (الشهيد فيكم) ؛ حيث عرّف الشهيد بـ (أل) التي تدل على الجنس دون النظر للأفراد ، فالرسول الكريم لم يقصد شهيداً معيناً ؛ وإنما

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي، ٥/٥٥.

قصد من يطلق عليه هذا اللفظ في تصورهم ، فهي لبيان حقيقة الشيء وجنسه. والتنكير في قوله (فهو شهيد) يفيد التعظيم والتشريف ؛ لأن من كان هذا فعله وما فيه من المشقة ، والشدة ، والألم فإنه يستحق نيل لقب الشهيد ويضارعه في المنزلة والمكانة الشريفة.

وفي التعبير بالفعل (مات) الواقع صلة للموصول دون المضارع ، مع أن سياق الكلام يدل على المستقبل إيماء إلى تحقق الوقوع ، فمن تحقق موته في سبيل الله وجبت له الشهادة.

وفي قوله (فهو شهيد) جاء المسند إليه ضميراً والمسند اسما ظاهراً والكلام يكون تاما لو قيل : (من قتل في سبيل الله شهيد) بالاستغناء عن الضمير؛ لكن أراد النبي تأكيد المعنى في نفوس الصحابة- رضي الله عنهم- وإن لم ينكروا ذلك ، لكن حصل منهم ما يدعو إلى الدهشة والغرابة فأكد لهم الخبر بمؤكد واحد ، وأخبر بالجملة الاسمية ؛ ليكون ذلك أوقع في النفس [1].

ويتراءى التأكيد في قوله (إن شهداء أمتي إذا لقليل) فهي جملة مؤكدة بإن والجملة الاسمية (شهداء) ، واللام الدالة على الابتداء التي جاءت أيضاً تأكيداً لمضمون الجملة كما يقول ابن هشام : "ومن فوائدها توكيد مضمون الجملة ، ولهذا زحلقوها في باب (إن) عن مصدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدين." [2]، وتكثيف التأكيد- هنا- مع أن الصحابة- رضي الله عنهم- لم يشكوا ولم ينكروا مضمون الخبر جاء على سبيل التنزيل، لأنهم لما حصروا الشهيد فيمن يقتل في سبيل الله كأنهم ينكرون أن يكون ثم شهيد غيره ؛ ولذا جاء حرف الجواب (إذا) في ثنايا هذه الجملة المثيرة بوضعها إلى الترقب ، وكأنه قيل : إذا جعلتم الشهيد من قتل في سبيل الله فإن شهداء أمتي...الخ.

وفي حذف الشرط والإشارة إليه بالفاء إيجاز يكفل للتعبير متانة وجزالة ؛ إذ يحمي الأسلوب من الترهل بذكر ما يمكن الاستغناء عنه ، وفي سوق الضمير للجمع مع أن السياق يقتضي الإفراد ؛ إذ السؤال في بدء الحوار بالإفراد (ما تعدون الشهيد) وهو يقتضي أن يقال :

---

(١) جرى التحليل على أن (من) اسم موصول، مبتدأ، والخبر جملة (فهو شهيد) ووقع الفاء في جملة الخبر لشبه الموصول بالشرط، لكن لو اعتبرت (من) اسم شرط، وجملة (فهو شهيد) جواب الشرط، لكان يقال: أوثر جواب الشرط جملة اسمية، لدلالتها على الثبوت والدوام؛ إذ كان يمكن أن يكون الجواب: نال الشهادة. وعليه فجملة الجواب الواردة في الحديث لا يمكن الاستغناء فيها عن الضمير. ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل ٢/٤٠٨، ط٣، دار التراث بالقاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ١/٢٤٥، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(فمن هو يا رسول الله؟) لمحة دالة يشير إليها قوله- صلى الله عليه وسلم- :(إن شهداء أمتي إذاً لقليل)، وتتمثل تلك اللمحة في الإيجاز الذي يشير إلى كلام يتراءى من خلف كلامه- صلى الله عليه وسلم- ؛ فقد أدرك الصحابة أنه يريد أن يقول عقب الجملة التي فصلت من قمة الحديث الشريف: لا ، إنهم ليسوا قليلاً بل كثير. ومن ثم قالوا بضمير الجمع طبقاً لهذا الكلام المفهوم من السياق، فمن هم ؟ ، وهذه الفاء فاء الفصيحة ؛ لإفصاحها عن شرط مقدر يفهم من الكلام السابق ، والتقدير: إذا كان الشهداء كثيرين فمن هم..الخ. فأجابهم مبيناً كثرتهم: من قتل ، ومن مات ، ومن مات...الخ.

ونجد تتابع الإضافات وما تدل عليه من معانٍ جميلة في النفس، في قوله (شهداء أمتي) ؛ حيث أضاف ياء المتكلم إلى الأمة ؛ تشريفاً لها، فهي خير أمة أخرجت للناس ، وأضيف لفظ الشهداء إلى الأمة للسبب نفسه ، ولبيان منزلتهم عند الله وما أعده لهم من الأجر والثواب العظيم.

وفي الجملة الاستفهامية (فمن هم يا رسول الله) جيء بالضمير في سياق الاستفهام، وكان بالإمكان أن يقال: فمن الشهداء من أمتك يا رسول الله؟ ومن ثم استغني عن التصريح به ، وفي النداء بقولهم: يا رسول الله، جاء النداء للبعيد مع أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان قريباً منهم؛ وذلك للإعراب عن علو مكانته في نفوسهم ، وتعظيمهم له ، وفيه أيضاً حسن تأدب معه- صلى الله عليه وسلم- .

وفي جوابه- صلى الله عليه وسلم- عن سؤالهم في قوله(من قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في ...) جاءت الجمل موصولة بالواو للتوسط بين الكمالين ؛ إذ الجمل الأربع كلها خبرية لفظاً ومعنى ، ويجمعها الغرض المقصود منها وهو الظفر بالشهادة ، والمسند إليه والمسند لفظه واحد فيهما جميعاً.

ومن الملامح البلاغية فوق ذلك الكناية العابرة التي تأتي كلمح البصر، فتحمل في مفرداتها المعنى بكثافة ، وتؤدي الصورة البيانية في ثوب بديع، ومعرض لطيف، كما في قوله (مات في الطاعون) كناية عن المرض العضال الذي لا شفاء منه ولا دواء ، وإذا أصاب الإنسان فإنه ميت لا محالة ، وإذا كان بأرض فهو ابتلاء من الله تعالى للقوم ، واستخدم النبي الكريم حرف الجر (في) للدلالة على عموم هذا المرض ، وانتشاره في جسم الإنسان ، واليأس من الشفاء منه. ومثلها جملة (من مات في البطن) [(١)].

---

(١) المبطون: هو صاحب داء البطن، وهو الإسهال، قال القاضي: وقيل : هو الذي به الاستسقاء وانتفاخ البطن، وقيل: هو الذي يموت بداء بطنه مطلقاً. صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٥٥.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول الجهاد ما روي عن قتادة:

عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : كيف قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفرعني خطاياي؟ فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: (نعم وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر إلا الدَّين فإن جبريل- عليه السلام- قال لي ذلك). (١)

في هذا الحديث مهد للحوار بتأكيد قضيتين مهمتين إن عمل بهما المؤمن فإنه سينال الدرجات العلى ، والثواب العظيم ، وهاتان القضيتان الجهاد في سبيل الله والإيمان به تعالى حق الإيمان ، وإن قدم الجهاد على الإيمان، والأصل: الإيمان ثم الجهاد، وذلك من باب ذكر العام بعد الخاص ؛ لبيان أفضليته بذكره مرتين ؛ مرة بذكره أولا ، ومرة بشمول الإيمان إياه، فما الجهاد إلا عن إيمان بالله ، وعزم على الشهادة في سبيله تعالى.

ووقوف الرجل يدل على أن شيئا مهما دفعه للنهوض وما ذلك إلا تعبير عن حاجة في نفسه استوجبت القيام ولذا قال: أرأيت" بالاستفهام المضمن معنى الأمر مراداً به الرجاء ، ثم بالاستفهام عن تكفير الخطايا ، وفي استدراك النبي- صلى الله عليه وسلم- على الرجل ما يدل على حرصه على تبليغ أمته بكل ما يحمله المَلَك المرسل ، وبيان ما يتصل بقضايا الدين الإسلامي.

وقد صيغت ألفاظ الحوار في جزالة ووضوح متناهيين، وجاءت في السياق على درجة من البيان والأدب النبوي الكريم ، فأفصحت عن نفس هادئة الطبع، كريمة الأصل ، تعطي الكلام حقه ، وتكن في تضاعيفه المعاني الغزيرة دون إملال.

وكما هي واضحة فهي كذلك تدل على معان بلاغية يستشفها المتذوق في نظم حديثه- صلى الله عليه وسلم- في مثل الاستفهام في قول الصحابي: "يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ "فقد خرج الاستفهام إلى معنى الاستخبار، ولا يخفى ما في الاستفهام بهذه الصورة من دلالة على مقصود الصحابي حيث أن قيامه بعد أن كان

---

(١) رواه الترمذي في سنه وقال حديث حسن صحيح.، ينظر الجامع الصحيح لسنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ٥ /٦١٤ تحقيق/ محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي بيروت، د.ت.

قاعداً ينبئ عن أهمية ما يسأل عنه ، وقد عبر عما يختلج في ضميره من حيرة ؛ فاستخدام النداء للبعيد مع أنه- صلى الله عليه وسلم- كان قريبا منه ، وعبر بالفعل الماضي المبني للمجهول (قتلت) وأعقبه بفضله [1] وهي شبه جملة (في سبيل الله) تدفع توهم أن يكون القتل قصاصاً أو عدواناً ؛ المعنى إن تحقق قتلي وثبت استشهادي في سبيل الله- تعالى- تكفر عني خطاياي؟ بصيغة الجمع (خطايا) ؛ للدلالة على كثرتها ، وعظم فعلها ؛ لذا أضيف إليها الضمير (الياء) في خطاياي.

والاستفهام الأول كان مقدر الأداة بينما كان الثاني بأداة الاستفهام (الهمزة) التي تفيد التصور والتصديق ، في قوله (أتكفر) ؛ فالرجل لم يكرر السؤال إلا عند استيضاح النبي بقوله كيف قلت؟ وكأنه أنزل النبي- صلى الله عليه وسلم- منزلة من يشك في أمر ويطلب إيضاحه وبيانه ، وقد يكون في تكرار السؤال على مسامع الحاضرين من الصحابة إشارة إلى فضل الجهاد في سبيل الله ، إذا أدى ما عليه من حقوق الآدميين يقول العيني : "في قوله (إلا الدَّين) فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين ، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما لا يكفر حقوق الآدميين ، وإنما يكفر حقوق الله تعالى"[2].

واستخدام النبي الكريم لاسم الفاعل بصوره المتعددة مثل (صابر ، على وزن (فاعل) و(محتسب) على وزن (مفتعل) و(مقبل ، مدبر) على وزن (مفعل) لدلالتها على الثبوت والدوام فالمعنى : إن قتلت وأنت متصف بهذه الصفات اتصافاً دائماً كفرت خطاياك ، ولا يخفى أن هذه الصورة إخبار عن ضمير المخاطب في جملة حالية هي قيد منصب على فعل الشرط (قتلت) ومجيء فعل الشرط في صورة الماضي - وإن كان المراد به الاستقبال - لوقوعه في حيز أداة الشرط (إن) وهي تخلص الفعل للاستقبال- أقول مجيئه في صورة الماضي- ؛ لإفادة تحقق الفعل في المستقبل. والتعبير بـ (إن) الشرطية- وهي لما هو مترجح بين الحصول وعدمه- ؛ للإيماء إلى الصبر ، والاحتساب ، والإقبال ، وترك الإدبار في ميدان القتال نادر الحصول ؛ لما هو مركوز في الطباع أن المرء يحرص على الحياة ، فالصبر والثبات في الحرب- وهو مظنة الهلاك- قليل نادر.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٧/٥٤.

(٢) المقصود بالفضلة ما يكون بعد المسند إليه والمسند كالحال وغيره من متممات الكلام.

وفي قول الراوي (ثم قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-)إشارة إلى أن ثمة فترة يسيرة من انقطاع الكلام بينهما ، ثم تدارك النبي- صلى الله عليه وسلم- الأمر فعاود الحديث سائلاً الرجل بقوله (كيف قلت؟) دون (ماذا قلت؟) وكان المفترض السؤال عن الماهية ؛ لأن من المعروف أن الاستفهام بـ (كيف) تعني الحال دون ماهية الشيء ، لكن لما كان سؤال الصحابي مباشراً دون قيود أو حدود تستوجب الالتزام ، ولأن الوحي لما نزل بما يفيد الالتزام بقضاء الدين قبل الخروج للجهاد في سبيل الله سأل عن الكيفية دون الماهية ؛ ولذا جاء الدين معرف بـ (أل) للعهد العلمي ، والإشارة إليه في صورة محسوسة مشاهدة مما يفيد هذا العلم.

ويلحظ إيجاز الحذف في الحديث في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (نعم وأنت صابر...) ، ومثله الحذف في (إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك) وتقديره : إلا الدين لا يكفر خطاياك ؛ لأن جبريل قال لي إنه لا يكفر ذلك..، وحذف للعلم به والإشارة إليه في سياق الكلام.

ومن التأكيد المعنوي الذي يعمق المعنى ويزيده رسوخاً وثباتاً في نفس السامع ما كان في قوله "صابر محتسب ، مقبل غير مدبر" فما الصبر إلا عن احتساب ، وما الإقبال إلا غير الإدبار.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول الجهاد ما روي عن أبي هريرة قيل للنبي- صلى الله عليه وسلم- ما يعدل الجهاد في سبيل الله- عز وجل- قال: (لا تستطيعوه) قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول (لا تستطيعونه) وقال: في الثالثة (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام وصلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى). (١)

كعادة الصحابة كانوا حريصين على فعل ما يقربهم إلى الله زلفى، مهما كلفهم من جهد ومشقة مضنيين، فسعيهم لغاية هي بلوغ الفردوس الأعلى، وهذا ما جعلهم يسألون عما يساوي الجهاد في سبيل الله.

حوار يسير هادئ، وإن بدا فيه تحفُّزُ مشاعرهم وتشوُّق لمعرفة المعادل، لكن النبي- صلى الله عليه وسلم- أجابهم عنه بنفي القدرة عليه، مما زادت مشاعرهم تحفزاً ونفوسهم شوقاً.

وتكرر السؤال منهم ما الذي يعدل الجهاد؟ وفي كل مرة يقول لهم: لا تستطيعونه، أجل إنه عظيم الشأن، رفيع المنزلة؛ لما فيه من إكراه النفس التي تحب الحياة، وتخشى الموت والهلاك، ولما فيه من حملها على الفداء والتضحية في سبيل مرضاة الله، وبلوغ الجنة، فلما رأى منهم إصراراً على معرفة ما يعدله، بين لهم أنه مثله الصائم الذي لا يفطر، والقائم بالليل الذي لا يفتر حتى يرجع المجاهد.

هذا هو المعنى الذي حمله هذا الحوار، فإذا نُظر إلى بلاغته استبان معالمها في:

سهولة الألفاظ وخفتها على اللسان، فهي تجري عليه جريان الماء في الجدول لا يعوقه شيء وتنقدح معانيها في العقل، كما تنقدح النار من الزند، فلا يحتاج القارئ إلى مراجعة معجم، ولا إلى إطالة النظر، غير أن هناك كلمتين يحتاج القارئ إلى التوقف فيهما لمعرفة السر في إيثارهما:

الأولى: كلمة الاستطاعة في قوله- صلى الله عليه وسلم- (لا تستطيعونه) لما أوثرت ما هو بمعناها وهو القدرة؟ ولم يقل (لا تقدرون)؟

والذي يلوح لي: أن في لفظ الاستطاعة إيماء إلى مراودة النفس لحملها على القيام بشيء تبدو صعوبة القيام به واضحة، هي تتأبى، وصاحبها يتحيل لإغرائها لتنقاد لما يراد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٤/٥.

منها ؛ يشير إلى تلك المراودة والتحيل مادة الكلمة (طوع) وهي في أصلها تحمل معنى الانقياد ؛ فالطاعة انقياد لما يؤمر به ، وينهى عنه ، وزيادة الهمزة والسين ، والتاء تفيد التلبس بها.

وكأن النبي- صلى الله عليه وسلم- يقول لهم: إنكم تعجزون عما يعدل الجهاد ، وإن حملتم أنفسكم على القيام به ، وبالغنم في حملها عليه ، لصعوبته وعسره ، وهذا المعنى لا يفيده لفظ القدرة ، فلو قال (لا تقدرون) لما أومأ إلى المراودة ، والتأبي ، والعجز بعد محاولة الملابسة.

الثانية: الفتور في قوله- صلى الله عليه وسلم- (لا يفتر) ؛ فقد أوثر هذا اللفظ دون ما يؤدي معناه وهو الترك أو الانقطاع ؛ لما يوحي به من بذل الجهد إلى أقصى غاية ، فإذا تعب المرء ولم يعد لديه قدرة على الاستمرار ، تسلل الفتور إلى جسده فترك العمل واسترخى ، فالفتور يكون بعد التعب الذي أنهك الجسم وامتص كل ما فيه من طاقة عن العمل ، وهذا ما بينه الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[1] حيث قال: "النصب التعب، واللغوب: الفتور الذي يعبقه"[2] ولو قال النبي- صلى الله عليه وسلم- لا يترك ، أو لا ينقطع لما كان فيه الإيماء المذكور ؛ فالمرء قد يترك العمل أو ينقطع عنه وهو موفور القدرة والنشاط ، لأمر (ما) غير الإنهاك الحاصل بعد بذل الوسع والطاقة.

وقد أشار إلى ذلك النووي إشارة عجلى- في سياق بيان فضل الجهاد- فقال: "فيه عظيم فضل الجهاد ؛ لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله أفضل من الأعمال وجعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ولهذا قال لا تستطيعونه"[3].

وبالنسبة لتعريف الجهاد بـ(أل) فهو للعهد العلمي ، فكلهم يعرفون الجهاد وما فيه من عناء وما قد يترتب عليه من فقد المال والتضحية بالنفس ، ومثله تعريف (المجاهد ، الصائم ،

---

(١) سورة فاطر، آية:٣٥.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري٣/٣١٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٢٤.

القائم، القانت) أما التعريف بالإضافة في (سبيل الله، آيات الله) فللتشريف والتعظيم في كل منهما بإضافتهما إلى لفظ الجلالة (الله).

وتنكير (صيام، صلاة) فهو للتكثير أي: صيام أيام كثيرة ، وأداء صلوات كثيرة فيها من الأجر ما الله به عليم.

ولينظر القارئ إلى إيجاز القصر في قوله- صلى الله عليه وسلم- :لا تستطيعونه) ؛ فقد اكتنزت هذه الجملة القصيرة التي بلغ من قصرها أنها تنطق في صورة الكلمة..اكتنزت معنى أن يقال: المعادل للجهاد في سبيل الله الذي تتطلعون إليه وتسألون عنه إذا عرفتموه لا تستطيعون القيام به. ألا ما أفصحه- صلى الله عليه وسلم- وأبلغه ! ولا عجب ؛ فلقد أوتي جوامع الكلم.

أما الإطناب في قوله (لا يفتر من صيام وصلاة حتى يرجع..) فهو للاحتراس حتى لا يتوهم أنه يكسل عن الطاعة بل هو متواصل دائب عليها ، وهذا من المبالغة التي يستسيغها العقل ولكن قد لا تجري العادة بذلك.

وفي ذكر المسند إليه في قوله (حتى يرجع المجاهد في سبيل الله) مع أنه كان يكفيه أن يقول: حتى يرجع ؛ لذكره آنفاً ـ أعني ـ أنه وضع الاسم الظاهر موضع الضمير على خلاف قصد الظاهر ، وقد آثر النبي- صلى الله عليه وسلم- ذلك ؛ لتتأكد حقيقته في نفوس الصحابة- رضي الله عنهم- .

ومن بيان الحديث التشبيه في قوله(مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام وصلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى) ؛ فالمشبه شيء محسوس تمثل في المجاهد في سبيل الله ، والمشبه به الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام وصلاة...، وبهذا التشبيه تأكد في نفوس الصحابة واستقر في دواخلهم أنهم لا يستطيعون القيام والصيام المتواصلين إلى أن يرجع المجاهد ، وقد آثر- صلى الله عليه وسلم- أن يفرغ هذا المعنى في إطار التشبيه لتجلية المعادل في صورة محسوسة فإن المحسوس أقوى في إبراز المعنى من المعقول ، لقد كان يمكنه- صلى الله عليه وسلم- أن يقول: الذي يعدل الجهاد الجمع

بين القيام والصيام مع الاستمرار فيهما حتى يرجع المجاهد ، ولكن ذلك أمر معنوي، وإدراكه أقل من إدراك الرجل المشاهد صائماً قائماً لا يفتر.

وههنا أمر ينبغي ذكره وهو أن المشبه به ليس أقوى من المشبه- كما هو الغالب- في التشبيه ؛ فالصائم القائم ليس أعظم أجراً من المجاهد، وليس أكثر معناه في تحمل النصب والتعب، بل وليس مساوياً في أي منهما، فالتشبيه هنا لتقريب المعنى إلى الذهن.

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول الجهاد ما روي عن عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال:

حدثتني أم حرام بنت ملحان أخت أم سليم أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال (من القيلولة) عندهم فاستيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت يا رسول الله ما أضحكك؟ قال: (رأيت قوماً ممن يركب البحر كالملوك على الأسِرَّة) قالت: قلت يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم، قال: (فإنك منهم) قالت: ثم نام فاستيقظ وهو يضحك قالت: فقلت: يا رسول الله ما أضحكك؟ فقال: مثل مقالته. قالت: قلت: يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم قال: (أنت من الأولين) قال: فتزوجها عبادة بن الصامت فغزا في البحر، فحملها معه، فلما رجع قربت لها بغلة لتركبها فصرعتها فاندقت عنقها، فماتت" [(١)].

يخبر النبي- صلى الله عليه وسلم- عن رؤيا رآها في منامه ؛ فقد أخبر أم حرام- رضي الله عنها- عن قوم يأتون بعده يغزون في البحر في سبيل الله، لا يهابون أهوال الأمواج العاتية إذ هي من الصعاب التي يتحملونها محتسبين ذلك عندالله تعالى وكأنهم كالملوك على الأسرة؛ لعظم شأنهم عند الله تعالى، وأن من كان هذا حاله كان جديراً بالفردوس الأعلى.

لقد شاهدت أم حرام النبي- صلى الله عليه وسلم- في كل مرة يستيقظ- وهو مسرور- فتعجبت لذلك أشد العجب، وتحركت في نفسها الرغبة في إدراك حقيقة الأمر منه- صلى الله عليه وسلم- (يا رسول الله ما أضحكك؟) ولما قال لها: (رأيت قوماً ممن يركب ظهر هذا البحر كالملوك على الأَسِرَّة) بادرت على الفور قائلة (يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم) وبذلك أدى الحوار وظيفته حين عبَّر عن موقف أم حرام مما سمعته، وأعجبت به، وعبَّر عن صدق رغبتها في أن تكون من هؤلاء الذين انبسط لهم الرسول الكريم حتى أدركتها المنية. وكان هذا الحوار هادئاً، واضح الألفاظ، بيِّن المعاني.

ومن الخصائص البلاغية الكامنة في هذا الحديث ما يلي:

التنكير في (قوماً) لتعظيم شأنهم عند مولاهم حيث إن من يقتل في سبيل الله بأي حال ينال الجنة ويخلد فيها منعماً مكرماً، أو بيان مكانتهم بجعلهم كالملوك على الأَسِرَّة فكونهم ملوكاً يجعل الصور في النفس تتداعى فيتخيل السامع كل معاني السؤدد، والرفعة، والسلطة، والنفوذ، ويزيد هذا التكثيف ما يوحيه حرف الجر (على) من تمكن استعلائهم وما الأَسِرَّة إلا

---

(١) سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ٢٤/٥٩، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر بيروت. د.ت.

رمز أو مظهر لهذا العلو، أما ما يقابله من تعريف في (رسول الله) فلتشريفه- صلى الله عليه وسلم- بنسبة الرسالة إلى الله تعالى، والتعريف بـ (أل) في (البحر، الملوك، الأَسِرَّة، الأولين) فهو للعهد العلمي فلا يخفى على أم حرام حقيقة كل ذلك كما يظهر في استحضار صورة البحر المعهودة بالإشارة إليه (هذا البحر)، أما تعريف الأولين فلذكرهم في أول الكلام فقوله لها (أنت من الأولين) أي: من الذين كانت رؤياهم في الأولى، ومجيء (من) هنا للتبعيض.

وخرج الاستفهام - كما هو واضح - في قول أم حرام (يا رسول الله ما أضحكك) عن ظاهر معناه الحقيقي إلى التعجب؛ فهي تتعجب من فعل النبي- صلى الله عليه وسلم- حين رأته يقوم في كل مرة مسروراً، وما النداء إلا لشعورها بغرابة الموقف، وتعجبها منه.

كما خرج الأمر في قولها (يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم) إلى معنى الرجاء؛ فهي لشدة حرصها على بلوغ ما بلغوا صدَّرت كلامها بالنداء الذي عبَّر عن موقفها مما سمعته، وطلبت من الرسول- صلى الله عليه وسلم- أن يدعو لها بأن يلحقها الله رتبتهم وتكون منهم.

وقوله لها (فإنك منهم) بالتأكيد بإن؛ لينفض عن نفسها غبار الشك والريبة، وأفصحت الفاء عن صدق نيتها، وكأنه قال: فإن كنت تحبين ذلك فإنك منهم، وقوله لها (أنت من الأولين) ألقى الخبر خالياً من التأكيد؛ ليعين لها مكانتها فهي ممن ذكرهم أولاً، وليست من الذين ذكروا بعد ذلك.

ويلحظ إيجاز القصر في قوله- صلى الله عليه وسلم- (رأيت قوماً ممن يركب ظهر هذا البحر كالملوك والأَسِرَّة)؛ فالمعاني مكثفة في نفس السامع وإن بدت الألفاظ قليلة وهذا من جوامع كلمه- صلى الله عليه وسلم-.

وفي الحديث صورة من صور البيان هي التشبيه المرسل المجمل[1] في قوله (رأيت قوماً ممن يركب هذا البحر كالملوك على الأسرة)؛ فقد ذكرت فيه الأداة ولكن حذف وجه الشبه بين المشبه به (الملوك على الأسرة)، ووجه الشبه الرفعة والعلو في كل، وبذلك يتبين المعنى في نفس أم حرام، ويستقر في وجدانها.

---

(١) التشبيه الذي تذكر فيه الأداة ويحذف منه وجه التشبيه هو المرسل المجمل.

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول الجهاد ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم- قال: (يا أبا سعيد من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علي يا رسول الله ، ففعل ثم قال: (وأخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.) قال: وما هي؟ يا رسول الله .قال: (الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله)[1].

دار الحديث الشريف- حول قضيتين ؛ الأولى تأصيل اليقين في القلب ، والثبات على الاستقامة بالرضا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، والثانية حول فضل الجهاد ومكانة من يقتل في سبيل الله تعالى.

حوار لطيف نبع من صدق محبته- صلى الله عليه وسلم- لإخوانه، وحرصه على تعليمهم كل ما ينفعهم ويعود عليهم بالخير، والثواب العظيم، وظهرت تلك المحبة من ندائه لأبي سعيد- رضي الله عنه- فأثار هذا النداء اهتمامه بأمر عظيم إن فعله نال ما تمناه من أعماق قلبه وهو دخول الجنة ، وبدا هذا الاهتمام في نفس أبي سعيد حين أسرت قلبه كلمات كان لها صدى في نفسه ، فما إن سمعها حتى أنبهر منها ، ورغب في سماعها مرة أخرى، وهذا شأن الصحابة حين تعجبهم عبارة يسعون إلى تكرارها أو طلب المزيد عنها.

وحين يجيل القارئ النظر في الحديث متلمساً خصائصه البلاغية ، ستبادره ألفاظه بسهولتها ووضوحها ،وسيروعه التنكير في ألفاظ (ربا، ديناً، نبياً، درجة) ؛ إذ هو لتعظيم الرب- جلا وعلا- ، وتعظيم الدرجة التي يرنو إليها من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً.

أما التعريف في كلمات (الله، والإسلام، ومحمد، والجنة) فهو في هذه الأربعة بالعلمية لاستحضار ما يخص كلاً منها ، وقد ذكر سر التعريف بالعلمية صاحب المصباح وإن كان حديثه عن المسند إليه- حيث قال: "وأما مجيء المسند إليه علماً ، فكون المقام مقام إحضار بما يخصه من الاسم كقول الشاعر: [2]

أبو مالك قاصر فقره　　　　على نفس ومشيع غناه[3]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٥/٦.

(٢) نسبه صاحب الأغاني إلى المتنخل، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ج٢/٩٥ تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، د.ت.

(٣) المصباح في المعاني والبيان البديع- بدر الدين بن مالك: ١٠٥- ١٠٦.

وفي كلمات : (العبد ، السماء ، الأرض ، الجهاد) فهذه الأربعة عرِّفت بأل بيد أن الأول منها تفيد فيه الشمول ؛ لأنها للجنس الذي يشمل كل امرئ يتصف بالعبودية لله- عز وجل - ، أما الثلاثة الأخيرة ؛ فاللام فيها للعهد ، والسماء والأرض معلوم أمرهما للمرء ؛ فالسماء فوقه ، والأرض تحت قدميه ، وجيء بهما ؛ لتصوير علو الدرجة في الجنة ، وعلو الجهاد وما فيه من التضحية بالمال والنفس وهذا مما لا يجهله أحد ممن اعتنق الإسلام عقيدة ، أما إضافة (سبيل) إلى لفظ الجلالة فالتعريف بها لتعظيم السبيل وتشريفه ، ومن ثم تعظيم الجهاد الذي هو متعلق الجار والمجرور (في سبيل الله).

وعبَّر عن المضارع بلفظ الماضي في قوله (رضي ، وجبت) ؛ للإيماء إلى تحقق حصول الرضا من المسلم ، وتحقيق وجوب الجنة له ؛ وفي ذلك تحفيز وترغيب له على تحقيق الرضا ، أما التعبير بالمضارع في قوله (يرفع) فلإفادة التجدد والحدوث ، فكلما جاهد المرء تجدد له رفع الدرجة في الجنة.

وتقديم الجار والمجرور على المفعول في قوله (يرفع بها العبد) إنما هو لبيان أهمية الموصوف بالصفة (أخرى) ؛ لكونها سبب الرفع لتلك الدرجة.

ويروع المتلقي في هذا الحديث كلمة (أخرى) ؛ حيث أنها صفة لموصوف لم يذكر ، والمتذوق حين يلقي نظرة على تلك الكلمة تثور في نفسه تساؤلات شتى : ما الأخرى؟ أهي عبادة؟ وما تلك العبادة ؟ أثمة عبادة أخرى غير ما عرف من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج؟ أم هي خصلة حميدة يحسن بالمسلم أن يتصف بها ؟ أم خلق رفيع ينبغي للمسلم أن يتخلق به ؟ وتلح هذه التساؤلات حينما تتبعها صفة أخرى هي قوله (يرفع بها العبد...الخ)

صفتان تزيدان المتلقي شوقاً إلى معرفة الأخرى التي يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة كل درجة لها هذا العلو البالغ.

وقد كان هذا الإيهام المتعمد سبباً في تلهف أبي سعيد الخدري على معرفتها ، فما إن فرغ النبي الكريم من ذكرها ، وذكر الصفة التي تليها حتى بادر بالسؤال المراد إثارته قائلاً : (فما هي يا رسول الله).

يا له من شوق بالغ اشتدت وقدته في حنايا هذا الصحابي الجليل... وما إن بلغ الشوق مداه ، وتبين للنبي تيقظ ذهنه ، ودقة وعيه لما سيلقيه عليه أجابه قائلاً (الجهاد في سبيل الله).

وذِكْرُ صفة بعد صفة سابقة عليها لموصوف واحد نوع من الإطناب يستهدف به تعظيم الموصوف وهو الجهاد الذي لم يذكر إلا بعد التشويق بالوصف.

على أن هذا الإطناب تضمن إيجازاً تشير إليه الواو، والصفة، بحذف أكثر من جملة والتقدير: فالرضا وسيلة لوجوب الجنة ، وثمة وسيلة أخرى (يُرفع بها العبد) أرأيت إلى قدرته البلاغية التي تجمع بين الإيجاز والأطناب في عبارة يظن أنها جد قصيرة إنه يترك المحذوف ليطل من وراء النقاب ليجذب المتطلع إلى استجلاء ما تخفّى.

إنه كنى عن الموصوف بالصفة ، ولكن الصفة لم تنفرد بالإشارة إليه ، بل ساعدهم على ذلك أداة العطف التي تشير أيضاً إلى معطوف عليه مخبؤ قبلها.

وإلى جانب الإطناب بتعدد الوصف ، يطالع المتلقي إطناب آخر بالتكرار ولكنه لتأكيد رفع العبد في الجنة تلك الدرجات الفساح. ألا لله دره من بليغ!!.

حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية)

أولاً : العلاقات الاجتماعية :

عن أبي أمامة قال :

إن فتى شابا أتى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه؟ مه؟ فقال أدنه . فدنا منه قريبا ، فجلس... فقال النبي : (أتحبه لأمك؟) قال : لا والله جعلني الله فدائك. قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) قال : (أفتحبه لابنتك؟) قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال : (ولا الناس يحبونه لبناتهم) قال : أفتحبه لأختك؟) قال : لا والله جعلني فداءك. قال : (ولا الناس يحبونه لأخواتهم) قال : (أفتحبه لعمتك؟) قال : لا والله جعلني الله فداءك. قال : (ولا الناس يحبونه لعماتهم) قال : أفتحبه لخالتك؟) قال : لا والله جعلني الله فداءك. قال : (ولا الناس يحبونه لخالاتهم) قال : فوضع يده عليه ، وقال : (اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) [(١)].

كانت الشهوة عارمة في طبيعة هذا الشاب ، وقد ظن في البداية أن إباحته ممكنة ، وما عليه إلا أن يطلب من الرسول –صلى الله عليه وسلم- تلك الإباحة ، أليس التحليل والتحريم يأتي على لسانه؟

لم يكن يدرك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- مبلغ عن الله ، وأنه عندما يحلل شيئاً أو يحرمه فإن ذلك عن أمره- جل وعلا- .

أقبل الشاب على النبي الكريم ، ورفع إليه مطلبه أمام جمع من الصحابة ، وكان هذا المطلب- في نظرهم- وقاحة يجب زجر الشاب عنها ، فقالوا مؤكدين على سبيل التكرار : مه ، مه.

ولكن المربي الكريم عرف كيف يرد هذا الشاب عن غوايته فعالج الموقف بحوار هادئ لطيف انتهى بإقناعه ، وبالدعاء له ، فقام الشاب مقتنعاً ، راضي النفس بتلك الدعوة التي رطبت فؤاده ، وأطفأت شهوته فلم يكن يلتفت إلى شيء بعده .

إنه الحوار الهادئ الرقيق المتوج بالمعاملة والإقناع الفكري معا انطلاقاً من قوله- صلى الله عليه وسلم- (ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه). [(٢)]

---

(١) علق عليه شعيب الأرنؤوط وقال: "إسناده صحيح ورجاله ثقات هم رجال الصحيح. "مسند أحمد بن حنبل لأبي عبيد الله أحمد بن حنبل الشيباني ٥/٣٥٦ مؤسسة قرطبة، القاهرة د.ت.

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع ، الجامع الصغير وزيادته للألباني ص١٠٦٠، المكتب الإسلامي، د.ت.

وعند الإمعان في الحديث في محاولة إبراز الخصائص البلاغية ، والوقوف على سر جمال البيان النبوي ، كانت أول انطلاقة هي اختيار المفردة ، ثم ترتيبها في نظم الكلام مع رفيقاتها ؛ حتى تعبر عما اختلج في نفس المتكلم والمخاطب معا من معنى لا يتأتى إلا بها كالتعبير بلفظ المحبة في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (أتحبه) دون لفظ الإرادة (أتريده) مثلاً ، والمحبة للأم ، أو الأخت ، أو الخالة والعمة لا تكون إلا لفعل ما يوجب هذه المحبة كإرادة الإكرام لهن ، وصيانة أعراضهن ، ولفظ الإرادة لا يعطي هذا المعنى كما أعطاه لفظ المحبة ؛ ولذا قال العسكري فيهما : "إن المحبة تجري على الشيء ، ويكون المراد به غيره ، وليس كذلك الإرادة تقول : أحببت زيدا ، والمراد أنك تحب إكرامه ونفعه ، ولا يقال : أردت زيدا بهذا المعنى ، تقول : أحب الله أي : أحب طاعته ، ولا يقال : أريده بهذا المعنى ، فجعل المحبة لطاعة الله محبة له ، كما جعل الخوف من عقابه خوفا منه ، وتقول : الله يحب المؤمنين بمعنى أنه يريد إكرامهم ، وإثباتهم ، ولا يقال : إنه يريدهم بهذا المعنى ؛ ولهذا قالوا : إن المحبة تكون ثوابا وولاية ، ولا تكون الإرادة كذلك.[1]" ولما كانت بهذا المعنى حسن استعمالها مع لفظ الأم ، والأخت ، والخالة ، والعمة ، كما أن إضافة الأم ، والأخت ، والخالة إلى ضمير المخاطب فيه إثارة لوجدان الفتى في قوله(أمك ، أختك ، خالتك ، عمتك) ، وإيماء في تدرج النبي الكريم بذكر الأم ، ثم الابنة ، ثم الأخت ، ثم الخالة ، وأخيرا العمة إلى الأولوية في القرابة ، ومدى منزلة كل واحدة من المذكورات في نفس الشاب ؛ فالأم أول من يتلقاه الابن بالحب والاحترام ، فلها قبل البر والطاعة المحبة والعطف ، ولذا كانت الأم تمثل عند العرب منزلة رفيعة أبرزها الشعراء في معظم قصائدهم أمثال المتلمس إذ يقول : [2]

يُعيرني بأُمِّي رجالٌ ولن تَرَى ... أخَا كرم إلا بأنْ يَتكَرَّمَا
وهل لِيَ أمٌّ غَيْرها إنْ تَركتُها ... أبى اللهُ إلا أن أكون لها ابْنَما

وحين يعبرون عن حبهم لشخص (ما) يقولون : بأبي أنت وأمي.

ثم تأتي الابنة ، وعاطفة الأبوة تستلزم الحنان والعطف عليها ، بل ودفع الضرر عنها ، ولا يتصور أن يقدم الأب على ما يضر ابنته الحبيبة.

---

(١) الفروق اللغوية لأبي الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تعليق /محمد باسل عيون السود، ص١٣٨، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٢) نسبه صاحب كتاب الأغاني إلى المتلمس، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ٢/ ٢٥٥.

ثم بعد ذلك الأخت وغالباً ما يكون بين الأخ وأخته المحبة المتبادلة إذا ساوى الأبوان بينهما في المعاملة ، ثم العمة ، وبعدها الخالة فهما في مقام الأم ، والعمة أقرب من جهة الأب ، ثم الخالة من جهة الأم ، وهذا التدرج في ذكر القرابة جار مجرى قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ﴾[1] وقد بيَّن الباقلاني أن ذلك الترتيب هو الأمر المعتد به وفق تنزيل الخطاب حيث قال: "الذي يعتبر تنزيل الخطاب، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى، وذلك حاصل في هذه الآية إن تأملت ألا ترى أنه بدأ بكر الأم ؛ لعظم حرمتها ، وإدلائها بنفسها ، وكان بعضيّتها ؛ فهي أصل لكل من يدلي بنفسه منهن ، ولأنه ليس في ذوات الأنساب أقرب منها ، ولما جاء إلى ذوات الأنساب ألحق بها حكم الأم من الرضا ؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه فيتحصّل بذلك أيضاً لها حكم البعضية فنشر الحرمة بهذا المعنى ، وألحقها بالوالدة."[2].

ويلفت النظر تعريف (الزنا) بـ (أل) وهي للعهد العلمي فلا يخفى معناه لدى السامع ، ثم عبر عنه بعد ذلك بالضمير، ولم يذكره بلفظه في قوله (أتحبه لأمك..أتحبه لابنتك..إلخ) للتنزه عن ذكر اسمه .

والإيجاز بالحذف جلي في مثل قول (لا والله جعلني الله فداءك) بمعنى" لا أحبه لأمي أو ابنتي أو أختي.. ونحوه" وحذف للدلالة عليه من قول النبي الكريم عند سؤاله له ، وتأكيد هذا النفي بالنداء للبعيد (يا رسول الله) مع أنه كان قريبا منه ، بل دنوه منه ، وجلوسه بين يديه واضح دون أن يكون هناك ما يحول بينهما إلا أن (الشباب) أراد تأكيد النفي بالقسم متبوعاً بالنداء في (لا والله) ، ثم جاء بالجملة الاعتراضية ، وهذا نوع من الإطناب لقصد الدعاء للنبي- صلى الله عليه وسلم- . ومثله الحذف في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (ولا الناس يحبونه) وتقدير المحذوف: إن كنت لا تحبه لأمك أو ابنتك أو أختك..فالناس لا يحبونه لأمهاتهم..." حذفت جملة الشرط وبقي جوابها ؛ لوجود ما يدل عليه في السياق ؛

---

(١) سورة النساء ، آية:٢٣.

(٢) إعجاز القرآن للبلاقلاني ، أبي بكر محمد بن الطيب، ص٢٠٧، ٢٠٨، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف القاهرة، ط٥، د.ت.

فالإيجاز بحذف ما دل عليه السياق بلاغة ، حيث يسرع المحاوِر إلى ذكر ما يتطلبه الحوار مما يتعلق بالغرض منه.

والاستفهام في قول النبي (أتحبه لأمك؟) ،(أتحبه لابنتك؟) ،(أتحبه لأختك؟) ،(أتحبه لعمتك؟) ،(أتحبه لخالتك؟) جميعه تقريري ليقر الشاب بخطورته ، وسوء عاقبته وهذا ما جعل الشاب يجيبه بالنفي في كل مرة.

والأمر في قول النبي الكريم (اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه) خرج عن مقتضى الظاهر إلى معنى الدعاء له توخيا للإجابة ، وهذا ما جعل النبي- صلى الله عليه وسلم- يعبر بقوله (اللهم) دون (يارب) ؛ لما في هذا اللفظ من إشعار بالضراعة ، ومزيد الخشوع. كما جاءت كلمات هذه الجملة على نفس الزنة وإن اختلفت حروفها (ذنبه ، قلبه ، فرجه) ؛ لما تحدثه من إيقاع ينساب إلى أعماق النفس فتطرب له ، وتهدأ مشاعرها ، وذلك يأتي في ثنايا كلامه- صلى الله عليه وسلم- عفو الخاطر دون تكلف أو ابتذال.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن أبي هريرة- رضي الله عنه- :

أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)[1]

إن الغيبة محرمة بنص القرآن ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] واعتبرها بعض أهل العلم من الكبائر[3].

وفعل الغيبة لا يصدر إلا عن نفس ضعيفة، وربما يحنق البعض على إخوانه المسلمين فيستطيل في أعراضهم، ويظهر مثاليهم ومساوئهم، ويخطئهم في أفعالهم، وينتقدهم في تصرفاتهم؛ لذلك كان التحذير من الوقوف في الغيبة.[4]

وقد أثار الرسول – صلى الله عليه وسلم- الحوار بسؤاله عن مفهوم الغيبة الصحابة فجاء هادئاً وإن بدا عليه شيء من علو النبرة فإن ذلك لا يصل به إلى حد الشدة، فكل ما في الأمر أن الصحابي في استفهامه أظهر الرغبة في التوضيح والبيان، وكأنه يقول: إنه لا يذكره إلا بما شاهده، ووقف على حقيقته بنفسه، فهو صادق فيما يقوله، وقد لبى النبي- صلى الله عليه وسلم- هذه الرغبة بعبارة جامعة وموضحة لحرمة القدح في حق الغير؛ فإن كان

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ١١٠/٦.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٢.

(٣) نقل الصنعاني في سبل السلام عن القرطبي أنه اعتبرها من الكبائر للحديث (إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، للإمام/ محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، صححه وعلق عليه/فواز أحمد رمزلي وإبراهيم محمد الجمل، ٣٦٩/٤، دار الديان للتراث، د.ت..

(٤) " استثنى العلماء من الغيبة أموراً ستة أولها: التظلم فيجوز أن يقول المظلوم فلان ظلمني .ثانيها: الاستعانة على الغير على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته فيقول: فلان فعل كذا. ثالثها: الاستعانة بأن يقول للمفتي: فلان ظلمني بكذا فما طريقي إلى الخلاص منه؟ . رابعها: التحذير للمسلمين من الاغترار كجرح الرواة والشهود ومن يتصدر للتدريس والإفتاء مع عدم أهليته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: أما معاوية فصعلوك...إلخ الحديث.خامسها: ذكر من جاهر بالفسق أو البدع كالمكاسب وذوي الولايات الباطلة. سادسها: التعريف بالشخص بما فيه من العيب كالأعور والأعرج والأعمش ولا يرد به نقصه وغيبته". سبل السلام ٣٧٠/٤.

القدح موجوداً في هذا الغير حقا فهو الغيبة المستفهم والمنهي عنها ، وإن لم يكن فيه فهو أعظم من سابقه ، وبذلك لم يترك النبي- صلى الله عليه وسلم- مجالا لسؤال سائل.

والنواحي البلاغية في هذا الحديث متمثلة فيما يلي :

الاستفهام الذي وجهه النبي إلى أصحابه بقوله (أتدرون ما الغيبة؟) عرفت الغيبة بأل التي للجنس ، وهي هنا لتعريف الحقيقة والماهية ، ذلك لأن الغرض من هذا الاستفهام أن يعرض كل صحابي تصوره لمفهومها.

وقد سبق هذا الاستفهام بآخر في قوله- صلى الله عليه وسلم- (أتدرون) بإيثار الفعل (درى) على ما هو بمعناه (عرف) ؛ لأن الدراية إدراك حقيقة الشيء ، أما المعرفة فهي الوقوف على ظاهر الشيء دون العلم بجوهره ، وحقيقة أمره ، والمطلوب من الصحابة أن يبينوا حقيقة الغيبة دون ظاهرها ، ولذلك لم يجازف أحد منهم بالخوض في ذلك ، وردوا العلم بحقيقتها إلى الله تعالى ورسوله الكريم .

والتعبير بلفظ الأخ مضافاً إلى ضمير المخاطب فيه تنفير من هذا القول المكروه ؛ لأن رابطة الأخوة تدعو المرء إلى صون لسانه عن الإساءة إلى أخيه ، أو تشويه سمعته ، أو وصفه بما لا يليق ؛ ولذا قال بعض أهل العلم : "في التعبير عنه بالأخ جذب للمغتاب من غيبته لمن يغتابه إذا كان أخاه ، فالأولى الحنو عليه ، وطي مساويه ، والتأويل لمعايبه لا نشرها بذكرها.(١)"

والغرض من الاستفهام في قوله (أتدرون ما الغيبة؟) إثارة الاهتمام لدى أصحابه ، وذلك بتشويقهم إلى معرفة أمر (هم) أحوج الناس إلى معرفته ؛ حتى لا تنزلق أقدامهم فيقعوا في محظور ، ولما تحقق الغرض ، وردوا بتفويض العلم إلى الله ورسوله بادرهم بالبيان قائلاً : (الغيبة ذكرك أخاك..).

وقد آثر النبي- صلى الله عليه وسلم- هذا المسلك في الإبانة عن ماهية الغيبة وحقيقتها ؛ لأن الحوار من طبيعته إيقاظ الفكر ، وإثارة الشعور ؛ حتى يتمكن المعنى في النفس أيما تمكن.

وفي هذا البيان أوثر التعبير بالمصدر الصريح مضافاً إلى ضمير المخاطب المفرد (ذكرك أخاك) دون المصدر المؤول (أن تذكر) ؛ لأن المصدر الصريح يفيد ثبوت الذكر ، ووقوعه ، أما

---

(١) سبل السلام ٤/٣٦٩.

المصدر المؤول فيفيد أن الذكر سيقع ، وذلك لا يناسب بيان الماهية بخلاف الصريح ، ثم أفرد الضمير للغائب ؛ لأن إفراده يعني الشمول لكل من يصح خطابه ، سواء من كان جالساً مع النبي- صلى الله عليه وسلم- أو من لم يكن جالساً معه في زمنه ، وفي الأزمان التالية ، ولو قال (ذكركم أخاكم) لكان الخطاب موجهاً إليهم خاصة ، وذلك لا يناسب الغرض من تحريم الغيبة ، فهي محرمة على كل إنسان، وفي كل زمان ومكان.

ولم ينته الحوار ببيان حقيقة الغيبة ، بل أثار سؤالاً كان لابد أن يثار، ويتمثل في قول أحدهم (أفرأيت...) والاستفهام في هذه الجملة معناه الأمر المفيد للرجاء ، والمعنى: أخبرني إن كان في أخي ما أقول ، وهو يشير إلى استفهام يدل عليه السياق ، والتقدير: أخبرني إن كان في أخي ما أقول ، أيكون ذكري إياه به غيبة؟ ويلحظ في صيغة السؤال هنا وجود أداة الشرط (إن)، وهي مستعملة في موضعها إلا أن وجود العيب قائم على الاحتمال ، فقد يكون موجوداً وقد لا يكون.

وكان يمكن أن يجاب على هذا السؤال بالقول: نعم يكون ذلك غيبة ، يجيب فيكون الجواب على قدر السؤال ، ولكنه- صلى الله عليه وسلم- أراد أن يطنب ؛ لأن في الإطناب فائدة جديدة ، فقال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) إطناب فيه تربية على العفة في القول ، فلا يذكر المرء أخاه بعيب فيه فيكون مغتاباً ، ولا يذكره بعيب ليس فيه فيكون كذاباً.

إنه الحرص على سلامة العلاقات الاجتماعية وصفائها حتى يعيش المجتمع متحاباً متآلفاً. أقول: إن الحرص على ذلك دعاه إلى توجيه المسلمين إلى ترك ذكر المساوئ فيمن يتصف بها ، وإلى ترك اختلاقها ، ورمي الناس بها. فإن ذكرها في الأول غيبة ، وفي الثانية كذب ، وفي كل منهما من تعكير صفو المجتمع ما فيه.

يا لها من روعة تتجلى في تجاوز ما يفهم من القرائن، والاستغناء عنه بما يدل عليه، أرأيت إلى حذف الشرط وأداته لدلالة الفاء عليه في قوله (أفرأيت)، وإلى حذف جواب الشرط في قوله (إن كان في أخي ما أقول) لدلالته صدر الحديث، وما أثاره من استفهام عليه، إن الحوار هنا يكتفي بما يتعلق به الغرض، وكأنه سهام تستبق إلى غايتها فتتخذ من السياق ريشاً يمنحها قوة في هذا السياق.

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن أبي ذر قال:

كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية ، فنلت منها فذكرني إلى النبي- صلى الله عليه وسلم –فقال لي: (أسابيت فلانا؟) قلت: نعم ، قال: (أفنلت[1] من أمه؟) قلت: نعم .قال: (إنك امرؤ فيك جاهلية.) قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟! قال: نعم ، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه.) [2]

هذه كلمات قليلة لكنها تطرق القلوب قبل أن تطرق المسامع ؛ لتفصح عن معان نبوية عظيمة لها شأنها في النفس ، في ظلها تسود الألفة والمحبة ، وتقوى علاقة الإنسان بأخيه وفق منهج رباني قائم على المساواة في نسب الإسلام ، ومن هذا المنطلق راعى النبي- صلى الله عليه وسلم- حقوقاً أخوية أخرى تشمل رفع العنت، ودرء المشقة عن الضعفاء ، ومن هم تحت سلطة ولي الأمر وكان أمرهم بيده.

وما دار من حوار بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وبين أبي ذر- رضي الله عنه- قد مهد له بمقدمة موجزة موحية بجو المشكلة من حيث ابتداؤها بالسباب والمعايرة ، وانتهاؤها بقدوم الرجل- الذي سبه أبا ذر- شاكياً إلى النبي الكريم ، يلحظ فيه ـ أعني الحوارـ ارتفاع نبرته وحدتها ، وتصوير لانفعال النبي الكريم تجاه ما حدث ، كما هو جلي في قوله لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية) وما مراجعة أبي ذر للنبي- صلى الله عليه وسلم، واستخباره عن حاله ليس إلا لتعجبه من أن تكون مثل هذه الصفة كامنة فيه ، وقد بلغه الكبر، وعلاه المشيب، كما يلحظ في كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- الإيماء إلى التوبيخ ؛ حيث قرر أن فيه خصلة من خصال الجاهلية وهي التفاخر بالأنساب ، والعصبية للأجداد ، ثم أعقب هذا التقرير بالتوجيه إلى ما يجب على المرء نحو غلامه.

---

(١) يقال: "فلان ينال من عرض فلان إذا سبه ، وهو ينال من ماله وينال من عدوه إذا وتره في مال أو شيء كل ذلك من نلت أنال أي أصبت، ويقال نالني من فلان معروف ينالني أي: وصل إلي منه معروف. "لسان العرب لابن منظور ١٤/٣٣٩ حرف النون.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٤/١٩٠٩.

وعند النظر إلى الحديث لتذوقه بلاغيا فإن أول ما يلفت الانتباه، ويستحوذ على الفكر التعبير بصيغة (فاعل) في استفهام النبي- صلى الله عليه وسلم- في نحو قوله (أسابيت) وهي في الأصل تدل على اشتراك اثنين في فعل من الأفعال كالسب والشتم ونحوهما كما هو متبادر إلى الذهن من قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (أسابيت فلانا)، لكن قد يراد بها نسبة الفعل لأحدهما ؛ ولذا يقول أحد الباحثين نقلا عن بعض علماء العربية: "لعل صيغة فاعل من أقل الصيغ الفعلية تعددا في معانيها الوظيفية ؛ فهي تدل على معنى وظيفي عام هو المشاركة، وهو أكثر ما جاءت له....، وتأتي بمعنى (فعل) كما حكاه سيبويه: وقد تجيء فاعلت لا تريد بها عمل اثنين ولكنهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت كقولهم: ناولته وعاقبته."[١]وهي عندئذ تفيد المبالغة في حدوث الفعل، وبهذا يتضح أنها خاصة بأبي ذر وحده، والدليل على ذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال له دون أن يقول للرجل مثل ما قال لأبي ذر قال: (أسابيت فلانا؟) وكذلك ذكر أبو ذر في قصته مع الرجل أنه نال من أمه، فكلا الدليلين يؤكدان أن الفعل بدر من أبي ذر- رضي الله عنه- ويبدو أن أبا ذر اشتد سبابه للرجل ؛ ولهذا آثر النبي الكريم هذه الصيغة في سياق الاستفهام الإنكاري الذي يراد به اللوم، والتأنيب، ولوم أبا ذر بدأ من الإقرار بما سئل عنه وعقب النبي- صلى الله عليه وسلم- .

والتعبير بلفظ (جاهلية) إقراره بهذه الجملة التي تبلغ المدى في التوبيخ (إنك امرؤ فيك جاهلية) يومي بأنه لم يتأدب بأدب الإسلام، ومن ثم يجري لسانه بالسباب كشأن من لم يدخل الإسلام قلبه.

والتنكير يصور المعنى ويعطي دلالات كثيرة في نفس السامع في (فلانا، امرؤ، جاهلية) ؛ فتنكير لفظ (فلانا) مع أنه معروف لكونه غلاما لأبي ذر سترا عليه حتى لا يعرف من سبه فتشيع بين الناس مسبته التي سبه بها، ولا ريب أنا أبا ذر يعرف من سبه لاسيما وقد شكاه إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- . والتنكير في (امرؤ) ؛ ليتسنى الوصف بالجملة الاسمية بعده وهي للتقبيح ؛ فالمعنى أنك امرؤ سيء الفعل ؛ لأن ما صدر منه ينبئ عن قبح

---

(١) كتاب سيبويه لأبي بن عمرو بن عثمان بن قنبر، ٦٨/٤، تحقيق وشرح/عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ببيروت، ط١، د.ت. وينظر دلالة السياق د/ردة الطلحي ص ٣٨٨، ٣٨٩، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ.

فعله لا وصفه به على الدوام ، والتنكير في (جاهلية) يدل على قبح خصال الجاهلية المقوتة في تلك الفترة. أما التعريف في (إخوانكم، أخاه، العمل، ما يغلبه) ؛ فالتعريف بالإضافة في (إخوانكم، أخاه) فهو لتشريفهم مرة بالجمع إلى ضمير الخطاب، ومرة بالإفراد في ضمير المخاطب كذلك ، والتعريف في (العمل) بأل الجنسية ؛ إذ ليس المقصود عملاً معيناً ، بل أي عمل يمكن أن يُكلف به ، والتعريف بالاسم الموصول (ما) في (ما يغلبه) لما في الصلة من الدلالة على المشقة التي لا تحتمل ، و تقتضي النهي عن التكليف به ، ثم مجيء بقية أفعال المضارعة على هذا النحو في (يطعمه، يلبسه يكلفه يغلبه، يعنه) فكل فعل من هذه الأفعال يفيد حصول مدلوله في المستقبل على وجه التجدد والحدوث والاستمرار.

ومن الالتفات العجيب الذي سيق في نظام بديع ، ومعرض حسن ما جاء في قوله- صلى الله عليه وسلم – (هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده...) فيه التفات من الخطاب في (إخوانكم ، أيديكم) إلى الغيبة في الموصول (من) ليعم التوجيه كل من كان له أخ من الموالي، سواء في ذلك المعاصرين للرسول- صلى الله عليه وسلم- ومن جاء بعد عهده ممن آمن به ، وسار على نهجه.

ومن إيجاز الحذف ما يتجلى في قول أبي ذر: "على حين ساعتي هذه من كبر السن" ؛ حيث حذف جملة الاستفهام وتقديرها : هل فيّ جاهلية على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ وحذف ذلك لدلالة قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ، ومثله الحذف في أجوبة أبي ذر عن أسئلة النبي الكريم. ويلحظ المتأمل التفريع في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ (ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه) ففرع على النهي بجملة الشرط التي تبين أنه لا يجوز بحال التكليف من العمل فوق الطاقة ، فإذا كان ثمة عمل شاق لابد من إنجازه ، فعلى السيد أن يعين غلامه عليه ، ولا يتركه وحده ليقوم بهذا العمل بمفرده ، وفي هذا التفريع ما يؤكد النهي عن التكليف بما لا قدرة للغلام عليه.

ومن الكناية اللطيفة في هذا الحديث ما جاء في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (جعلهم الله تحت أيديكم) كناية عن سيادتهم لهم فعبر بظرف المكان (تحت) وما يفيده من رفعتهم ، ودنو منزلة المملوكين ، ولكن بالرغم من ذلك لابد من مراعاة حقوقهم وواجباتهم من حيث الرأفة بهم ، والحنو عليهم ، فلا يكلفوهم من الأعمال الشاقة ما يصعب تحمله ، ويرهقهم ، بل يعطفون عليهم ، ويراعون أحوالهم ، وظروفهم.

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما رواه أنس- رضي الله عنه – قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما). فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره.). [1]

يتناول الحديث نوعا من الظلم هو الاعتداء على الغير في نفسه ، وماله ، وهذا العدوان يؤدي إلى انهيار المجتمع مالم تكن هناك قوة راشدة تعمل على تلافيه ، والتخلص منه ، وذلك بأن تقف إلى جوار المظلوم تنصره ، وتشد من أزره ، وتأخذ على يد الظالم ، وتمنعه من ارتكاب الظلم ؛ وبذلك يأمن المجتمع ، وتستقيم الحياة.

وقد عمد هذا الحديث إلى خلق تلك القوة الراشدة في أسلوب بالغ الروعة ؛ حيث جعل المظلوم أخا ، والظالم أخا ، ووجه إلى ضرورة منع الأخ الظالم من ظلمه ، وسمى ذلك نصرا له ، وهو بذلك يضع مفهوما جديدا لنصر الأخ ، والوقوف إلى جانبه ، فالذي يفهم من نصره لأول وهلة هو معاونة المظلوم على حماية نفسه وماله ممن يعتدي عليه ، ولكن الرسول- صلى الله عليه وسلم- بيّن أن ذلك نوع من النصر ، وأن هنالك نوعا آخر هو الأخذ على يد الظالم ، ومنعه من العدوان على أخيه.

تناول الحديث هذا المعنى في أسلوب حواري يثير الدهشة والاستغراب ، حيث أمر بنصر الأخ ظالما أو مظلوما ، مثل هذا الأمر من شأنه أن يدعو إلى التساؤل عن نصره حال كونه ظالما ، وهذا ما كان من الصحابة- رسول الله عليهم- ، وهنا بيّن الصادق المصدوق كيف يكون نصره.

وقد حوى الأسلوب الحواري العالي النبرة- نوعا ما- خصائص بلاغية تتجلى في الآتي:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٢١٧٤/٤.

وضوح ألفاظه ، وسلاستها ، وخفتها على اللسان ، فليس فيها لفظ يحتاج إلى مراجعة معجم لغوي ، كما أنها تجري على اللسان في سهولة ويسر، فلا يجد القارئ لها ثقلا على لسانه ، ولا السامع لها ثقلا على سمعه.

وما جاء من خصائص بلاغية في تضاعيف هذا الحديث يمكن رؤيتها في اختيار اللفظة الموحية بالمعنى ؛ فالتعبير بلفظ (انصر) دون (أعن أو آزر) أبلغ ؛ لما له من خصوصية تتجلى في الفرق بينهما كما بينهما أبو هلال العسكري بقوله: "النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب ، والخصم المناوئ المشاغب ، والإعانة تكون على ذلك ، وعلى غيره تقول: أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه ، وأعانه على فقره: إذا أعطاه ما يعينه، وأعانه على الأحمال، ولا يقال: نصره على ذلك ، فالإعانة عامة ، والنصرة خاصة [1]." فاختص اللفظ بما هو محل خلاف كاختلاف الأخ على الحق لمن يكون ، ولمن يؤول.

والتعبير بـ (تحجزه) [2] أو (تمنعه) يوحيان بتلك القوة التي تأخذ على يد الظالم ، وترد لصاحبه المظلوم حقه ، ومنبع هذه القوة إرادة الحق ، وبغية الخير لكل الناس ، وعبر بالأخ ليدل على عمق الصلة، وقوة التلاحم بين المسلمين ؛ ولذا جيء بالضمير المتصل في (أخاك) وقد جعل المظلوم أخا، وفي التعبير عنه بهذا اللفظ إثارة للمروءة والنجدة ، ومدافعته بما استطاع من قوة، كما جعل الظالم أخا، وهذا من شأنه أن يثير الشهامة، فيأخذ على يديه ، ويحول بينه وبين ما أراده من ظلم ، وقدم لفظ (الظالم) على (المظلوم) لما كان الظالم يدعي القوة والتمرد على الضعيف المظلوم قدم عليه.

والأمر في (انصر أخاك) بمعناه الحقيقي وربما قصد به النصح ؛ لما في ذلك من التعاون على البر والتقوى.

والاستفهام (كيف انصره؟) خرج عن مقتضى الظاهر إلى معنى الاستغراب والتعجب، وورود (إن) في قوله (فإن ذلك نصره) لما في الخبر من غرابة تثير التساؤل كيف يكون المنع من

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص٢١٤.

(٢) معنى حجز كما جاء في اللغة": الحجز: الفصل بين شيئين، وقال الأزهري: الحجز: أن يحجز بين متقاتلين، وحجزه: منعه. "لسان العرب لابن منظور ٤/٤٣- حرف الحاء.

الظلم نصرا؟!، فأراد النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يتلقى الخبر بالقبول والتسليم من أول وهلة.

وفي الحديث إيجاز بالحذف؛ حيث حذف المسند إليه (اسم كان المحذوف) في (أرأيت إن كان ظالما) المقدر بـ (أخي) للعلم به ولذكره في قول النبي الكريم، وتعريف (الظلم) في (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره.) للعهد العلمي ، و لما بدا على السائل من علامات الشك والحيرة فهو في حكم الطالب له حسن تأكيده بإن في (فإن ذلك نصره)، والإشارة إليه بـ (ذلك) للبعيد، وكأن الأمر شيء محسوس يشار إليه بالبنان حتى يقف الصحابة على حقيقة النصرة فتتأكد في نفوسهم ولا تغيب عنهم.

والتعبير بقوله- صلى الله عليه وسلم- (فإن ذلك نصره) تشبيه ؛ حيث شبه المنع من الظلم المعبر عنه باسم الإشارة (ذلك) بالنصر، ووجه الشبه هو الفوز بالنجاة من العقاب المترتب على الظلم ، وأي ظفر و أي فوز أعظم من النجاة من العقاب الأخروي الذي لا شيء أحب منه إلى النفس ؛ فيه يزحزح المرء عن النار كما قال جل شأنه ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي قال:

جاءت امرأة إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله جئت أهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فصعد النظر فيها وصوبه، ثم طأطأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ، فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: (وهل عندك من شيء). قال: لا والله يا رسول الله. فقال: (اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا). فذهب ثم رجع، فقال: لا والله ما وجدت شيئا. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (انظر ولو خاتم من حديد). فذهب ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتم من حديد ولكن هذا إزاري ـ قال سهل ما له رداء فلها نصفه ـ فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (وما تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك شيء). فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- موليا فأمر به فدعي فلما جاء قال: (ماذا معك من القرآن؟). قال: معي سورة كذا، وسورة كذا. عددها، فقال: (تقرؤهن عن ظهر قلبك؟) قال: نعم. قال: (اذهب قد ملكتها بما معك من القرآن.)[1]

ظاهر الحديث حث على تزويج من هو متصف بالخلق والدين، دون الالتفات للمنصب الاجتماعي بين الناس، فالكفاءة هي كفاءة الدين لا الجاه أو النسب، فإن حمدت سجاياه وزانت أفعاله كان ذلك شافعاً له ؛ ولما كان النبي- صلى الله عليه وسلم- القدوة والمثل الأعلى للزوج الذي تتمناه كل امرأة صالحة كان حرص هذه المرأة الواهبة نفسها له ، كما أن في الحديث بياناً لواجبات الزواج الشرعي فهو قبل كل شيء يصدر عن رضا بين الطرفين ثم يقدم الخاطب مهرا لمخطوبته تقديرا لمكانتها عنده وخير المهور أيسرها.

وعبر الحوار عن رغبة المرأة في أن تحظى بشرف الزواج به- صلى الله عليه وسلم- في قولها صراحة (جئت لأهبت لك نفسي) تقول ذلك برجاء واستشراف لقبول طلبها فهي تنتظر الرد ، هل سيوافق على هذا العرض، أم يغض الطرف عنه؟ ، وكان فعل النبي أبلغ من رده لها (فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- رأسه) لم يحر النبي جواباً بالقبول أو الرفض لها، ولم يجبها بالرفض مباشرة، وما أقساه على نفسها! ؛ لذا لم يشأ أن يكسر ما في نفسها ، فترك الأمور تيسر لمجرياتها لعل الفرج يأتيها عن قريب ، فإذا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري١٦٢٠- ١٦٢١/٣.

بالصحابي الذي سمع كل أحداث الموقف يبادر على الفور، ويعرض رغبته في الزواج منها بقوله (يا رسول الله إن لكم لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها) ثم يأخذ الحوار دوره مع هذا الصحابي فتتصاعد الأحداث وتبلغ الذروة ، وأول عقدة تصادف طريقه عدم امتلاكه لأي شيء يمكنه من الزواج بالمرأة ، ولكن الرسول الكريم يسأله محاولا إيجاد حل لمشكلته ، ويحثه على بذل المستطاع فيراجعه (انظر ولو خاتما من حديد) ولكن الرجل يرجع بخفي حنين ، وبعد أن باءت محاولاته بالفشل، وهمَّ بالذهاب يائسا قال له النبي- صلى الله عليه وسلم- مستفهما: (ماذا معك من القرآن؟) قال معي سورة كذا وكذا.. عددها فقال: (تقرؤهن عن ظهر قلبك؟ قال: نعم قال: (اذهب قد ملكتكها بما معك من القرآن) وبذلك تظهر لحظة التنوير، ويسدل الستار عن هذه الحادثة وتنتهي بنهاية كان يحلم بها الصحابي ولها صداها في نفسه، ويكمن فيها مقصود الزواج.

ويظهر في الحوار وضوح ألفاظه واحتواؤه على كثير من الخصائص البلاغية تمثلت في: إيثار المرأة لفظ الهبة على أي لفظ آخر، مع ما تحمله في نفسها من مشروعية التفويض في شأنها، وتهب ماذا؟ إنها تهب أغلى ما تملكه (نفسها) فلا تطلب عوضا ولا مقابلاً بل تطلب شيئاً هو أسمى ، وهو منتهى رجائها ألا وهو الحظوة بشرف الزواج به- صلى الله عليه وسلم- وقُدِّمَ الظرف على المفعول في قولها "جئت لأهب لك نفسي" لتخصيصه بهبة نفسها.

ويرقب صحابي كان حاضرا هذا الموقف وتأسر الرغبة قلبه فيندفع ينادي النبي- صلى الله عليه وسلم ـ مع قربه منه (يا رسول الله) ثم يستأذنه (إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها) لوقوع النكرة في سياق النفي ومن ثم تدل على العموم ؛ فالشرط مصدر بأن التي تدل على الاحتمال ، ذلك أن الرجل يشك في رغبة النبي- صلى الله عليه وسلم- في الزواج منها ، فما رآه يوحي بذلك وورود الأمر من الصحابي على جهة الالتماس في قوله (فزوجنيها)، ويشرع النبي- صلى الله عليه وسلم- في سؤاله: (هل عندك من شيء ؟) وهو استفهام جاء على حقيقته ، وقد جيء في سياق الاستفهام بـ (من) زائدة للتأكيد على أهمية تقديم أي شيء للمخطوبة تكريما لها.

والتعبير بالفعل المضارع في (هل تجد) لاستحضار صورة هذا الشيء في نفسه فربما يستطيع تحصيله بتذكره له أو مداومته على طلبه ، وتنكير هذا الشيء لتقليله فمهما كان يسيرا عليه أن يقدمه للمرأة مهرا.

والحذف في قول الصحابي (لا والله يا رسول الله) يدل على الإيجاز وتقدير المحذوف: ليس عندي شيء ، وحذف للدلالة عليه من سياق استفهام النبي- صلى الله عليه وسلم- ومثله الحذف في قوله (لا والله يا رسول الله ولا خاتم من حديد) أي: ولا خاتم من حديد وجدت، وهذا سر الإشارة إلى الإزار بـ (هذا) لاستحضار صورة ما يجده دون الشيء المعدوم الذي لا يجده.

وأكد الصحابي الخبر المنفي بالقسم ؛ لأن الرجل يتعجب منه مع أنه يعلم حقيقة أمره، ولكن لما رأى الرجل من سؤال النبي وإلحاحه عليه في تحصيل أي شيء مهما كان - وهذا سبب تعجبه- حتى لو كان خاتما من حديد حسن تأكيد الخبر للنبي- صلى الله عليه وسلم- بهذه المؤكدات.

وقد استدرك الصحابي بالإشارة إلى مايرتديه فهو في حيرة إذ ليس في وسعه إلا أن يقدم إزاره ، فما كان من النبي- صلى الله عليه وسلم- إلا أن سأله مستغرباً (وماذا تصنع بإزارك؟) فخرج الاستفهام عن مقتضى الظاهر إلى الاستغراب والتعجب وبيَّن- صلى الله عليه وسلم - سبب هذا التعجب ، إذ كيف تفعل المرأة بإزاره هذا وهو لا يستر إلا واحداً، إما هي وإما هو، أما الاستفهام في قوله- صلى الله عليه وسلم- (ماذا معك من القرآن؟) والاستفهام في قوله (تقرؤهن عن ظهر قلبك؟) بمعناه الحقيقي الذي وضع له. كما خرج الأمر عن مقتضى ظاهره في قوله- صلى الله عليه وسلم- (اذهب قد ملكتكها بما معك من القرآن) ؛ حثا للرجل على مشروعية زواجه بالمرأة ، وإباحته لذلك الزواج.

والوصل له صورة واحدة هي ما كانت بين الجملتين في (إن لبسته لم يكن عليها منه شيء)، (وإن لبسته لم يكن عليك شيء) فالجملتان مختلفتان من حيث المعنى ، فبينهما تناسب التضاد وكل منهما خبرية لفظاً ومعنى، فوجب الفصل بينهما للتوسط بين الكمالين. كما أن فيهما لون من البديع هو ما يعرف بالعكس عند علماء البلاغة ومثله ما جاء في قوله تعالى

﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[1]. ويقول فيه ابن أبي الإصبع: "جاء في نظم هذه الكلمات بعد العكس والتبديل أحد أنواع التصدير، وحسن الحوار؛ لوقوع لفظة" هن" في أول الكلام وآخره، ووقوع لفظه" هم" مجاورة لمثلها في وسط الكلام".[2].

(١) سورة الممتحنة آية (١٠).

(٢) العكس:" هو أن يؤتي بكلام آخره عكس أوله كأنه يبدل فيه الأول بالآخر. "بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص١١١.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن سهل قال:

مر رجل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فقال: (ما تقولون في هذا؟). قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: (ما تقولون في هذا؟). قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع. فقال: رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا). (١)

في الحوار الذي دار بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه موازنة بين حالين ماثلتين في رجلين لا يخلو الأمر أن يتصف بهما أي فرد في المجتمع، فإما أن يكون الرجل ذا مكانة رفيعة وسط الجماعة أو عكس ذلك، وقد جرى العرف على تقدير ذي الوجاهة ؛ نظرا لظاهر حاله ، كما حصل من الصحابة الكرام حين أقروا جميعا للرجل الغني بالفضل على صاحبه الفقير، ولكن النبي- صلى الله عليه وسلم- بَيَّن ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التحري، وعدم الانخداع بالظاهر؛ فقد يكون الفقير الخامل أنقى قلبا، وأنبل نفسا من الغني الوجيه ، وقد ضرب لأصحابه المثل من الواقع الحي حين بيَّن الفرق بين رجلين يمثلان الحالين قد مرا- وهم في مجلسهم- فقال (هذا- يعني الفقير الخامل- خير من ملء الأرض مثل هذا- يعني الغني الوجيه -).

وأساس التفاضل- في نظر النبي الكريم- تقوى الله ، والخلق الحسن ، والمعاملة الطيبة ، وكما أخبر- صلى الله عليه وسلم- :(إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (٢)

ويظهر في الحديث وضوح ألفاظه فلا يجد القارئ لها في نفسه انغلاقا بل تتسرب إليها في انسجام وروعة تفضي إلى استجلاء المعزى ، والتسليم به ؛ لأن هدفه - صلى الله عليه وسلم- منصب نحو بيان فكرة طالما كانت مشوبة بآراء لا تنم عن وعي سليم أو فهم سديد. حوار هادف أكده النبي الكريم في نفوس المستمعين- الصحابة - بطريقة هادئة ، ساعدت على الإمعان والتفكير، ثم تقرير المعنى في نهاية المطاف ، لاسيما أنه استثار- في بداية

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٣/١٦٣٨.

(٢) رواه مسلم بشرح النووي ٦/٩٤.

الأمر- الصحابة كلهم بقوله (ما تقولون في هذا) ليعطي مساحة من بسط الآراء ، ومناقشتها، ثم تقرير ما يصلح منها.

وعندما يقف المتلقي بحسه الأدبي يتلمس بعض الخصائص البلاغية في كلمات وعبارات هذا الحديث فإنها تتجلى له فيما يلي :

إطلاق لفظ (حري) الذي بمعنى جدير عند الكلام عن الغني والفقير، وربما ساغ له لفظ (جدير) لكن الأول هو ما راود نفس النبي الكريم فمعناه لغة : الترقب والالتماس للخاصية والميزة التي تجعله أهلا لأمر (ما) كما نقل ابن منظور عن ثعلب قوله : "يقال فلان حري أن يناله الخير، ومنه التحري في الأشياء ونحوها وطلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن ، وفلان يتحرى الأمر أي يتوخاه ويقصده ، والتحري : قصد الأَوْلَى والأَحَق ، مأخوذ من الحري وهو الخليق[1]" هذا في لفظ حري ، أما جدير فينفرد بالقدرة على فعل الأمر كما حكاه ابن منظور بقوله : "هو جدير بكذا أي خليق له وأنه لمجدرة أن يفعل، ومجدرة منه أن يفعل كذا أي جدير بفعله.[2] " فلفظ حري يفيد أولوية الاستحقاق ولفظ جدير يفيد الاستحقاق من غير أولوية.

وعبَّر بالفعل المضارع (تقولون) دون المصدر (قولكم) ليتصور الصحابة حال كل منهما في نفوسهم وما سيكون لكل من رؤى محتملة الوقوع مستقبلا ، والمصدر لا يعطي إلا المعنى الواقع الموجود ، ولو قيل : ما قولكم، لأفاد هذا اللفظ أن القول قد حدث قبل أن يسألهم النبي عنه ، ويريد بالسؤال معرفته، وليس الأمر كذلك ، فالنبي يسألهم عن قول لم يقل بعد وإنما سيكون بعد طلبه ليس إلا. وكذلك التعبير بالفعل الماضي دون المضارع في قول الصحابة (إن خطب..، إن شفع...، إن قال..) بالتعليق بالشرط والجزاء ؛ ليؤكدوا أنه لو تحقق- أي الرجل الغني- تقدمه لخطبة امرأة (ما) فلن يتردد ولي أمرها في انكاحه إياها ، وكذلك الأمر لو تحقق تشفع رجل به في أمر عظيم لشُفِّع له فيه وعكس ذلك مع الفقير.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤/١٠٢. حرف الحاء.

(٢) المصدر نفسه ٩٣، ٣/٩٤ حرف الجيم.

كما أن مجيء الأفعال مبنية للمجهول في (ينكح يشفع يسمع) لإرادة العموم في المسند إليه ؛ فأي امرئ تقدم إليه الغني طالبا خطبة من هي في ولايته ينكحه إياها ، وكذلك المستشفع إليه ، والسامع لقوله. ومثله في حديثهم عن الفقير، فهو من قبيل الإيجاز بالحذف ؛ للعلم بالمعنى المراد فلا شك أن المراد بداهة هو (إن خطب الغني امرأة فسوف ينكحه وليها إياها ، وإن جاءه امرؤ ليشفع له عند أحد فسيشفع له ، وإن قال كلاما فسوف يسمع الناس كلامه ويصدقونه)، ومثله الحذف في قوله (هذا خير من ملء..) ، أي: (هذا الفقير خير من ملء الأرض من مثل هذا الغني) ، وكذلك الحال في قولهم (حري إن..) ؛ إذ قدم الشرط على متعلق المسند ، وأصل التركيب أن يقال: هو حري بأن ينكح إن خطب ، وبأن يشفع إن شفع، وبأن يسمع إن قال، وذلك للإشارة إلى أهمية الشرط في حصول دليل الجواب ، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن جملة المسند إليه والمسند (هو حري) دليل جواب الشرط المحذوف ، وتقدير الكلام: هو حري بأن ينكح إن خطب، فهو حري بأن ينكح ، وهذا على رأي البصريين ، أما الكوفيون فيجيزون تقدم الجواب على الشرط وعليه يكون الجواب قدم على الشرط لأهميته وليس في الكلام حذف بل فيه إيجاز بحذف المسند إليه والتقدير: "هذا حري، أو هو حري"، وفي هذا الإيجاز ابتعاد عما يؤدي إلى ترهل الأسلوب ، وعما يؤدي إلى الإملال بذكر ما يمكن الاستغناء عنه مع فهم المراد ، ولإدراك ذلك فليوازن المتلقي بين ما في أسلوب الحديث من الجزالة، وقوة السبك ، وبين العبارة السابقة التي ذكر المحذوف فيها.

وتنكير (خير) لتفضيله ثم إضافة (من)؛ لبيان جنس المفضل عليه ، والإشارة إليه ، لتعظيمه عند الله- عز وجل – وإن كان- في نظر كل الناس- حقيرا.

والاستفهام في قول النبي الكريم (ما تقولون في هذا؟) جاء بمعناه الحقيقي ، وقصد به استدراج الصحابة حتى يرى ما سوف يحكمون به على كلا الرجلين ، واسم الإشارة الذي جاء في سياق الاستفهام؛ لبيان المنزلة لكل واحد منهما ؛ فالإشارة للغني يعني بها علو قدره بين الناس، والإشارة إلى الفقير يقصد بها دنو منزلته بينهم، وهكذا وازن الصحابة بينهما، فالأول يشار إليه بالبنان لاحترامه، والآخر يشار إليه لاحتقاره ، وتكرار السؤال جاء على نفس الطريقة ولنفس الغرض.

وفي قول الأصحاب (حري أن يخطب..) وصلت الجملة الثانية بالأولى ، والثالثة بالثانية للتوسط بين الكمالين ؛ فالجمل الشرطية الثلاث خبرية لفظاً ومعنى، وبينها اتحاد في المسند إليه وتناسب في المسند ؛ حيث الاستجابة متحققة فيها ، ومن ثم وجب الوصل بينها ، والجمع بين هذه الجمل لون من الإطناب؛ لأن فيها استقصاء للأحوال التي تظهر فيها أفضلية الغنى في نظرهم، ولهوان الفقر في نظرهم أيضاً.

وقوله (من ملء الأرض) كناية عن كثرة من يكون على هذه الشاكلة من الناس وإن الفقير الصالح يكون خيراً منهم.

أما قوله- صلى الله عليه وسلم- (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) فهو أسلوب حكيم ، وكأنه يريد أن يقول للصحابة جميعا بل الأجدر أن يكون هذا الفقير خير من ذاك الغني ؛ لتقواه، وحسن معاشرته ، وعندما يأتي ما يناقض الصحابة يكون وقعه في النفس آكد، وعن النسيان أبعد.

وربما كان من رد العجز على الصدر؛ فبدأ النبي الكريم باسم الإشارة (هذا) وانتهى به. ومن البديع أيضاً مراعاة النظير ؛ وذلك بين الخطبة والنكاح ، وبين الشفاعة والاستشفاع ، وبين القول والسماع.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال:

كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين ، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا : يا رسول الله كسع [1] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: (دعوها فإنها منتنة .) فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: (دعه ، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .)[2]

في غزوة بني المصطلق تزاحم الناس على الماء فاقتتل رجلان من المهاجرين ، وكان الأول يقود فرسا لعمر- رضي الله عنه- ، والآخر من الأنصار وكان حليفا لعبد الله بن أبي ، واستغاث المهاجري بالمهاجرين ، واستغاث الأنصاري بالأنصار ، وكادت تثور فتنة.

وهنا نشأ الحوار الحاد الشديد النبرة ، تتراءى فيه النكارة لحدوث الفتنة ، والبيان لسببها ، كما يتراءى فيه الوعيد بامتدادها لينتهي أمرها بإخراج النبي والمهاجرين من المدينة ، وتعلو نبرة الحوار إلى مدى أبعد ، فيستأذن عمر- رضي الله عنه- النبي- صلى الله عليه وسلم - في قتل من صدر منه الوعيد ، ولكن صوت العقل ينادي : دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وهنا توأد الفتنة في مهدها ، ويعود المسلمون إلى الصفاء[3].

إن ما في الحديث من أسرار بلاغية يعطيك بيانا يجلي لك المعنى فكل لفظة تخدم المعنى الذي قصده النبي الكريم وأصحابه ، ولعل أول ما يستوقفك هذه العبارة (يا للأنصار ، يا للمهاجرين[4]) ففيها إيجاز شديد ينطوي على معنى النصرة ، والإقبال ، و المساندة ونحوها ،

---

(١) معنى كسع جاء في لسان العرب" أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء."لسان العرب لابن منظور ١٣/٦٦ . حرف الكاف.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/١٠٦.

(٣) ينظر الفتوحات الإلهية، سليمان بن عمر العجيل ٤/٣٤٥ دار الفكر د.ت.

(٤) جاء في قطر الندى لابن هشام أن : (من أقسام المستغاث به وهو: كل اسم نودي ليخلص من شدة أو يعين على دفع مشقة، ولا يستعمل له من حروف النداء إلا (يا) خاصة، والغالب استعماله مجرورا بلام مفتوحة." شرح قطر الندى ص٢٣٨،٢٣٦ .

وفي ذلك من التقبيح ما فيه ؛ إذ لا يتصور أن يحدث ممن عاش في ظلمة الجهل معاونة كغيره تستهدف نصرة الحق ، وفي الاستغاثة بالفريقين خروج عن منهج الإسلام ، وتناس لسماحته، من ثم كان قبيحاً قبح ما يصدر عن أهل الجاهلية. وفي الاعتذار أو التعليل لحدوث تلك الاستغاثة ما هو أهل للاستغراب، ومن ثم عندما أخبر الرسول بذلك لم يجد بداً من التوجيه إلى ما في ذلك من قبح بالغ، حيث قال: (ما بال دعوى الجاهلية؟!) وفي مواجهة النبي لهذه الاستغاثة مؤذناً بالاستنكار واستهجان ما تفوهوا به (دعوها فإنها منتنة) فعبر بضمير الغيبة (دعوها) أي دعوى الجاهلية ؛ لاستهجان ذكرها ، والأمر في (دعوها) مع دلالته على الوجوب يفيد النصح والإرشاد ويرشح تلك الإفادة ما أعقبه من تعليل وهو قوله (فإنها منتنة) وقد جاء هذا التعليل مصحوبا بالتأكيد مع أن الخبر غير مشكوك فيه ؛ ليتلقى الأمر بالقبول لأول وهلة ؛ حيث التأكيد للخبر يفيد تعظيمه. والتأكيد بالقسم في قول المنافق (والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) يومئ إلى الغيظ الذي يأكل قلبه ، ويرشح هذا الإيماء ما قصده بالأعز، والأذل، إذ قصد بالأول نفسه ومن هو على شاكلته ، وقصد بالثاني النبي والمهاجرين معه ، ومن لف لفهم من الأنصار.

والتعبير بالمضارع (يتحدث، يقتل) ليتصور عمر ما قد يترتب مستقبلا من إقدامه على قتل ذلك المنافق ، إذ تشيع بين الناس الأقاويل والافتراءات ولذا كان التعريف في (الناس) لبيان الجنس أي: الذين عرفوا بحبهم لإشاعة الكلام فيما بينهم ومساومتهم في أعراض غيرهم وربما كان هذا سر إيثار النبي الكريم الاسم الظاهر على الضمير في (أن محمدا يقتل أصحابه) بدلا من قوله(أني أقتل أصحابي).

وفي قول عمر (دعني أضرب عنق هذا المنافق) خرج الأمر إلى معنى الرجاء ؛ فعمر يرجو من النبي الكريم الإذن بقتل هذا المنافق (عبد الله بن أبي) ولوجود هذه الرغبة في نفسه ودوامها عبر بالمضارع (أضرب) ثم بين الداعي لهذه هذه الرغبة بكونه منافقا صريح النفاق عرف لفظ (المنافق) بـ (أل) وأشير إليه بـ (هذا) الموضوع للقريب إيماء في الاحتقار والضعة.

والأمر في قوله- صلى الله عليه وسلم- (دعه) يفيد التوجيه والإرشاد ، وجملة(لا يتحدث الناس..) فيها إيجاز بالحذف ؛ إذ هي جواب شرط محذوف ، والتقدير: (إن تدعه لا

يتحدث الناس) وهذه الجملة الشرطية بجزأيها في موقع الخبر لـ (إن) المحذوفة مع اسمها ؛ إذ الأصل: إنك إن تدعه لا يتحدث الناس..) وجملة إن واسمها وخبرها في موقع التعليل للأمر.

وجاء في هذا الحوار الفصل في ثلاثة مواقع: الأول في قول الصحابة (قالوا يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين..) ؛ فقد فصلت هذه الجملة عما سبقها من قوله (ما بال دعوى الجاهلية؟) ؛ لأنها بمثابة جواب عن سؤال تقديره: وماذا قال الصحابة عندما قال الرسول ذلك؟ ، والثاني هو جملة (قال عمر..) حيث فصلت عما سبقها من قول ابن أبي (والله لئن رجعنا..الخ) ؛ لأنها بمثابة الجواب عن سؤال تقديره: وماذا حدث بعد أن قال ابن أبي قولته تلك؟ فكان الجواب (قال عمر...الخ) والفصل في هذين الموضوعين لشبه كمال الاتصال ، والثالث: الجملة التي يشير ما بقي منها إلى تمامها ؛ فقد فصلت عن جملة قول النبي - صلى الله عليه وسلم - (دعه) والفصل هنا لكمال الانقطاع ؛ لأن الجملة الأولى إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى ، ويحتمل أن يكون الفصل في هذا الموضع لشبه كمال الاتصال ؛ لأن الثانية تعليل للأولى ولكن الاحتمال الأول أوضح.

وفي قول النبي الكريم (دعوها فإنها منتنة) استعارة مكنية ؛ حيث شبه دعوى الجاهلية بشيء محسوس (له رائحة نتنة) لقبح أثرها وما تتركه في الضمائر من بغض ، وحقد ، وفرقة بين صفوف المسلمين ، ثم استعير ذلك الشيء المحسوس لدعوى الجاهلية ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (منتنة) ، ووجه الشبه القبح في كل.

ومن بديع الحديث التضاد بين (العزة) و(الذلة) فهو يزيد من تأكيد المعنى في نفوس السامعين.

ومن الكناية ما جاء في قوله (ليخرجن الأعز منها الأذل) فاستعمل المنافق لفظ العزة كناية عن نسبتها له ولمن معه ، ونسب الذلة لله ـ تعالى ـ ورسوله الكريم ؛ ولذا يقول أحد الباحثين: "لفظ الأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل عن فريق المؤمنين وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون ، فكأنه قيل: صحيح ذلك: ليخرجن الأعز منها الأذل لكن هم الأذلة المخرَج ، والله ورسوله الأعز المخرِج"[1].

---

(١) من بلاغة القرآن ، د/ أحمد بدوي ص٢٨١، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما حكاه عمر بن الخطاب حين استأذن على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فدخل عمر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضحك. فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- : (عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب). فقال عمر : فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ؟! فقلن : نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- :(إيهًا يا بن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا (١) قط إلا سلك فجا غير فجك) (٢)

في هذا الحوار بيان شخصية عمر الحازمة التي تتمثل في حواره مع النساء وقد علت نبرته قوة في (أتهببنني) وقد أتى ردهن عليه مباشرة وجميعهن يشهدن على ذلك (نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله- صلى الله عليه وسلم-) ، وفيه الإشادة بخلق النبي الكريم ، ورفق معاملته لهن ، وضحك النبي – صلى الله عليه وسلم- مما جرى ، ثم تعليقه على ما حدث يدل على إنسانيته العظيمة ، إنه لم ينكر على عمر فعله ، ولكنه قرر قوته في الحق ، حتى إن الشيطان لا يستطيع الاقتراب منه أبدا بل يتحاشى طريقه ، ويسير في طريق آخر(ما لقيك الشيطان سالكا فجاء قط إلا سلك فجا غير فجك) وبذلك صرَّح الحوار عن مواقف معينة تمثلت في موقف عمر مع النسوة ، وموقف النبي –صلى الله عليه وسلم- تجاه ما حدث ، وموقف الشيطان من عمر.

والحوار الذي جاء في ثنايا الحديث يزخر بكثير من السمات البلاغية التي تكشف عن روائع النظم النبوي ، و جمال أسلوبه ، وسلاسة عبارته فلو تأمل القارئ ألفاظ الحوار لذاق حلاوتها ، واستعذب ماءها ؛ لسهولتها ، وجزالتها فهي تخدم المعنى وتفسره في غاية الدقة والإحكام تمثل ذلك في اختيار بعض الكلمات مثل (عجبت ، ابتدرن ، الحجاب ، يهبن ، سلك ، فجا) إن العجب يدل على استغراب فعل يندر حدوثه- كما جاء في اللغة- ولا يمكن وجود

---

(١) معنى الفج لغة: "الطريق الواسع، ونقل عن ابن شميل: الفج كأنه طريق . وربما كان طريقا بين جبلين أو فأوين وينقاد ذلك يومين أو ثلاثة إذا كان طريقا أو غير طريق وإن يكن طريقا فهو (أريض كثير العشب والكلأ. "لسان العرب ١١/١٣٠ حرف الفاء.

(٢) صحيح البخاري ٣/١١٣٣.

كلمة تعطي هذا المعنى سوى (عجب) ولما حصل التعجب من فعل هؤلاء النسوة أشار النبي الكريم إليهن قائلا : (هؤلاء اللاتي كن عندي) فكان في مبادرتهن بالحجاب خوفا من عمر ما يدعوه للضحك منهن، ولفظ المبادرة يعني شدة الإسراع في الفعل ، والقيام به على وجه ، وهو يلائم مقام الهيبة بل حتى التعبير بالهيبة ، دون الخشية يدل على مقام الخوف ولكن هذا الخوف ناشئ من الإجلال والتعظيم لا الرهبة ، أو ما يجعل النفس تتأذى به حين يراودها هذا الشعور فلا ترتاح أو تستكين ، وحين حصل مثل هذه الهيبة كانت المبادرة بالحجاب ، والحجاب هو الستر ويفهم هذا من سياق الجملة ، وقوله- صلى الله عليه وسلم- (اللاتي كن عندي) يوحي بأنهن كن حاضرات عنده ، فلما دخل عمر استترن عنه في زاوية معينة ، وربما احتمل الحجاب تغطية الوجه بالخمار، ولكن هذا الاحتمال غير صحيح ، والصحيح الأول ؛ وهذا سبب تعريفه بـ (أل) للعهد العلمي.

كما أن في الفعل (بادرن الحجاب) تصوير لحال النسوة حال سماعهن صوت عمر يستأذن ، إذ قمن مسرعات للاحتجاب ، ولولا إرادة تصوير حالهن لقيل (قمن فاحتجبن) ، ولكن الفعل (بادر) صيغة تدل على شدة السرعة ، كأن هناك من يبادرهن المشاركة ، فأصل هذه الصيغة الدلالة على المشاركة في الفعل ، وهو وإن كان هنا لا يدل على المشاركة فإنه يدل على شدة المسارعة إلى الحجاب.

والتعبير بالفعل (سلك) دون (سار) فقد جاء في اللغة : "السلك مصدر سلكت الشيء في الشيء فانسلك أي : أدخلته فيه فدخل ، وسلكت الطريق وسلكه غيري ومنه قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] أي أدخله ينابيع في الأرض.[2] فهو إذن الإدخال ، والشيطان يناسبه هذا المعنى ، وفي تعريف الشيطان بـ (أل) التعريف التي تعني العهد العلمي ما يجعله واضحا لا يحتاج إلى بيان شأنه لدى السامع (عمر) ولذا ناسب هذا الدخول كلمة (فجا) وتعني الطريق وكلا اللفظين يدلان على معنى واحد لكن الفج ربما دل على الاتساع والعمق ودل الطريق على الوعورة لقول العسكري" الطريق لا يقتضي السهولة"[3] ولعل التنكير فيه يفيد الشدة أي فجا شديد المسلك ، أو صعب المرتقى.

---

(١) سورة الزمر آية ٢١ .

(٢) لسان العرب ٧/٢٣٠ حرف السين المهملة.

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ٣٣٤.

والتعريف بالإضافة في قول النسوة (رسول الله) ؛ لتشريف وتعظيم النبي - صلى الله عليه وسلم - مما جعلهن يشدن بفضله - صلى الله عليه وسلم - على عمر - رضي الله عنه.

وإيراد الدعاء في قول عمر (أضحك الله سنك يا رسول الله) وهو إنشاء بلفظ الخبر؛ لقصد التفاؤل بالاستجابة ؛ ولذا جاء بصيغة الماضي، وفي الفعل (أضحك) مجاز إذ لا يراد به الضحك حقيقة بل ما هو سببه، فعبر بالمسبب وأريد سببه على سبيل المجاز المرسل ، وفي لفظ السن مجاز مرسل علاقته الجزئية ؛ فإن السن لا يضحك وإنما الفم ، فعبر بالجزء وأريد الكل، ثم أعقبه إيماء إلى المحبة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وفيه إيماء إلى السؤال عن سبب الضحك، وقد فطن النبي إلى هذا الإيماء فأجاب بقوله (عجبت)، فكان جوابه - صلى الله عليه وسلم - في معرض الخبر الخالي من التأكيد ؛ لخلود ذهن عمر من مضمونه وهو ما يعبر عنه بالضرب الابتدائي.

والفاء في (فلما سمعن صوتك) للتفريع حيث فرع على استئذانه قيامهن، والفاء في قوله (قمن فبادرن الحجاب) للعطف كما جاء بـ (ثم) في قوله (ثم قال عمر يا عدوات أنفسهن) للتراخي فبعدما سأل عمر النبي الكريم عن سبب ضحكه ، وعرف ذلك توجه إليهن بالتوبيخ والمعاتبة.

والتعبير بقوله (إيها يا بن الخطاب) يدل على طلب الاستزادة ؛ لأن معنى (إيها) الزيادة فعلاوة على خوفهن من عمر؛ لغلظة خلقه ، وخشونة جانبه في الحق يخافه الشيطان عندما يهم بوسوسته ، فهو من فرق بين الحق والباطل، وانتصر للدين الإسلامي، وكان معروفا بذلك حتى عند أشد أعدائه وهو الشيطان، وقد بين العيني ذلك بقوله: "معناه زدنا مما عهدنا ، ونقل عن الجوهري قوله: "هو اسم يسمى به الفعل لأن معناه الأمر تقول للرجل إذا استزدته من حديث أو عمل: إيهِ بكسر الهاء ، ونقل عن ابن السكيت قوله: إن وصلت نونت فقلت إيه حديثا ، ونقل عن الطيبي قوله: الأمر بتوقير رسول الله مطلوب لذاته فتحمد الزيادة منه ، فكأن قوله (إيه)استزادة منه ؛ في طلب توقيره ، وتعظيم جانبه ؛ فلذلك أعقبه بقوله (والذي نفسي بيده..) فإنه يشعر بأنه رضي مقالته ، وحمد فعاله.[1] واستعماله هنا مناسب غاية

---

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ- ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م ، ١٢/٤١٧.

المناسبة ، فعمر علاوة على خوف النساء منه يخاف منه الشيطان ، أما القصر في قوله (ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك) بالنفي و (إلا) من قصر الصفة على الموصوف حيث قصر صفة السلوك على الشيطان ؛ فالشيطان هو من يسلك الطريق المجانب لطريق عمر ـ رضي الله عنه ـ لعدم اقتداره عليه ، وفي ذلك من الإشادة بقوة عمر في سبيل الحق ما فيه.

وسلوك الشيطان فجاً آخرا كناية عن خوفه من عمر ، ويمكن أن تكون استعارة تمثيلية بأن المراد تشبيه الهيئة الحاصلة من بعد الشيطان عن عمر وعدم تمكنه من صرفه عن الحق في قوله أو فعله ، بهيئته قد سلك طريقاً غير الطريق الذي سلكه عمر، واستعيرت هيئة المشبه به للمشبه عن طريق الاستعارة التصريحية التمثيلية وهذا الوجه هو ما بينه العيني والذي يلوح لي هو كون التعبير كناية ، فإن في عده استعارة تمثيلية تعمق هو أشبه بالتمثيل ، حيث عبر باللازم وهو سلوك طريق غير طريقه ، وأريد الملزوم وهو الخوف، وفي ذلك يقول :"ضرب ذلك مثلا لبعد الشيطان وأعوانه من عمر رضي الله عنه وأنه لا سبيل لهم عليه أي أنه إذا سلك في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ينفذ فيه ولا يتركه فييأس الشيطان من أن يوسوس فيه فيتركه ويسلك غيره وليس المراد به الطريق على الحقيقة لأن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[1] فلا يخافه إذن في فج لأنه لا يراه"[2].

وفي قوله (يا عدوات أنفسهن) استعارة ؛ حيث جعلهن عدوات لأنفسهن والأصل: (أنتن كالعدوات لأنفسهن في جرأتكن على رسول الله، ثم حذف المشبه، والأداة، والوجه، ثم استعار لفظ المشبه به استعارة تصريحية ، والقرينة الإضافة إلى لفظ (أنفسهن) فإن المرء لا يكون عدوا لنفسه.

وقوله (ما لقيك الشيطان سالكا سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك) من قبل المبالغة فخوف الشيطان وسلوكه طريقا غير طريق عمر ممكن عقلا لا عادة.

---

(١) سورة الأعراف آية (٢٧).

(٢) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ١٥/١٨١.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن عبد الله بن مسعود قال:

قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: (ما تعدون الرقوب فيكم؟) قلنا: الذي لا يولد له. قال: (ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا) قال: (فما تعدون الصرعة فيكم؟) قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: (ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب.)[1]

دعا النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى الصبر والحلم فكلاهما يصاحبان النفس البشرية في أي موقف تظهر فيه دواعيه ، فالصبر لا يكون إلا بالحلم ، ففي الحديث حث على الصبر على قضاء الله وقدره عن طريق غير مباشر، فصبر الرقوب[2] على ما قدر له من عدم الإنجاب ليس كصبر من أنجب، ثم فقد من أنجبه، فإن فقد الشيء بعد الظفر به يجلب ألماً أشد.

كما حث على التخلق بالحلم[3] من طريق غير مباشر أيضاً ، إذ القوة الحقيقية ليست قوة البدن التي تمكّن صاحبها من غلبة الرجال ، بل هي قوة الحلم التي تحول دون الغضب الذي لا تحمد عواقبه ، وفي ذلك من التعريض بضعف الغضوب ما فيه ، ولا يكون إلا بالمران على المواقف الشديدة فما الحلم إلا بالتحلم ، وبالحلم تتزن الأفعال ، ويهذب السلوك ؛ ولذا يقول أحد الباحثين: "هناك ارتباط وثيق بين الحلم والعقل ؛ لأن العقل السوي هو الذي يعقل صاحبه عن الاندفاع وراء عواطفه وغرائزه ، أو وراء انفعاله وشهواته ، أو وراء طبائعه النارية، أو وراء كل ما يميل به إلى الجنوح والانحراف ، وإن الإنسان الذي يتحكم في انفعالاته يعد إنسان قوياً."[4]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٤/٦.

(٢) " الرقوب من الإبل والنساء التي لا يبقى لها ولد. قال ابن الأثير: الرقوب في اللغة الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد، لأنه يرقب موته، ويرصده خوفاً عليه فنقله النبي صلى الله عليه وسلم. إلى الذي لم يقدم من الولد شيئاً أي يموت قبله تعريفاً لأن الأجر والثواب لمن قدم شيئاً من الولد." لسان العرب لابن منظور ٦/٢٠٠. حرف الراء.

(٣) الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام ومنه قوله تعالى (أم تأمرهم أحلامهم) قيل معناه: عقولهم وليس الحلم في الحقيقة العقل لكن فسره العلماء بذلك لكونه من مسببات العقل." المفردات في غريب القرآن. ص١٢٩، كتاب الرخاء.

(٤) الأخلاق في الشريعة الإسلامية د/أحمد عليان ، ٢٤٩، دار النشر الدولي، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

وكما يرى القارئ للحديث الشريف هدوء الحوار ، مع سهولة ألفاظه ، وقربها إلى النفس ، وإضافة إلى سهولة ألفاظه وقربها تبدو فيه خصائص بلاغية لافتة تتمثل في التعبير بالمضارع في قوله – صلى الله عليه وسلم- (ما تعدون الصرعة فيكم ، ما تعدون الرقوب فيكم) والسر في ذلك التعبير يكمن في معرفته- صلى الله عليه وسلم- للصورة المتوقعة الحاضرة في نفوس الصحابة التي لا تنفك عنهم لمعنى كلٍّ من الرقوب والصرعة ، بدليل إجابتهم على الرقوب بقولهم (الذي لا يولد له) وعلى الصرعة بـ (الذي لا يصرعه الرجال) ولا يخفى ما في حرف الجر (فيكم) من تعميق لهذين المعنيين في دواخلهم.

وتظهر الإثارة الماثلة في الاستفهام عن معنى الرقوب ، فإن الرسول- صلى الله عليه وسلم- لم يشأ أن يسوق المعنى الذي يريده ، وأن يمهد له بهذا السؤال الذي يبتغي التنبه لما يقول فلو أنه قال بداية : الرقوب الذي لم يقدم من ولده شيئاً لما كان له من الوقوع في النفس ذلك الموقع الذي يجده من يتمعن الحديث بصورته التي هو عليها.

إنه الحوار الذي يخلق الإثارة.

لينظر القارئ إلى مبادأة الرسول أصحابه الجالسين معه :

ماذا تعدون الرقوب فيكم؟

ولينظر إلى ردهم : الذي لا ولد له.

وهذا الرد واضح فيه الدلالة اللغوية التي وضع لها لفظ الرقوب. فإن مادته (ر ، ق ، ب) تشير إلى انتظار وترقب لنعمة الله بهبة الولد.

ويفجأهم الرسول بقوله : (ليس ذاك بالرقوب) إنه يقلب ما تعارفوا عليه في أوضاع لغتهم ، ويمهد لوضع معنى جديد غير ما تعارفوا عليه.

أليس في ذلك إثارة؟ وإثارة تبعث شوقاً إلى المعنى الجديد الذي يُلبس هذا اللفظ؟

وليتأمل القارئ صورة النفي الذي يحمله هذا القول ، إنه لم يلق خالياً من التأكيد فيكون ذريعة لأن تخالج المخاطبين خالج تساؤل حول هذا النفي ، ولكنه أكد بالباء الواقعة في سياقه ؛ ليحول دون هذا التساؤل ، ويتلقى الخبر المنفي بالقبول فور سماعه.

ولم يترك الرسول الكريم فرصة للاستفهام عن المعنى الجديد الذي أكد نفيه بل أعقبه باستدراك يحمل المعنى الجديد ، بقوله- صلى الله عليه وسلم- (ولكنه الرجل الذي لم يقدم

من ولده شيئاً) ويريد بهذا القول أنه لم يذق مرارة فقد ولد من أولاده بالموت فيصبر على فقده، وفي هذا تلميح بأن ألم فقد الولد ألذع من ألم الحرمان منه.

والمنهج نفسه في الاستفهام عن معنى الصرعة من حيث الإثارة والتنبيه للمعنى الذي يريده: ليعمق هذا المعنى في نفوسهم ؛ حيث بدأهم بقوله (ما تعدون الصرعة فيكم؟) وكان ردهم قائماً على أساس الوضع اللغوي، فالمادة (ص، ر، ع) بطبيعتها توحي إلى القوة التي تمكن صاحبها من الغلبة، فالصاد والراء من حروف الشدة ، والعين من حروف الحلق ، وهي بطبيعتها فيها شيء من الثقل ، وذلك يوحي بالقوة ويفاجئهم الرسول بقوله (ليس ذلك) فيقلب ما تعارفوا عليه في أوضاع لغتهم ، ويمهد لوضع معنى جديد هو" الذي يملك نفسه عند الغضب" بعد أن أكد الخبر المنفي بالباء الواقعة في خبر ليس ؛ حتى لا تخالجهم خالجة شك حول هذا الخبر المنفي فيتلقى بالقبول فور مباشرته لأسماعهم.

وليلحظ القارئ مجيء اللام في مدخول الباء ، (ذلك) فإنه اسم إشارة للبعيد وكأنه- صلى الله عليه وسلم- يشير إلى توغل النفي للمعنى الذي ذكروه، مما يجعلهم أكثر تطلعاً إلى معرفة المعنى الجديد الذي يليق بهذا اللفظ وفق تصور الإسلام ، فلم يدع فرصة لهذا التطلع تفلت من بين يديه ، فأعقب الخبر بالاستدراك الذي حمل في حناياه المعنى الجديد ، وذلك قوله- صلى الله عليه وسلم- (ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب) وفي هذا المعنى إيماء إلى ضعف الرجل الغضوب.

ومن بيان الحديث ما يلمح من استعارة مكنية في قوله (ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب) ؛ حيث شبه النفس بالثور الهائج الذي يثور، ولابد من كبح جماحه ورده عن وجهته ؛ حتى لا يترتب على ذلك من الضرر ما لا تحمد عقباه بأن يجاهد نفسه ، ويتغلب عليها بضبطها ، وتمرينها باللباقة في الكلام، والذكاء في احتذاء السلوك الرزين، والمهارة في التصرف كما هي المهارة في التغلب على الخصم.

وقد يتساءل القارئ لم استخدم النبي- صلى الله عليه وسلم- هاتين اللفظتين في غير المعنى الحقيقي المتعارف عليه في الوضع اللغوي. إن استخدام مثل هذه المفردات وتوظيفها في معنى غير الذي وضع له من المجاز اللغوي الذي برع فيه النبي الكريم ؛ حيث نقل المعنى وأفرغه في نسق بلاغي له أثره الخلاب في نفوس السامعين لاسيما إذا كانت النفوس تظنه كما استقر

عليه العرف اللغوي ثم يخالف الجواب ما حضر في الوجدان[1]، وهو ما يعرف بالأسلوب الحكيم ، وبه يستقر المعنى أخيراً في نفوس السامعين، وربما ظنه البعض من (تجاهل العارف) ولكنه من الأسلوب الحكيم أقرب منه إلى تجاهل العارف[2]؛ فأسلوب الحكيم هو تلقي الخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب، وهنا قد واجه النبي - صلى الله عليه وسلم- أصحابه بغير ما يتوقعون بعد نفيه المعنى الذي استقر في نفوسهم، وفي هذا المسلك البلاغي إشعار بالمفاجأة التي توقظ الذهن وتلهب الحس ، فيستقر المعنى في أغوار النفس ويتمكن أيما تمكن.

(١) لا يخفى أن اعتباره مجازاً لغوياً إنما يكون بالنظر إلى الأصل اللغوي فيكون استعارة تصريحية أصلية حيث شبه الرقوب بمن حرم فقد أحد أبنائه ، والوجه الحرمان من أمر يتطلع إليه، وشبه الحليم بالصرعة والوجه قدرة التغلب على أمر شديد ، أما إذا نظر إليه من جهة الشرع فإنه يكون حقيقة شرعية.

(٢) الأسلوب الحكيم هو : تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له." الإيضاح في علوم البلاغة ٢/٩٤ وينظر مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني وإعجاز القرآن، للإمام أبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي تعليق د/ زكريا سعيد علي، ص٢٨٥، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن أبي هريرة. رضي الله عنه.

قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم). فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: (فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله(١)). قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: (فعن معادن العرب تسألون؟خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[٢]).

هذا الحديث يدل على شدة حرص الصحابة على معرفة ما يحفزهم للمعالي الكريمة والخصال النبيلة التي تكسبهم الدرجات العلى، والفوز بالفردوس في مقام يعز فيه الله عباده ويحلهم دار المقامة من فضله.

إنه حوار قصير بدأه الصحابة بسؤال النبي- صلى الله عليه وسلم- عن (أكرم الناس) قاطبة وهم ينتظرون منه الإجابة ويستشرفون لها، ترى من يكون؟ وما سمته؟ وما الذي جعله من أكرم الخلق عامة؟

صور الحوار موقف السائلين عن أمر هو محل اهتمامهم، لكن لم يكن في رد النبي الكريم في بادئ الأمر أي مما عنوه بسؤالهم فقالوا له جميعاً: (ليس عن هذا نسألك)، ثم يستأنف النبي الكريم ثانية، ويرد بخلاف ما سألوا ويستدرك في الثالثة القصد، ويفهم ما يريدون من السؤال عن (أكرم الناس)، ويجيبهم بقوله: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).

وهكذا حمل الحوار ما في نفوس الصحابة من رغبة في المعرفة، وكان للحكبة التي أثمرها هذا الحوار أثر في إيقاظ مشاعر السامعين، والتأثير فيهم بهذه الجملة القصيرة التي تصلح أن تكون ضربا من المثل المتداول في أوساط المجتمع، فتأخذ بلب المتلقي وتأسر فكره ووجدانه دون أن يدري.

والحديث يحمل طرفا من السمات البلاغية تتضح في سهولة العبارات، وقربها إلى نفس السامع، مع ما تحمله من رصانة، وجزالة، وقوة، ثم البراعة في اختيار الكلمة المعبرة عن المعنى المراد كالتعبير بصيغة التفضيل وإضافتها إلى المعرف بـ (أل) في (أكرم الناس) لبيان

---

(١) معنى قوله:" ابن نبي الله يعقوب، ابن نبي الله هو إسحاق، ابن خليل الله هو إبراهيم عليهم السلام. "عمدة القارئ. ١٢/٩١.

(٢) صحيح البخاري ٢/١٠٣٣.

الأفضلية عامة ومن هو أسبق إليها، وأحق بها على الناس قاطبة ، وهذا سر تعريف (الناس) فهي لبيان الجنس، والاختلاف في لفظ (أكرم) ولفظ (خيارهم) بالرغم من مجيئهما على صيغة واحدة هي التفضيل وكان من المفترض أن يأتي لفظ النبي- صلى الله عليه وسلم- مشاكلا للفظ الصحابة فيقول مثلا (أكرمهم) دون (خيارهم) ولكن عدوله عن لفظ الكرم إلى الخيرية مما أوجبه المقام ؛ فكل من كثر فيه الخير كان أجدر بالإكرام عند الله والناس(١)، كما أنه أخص من الكرم(٢).

ويتراءى الإيجاز بالحذف في قوله (أتقاهم) وتقدير المحذوف: (أكرم الناس أتقاهم لله ؛ حيث حذف المسند إليه للدلالة عليه من سؤال الصحابة، والحذف في قوله (إذا فقهوا) ؛ حذف المفعول به تنزيلا للفعل منزلة اللازم لإفادة العموم، أي: كان لهم فقه في كل ما يعرض لهم من الأمور ، وحذف جواب الشرط ؛ إذا الأصل: إذا فقهوا فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وإنما حذف لدلالة ما قبل الشرط على الجواب ، وفي ذلك من قوة السبك، وجزالة الأسلوب بالتخفف مما يدل عليه السياق مالا يخفى.

وتقديم الجار والمجرور (عن معادن) على المسند الفعلي (تسألون) في قوله (فعن معادن العرب تسألون؟) ؛ لإرادة التخصيص فقدم عليه لأنه هو المقصود دون غيره، أما الجار والمجرور في قوله الصحابة (ليس عن هذا نسألك) فينصب النفي على صريح لفظ المفعول الذي هو مناط النفي ولو قيل: ليس نسألك عن هذا لما اختلف المعنى ولكن تقديم الفعل، وانصباب النفي عليه يشير إلى أن النفي منصب عليه لأول وهلة وقبل الوصول إلى المفعول، أما ما ورد في لفظ الحديث ففيه مسارعة إلى تحديد ما قصد بالنفي فهو مناط الاهتمام.

وفي قوله (إذا فقهوا) احتراس حتى لا يقع في وهم الصحابة أن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام بعامة سواء فقهوا أم لم يفقهوا.

---

(١) "لما سئل- صلى الله عليه وسلم- أي الناس أكرم؟ أخبر بأكمل الكرم وأعمه فقال أتقاهم لله فأصل الكرم :كثرة الخير، ومن كان تقيا كان كثير الخير، وكثير الفائدة في الدنيا، وصاحب الدرجات العلا في الآخرة. "صحيح مسلم بشرح النووي" ٥١٧- ٥/٥١٨.

(٢) مؤدى هذا أن كثرة الخير سبب في الوصف بالكرم ؛ ولذا آثر النبي الكريم وصف الخير؛ لأنه الذي يتفرع عنه وصف الكرم.

والتعريف في (الجاهلية والإسلام) للعهد العلمي فأمرهما معروف لدى الصحابة لا يخفى عليهم معناهما.

واستعارة النبي - صلى الله عليه وسلم - للفظ (المعادن) لأصول الناس التي ينتمون إليها بالغة حد الروعة لتفاوت الناس في طبائعهم بين الشرف والوضاعة كما تتفاوت المعادن في قيمتها بين النفاسة والخسة ، ومن ثم شبه أصول الناس بالمعادن ، ثم تنوسي التشبيه فحذف المشبه ، وصرح بالمشبه به والقرينة الإضافة - أعني - إضافة (معادن) إلى العرب وفي هذه الاستعارة إبراز المعنوي في صورة المحسوس ذلك أن الشرف والوضاعة من الأمور المعنوية أما نفاسة الذهب وخسة الرصاص مثلا فأمر مدرك بالحواس. هذا ، وقد وهم العيني في بيان وجه الشبه حيث قال: "شبههم بالمعادن ؛ لأنهم أوعية العلوم كما أن المعادن أوعية للجواهر النفيسة".[1] ولا يخفى أن الجواهر النفيسة من المعادن، أما الأوعية فتختلف نفاستها باختلاف المعادن التي صنعت منها.

وفي لفظي (الجاهلية، الإسلام) طباق ؛ إذ الإسلام مقابل للجاهلية والجمع بين المتقابلين يظهر قبح القبيح وحسن الحسن في أوضح صورة.

كما أن جواب النبي الكريم في بادئ الأمر على المذهب الكلامي فكان الأجدر أن يكون سؤالهم عن أتقى الناس لاعن معادنهم.

---

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ١٢/٥٩.

ومن حوار- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن جابر بن عبد الله أن عبد الله هلك وترك تسع بنات (أو قال سبع) فتزوجت امرأة ثيبا، فقال لي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (يا جابر تزوجت؟ قلت: نعم، قال: فبكر أم ثيب؟ قلت: بل ثيب يا رسول الله، قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك (أو قال تضاحكها وتضاحكك) قلت: إن عبد الله هلك وترك تسع بنات (أو سبع) وإني كرهت أن آتيهن أو أجيئهن بمثلهن فأحببت أن أجيء بامرأة تقوم عليهن وتصلحهن، قال: فبارك الله لك، (أو قال لي خيرا) [1]

حث الإسلام على الزواج بالأبكار خاصة ورغب فيه، لكن ما سبب هذا الترغيب؟ ألا يمكن أن تكون الثيبات محط أنظار الرجال؟، ربما ساغ ذلك لبعضهم، لكنه عند أكثرهم غير مطلوب أو محبب، وأيا ما كان الأمر فلا يخفى ما في المرأة البكر من الحسن، وكمال اللذة، ناهيك عن صغر سنها مما يجعل الكثيرات منهن تصرف كل اهتمامهم لزوجها، وتغدق عليه من الحب والمودة، حتى تكون في المستقبل الأم الحنون الولود؛ ولذا أشاد القرآن بهن حين وصف الحور العين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2] إذن لا يمكن بأي حال أن تستوي البكر والثيب في الفضل والمزية؛ فالثيب راجحة العقل، مكتملة الرزانة، جادة الطبع، فلا تكون بنفس خفة روح البكر من حيث اللطافة والمرح، وقصة عائشة- رضي الله عنها- خير شاهد على ذلك، فعن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديا، وفيه شجرة قد أكل منها ووجدت شجرا لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: (في التي لم يرتع فيها.) تعني أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لم يتزوج بكرا غيرها[3]"، وقد جمع النووي- رحمه الله- كل الأسباب التي تكفل للبكر هذه المزية في قوله: "استحباب نكاح الشابة؛ لأنها المحصلة لمقاصد النكاح، فإنها ألذ استمتاعا، وأطيب نكهة، وأرغب في الاستمتاع الذي هو مقصود النكاح وأحسن عشرة، وأفكه محادثة، وأجمل منظرا، وألين ملمسان، وأقرب إلى أن يعودها زوجها الأخلاق التي يرتضيها"[4].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٤٢/٤.

(٢) سورة الواقعة الآتيان (٣٥، ٣٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه البخاري ١٦٣٥/٣.

(٤) شرح النووي على مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف المري النووي ١٧٤/٩ دار إحياء التراث العربي بيروت، ط١٣٩٢، ٥٢.

والحوار الذي دار بين النبي الكريم وجابر- رضي الله عنه- كان هادئاً، واضحاً، سلسا، أخذ طابع السؤال في بدايته ، وتدرج على هذا النحو حتى وصل إلى تقرير قضية اجتماعية ، تمثلت في الحض على زواج الأبكار؛ لأسباب ذكر بعضها في ثنايا الحوار في قوله (تلاعبها وتلاعبك).

كما تتجلى للقارئ سمات الحديث البلاغية فيما يلي:

التعبير بلفظ (الملاعبة) وإتيانها على صيغة (تفاعل) لتدل على مشاركة الزوج والزوجة في الفعل ، وتصور تلك السعادة الغامرة التي تفضي إلى المودة والرحمة ، وهذا ما جعله يأتي بالواو لبيان هذه المشاركة ، وقد يكون ذلك على سبيل المجاز المرسل الذي من علاقاته السببية فعبر عما هو مسبب للزواج؛ فالزواج سبب، والمسبب عنه الملاعبة أو المتعة ونحو هذا. والتعبير بلفظ (الإصلاح) في قوله (تصلحهن)؛ [1] لتضمنه معنى التربية بما تكفله من أنواع الرعاية والحفظ والقيام بواجب المسؤولية.

ويلحظ في الحديث الإيجاز بالحذف في قول جابر في معرض الإجابة عن سؤال النبي الكريم (نعم) وتقدير الحذف: نعم تزوجت ، جملة الجواب (المسند إليه والمسند) للإشارة إليه من سؤال النبي- صلى الله عليه وسلم- وكذا الحذف في قول النبي- صلى الله عليه وسلم – (بكر أم ثيب؟) حذف المسند إليه ، والتقدير: زوجتك بكر أم ثيب، ومثله الحذف في قوله (بل ثيب) والأصل: بل هي ثيب. وتتجلى روعة هذا الإيجاز في المسارعة إلى معرفة صفة من تزوجها ، فهو مناط السؤال، والغاية التي يراد الوصول إليها ، أما المسند إليه فهو أمر واقع معروف من السياق. ولو قال (زوجتي بكر أو ثيب) لكان في ذلك إطالة للقول في غير ما فائدة، وكذلك الحال في قول (بل ثيب) فإن جابر أراد أن يسارع ببيان الوصف الذي هو غرض السؤال وغايته، وليس يخفى أن همزة الاستفهام لم تذكر وذلك كله لأجل تلك المسارعة. والحذف في قول (فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك) بمعنى" فهلا تزوجت جارية تلاعبها وتلاعبك"، والحذف فيها جميعا للعلم به وأن العقل يرد ما هو له من خلال فهم السياق.

---

(١) الصلاح ضد الفساد وهما مختصان بالأفعال. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٢٨٤، كتاب الصاد.

ومن المسارعة إلى بيان ما كان ينبغي أن يكون من إيثار الجارية جاءت الصفة دون الموصوف ، فهي تكني عنه ، وتومئ إليه ولا يخفى أن الأصل : (فأمرأة بكر أم ثيب) في السؤال وفي الجواب (بل امرأة ثيب) وفي التحضيض (هلا تزوجت امرأة جارية تلاعبها وتلاعبك). والحذف المفهوم من قوله (فبارك الله لك) إذ أن الفاء هنا فصيحة فهي تفصح عن شرط مقدر وهو : إذا كان هذا قصدك ممن تزوجت فبارك الله لك.

وفي إلقاء الخبر مؤكدا بـ (إن) في قول جابر (إن عبد الله هلك وترك...) مما يطلبه المقام فالرسول كان في حكم الطالب لبيان علة عدم زواجه بالجارية فحسن توكيده .

وعبر بالفعل المضارع (آتيهن أو أجيئهن) لأنه يخشى أن يتصور أن مثل هذه الجارية قد تنزل بأخواته الضرر لقلة تدبيرها لشؤون البيت نظرا لصغر سنها ، وقلة خبرتها في الحياة ، ولذا قال (مثلهن) ، ومثله الفعل المضارع في (تقوم ، تصلح) فهو لتصور حال تلك المرأة عند قيامها بما يجب تجاه البنات التسع ، أما التعبير بالماضي (بارك الله لك) فقد جاء في معرض الدعاء لقصد لزوم البركة لجابر رضي الله عنه.

ويلحظ القصر في قول جابر ـ رضي الله عنه ـ (بل ثيب) وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف فقصر زواجه على المرأة الثيب دون الجارية لكمال عقل الثيب وصقل تجاربها.

هذا وقد يكون في قوله- صلى الله عليه وسلم- (هلا جارية تلاعبها وتلاعبك) فصل ؛ وذلك على تقدير أن قوله- صلى الله عليه وسلم- :(هلا جارية) تلاعبها وتلاعبك بمثابة الجواب عن هذا السؤال ، وهذا الفصل من قبيل شبه كمال الاتصال لكن ذلك على إمكانه بعيد ؛ فإن الأظهر أن العبارة كلها جملة واحدة ، وجملة (تلاعبها وتلاعبك) جزء منها ؛ لأنه صفة للنكرة (جارية) فمن المعروف أن الجمل بعد النكرات صفات.

ومن حوار- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الاجتماعية ما ذكره أبو سعيد الخدري. رضي الله عنه. بقوله :

أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم والجلوس بالطرقات). فقالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال (فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه.) قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر.)[1]

إنه البيان المحمدي الذي يأسر القلوب ، ويأخذ بالألباب ، فكل عبارة تحمل في تضاعيفها معنى مطوياً يتعين إبرازه فمثلاً (غض البصر) عن النظر إلى المحرم وهذا المحرم هو النظر إلى النساء أو إلى عورات المسلمين وقد جاء الأمر الإلهي ملزما عفافه، وصونه عن الحرام قال تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2] ثم يأتي الأمر بكف الأذى عن المسلمين، وبشتى صوره سواء كان بإبعاد ما يعترض طريق المسلمين من أذى، أو كان كفه عن الاعتداء بالضرب باليد بغير حق أو الاعتداء باللسان بالشتم أو السب؛ فالمسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده، ورد السلام على المارين امتثالا لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾[3] والأمر بكل معروف كالأمر بقول الحق، والصدق فيه، ونصرة الضعيف، والنهي عن كل منكر كرد الظالم عن ظلمه، وإرجاع الحقوق لأصحابها، ومنع الغش في البيع، والتطفيف في الكيل، ولو طبق هذا الحديث لكان المجتمع الإسلامي مثلاً حياً للمجتمع الفاضل في أسمى صوره.

وحملت ألفاظ الحديث إلى جانب السهولة والوضوح، الغزارة في المعاني، وتقصي الخيال فيها ، مما يجعل النفس تتأثر به ، وتفضله على كل بيان. كما لا يخفى ما في بيانه- صلى الله عليه وسلم- من سمات بلاغية تتراءى لصاحب كل ذوق فيما يلي :

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ١٩٦٠/٤.

(٢) سورة النور آية ٣٠.

(٣) سورة النساء آية ٨٦.

بدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - بعبارة تحذير (إياكم والجلوس بالطرقات) وهذا التحذير في ظاهره للتنزيه كما فهم الصحابة - رضي الله عنهم - ذلك منه، وهو تحذير يحفزهم ويستثيرهم فيقولون بصوت واحد (ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها)، وربما كانوا مندفعين لمعرفة سبب هذا التحذير، فعرف النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الرغبة، وأيقن أنهم لن يتخلوا بسهولة عن شيء اعتادوه وألفوه في حياتهم الاجتماعية فقال (فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه) مستخدماً أداة الشرط (إذا) التي تستعلم فيما هو محقق مصدراً هذا الشرط بفاء التفريع ؛ حيث فرع على تحقق آبائهم الأوامر التي توجههم إلى ما ينبغي عمله فقال (أعطوا الطريق حقه) وهو أمر للوجوب، ومن ثم سأل الصحابة عن هذا الحق الذي أمروا به قائلين: (وما حق يا رسول الله؟) ولذلك أردفو السؤال بندائه - صلى الله عليه وسلم - بأداة النداء للبعيد (يا) مع قربه منهم للدلالة على تشوقهم لمعرفة هذا الحق الذي لا عهد لهم به، فروى ظمأهم ببيان ما خفي عليهم قائلاً: (غض البصر، وكف الأذى..الخ) وفي عرض المعنى على هذه الصورة إطناب عن طريق الإبهام ثم البيان وفي ذلك من التشويق ما فيه ؛ لأن عرض المعنى مبهماً أولا يشوق إلى معرفة ذلك المعنى، معرفة لا لبس فيها ، فتتعلق النفس به ، فإذا جاء مبيناً ارتاحت النفس ، واطمأن القلب ، وحصلت لذة العلم بالشيء بعد انتظاره.

قوله (غض البصر، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) فكلها فيها إيجاز بالحذف وتقدير هذا الحذف: غض البصر عن المحرمات، كف الأذى عن المسلمين، رد السلام على المارين، الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، وفي هذا الإيجاز بالحذف ترفع عن ذكر ما يدرك من السياق، وصون للأسلوب عن الإطالة بغير فائدة. أما التعريف بـ (أل) في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فهو للاستغراق أي الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر[1].

وفي الحديث مقابلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعنى بالمقابلة يتأكد ويعمق في النفس.

---

(١) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٢/٢٣.

ثانياً : حواره- صلى الله عليه وسلم- مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية :

عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال :

لما أفاء (١) الله على رسوله- صلى الله عليه وسلم- يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم(٢) ولم يعط الأنصار شيئا ، فكأنهم وجدوا(٣) إذ لم يصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم ، فقال : (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ ،وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟) . كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن . قال : (ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ؟ . قال : كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن . قال : (لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا . .أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي- صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعبا(٤) لسلكت وادي الأنصار وشعبها . الأنصار شعار ، والناس دثار(٥) . إنكم ستلقون بعدي أثرة (٦) فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[٧].

مهد الراوي لهذه القصة بمقدمة بسيطة لخصت موقف الأنصار مما شاهدوه ، وما دار من حوار بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وبينهم أفصح عن عظمة هذا النبي الكريم وعظمة إنسانيته ، وحسن معاملته للأنصار ، في حوار مؤثر ، له وقعه في نفوسهم ، إنه يشيد بفضلهم ،

---

(١) الفيء: الغنيمة والخراج، تقول: أفاء الله على المسلمين مال الكفار يفيء إفاءة، وهو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد، وأصل الفيء: الرجوع، كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم. "لسان العرب لابن منظور حرف الفاء ١١/٢٤٧.

(٢) المؤلفة قلوبهم: "ناس من سادات العرب أمر الله نبيه- صلى الله عليه وسلم- في أول الإسلام بتألفهم أي مقاربتهم وإعطائهم ليرغّبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلبًا مع الكفار على المسلمين". لسان العرب لابن منظور ١١/٣٣ حرف الهمزة.

(٣) معنى وجد : "وجد عليه في الغضب يجُد ويجِد وجَدا ووجدانا وجِدة وموجدة: غضب". لسان العرب لابن منظور حرف الواو ١٥/١٥٧.

(٤) الشِّعب: "ما انفرج بين جبلين، وهو الطريق في الجبل والجمع شعاب. "المصدر السابق حرف الشين ص٨٦.

(٥) الشعار: " هو الثوب الذي يلي الجسد لأنه يلي شعره." النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، باب الشين مع العين ١/٨٧٣ أما الدثار فهو:" الثوب الذي يكون فوق الشعار، يعني أنتم الخاصة والناس العامة. "النهاية في غريب الحديث والأثر باب الدال مع الثاء ٥٥٣.

(٦) الأثرة: "الانفراد بالشيء المشترك. "تحرير ألفاظ التنبيه للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ص ٢٣٨، تحقيق عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق،ط١، ١٤٠٨هـ.

(٧) رواه البخاري في صحيحه صحيح البخاري ٣/١٣٠٧.

ويعترف بمواقفهم البطولية ، ولكنه يوكلهم إلى ما استقر في أعماقهم من إيمان صادق وحب خالص لله ورسوله ، لاسيما أن الله تعالى قد مدحهم في محكم التنزيل بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] كما أنه – صلى الله عليه وسلم- قال عنهم مبينا لفضلهم ومكانتهم : (آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار) (٢) فحواره معهم تدرج من قوة العبارة إلى رقتها وسلاستها فخاطبهم بقوله (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله لبي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي) تقرير تبدو عليه سمات العتاب ، واللوم على ما بدر من بعضهم وقوله (أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي- صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار والناس دثار.) استرضاء لهم ، وتطييب لخاطرهم ، ومحو لخاطر الموجدة الذي هجست به ضمائرهم ، وبهذا غمرت الفرحة قلوبهم ، ولعل البعض بكى من شدة تأثيرها عليه ، والبعض عبر عن كل الرضا بقوله (رضينا برسول الله قسما وحظا) ، كما جاء في بعض الروايات[3].

وأول ما يطالع القارئ سهولة ألفاظ الحوار ووضوحها ، وقوة نظم الكلم النبوي ، والحبكة في انتقاء المفردة المؤدية للمعنى المستكن في النفس وضمها مع مثيلاتها في سياق رصين ويظهر هذا فيما يلي :

التعبير بصيغة المبالغة (ضلالا) دون (ضالين) ؛ لبيان شدة الجهل وغلبته على عقولهم ، والظلام المطبق على عقيدتهم وانحراف سلوكهم ، وعبر بلفظ الألفة دون الاجتماع في (ألفكم الله بي) ؛ لما في لفظ الألفة من الإيماء إلى المؤانسة ، والمواصلة ، والاستمالة ، جاء في تاج العروس أن الألفة : " من قولهم تألف فلان فلانا ، إذا داراه وآنسه وقاربه وواصله حتى يستميله

---

(١) سورة الحشر آية (٩).

(٢) صحيح البخاري ١/٣٠

(٣) كما في مسند أحمد بن حنبل ٣/٧٦.

إليه. [1]" فهذا الجمع مكلل بمشاعر المحبة ، والإنس ، والمودة، والإيثار، وهذه المعاني ليست في لفظ الاجتماع ، فقد يجتمع الناس وقلوبهم شتى. وعبر بلفظ (العالة) دون (الفقر) ؛ لأنها توحي بالفقر المصحوب بعجز المرء عن إدارة أموره، وقلة حيلته، فهي أعم منه، وكذلك عبر بالرضا في قوله (أترضون) دون المحبة بأن يقال (أتحبون) فالرضا كما جاء في التعاريف: "طيب النفس بما يصيبها ويفوتها مع عدم التغير. (٢)" ؛ فهو- صلى الله عليه وسلم- يريد أن يطيب خواطرهم ،ويجبر كسر نفوسهم ، ويرد الفضل لهم، وهذا غاية التواضع والإنصاف ، فناسب المقام الإتيان بلفظ الرضا دون غيره؛ حتى لا يبقى شيء يعاتبونه عليه- صلى الله عليه وسلم- . واختار (الرحال) دون (المنازل) ؛ لأنهم كانوا- في ذلك الوقت- مسافرين، إذ كانوا يوم ذاك بالطائف، وعودتهم إنما تكون إليها حتى يعودوا إلى المدينة(٣)."
وفي النداء بقوله(يا معشر الأنصار) بأداة النداء الموضوعة للبعيد مع قربهم منه، وإيثار صفة النصرة على ما سواها كأن يقول: (يا معشر الأوس والخزرج) جذب لانتباههم، والتنويه بأمر ذي أهمية قد غفلوا عنه ، وأخذتهم حمية الوجد فأنستهم فضل الله ورسوله حتى بدر منهم ما أوجب عتباهم ، فقرره بما من شأنه أن يحول بينهم وبينه حيث قال (الم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي...) بإثبات الفضل لله ورسوله فهدايته لهم إذن بأمر الله وهي أعظم نعمة امتن الله بها على رسوله حيث قال (ووجدك ضالاً فهدى) ؛ ومن ثم كان امتنانه بها على المؤمنين ـ وفي طليعتهم الأنصارـ ، وهكذا تتوالى أسئلته على نفس الشاكلة، (وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وكنتم عالة فأعناكم الله بي) وهاتان نعمتان من أجل النعم، كان هو- صلى الله عليه وسلم- سبباً فيها ، إذ كان إرساله- صلى الله عليه وسلم- سبباً في الألفة بعد التفرق، والغني بعد الفقر، فما كان أحراهم أن يترفعوا عما بدر منهم.

وفيما وجهه إليهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- من قوله (ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي)، جاء المسند إليه في

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، م١٢، ص٩٢ ، دراسة وتحقيق : على شيري ١٢/٩٢، باب الفاء فصل الهمزة مع الفاء ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرءوف المناوي . تحقيق محمد رضوان الداية ص٣٦٥، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.

(٣) الرحل: "مسكن الرجل وما يصحبه من الأثاث" لسان العرب ٦/١٢٢ حرف الراء.

الجمل الثلاث بلفظ الجلالة ؛ لما فيه من تربية المهابة في النفوس وتتأكد إرادة تربية المهابة مجيء الاسم الظاهر بدلاً من الضمير في الجملتين الثانية والثالثة ، فإن أصل التركيب أن يقال: كنتم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي".

وإسناد الأفعال (هدى، ألف، أغنى) إلى لفظ الجلالة من قبيل إسناد الفعل إلى فاعله الحقيقي وذلك يقال له عند أهل العلم: حقيقة عقلية، وإنما آثرها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- تأدباً مع الله، ورعاية لمقام العبودية، فإنه وإن كان يجوز إسناد الهداية، والتأليف، والاعتناء إليه، لكونه سبباً فيها على سبيل المجاز، ولا ضير عليه في ذلك ؛ فقد أسند الله تعالى إليه الهداية بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[1]. أقول: إنه آثر أسلوب الحقيقة مع جواز إرادة الإسناد المجازي ؛ لما سبق ذكره من رعاية مقام العبودية، بتواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إضافة إلى إرادته تربية المهابة في قلوب الأنصار.

وهذا الاستفهام الممتد الشامل للجمل الثلاث استفهام تقريري، تفوح منه رائحة العتاب ؛ إذا يراد به دفع المخاطبين إلى الإقرار بما امتن الله به عليهم من نعم الهداية بعد الضلال، والألفة بعد التفرق، والغنى بعد الفقر، فإذا أقروا به كان ذلك مدرجة لأن يقال لهم: ما كان أحراكم أن تترفعوا عما بدر منكم.

هذا ، وهم- في واقع الأمر- قد أقروا بما قررهم به الرسول- صلى الله عليه وسلم- وآية ذلك أن راوي الحديث- عبد الله بن زيد- اختصر إقرارهم الذي يتجسد به الحوار حيث قال: (كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن).

ولا يخفى أن الاستفهام التقريري في معنى الخبر، ومن ثم كان يمكن أن يقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- : كنتم ضلالاً... وكنتم متفرقين... وكنتم عالة...الخ، ولكن إيثار طريق الاستفهام فيه إيماء إلى استنطاق المخاطب بما قرر به ، وفي ذلك إقامة الحجة عليه ، ليتوجب إليه العتاب، وقد أقر الأنصار بما قرروا به كما سبق بيانه.

---

(١) سورة الشورى، الآتيان: ٥٢- ٥٣ .

وفي قول الأنصار (الله ورسوله أمن) بلاغة معجبة ؛ لما فيها من إشارة إلى قول ترفعوا عن ذكره وكأن الأصل: إن حدث منا منّ، فالله ورسوله أمن، فأبى إيمانهم بالله ورسوله أن يثبتوا لأنفسهم منًّا، ولو كان على سبيل الاستبعاد. ومن ثم كان الاستفهام في قوله- صلى الله عليه وسلم- يتعجب من عدم إجابتهم بما يمكنهم أن يجبوا به ، وهم إن أجابوا صدقوا، ومن هذا التعجب تتراءى في إرادته- صلى الله عليه وسلم- إذابة خاطر الانكسار من نفوسهم ، ودفع الحرج عنهم ؛ ولذلك أردف قائلاً: (لو شئتم قلتم كذا، وكذا) ولا ريب أن قوله هذا شهادة منه أو اعتراف بما قدمه الأنصار من جليل العمل؛ لحماية الإسلام ورفع رايته بحمايتهم إياه، وجهادهم معه.

ولينظر المتذوق إلى روعة الاستفهام في قوله- صلى الله عليه وسلم- (أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي- صلى الله عليه وسلم- إلى رحالكم) فإنه تفوح منه رائحة الاسترضاء ، وإزالة الموجدة من نفوسهم ، لاسيما إذا وازنوا بين ما يذهب بعرض من الدنيا سرعان ما يزول، وهم يذهبون بالنبي الذي يعرفون قدره وهو لا يساميه شيء. ما أبعد البون بين غُنْم وغَنَم.

وفي وضع الاسم الظاهر (النبي) موضع الضمير، إيماء إلى سبب التعظيم لغنمهم، فهم لم يغنموا رجلاً عادياً كسائر الرجال ، بل غنموا نبياً هو سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد أردف النبي هذا الاسترضاء بالاستفهام استرضاء آخر ماثل في خبر يراد به التعظيم والإيثار وهو قوله- صلى الله عليه وسلم- (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم) فهم عظماء، وهو يؤثرهم على غيرهم لهذه العظمة، وفي وضع الاسم الظاهر موضع الضمير إشارة إلى سبب تلك العظمة وهي النصرة، ولو لم تكن تلك الإيماءة مقصودة لقال: ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكتم شعباً ووادياً لسلكت شعبكم ووديكم، وهنا ينبغي الإشارة إلى ما في هذا الخبر من الإيجاز، فقد حذف المسند في جملة (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار) والأصل: - كما لا يخفى- لولا الهجرة حاصلة لي لكنت...الخ، وهذا نسق أسلوبي مطرد لدلالة أسلوب الشرط على المحذوف ، وحذفت جملة المعطوف في قوله- صلى الله عليه وسلم- (ولو سلك الناس وادياً وشعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم) والأصل أن يقال: ولو سلك الناس وادياً وشعباً، وسلك الأنصار وادياً وشبعاً لسلكت وادي الأنصار). أي أنه حذفت جملة

السبب ودل عليها المسبب ؛ ذلك أن سلوك شعب الأنصار مسبب عن سلوكهم شعباً مغايراً لشعب الناس وحذف الجملة وما هو أكثر منها نسق عربي أصيل بيَّن البلاغيون صوره.[1]

ومثل هذا الحذف يضفي على الأسلوب سحراً يتمثل في طي المحذوف ليس استغناء عنه، بل يترك ليتراءى للمتلقي من ستار ما هو مذكور، فيبدوا الكلام مكتنزاً أقوى البناء، خالياً من رخاوة الكلام الممتد دون فائدة.

وقوله (الأنصار شعار والناس دثار) بعد قوله (لو سلك الناس وادياً...) إطناب يبين أمرا مطوياً يضفي على القول السابق شيئاً من الإبهام ؛ فهو لا يفصح عن سر إيثاره لشعبهم وواديهم، فأفصح عن اللاحق إذ سر إيثاره لشعبهم وواديهم هو شدة قربهم منه إذ كيف لا يؤثرهم وهم أقرب إليه من غيرهم كقرب الشعار من جلد لابسه، وغيرهم كالدثار، وسر هذا القرب يوحي إليه وضع المظهر موضع الضمير كسابقه.

وقوله بعد ذلك (إنكم ستلقون أثرة بعدي فأصبروا حتى تلقوني على الحوض) نوع آخر من الإطناب هو ما يعرف عند أهل العلم بالاحتراس، ذلك أن ما سبقه من القول من شأنه أن يوهم أن الناس بعده سيعرفون لهم مكانتهم كما عرفها النبي لهم ، ولم يعرفونها، وقد بينها النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان هذا القول دافعاً لهذا الوهم ؛ لأن الناس بعده ستأخذهم الدنيا وينسون ما قاله ؛ ولذلك وجههم إلى الصبر حتى يلقوه على الحوض.

والجمع بين الإيجاز والإطناب في كلام تقاربت أطرافه درجة من البلاغة لا يرتقيها كثير ممن أوتي القدرة على إفراز الكلام البليغ.

وينظر المتذوق إلى ما خرج عليه أسلوب الاحتراس، فقد أوثر فيه طريق الخطاب بالالتفات إليه من طريق الغيبة ، الماثلة في قوله: الأنصار شعار، كأنه يحكي عن قوم غير حضور، فلما أراد أن يدفع عنهم وهم تكريم الناس إياهم تكريمه - صلى الله عليه وسلم - واجههم بالخبر مخاطباً إياهم ؛ حتى يثبت في أعماقهم مضمونه، فلا يغيب عن خاطرهم لحظة من الزمن، ولأن هذا هو المقصود أورد الخبر مؤكداً بأن مع خلو ذهنهم عنه بتنزيلهم منزل السائل المتردد ؛ لأنه يتوقع أنه لو أورده خالياً من التأكيد لسألوا سؤال المتردد الشاك.

---

(١) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير٢/٢، قدمه وعلق عليه د/أحمد الحوفي، د/بدوي طبانه، نهضة مصر، القاهرة ، د.ت . وينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٣/١٨٤.

أما الأخبار السابقة فقد أوردت غير مؤكدة لخلو ذهن المخاطبين من مضمون الخبر وليس فيها ما يدعو إلى تنزيلهم منزلة الشاك أو المنكر.

والترابط بين جمل هذا الحديث يظهر في صورتين:

الترابط اللفظي - عن طريق الواو وهو ما يسمى عند البلاغيين بالوصل - وذلك في قوله (ألم أجدكم ضلالاً وكنتم متفرقين.. وكنتم عالة...) فقد عطفت الثانية على الأولى، والثالثة على الثانية؛ لأنها جمل إنشائية لفظاً خبرية معنى، فبينها التوسط بين الكمالين. والمسند إليه واحد، والمسند فيها متناسب حيث الضلال يتبعه التفرق والعيلة، ومن الترابط من هذا الطريق قوله (لولا الهجرة... ولو سلك الناس شعباً...) فقد ارتبطت الثانية بالأولى بواسطة الواو لكون الجملتين خبريتين لفظاً ومعنى، فبينهما التوسط بين الكمالين، والتناسب بين الشرط والجواب فيهما لا يخفى على من له صلة بذوق الكلام.

والترابط العضوي - أعني - ما لا يحتاج إلى رابط خارجي - وهو ما يسمى عند البلاغيين بالفصل - يُرى في قوله (الأنصار شعار...) بعد قوله (لولا الهجرة.. لسلكت شعب الأنصار...)؛ لأن الثانية بيان للأولى فهي منزلة من الثانية منزلة عطف البيان في قولنا: أقسم بالله أبو حفص عمر، ذلك أن الثانية مبينة للأولى على نحو ما سبق ذكره في بيان نوع الإطناب.

ويرى أيضاً في قوله (إنكم ستلقون أثره) بعد ما سبقه؛ فهو جملة مستأنفة بمثابة الجواب عن سؤال اقتضاه ما قبلها، كأنه قيل: هل سيعرف الناس منزلتنا كما عرفتها، ويكرموننا كما كرمتنا؟ فقال: إنكم ستلقون أثرة، وفي الحديث تشبيه مؤكد - أعني - التشبيه الذي حذف منه الوجه، وأداة التشبيه، وهو ما يسميه أهل العلم بالتشبيه البليغ، وذلك في قوله - صلى الله عليه وسلم - (الأنصار شعار والناس دثار) وفي هذا التشبيه إيماء بشدة حرصه - صلى الله عليه وسلم - عليهم، وشدة حبه إياهم، وهل ثمة حب أشد من حب المرء لمن اشتد قربه منه؟

وفيه طباق لافت بين الضلال والهداية، وبين التفرق والألفة، وبين العالة والغني، والجمع بين هذه المتضادات يظهر حسن أحد الطرفين وقبح الآخر؛ فالهداية يظهر حسنها الضلال، وهي تظهر قبحه، وكذلك الحال بين التفرقة والألفة، والعيلة والغنى.

وفيه سجع يتمثل في قوله (الأنصار شعار، والناس دثار) والسجع إيقاع نغمي لا يجهل أثره في نفس المتلقي.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما رواه أبو صالح السمان حيث قال:

إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: (في كل كبد رطبة أجر[1].

قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نموذجا حيا للعطف ، والرحمة ، والإنسانية من خلال أقصوصة قصيرة عرضها على مسامع الصحابة ؛ حتى يزداد شغفهم بمعرفة مجرياتها ، وتترك في نفوسهم بعض التساؤلات تجاه ما سمعوه ، وهذه طريقة من حواراته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعتمد على سرد القصة ثم التعليق عليها في النهاية ، وذلك بسؤال أثارته : يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟!، فقال: (في كل كبد رطبة أجر .)

والقصة بدأت بتمهيد موجز (بينما رجل يمشي بطريق) وتخلل القصة عقدتان تتابعت على إثرهما الأحداث سراعاً ؛ الأولى مع الرجل حين اشتد به العطش ، والأخرى مع الكلب اللاهث من العطش ، ثم يأتي الحوار(المنولوج الداخلي) في قول الرجل (لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني) إنه يحدث نفسه وكأنه يبحث عن حل للمشكلة: ماذا يصنع؟ وكيف يتصرف حيال ما يراه: أيساعده أم يتركه ويمضي لحال سبيله؟ ويقرر في النهاية مساعدته رغم ما سيعانيه من تعب وجهد كما يظهر في قوله (فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب) وبذلك صور الحوار الداخلي جانب الخير في شخصية ذلك الرجل ، وعبر عن مدى العطش الذي لاقاه في الطريق ، وما تولد في نفسه من انفعال الرأفة والرحمة تجاه الكلب العطشان.

أما ما دار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – من حوار فكان مبنياً على هذه القصة فاتسم بالهدوء مع ظهور علامات الاستغراب والدهشة على الصحابة (وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟!) ثم يأتي جواب النبي الكريم ليزيل عن نفوسهم هذه الدهشة وهذا هو مغزى القصة النبوية الذي من أجله عرضت على مسامعهم.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٤٠٢،٤٠١.

وعند تدبر الحديث والنظر إلى خصائصه البلاغية فإن بعض لمحاتها تكمن في اختيار المفردة وارتباطها مع أخواتها في نظم واحد يبرز فيه المعنى ويعبر عما في النفس كالتعبير بلفظ العطش دون الظمأ ؛ لأن العطش أشد وأبلغ في حرارة الجوف ، وفي اللغة "تقول أظمأ فلان الإبل: زادَ في إظمائِها وحَبَسَها عن الورُودِ فإن بالَغَ فيه فَقُلْ: عَطَّشَها تَعْطيشاً. (١)" فالذي يظهر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عبر عن شدة عطش الرجل وعنائه فناسبت هذا حاله وليس خافياً مجيء (من) في (من العطش) سببية فما التعب والعناء إلا من شعوره بالعطش الشديد.

وكذلك التعبير بلفظ الرقي دون الصعود في (فرقي) فالرقي الارتفاع والصعود وبلوغ غاية ينتهي إليها المرء وناسب ذلك ارتقاء الرجل من البئر الذي نزل فيه.

والتعبير بلفظ (كبد) نكرة ووصفها بالرطبة ؛ ليدل به على الحياة، وشمول الأجر في إرواء كل إنسان أو حيوان ؛ ولذلك جيء بلفظ العموم (كل). وتنكير بعض الكلمات مثل (رجل، طريق، بئرا، كلب، أجرا) يدل على معنى يفهم من السياق ؛ فالتنكير في (رجل، طريق) معناه فرد (ما) من أفراد الرجال، وفرد (ما) من أفراد الطريق، والتنكير في (بئرا) دل على عمقه، والتنكير في (كلب) دل على حاله أي: كلب عطشان ، بدليل مجيء الجملتين الواقعتين صفة بعده في قوله (كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش) وتنكير أجر دل على الأجر العظيم من رب العالمين لمن بلغت نفسه هذا المبلغ من الرحمة.

وفي المقابل يأتي التعريف في (الرجل، البئر، الكلب، الثرى، العطش، البهائم) ؛ فالتعريف فيها جميعاً للعهد العلمي إذ كل ذلك معهود لدى السامعين.

وتوالي حروف العطف يدل على حذف كثير من تفاصيل القصة التي لا طائل تحتها إما الحرص على التتابع الذهني فلا تفقد القصة عنصر التشويق فيها والإثارة مثل الفاء في (فنزل البئر فملأ خفه ماء) (فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له) فهي للترتيب والتعقيب فكل فعل يليه فعل آخر دون التراخي فيه أما (ثم) فتفيد التراخي في قوله (فنزل فيها فشرب، ثم خرج) (فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه) فهناك فترة أعقبت شربه للماء فبعد ارتوائه من العطش وابتلال عروقه خرج من البئر فإذا به يصادف كلباً يلهث.. وهكذا دلت على مدة زمنية محددة ولا يخفى

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي، باب الشين فصل العين ص ٧٢٢.

ما في (إذا) الفجائية من تصوير ما شاهده الرجل من سوء حال الكلب والتعبير عما راود نفسه من الإشفاق والرحمة.

وتأكيد الخبر في (لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني) بكل هذه المؤكدات (لقد ، والفعل الماضي "بلغ" وزيادة "كان") للمبالغة في الحال التي آل إليها ذلك الكلب ، ولا يخفى أن الخبر هنا يردده الرجل في نفسه من باب الرحمة والاستعطاف، ومن ثم أكده ليحول بين نفسه وبين ترك الكلب عطشان ، وتنزيل النفس منزلة المنكر لتعظيم الخبر كما ورد في الذكر الحكيم ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وقدم الجار والمجرور (في البهائم) على المسند إليه (أجرا) ؛ للاهتمام به فإن السائل لم يكن يتوقع أن يكون في البهائم أجر وهذا ما جعلهم يشيرون إليها بـ (هذه) وإيثار اسم الإشارة الموضوع للقريب إيماء إلى حقارتها وكأنها في نظرهم أهون من أن يكون الاهتمام بهم مجلبة للأجر، وسؤالهم للنبي الكريم كان فيه التأكيد بإن واللام (لأجرا) وهم في حال من يبالغ في الاستغراب المفهوم من الاستفهام الذي تفيده هذه الجملة حتى كأنهم ينكرون أن يكون في رحمة البهائم أجر، وكان رده – عليه الصلاة والسلام – على هذا خالياً من التأكيد. ولاشك أن شدة الاستغراب أعجلتهم عن ذكر همزة الاستفهام، فأسقطوها للمسارعة إلى معرفة هذا الأمر المستغرب فإن الأصل أن يقال: "أو إن لنا في البهائم لأجراً؟". وفي قوله (في كل كبد رطبة أجر) بدون تأكيد للخبر لخلو ذهنهم من مضمونه فبيَّن لهم أن هذا الأجر عام لكل حي فلا يمكن أن يكون خافياً عنهم.

وفي الحديث كناية لطيفة تتراءى في قوله – صلى الله عليه وسلم – (في كل كبد رطبة أجر) كناية عن الحياة لكل كائن حي إنساناً كان أو حيواناً.

ومن بديع هذا الحديث رد العجز على الصدر (يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً؟ فقال: (في كل كبد رطبة أجر) فالصحابة انتهوا بلفظ (أجر) وكذلك النبي الكريم.

---

(١) سورة الإنسان، آية: ٢٣.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن عبد الله بن عمر قال:

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي؟ يا رسول الله قال: (هي النخلة) قال: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا وكذا.[1]

يقرر النبي – صلى الله عليه وسلم – حقيقة المسلم، المؤمن بربه من حيث التأثر به وبصحبته فهو كالنخلة الباسقة في كبد السماء تجني منها أطيب الثمار فدل على دوام العطاء وكثرة الخير، وظاهر الحديث مدح شخص المسلم ولكن تلميحاً دون تصريح بذلك.

ولا يخفى على القارئ ما امتاز به الحوار من هدوء مع ألفاظ قوية جزلة تحمل المعاني العظيمة التي لا تتأتى إلا لنبي عصم من الخطأ وحفظ من الزلل وألهم القول إلهاماً ثم ما جاء في تضاعيفه من حوار مسموع حيث سألهم عن هذه الشجرة، وأخذوا يجيبونه عنها وفق تصورهم فقوله (فوقع الناس في شجر البوادي) تصوير لحالهم فكل واحد يجيبه بقوله: شجرة كذا، فيقول: لا ، ويقول الآخر: شجرة كذا، فيقول: لا ، وكذلك الحوار الخفي الذي تمثل في حديث ابن عمر مع نفسه في قوله (فوقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت) وما كان حياؤه إلا لصغر سنه ولحضور أبا بكر وعمر رضي الله عنهم.

وما توارى خلف الكلمات من سمات بلاغية يكمن في اختيار المفردة الموحية بصدق المعنى المعتمل في نفسه – صلى الله عليه وسلم – (حدثوني، المسلم) وربما جاءت ألفاظ مرادفة لمعنى (حدثوني) كـ (أخبروني أو أنبئوني) لكن إيثار التعبير بلفظ (حدثوني) فيه خصوصية يتبين ذلك مما ذكره أبو هلال العسكري بقوله: "الحديث في الأصل: ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك ، وسمي حديثاً ؛ لأنه لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك فحدثت به، والخبر: هو القول الذي يصح وصفه بالصدق أو الكذب ، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك ، ثم كثر استعمال اللفظين حتى سمي كل واحد منها باسم الآخر فقيل للحديث خبر وللخبر حديث، ويدل على صحة ما قلنا أنه يقال: فلان يحدِّث عن نفسه بكذا وهو حديث

---

(١) رواه مسلم في صحيحه صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢٩٠.

النفس ، ولا يقال يخبر عن نفسه ولا هو خبر النفس[1]". فهذا المعنى قام بنفسه – صلى الله عليه وسلم – ابتداء ولم ينقله عن غيره ، أراد به أن يحث الصحابة على التفكير والاستنتاج فيحدث كل واحد نفسه ويتساءل عن ماهية هذه الشجرة ، ويحاول إدراك مغزى نبيه الكريم بعد ذلك. والتعبير بلفظ (المسلم) دون (المؤمن) أبلغ ، وربما تبادر للذهن شمول هذا اللفظ للإنسان العاصي أو الفاسق وكل ما هو دائر في فلك هذا المعنى لكن مقصد النبي – صلى الله عليه وسلم – كان أكثر دقة في إصابة المعنى المراد فهو يعني المؤمن الذي تحقق إسلامه بقوة الإيمان ؛ ولذا يقول ابن منظور: "يقال فلان مسلم فيه قولان: أحدهما المستسلم لأمر الله ، والثاني المخلص لله العبادة من قولهم سلّم الشيء لفلان أي خلصه له والإسلام إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ، أما الإيمان فهو التصديق.[2]" فالمراد بالمسلم هنا من أخلص لله فآمن به ، وانعكس ذلك على سلوكه فكان ظاهره فيض ما استقر في قلبه ، وإنما آثر لفظ (المسلم) هنا ؛ لأنه ليس بصدد تكليف بأمر يراد فعله أو تركه ، فلفظ المؤمن يؤثر عند إرادة التكليف بأمر معين كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[3] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾[4] وإطلاق لفظ (شجرة) على النخلة على سبيل المجاز لا الحقيقة ، كما نقل السيوطي عن الزركشي قوله: "إن النخلة لا تسمى شجرة وإن قوله (إن من الشجر شجرة) على سبيل الاستعارة لإرادة الإلغاز.[5]"

وصدَّر النبي – صلى الله عليه وسلم – ؛ الجملة بلفظ التوكيد (إن) ؛ لأن الصحابة لم يكن لهم سابق علم بمضمون الخبر فشكوا فيه أو ترددوا ، ولكنه – صلى الله عليه وسلم – بادئهم بإلقاء الخبر مؤكداً ليتلقوه بالتسليم به من أول الأمر فلا ينتابهم فيه شك. وفي جملة (لا

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٥٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور حرف الميم ص ٧/٢٤٣.

(٣) سورة الحج آية ٧٧.

(٤) سورة الصف، آية ١٤.

(٥) قد رد السيوطي هذا بقوله :"وما ذكره الزجاجي يرده ويمشي الحديث على الحقيقة." المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ٢٧٩/١ تحقيق فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٩٩٨م .

يسقط ورقها) احتراس وكأنه احترزعن بعض الشجر التي قد تكون عرضة للذبول فيسقط ورقها وتعلن موتها بل هي ثابتة صامدة لا يعتريها الضعف والهلاك.

وتنكير (شجرة) للنوعية ؛ فهذه الشجرة نوع خاص من الشجر الذي عرفه أصحابه ولا يبعد أن يكون للتعظيم من شأنها ، وإبراز قيمتها وما لها من منافع كثيرة للناس ، وربما صارت مصدر قوتهم إذا لم يتوفر من القوت سوى ثمرتها ، أما تعريف (الشجر، المسلم) فهي للعهد العلمي فما تبادر إلى أذهان الصحابة من هذه الشجر الكثير معلوم حاضر في مخيلتهم وسائد في باديتهم آنذاك.

وذكر المسند إليه (هي النخلة) للتأكيد وكان يكفي النبي أن يقول لهم (النخلة) لكنه جاء بالضمير (هي) لتأكيد الخبر في أذهانهم ووجدانهم.

وبالنسبة لتشبيه النبي – صلى الله عليه وسلم – المسلم بالنخلة من تشبيه محسوس بمحسوس واستحضار صورته في نفوس الصحابة حتى يتمكن المعنى ويتقرر لديهم فالمشبه (المسلم) والمشبه به (النخلة) ووجه الشبه النفع والخير في كل. [1]

---

(١) ذكر العيني وجه الشبه في هذا الحديث فقال: "أما وجه الشبه فهو كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها، ووجودها على الدوام فإنه من حين أن يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس وبعد أن ييبس يتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومحاضرًا وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك مما ينتفع به من أجزائها ، ثم آخرها نواها ينتفع به علفاً للإبل وغيره ، ثم جمال نباتها وحسن ثمرتها وهي كلها منافع وخير وجمال ، وكذلك المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه، ومواظبته على صلاته وصيامه ، وذكره والصدقة وسائر الطاعات ، وهذا هو الصحيح في وجه الشبه". عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني ٢/٢٠.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك). قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك). قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك). قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك). (١)

للأم نصيبها من حواراته – صلى الله عليه وسلم – فلم يغفل حقها ، ولم ينسى فضلها، بل أوصى بها كثيراً ؛ لما لها من فضل لا ينكره الابن، ولا يستطيع نسيانه وإن جحد، فهي من حملته بالرغم من وهنها، وقلة تحملها، وهي من صبرت على مر السهر لترتاح عينه، ويطمئن فؤاده، ربته بحنان، وضمته في شغف، وكم مسحت دموعه، وأزالت بيدها أقذاره، طالما كان نصيبها من المسئولية كبيراً بالمقارنة إلى الأب، وإن كان هو الآخر يكد ويشقى في سبيل توفير كل ما يحتاج إليه بجانب تربيته له، ولكن الأم تظل هي أول يد أمسكته، وضمته إلى صدرها بكل عطف ومحبة صادقة، وما أجمل ما قاله أحد الباحثين حيث قال: "عانت الأم في سبيل الابن ما لم يعانيه الأب، فحملته تسعة أشهر وهناً على وهن ، وضعفاً إلى ضعف ، ووضعته كرهاً ، يكاد يخطفها الموت من هول ما تقاسي، ولكم كان بدء الحياة لوليد نهايتها الأم الرءوم، سهرت على راحته عاملة لمصلحته، وإن برحت بها – في سبيل ذلك – الآلام"(٢).

حوار قصير هادئ ، سهل العبارة بني على سؤال الصحابي عن بعض الأشخاص الذين يجب تجاههم البر والمعروف ، ولذا كانت البلاغة فيه تكمن في التعبير باسم التفضيل الذي جاء في جملة استفهام حقيقي ليعطي بذلك تصوراً لتفاوت منازل من هم معنيين حقاً بحسن الصحبة في نظر السائل، وحسن الصحبة تقتضي البر والإحسان، ولين المعاملة، ولن تكون إلا مع الأقربين فهم بكل ذلك أولى، بدءاً بالأم لأنها أولهم – كما تبين – ثم الأب وهكذا تتفاوت الرتب.

ويلحظ في الحديث إيجاز الحذف في قوله (أمك، أبوك) وتقديره: أمك أحق بحسن صحابتك، ثم أبوك أحق بعدها بذلك ، وحذف هذا لورود ما يدل عليه من خلال فهم السياق.

---

(١) صحيح البخاري، ١٨٩١/٤.

(٢) الأدب النبوي، محمد عبد العزيز الخولي، اعتنى به عبد المجيد طعمه الحلبي، ص ١١١، دار المعرفة بيروت – لبنان.

أما التكرار اللفظي في (أمك) فلا يخفى ما فيه من تأكيد حقها والإشادة بقدرها، دون الأب لما قاسته من أجل ابنها بدءاً بحمله، ومروراً بوضعه، ثم تربيته، والسهر عليه.

ولينظر المتذوق لمعنى الحرف (ثم) – هنا – فهو ليس على أصل وضعه من حيث دلالته على الترتيب والتراخي ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[(١)].

أجل هو ليس على أصل وضعه بل هو للتفاوت الرتبي فالأب والأم حقيقان بحسن الصحبة ، وجديران بالرعاية والإحسان ، ولكن رتبة الأم أعلى من رتبة الأب في ذلك، وذلك جار مجرى قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾[(٢)] فذهاب الكافر إلى أهله يتمطى أوغل في التكذيب، وأشد في الإعراض عن الحق، والهلاك الثاني أشد من الأول.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ – ١٤.

(٢) القيامة، الآيات: ٣١ – ٣٥.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن أبي هريرة قال:

جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: (فلا تعطه مالك) ، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال:(قاتله) ، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: (فأنت شهيد) ، قال: أرأيت إن قتلته ؟ قال: (هو في النار.)[1]

أي معنى إنساني أعظم من أن يحترم الإنسان فلا يعتدي عليه بأخذ ماله؟ أجل ، إن الإنسان لا يفكر في اغتصاب المال من إنسان (ما) إلا إذا كان يحتقره ، ولا يراه أهلاً لأن يمتلك هذا المال الذي يريد اغتصابه ، أو أنه أولى به من صاحبه ، ومن ثم كان من احترام الإنسان لنفسه ، وحمايته لكرامته ، أن يدافع عن ماله أو يرد الغاصب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فإن قتل دون ذلك فهو شهيد ؛ لأنه دافع عن حقه ولم يفرط فيه ، وإن قتل الغاصب فلا إثم عليه ولا قصاص فكرامة الإنسان ماثلة في أن يحافظ على حقوقه، وأن يدفع عنها عدوان المعتدين.

ولقد جاء هذا المعنى في أسلوب حواري سهل واضح الألفاظ، يسأل فيه الرجل النبي – صلى الله عليه وسلم – فيجيبه عما يسأل وهو حوار هادئ عاقل، يمضي متدرجاً من الميسور السهل إلى أن يبلغ ذروة في الشدة والصعوبة.

فإن على صاحب المال أن يمتنع من إعطائه لمن يريد الاستيلاء عليه، فإن أصر المعتدي على أخذه، وتطور الأمر إلى القتال، كان عليه أن يقاتله، وهو عندئذ بين أمرين: إما أن يغلب ويقتل فيكون شهيداً، وإما أن ينتصر فيحمي ماله ولا إثم عليه، ويهدر دم الغاصب.
هذا مضمون الحديث أما بلاغته فأحاول الكشف عنها فيما يلي:

البراعة في اختيار المفردة في نظم الكلم كصيغة (قاتلني، قاتله) فهي تدل على المشاركة في الفعل أي: إن قاتلك فقاتله، واحتمال ذلك قد يحصل من أي رجل كان ؛ ولذا كان الإتيان بـ (رجل) نكرة، وجيء بـ (إن) في سياق الاستفهام لإفادة الاحتمال الوارد. كما عبَّر بالفعل المضارع (يريد) ؛ لأن هذه الصورة حاضرة باستمرار في ذهن السائل لا تغيب عنه ، فتصور وقوع مثل ذلك قد يكون.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٣٢٣/١.

أما التعريف بالإضافة إلى الضمير في (مالي ، مالك) فهو لإحضاره في ذهن السامع[١]، أو لإثبات ملكيته له فهو أحق به من المعتدي.

والتعريف في (النار) بـ (ال) فهو للعهد العلمي فلا يخفى أنها مقر العذاب الأبدي.

وذكر الضمير (هو في النار) وكان يغنيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول: في النار ولكن ذكر المسند إليه – وهو الضمير – للتأكيد على عظم عذاب من يعتدي على المسلمين بغير وجه حق ويصادر أموالهم بالباطل.

ويلحظ إيجاز الحذف في قول الصحابي (أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟) فيه حذف إذ التقدير بعد ذلك: ماذا أفعل؟ هل أعطيه مالي؟ ، ومثله الحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم – (فلا تعطه مالك) فالفاء أفصحت عن محذوف تقديره: إن أراد أخذ مالك فلا تعطه إياه، والحذف في قول الصحابي: (أرأيت إن قاتلني) أي: ما الذي أفعله؟ أأقاتله؟ ، والحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم – (قاتله) حيث حذف بعدها جملة تقديرها: قاتله إن قاتلك. والحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم – (فأنت شهيد) حيث أفصحت الفاء عن محذوف تقديره: إن قتلك فأنت شهيد.

والحذف في قوله (أرأيت إن قتلته) حذف الاستفهام وتقديره: ما جزاؤه والاستفهام المتكرر في قول الرجل (أرأيت...، أرأيت...، أرأيت...) ليس على ظاهره، فالمراد به الأمر، والتقدير: أخبرني ، وهذا الأمر مراد به الدعاء.

والحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم - : (هو في النار) أي هو في النار إن قتلته وكل هذا الحذف للعلم به من خلال السياق.

وفي الإيجاز بالحذف تخفف مما يعيق الوصول إلى المقصود بالقدر المطلوب من السرعة، مادام يتراءى من ستار السياق، وفيه إلى جانب ذلك حبكة للحوار تكسب الكلام قوة ومتانة.

---

(١) الإيضاح في علم البلاغة للخطيب القزويني ٢/ ٣٣.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن معاوية بن الحكم السلمي قال:

بينما أنا أصلي مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت: واثكل أمياه. ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كرهني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن، أو كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان، قال: (فلا تأتهم). قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: (ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم). (قال ابن المصباح فلا يصدنكم). قال: قلت: ومنا رجال يخطون(١) قال: (كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك). قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب (الذئب؟؟) قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعظم ذلك علي قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: (ائتني بها) فأتيته بها، فقال لها: (أين الله؟) قالت: في السماء، قال: (من أنا؟)قالت: أنت رسول الله. قال: (اعتقها فإنها مؤمنة)[٢].

يتجلى في الحديث إنسانيته – صلى الله عليه وسلم – فقد شهد له معاوية بن الحكم بذلك في قوله (ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فما كرهني ، ولا ضربني ، ولا شتمني) لقد علّم النبي – صلى الله عليه وسلم – أصحابه كيفية التغيير الإيجابي لسلوك كل إنسان يدل على جهله وعدم درايته بالأمور بطريقة مهذبة ، ليست كطريقتهم حين رموا الأعرابي بأبصارهم ورشقوه بنظرات توحي له بالخجل ، وارتكاب الشيء الجلل ، لقد قال له في

---

(١) جاء في النهاية معنى قوله (كان نبي من الأنبياء يخط) ؛ فالخط كما يرويه ابن عباس بقوله:" هو الذي يخطه الحازي وهو علم قد تركه الناس، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حلواناً فيقول له: أقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوط كثيرة بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين، خطين، وغلامه يقول للتفاؤل: ابني عيان، أسرع البيان، فإن بقي خطان فهما علامة النجاح، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة "النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٥٠٥ باب الخاء مع الطاء.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٩٠ – ١٩٢ – ١٩٣.

هدوء وسماحة (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) كما يظهر من حواره الآخر إنسانيته بشأن المملوكة ؛ فهي من بني آدم لها شعور بني آدم وإحساسهم ، فظلمها بالتعدي عليها يشعرها بالقهر، ويقتل فيها معنى الإنسانية، ولذلك عظَّم النبي الكريم ذنب الأعرابي مما حدا به إلى التفكير في عتقها، فلما استشار النبي في ذلك طلب منه أن يحضرها إليه فلما أحضرها، وعلم منها أنها مؤمنة أرشده إلى عتقها ، فحررها من العبودية بعتقها.

لقد بدأ الحوار عالي النبرة حين رمى أصحاب النبي الأعرابي بأبصارهم إنكاراً لما بدر منه من تشميت العاطس، ولم يجد الأعرابي من أن يرفع صوته متألماً من هذا الإنكار صائحاً: واثكل أمياه، ولكنه لم يجد بداً من السكوت والغيظ يأكل صدره، ودرجة الإنكار تعلو ؛ إذ جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، ولكن يأخذ الحوار مع النبي – صلى الله عليه وسلم – سمته الراقية، وأسلوبه المهذب، فتربيته لأصحابه فيها الرفق واللطف، وتلك حال المربي المبدع يملأه الإحساس بعظم المسئولية خاصة مع المتعلمين، بتوجيههم إلى الصواب في أحسن الطرق وأيسرها.

هذا هو مضمون الحوار، جاء هادئاً سهل الألفاظ، مع ما فيها من جزالة وإحكام لا يعرف كنهها إلا من أوتي ذوقاً رفيعاً.

وأما ما يحويه الحديث من خصائص بلاغية فإن بعضها يبرز فيما يلي :

التعريف في بعض الكلمات مثل (القوم، الصلاة، كلام الناس، التسبيح، التكبير، قراءة القرآن، الإسلام، الكهان، الذئب، رسول الله) فتعريف (القوم) بـ (أل) جاء للاستغراق ؛ أي: كل من كان يصلي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ينظر إلي. وتعريف المسند إليه باسم الإشارة في قوله (إن هذه الصلاة) فإن فيه إيماء إلى تعظيم الصلاة باستخدام اسم الإشارة الموضوع للقرب تنزيلاً لعظمة المحبوب منزلة قرب المكان. فإن المحبوب قريب من النفس.

والتعريف بـ (أل) في التسبيح، التكبير، الإسلام، الذئب، الكهان) فهو للعهد العلمي فكلها أمور معروفة ومعهودة لدى الصحابة، والتعريف بالإضافة في (قراءة القرآن، كلام الناس) للاختصار في تعريف ما يقرأ في الصلاة بدلاً من أن يقول وقراءة الفاتحة، وسورة من القرآن في الصلاة الثانية، وفي الأولين من الثلاثية والرباعية، والفاتحة في الأخيرة من الثلاثية

والأخيرة من الرباعية وفي تعريف ما يتكلم به الناس، فكلام الناس كثير يتعلق بعضه بما يكون في نطاق الأسرة وفي نطاق المجتمع من المعاملات وغيرها من شؤون الحياة.

أما التعريف في الذئب فهو لا يخفى بحرف التعريف (أل) الذي هو لتعريف الحقيقة المتحققة في فرد (ما) من أفراد الجنس، وهذا النوع من المعرف بأل أشبه بالنكرة، إذ ليس المراد به فرد معين من أفراد الذئب، بل المراد أي فرد من أفراد الذئاب.

وأما تعريف الكهان: (بأل) فالمراد به الاستغراق – أعني – استغراق جنس الكهان الموجودين في بيئتهم، وفي المكان الذي يعيشون فيه.

هذا وفي إفادة الجمع المعرف بأل للاستغراق كلام ينظر في موضعه من كتب أهل العلم[1]، ولكن من الواضح هنا أنه مفيد للاستغراق.

أما التعريف بالإضافة في (رسول الله) فهو لتعظيمه وإظهار مكانته – صلى الله عليه وسلم – أما التنكير في بعض المفردات مثل (معلماً، جاهلية، رجالاً، رجال، شيء، نبي، جارية، غنماً، شاة، رجل، صكة) فتنكير معلماً لتعظيم شأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وبيان شرف مكانته، وتنكير (جاهلية) للتهويل من أمرها، ولبيان أثرها في تصرفاتهم القبيحة وسلوكياتهم الضالة، ولالتماس العذر في ذلك.

وتنكير (رجالاً، رجال) للتنويع أي: صنف من الرجال، أو فريق منهم يأتون الكهان، وفريق يتطيرون، وفريق يخطون، وتنكير (شيء) للتعميم أي: لا يصح فيها أي شيء من كلام الناس، وتنكير (نبي، جارية، رجل) للأفراد أي: نبي واحد من الأنبياء، وجارية واحدة من الجواري، ورجل من أفراد الرجال، وتنكير (غنماً) للتكثير أي: غنماً كثيراً لي، وتنكير (شاة) للنوعية أي نوع من الشياة ، وتنكير (صكة) لبيان قوتها، وشدة ألمها وأثرها على الجارية.

والإيجاز بالحذف كثير في هذا الحديث مثل قوله (فقلت يرحمك الله) حيث حذف متعلق الفعل (قال) وهو الظرف وما أضيف إليه، أي: قلت أثناء الصلاة للرجل حين عطس

---

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/٢٥-٢٦، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، تحقيق د/ إبراهيم خليل إبراهيم خليل، ص٢١٥ - ج ١ مكتبة عباس أحمد الباب – مكة المكرمة ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ضمن مجموعة شروح التلخيص، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي في المجموعة نفسها، ص ٤٥- ج١ لبهاء الدين أبي حانف أحمد السبكي، تحقيق د/ إبراهيم خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

كذا، وفي قوله (فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت) حذف جواب لما، أي أنكرت عليهم ذلك لكني سكت، وفي قوله (بأبي هو وأمي) حذف المسند وتقديره أفديه بهما، وفي قوله (إنما هو التسبيح والتكبير) حذفت الصفة ؛ فقوله (هو) مقصود به الكلام الذي يصح في الصلاة، وقد دل على هذه الصفة المحذوفة قوله: إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس، ومقابل هذا – كما لا يخفى – الكلام الذي يصح فيها ، وهو قراءة القرآن والتسبيح... الخ.

وفي قوله: (فلا تأتهم) أفصحت الفاء عن محذوف هو الشرط وأداته والتقدير: إن كانوا يأتون الكهان فلا تأتهم ، وفي قوله (رجل من بني آدم آسف كما يأسفون) حذف متعلق الفعل آسف ويأسفون والتقدير: رجل من بني آدم آسف على فقد شياهي كما يأسفون على فقدان مواشيهم.

وفي قوله (لكني صككتها...) إيماء إلى محذوف تقديره : وكان ينبغي أن لا يخرجني الأسف عن طوري فلا أعاقب الجارية لكن صككتها... الخ.

وفي قوله (يخطون) حذف متعلق الفعل (يخط) وهو الجار والمجرور والتقدير: يخطون على الرمل أو على التراب ؛ لإدراك النبي – صلى الله عليه وسلم – حقيقة ذلك، ولذا قال: كان نبي من الأنبياء يخط... وفي قول الجارية (في السماء) حذف المسند إليه ، أي: الله في السماء ؛ للدلالة على المحذوف من خلال سؤال النبي الكريم لها.

وقد طويت هذه الأمور كلها فلم تظهر على سطح الحوار، لكيلا تعوق المتلقي عما يتطلع إليه أو يترقب سماعه ، ما دامت تتراءى له من سياق الكلام ولينطلق المذكور إلى غايته قوياً متدفقاً، فيكسو الكلام قوة وجزالة.

وإذا توجه القارئ من المفردة إلى الجملة سيلفت انتباهه تأكيد الخبر في قول معاوية (فوالله ما كرهني، ولا ضربني، ولا شتمني) حيث أكد الخبر بالقسم والفعل الماضي، مع أن السامع للحديث خالي الذهن من مضمون الخبر ، ولكن معاوية يريد أن يعظم شأن النبي – صلى الله عليه وسلم – فهو عظيم المعاملة ، لطيف الخلق ليس مثلهم وشتان بين الاثنين، ومثله التأكيد للخبر في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس...الخ) مع أن معاوية أيضاً كان خالي الذهن من مضمون الخبر، ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – نزله منزلة من يشك في الأمر، ويطلب له توضيحاً ؛ ليدرك من أول وهلة أن الصلاة خالصة لله فلا يصح فيها شيء مما يتكلم الناس في شؤونهم. ومن

التأكيد ما كان في قول معاوية (يا رسول الله، إني حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان) وقبل أن يتأكد الخبر صدر بالنداء ؛ لما في نفس معاوية من رغبة في معرفة حكم ما يفعله أهو على صواب؟ أو حاد الطريق عنه ؟ ولذلك كان تأكيد الخبر بـ إن واسمية الجملة (إني حديث عهد بجاهلية) ، والرسول عالم بمضمون الخبر، ولكنه نزله منزلة غير العالم به، المتوقع منه الشك فيه ، فأكده بإن واسمه الجملة ؛ ليتوسل بذلك إلى قبول توجيهه لما يجب أن يكون عليه من سلوك تجاه ما سيخبره عنه ، ومن ثم أردف قائلاً : (إن منا رجالاً... ومنا رجالاً...) وساق الخبر أيضاً مؤكداً بإن واسمية الجملة مع ما سبق علم الرسول بما عليه أهل الجاهلية من ذلك كله ، منزلاً إياه منزلة من لا يعلم ليبين الحاجة الملحة إلى ما يجب أن يكون.

وفي قول الجارية (أنت رسول الله) مع أنه كان باستطاعتها حين سألها بقوله من أنا؟ أن تقول (رسول الله) بذكر طرف الجملة(المسند إليه والمسند) إيماء إلى رغبتها في إطالة الكلام معه، فهي تعلم أنه رسول الله، وأن الحديث معه شرف ما بعده شرف، وتأكيد النبي للخبر بـ إن في قوله لمعاوية (إنها مؤمنة) على كونها جديرة بالعتق ؛ فإن هذا القول جملة مستأنفة استئنافاً تعليلياً يبين سبب الأمر بعتقها ، وليكون ذلك جبراً لخاطرها بعدما شعرت به من قهر العدوان بالضرب لكونها جارية.

والنهي في قول النبي الكريم (فلا تأتهم) يراد به ترك إتيان الكهان على وجه الحقيقة ، أما الأمر في قوله (اعتقها) فهو خارج عن مقتضى الظاهر إلى الحث والإرشاد.

وقول معاوية (واثكل أمياه) كان الغرض منه الدعاء على نفسه بالهلاك ؛ لما رآه من تذمر الصحابة ورشقهم له بأبصارهم ليدلوا على سوء فعله ، وقبيح صنعه.

وكذلك الاستفهام خرج عن الحقيقة إلى معنى الإنكار في قول معاوية لمن نظر إليه من الصحابة (ما شأنكم تنظرون إلي؟) أي : ما كان ينبغي لكم أن تنظروا إلي هذه النظرة الغاضبة. واستفهام النبي في قوله للجارية (أين الله؟ من أنا؟) استفهام حقيقي يراد به استطلاع معرفتها بالله، وبرسوله، ومن ثم إيمانها.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (على كل مسلم صدقة). فقالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: (يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق). قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (يعين ذا الحاجة الملهوف). قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة) [1].

ما أجمل أن ينفع الإنسان نفسه ويحسن إلى غيره، فيعم الخير ويسعد الخلق، فالذي يعمل ويجتهد يحرر نفسه من قيود البطالة والعجز، وينفض عنه غبار الكسل والاعتماد على الحظ ، والاتكال على الغير، ويحظى بشرف العيش الهانئ، كما يحظى بحب الناس له، وما أجمل أن يكون الإنسان محبوباً في وسط الجماعة، فيبني علاقاته الإنسانية على حب الخير للناس والإحسان إليهم، ومعاونتهم عند حاجتهم إليه، وأقل ما يمكنه فعله تجاههم أن يكف أذاه عنهم فلا ينطق إلا بالحق، ولا يأمر إلا بالمعروف ، ولا ينهى إلا عن المنكر، ويمسك نفسه عن ظلمهم أو الإساءة إليهم، وهذا ما يمكن أن يقدمه حتى يتمكن من الحياة معهم بسلام.

وكان الحوار هادئاً سلساً، يمضي في انسياب حتى يصل إلى نهاية لها وقعها في نفوس الصحابة (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة) فتتمكن في أعماقهم وتظل حاضرة في مخيلتهم غير آفلة كما أن ألفاظ الحوار – كما يجدها القارئ – جلية لا لبس في مضمونها، ولا خفاء يغشي بصيرته عن إدراكها.

وعندما يتأمل القارئ الحديث من الناحية البلاغية فإنها ستروقه وتستحوذ على إعجابه ومن ذلك البدء بتلك الجملة التي أثارت الحوار (على كل مسلم صدقة) لقد ألقى بها النبي – صلى الله عليه وسلم – على مسامعهم، وهو يعلم أنها ستثير تساؤلاً له ما بعده فمن المسلمين الغني والفقير، وواجد العمل وفاقده ، فليتأمل القارئ كيف يوصل المعاني إلى المخاطبين ويثبتها في أذهانهم.

ومن سمات البلاغة في الحوار خطاب النبي بأداة النداء (يا) وهو في مجلسهم ، ففي تنزيله منزلة البعيد رفعاً لمكانته بتنزيل بعد المكانة منزل بعد المكان ، وقد آزر هذا الخطاب إيثار

---

(١) صحيح البخاري، ١/١٤٠.

لفظ النبوة مضافاً إلى لفظ الجلالة أعني أنهم نادوه دون اسمه لما في هذا اللقب من رفع مكانته ، ثم إيثار لقب النبوة دون لقب الرسالة بأن يقال (يا رسول الله) وإن كان فيه تشريف ؛ فلفظ النبوة مأخوذ من (النبوة) وهو المرتفع من الأرض ففي لفظ (النبي) دلالة على الرفعة ، ومن ثم كان لفظ (النبأ) يعني الخبر العظيم لا مجرد الخبر، ألم ترى إلى قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ ﴾[1] في مقام التعظيم له – صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾[2]،﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ﴾[3].

والتعريف بالإضافة في (ذا الحاجة الملهوف) لبيان سوء حاله وقلة حيلته، والتعريف بـ (أل) في (المعروف، الشر) فهو للعهد العلمي ؛ فكل معروف يبذله الإنسان فيه خير له ولغيره، وكل شر فيه أذى له ولغيره ، مما لا يمكن أن يجهله أحد ، أما تنكير (مسلم، صدقة) فتنكير الأول ليتسنى إضافته إلى (كل) فيفيد العموم والشمول، وعليه فلا يخلو فرد من أفراد المسلمين من الالتزام بتقديم صدقة لإفادة التنويع والشمول فلفظ (صدقة) يشمل كل أنواعها، مادية كانت أو معنوية ، صغيرة كانت أو كبيرة ؛ فالمادية تكون بالمال أو ما يقوم به ، والمعنوية تكون بالعمل الإنساني كمعاونة الضعيف على ما يريد، وهداية الضال، فإن لم يتيسر هذا ولا ذاك تكون بالكف عن الأذى، ومن ثم كان قوله – صلى الله عليه وسلم - : (على كل مسلم صدقة) من إيجاز القصر؛ فالصدقة لا حصر لها ، فأبواب الصدقة كثيرة لا تقف عند حد بل تكون في الإنفاق على المساكين ، وقد تكون في الوقف في سبيل الله ، وقد تكون في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وغيره.

وكذلك إيجاز الحذف في بعض الجمل كما هو الحذف في (يا نبي الله فمن لم يجد؟) أي: فإن لم يجد ما يتصدق به فماذا يفعل؟ ، والحذف في قوله (يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق) أي: إن لم يجد ما يتصدق به يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، والحذف في قولهم (فإن لم يجد؟) أي: إن لم يجد عملاً ينتفع به، والحذف في قوله (يعين ذا الحاجة الملهوف) أي: إن لم يجد عملاً يعين ذا الحاجة الملهوف، والحذف في قوله (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها

---

(١) سورة النبأ، آية (١،٢).

(٢) سورة الأحزاب، آية (١).

(٣) سورة التحريم، آية (١).

له صدقة) أي: إن لم يعن ذا الحاجة الملهوف فليأمر بالمعروف، وقد أفصحت(الفاء) عن هذا الحذف وكل هذا الحذف للعلم به من خلال السياق.

والأمر في قوله (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر) خرج عن ظاهر معناه الحقيقي إلى معنى التوجيه والإرشاد، كما أن في التعبير بالمضارع استحضار لصور الأمر بالمعروف والنهي عن الشر وتتأكد هذه الصور لاسيما إن تظافر إلى هذا الاستحضار التأكيد بلام الأمر.

وإلقاء الخبر مؤكداً في قوله (فإنها له صدقة) خرج عن مقتضى الظاهر؛ فالصحابة كانوا خالي الذهن من مضمونه ولكنه – صلى الله عليه وسلم – أكده بـ (إن) لما بدت عليهم علامات السؤال والطلب فأراد أن يبين لهم كل ما يمكن أن يعد صدقة.

ومن صور القصر تقديم ما حقه التأخير في قوله (على كل مسلم صدقة) ويظهر أنه على سبيل الإلزام فقدم الجار والمجرور (المسند) على المسند عليه (صدقة) لاختصاص تلك الصدقة بكل مسلم فهو من قصر الصفة على الموصوف.

أما الوصل فيظهر في قوله (فينفع نفسه ويتصدق) فالجملتان خبريتان ووافقت الثانية الأولى في الحكم الإعرابي فكان الوصل بينهما لكمال الاتصال، ومثله الوصل في قوله (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر).

وقوله (فإنها له صدقة) على سبيل المجاز فالمتبادر أنها الصدقة المعهودة وهذا المعنى قريب لدى السامعين ولكن المعنى الذي خفي عنهم هو كون العمل بالمعروف والإمساك عن الشر) كالصدقة على النفس، يقول العيني: "فهموا من الصدقة العطية فلذالك قالوا فمن لم يجد فبين لهم أن المراد بالصدقة ما هو أعم من ذلك ولو بإغاثة الملهوف والأمر بالمعروف"(١).

فيحتمل أن يكون تشبيهاً بليغاً ويحتمل أن يكون تورية لطيفة والأول أقرب وأصوب.

ومن المقابلة التي تؤكد المعنى في النفس وتزيده جلاء ما كان في قوله (فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر). وقد يكون من التكرار المعنوي فما العمل بالمعروف إلا الأمر بالإمساك عن الشر وبذلك يتقرر المعنى في الوجدان.

---

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ٦/ ٤٢٧.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن عامر عن أبيه سعد أنه أعطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رهطاً وأنا جالس فيهم فترك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منهم رجلاً لم يعطه وهو أعجبهم إلي فقمت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فساررته فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، قال: أومسلماً؟ فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمناً، قال: أومسلماً قال: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه) [1].

في هذا الحوار يتجلى موقف إنساني نبيل، يتمثل هذا الموقف فيمن رآه سعد حقيقياً بالعطاء، جدير به، ومن ثم لفت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هذا الرجل، فهو في اعتقاده رجل مؤمن يضعه إيمانه في دائرة الأولوية في العطاء، ولكن رسول الله يرقى بهذا الرجل درجة أعلى، فهو أكرم من أن يعطى لإيمانه، فإيمانه يعلو به عن النظر إلى متاع زائل، ويجعله أهلاً للثواب عند الله ، وتكرر من سعد اللفت حيث لم يفطن إلى الهدف الذي تغياه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يدرك مراده بقوله (أومسلماً) وكما قال النووي: "ليس فيه إنكار كونه مؤمناً بل معناه النهي عن القطع بالإيمان، فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله"[2]، وأيا كان الحال فإن إيمانه أو إسلامه سيغنيه عن التطلع إلى متاع زائل ويدفعه إلى رجاء ما عند الله، وتكرر اللفت ثالثة ، وحمي الحوار، وعلت نبرته، وهنا كاشف النبي سعداً ببيان الذي دعاه إلى ترك فلان، وأنه أمر إنساني بالغ السمو فإن من ترك إعطاءه أحب إليه ممن آثره بالعطاء، ولكنه آثر غيره بالعطاء لضعف إيمانه، ويخشى أن يعود إلى الكفر فيكب في النار على وجهه.

أجل إنه هدف إنساني نبيل، وأي عمل إنساني أعظم من العمل على نجاة من هلاكه محقق!!

وعندما ييمم القارئ نظره إلى ما في الحديث من معان بلاغية فسيكتشف بعضها فيما يلي:

سهولة الألفاظ وقوتها، مع شدة أثرها في النفس، كما هو الشأن في اختيار النبي للفظ (المسلم) دون المؤمن مع مناسبته للحال فهذا الرجل الذي دار حوله الحوار كان من أحب الناس

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٢١ – ١٢٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٢٢.

إلى النبي – صلى الله عليه وسلم - ؛ لإيمانه، فترفع عن نعته بـ (المسلم) لأن بعضاً ممن أعطاهم النبي – صلى الله عليه وسلم – من المال هم من المؤلفة قلوبهم الذين يخشى عليهم الكفر، وهذا سر قوله لسعد (أومسلماً).

ومن إيجاز الحذف ما كان في قول سعد (مالك عن فلان؟) أي: مالك تعرض عن إعطاء فلان، وحذف للعلم به[1] ومثله الحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم – (أومسلماً) تقديره: أو تراه مسلماً. حذف المسند (تراه) للدلالة عليه من قول سعد (إني لأراه مؤمناً).

كما كان لحرفي العطف (الفاء، ثم) دور في إبراز الموقف وتصويره، فالفاء في قوله (فسكت قليلاً) فسكوت سعد قليلاً أعقب جواب النبي بقوله (أومسلماً)، وجيء بـ (ثم) التي هي للتراخي النسبي في (فغلبني ما أعلم منه) إذ لم يتمالك سعد نفسه بعد أن رأى ما رآه من سمت حسن في الرجل، وفكر وتدبر الأمر مع نفسه، ورأى بعد شيء من التروي أنه أهل للعطاء؛ ولذا كان لابد الإتيان بـ (ثم) كما أن في حرفي الجر (في، على) من دقة تعبير ووصف لحال من لا نصيب له في دخول الجنة في قوله (يكب في النار على وجهه) إذ تعني شمول العذاب له فالنار تحيط به من جميع النواحي كما يحيط الظرف بالمظروف، و (على) يوحي بالتحقير والإهانة لمن يستأهل دخول النار كأن جسده كله يعلو وجهه، وهذا يعني أنه لا يسمع لاستغاثته ولا يؤبه به، وفي ذلك من التحقير والإهانة ما فيه.

ولا يخفى ما في (ما الموصولة) في قوله (غلبني ما أعلم منه) من تصور لكثير من صفات الرجل التي لا يمكن التنكر لها.

والاستفهام في قول سعد (يا رسول الله مالك عن فلان) خرج عن الحقيقة إلى معنى آخر هو التعجب من فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – لعدم العلم بسببه كما أن النداء مع قرب سعد من النبي – صلى الله عليه وسلم – يعبر عما يختلج في نفس سعد من دهشة لا يجد لها تفسيراً.

وفي إلقاء سعد للخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد تمثل في (القسم، وإن، ولام الابتداء، والفعل المضارع الدال على الاستمرار) لتنزيل النبي منزلة من ينكر ويبالغ في الإنكار؛ لما رآه

---

(١) إذ لا يصح تعلق حرف الجر (عن) بما الاستفهامية ومن ثم كان لابد من تقدير فعل مناسب يصح تعلقه به على نحو ما ذكر.

من ترك إعطاء ذلك الرجل المؤمن، وكأنه لا يستحق ذلك الإعراض مع مبالغته في صدق إيمان الرجل.

أما إلقاء النبي – صلى الله عليه وسلم – للخبر بـ (إن، لام الابتداء، والفعل المضارع) فليزيل كل حيرة وشك اعترى سعداً؛ لأن سعداً كان يبالغ في الإصرار على موقفه دون أن يدرك حقيقة الأمر.

وتعريف (الرجل) بـ (أل) فهي للجنس الذي يراد به حصة معينة من جنس الرجال، فهو يعطي أي رجل من هؤلاء تأليفاً لقلوبهم وتحبيباً لهم في الإسلام.

ووفي قوله – صلى الله عليه وسلم – (مالك عن فلان) جملتان: الأولى (مالك) وهي جملة استفهامية تفيد التعجب، والثانية (تعرض عن فلان) بيان لها ومن ثم كان الفصل بينهما لكمال الاتصال.

ومن الاستعارة الجميلة في هذا الحديث ما ذكره سعد بقوله (غلبني ما أعلم منه) حيث شبه ما يعلمه في الرجل من صدق الإيمان والصلاح وهو أمر معنوي بإنسان شأنه الغلبة والقهر للخصم ، وحذف المشبه به وهو (الإنسان) وجيء بشيء من لوازمه وهو (الغلبة) على سبيل الاستعارة المكنية التبعية.

أما عن بديع هذا الحديث فيتمثل في حسن التعليل في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه) وبذلك اقتنع سعد وعرف السبب.

وأيضاً التكرار الذي كان في استفهام سعد ورد النبي – صلى الله عليه وسلم – عليه ثلاث مرات مما يزيد المعنى ويقرره في نفس السامع.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه حول العلاقات الإنسانية ما روي عن أبي ذر قال: قلت :يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد في سبيله، قال: قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها[١] عند أهلها وأكثرها ثمناً، قال: قلت فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً[٢] أو تصنع لأخرق[٣] قال: قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة على نفسك" [٤].

حوار هادئ ومؤثر في نفس أبي ذر – رضي الله عنه – يتبين من خلاله شدة حرصه في معرفة فضل ما خفي عنه من أعمال الخير الكثيرة، ولقد لبى النبي – صلى الله عليه وسلم – تلك الرغبة فأجابه على كل ما سأل بطيب نفس ورحابة صدر، ومن هذه الأعمال ما يغرس القيم الإنسانية في النفس المؤمنة كإعانة المسلم لأخيه في جميع أحواله غنياً كان أو فقيراً معدماً، وكلمته – صلى الله عليه وسلم – الأخيرة (تكف شرك عن الناس فإنها صدقة على نفسك) كان لها أبلغ الأثر في نفس أبي ذر – رضي الله عنه – فأي كرم ومنة ينالها العبد إن عجز عن بعض العمل؟! أليس هو كف اللسان عن الإساءة إلى الغير وكف اليد عن أذاهم؟! دون أن يبذل كثير جهد في ذلك! بل القضية التي يجب مراعاتها أن يضبط المرء نفسه دائماً ويروضها على فعل الخير، ويحملها على كل ما يجملها.

وبالنظر إلى ألفاظ الحديث فهي واضحة لا يجد القارئ أي إبهام ولا التواء في دلالتها، وتبدو كذلك حين يقف المتذوق على أسرار البلاغة الكامنة وراء تلك الألفاظ كالتعريف بـ (أل) في (الأعمال، الإيمان، الجهاد، الرقاب، الناس) ففي (الأعمال) لإرادة الاستغراق، أي: كل الأعمال الصالحة التي يؤجر عليها فاعلها، وفي (الإيمان، الجهاد، الرقاب) فهو للعهد العلمي، فالإيمان والجهاد وعتق الرقاب يعرف فضلها كل مسلم فلا يمكن أن يعادلها فضل، وفي (الناس)

---

(١) أنفس الشيء: صار نفيساً، وهذا أنفس مالي أي أحبه وأكرمه عندي، وقال اللحياني: النفيس والمنفس المال الذي له قدر وخطر ثم عم فقال: كل شيء له خطر وقدر فهو نفيس ومنفس. "لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٣٢٢، حرف النون.

(٢) يقال: رجل صنع وامرأة صناع إذا كان لهما صنعة يعملانها بأيديهما ويكسبان بها "النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٥٤. باب الصاد مع النون.

(٣) أخرق: أي جاهل بما يجب أن يعمله، ولم يكن في يديه صنعة يكتسب بها" المصدر السابق، ١/ ٤٨٥. باب الخاء مع الراء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢٥٥.

فهو للجنس. أما التعريف بالإضافة في (شرك) فنسبة الشر إليه من باب التحذير منه وأغلب ما يخشى عليه هو أن يؤذي الناس بإبدائه علناً أو إخفاءه سراً.

وأما ما يقابله من تنكير في بعض الألفاظ كـ (صانعاً، أخرق، صدقة) فتنكير (صانعاً) لعدم تعيينه، فأي إنسان كان صاحب صنعة فليعنه، ومثله تنكير (أخرق) أما تنكير (صدقة) فهو لعظم شأنها عند الله تعالى.

والتعبير باسم التفضيل (أنفسها، أكثرها) فكون العتق فيها أفضل الأعمال؛ لأنه آثر أحب ما يملك وتخلى عنه في سبيل رضا الله تعالى وقهر نفسه حين لم يطاوعها فيما سولت له ومضى في عزيمته بكل رضا.

ويلحظ إيجاز الحذف بكثرة في كل سؤال صدر من أبي ذر وكل جواب صرح به النبي – صلى الله عليه وسلم – ففي سؤال أبي ذر (أي الأعمال أفضل؟) أي: أفضلها عند الله تعالى، وقوله (أي الرقاب أفضل؟) أي أفضلها عند الله تعالى، وقوله (فإن لم أفعل؟) أي: لم أعتق لعدم قدرتي على ذلك، وقوله (يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟) أي: ماذا أفعل، وفي قول النبي (أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً) أي: أفضل الرقاب عند الله أنفسها عند....الخ، وفي قوله (تعين صانعاً أو تصنع لأخرق) أي: إن لم تفعل ذلك فأفضل الأعمال أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، وفي قوله (تكف شرك عن الناس فإنها صدقة على نفسك) أي: إن ضعفت عن بعض العمل فإن أفضل الأعمال أن تكف شرك عن الناس فإن فعلت ذلك فهي صدقة على نفسك، وكل هذا الحذف للعلم به فكان في ذكره إطالة لا معنى لها.

وقد يكون التحذير من الشر في قوله (تكف شرك عن الناس فإنها صدقة على نفسك) دون الأمر بفعل ما يناظره من الخير؛ لأن غالباً ما يشكي الناس من أذى الغير إما باللسان أو اليد. وفي تأكيد الخبر بـ (إن) في (فإنها صدقة....) حيث أنزل أبي ذر نزلة من يشك في ذلك مع أنه كان خالي الذهن من مضمون الخبر ولكن النبي – صلى الله عليه وسلم – أكده بـ (إن)؛ لما بدا عليه من علامات السؤال والطلب، فحسن تأكيده له؛ حتى يزول عنه كل ذلك ويتمكن من نفسه هذا الخبر.

الفصل الثاني

حواره صلى الله عليه وسلم مع زوجاته

وفيه مبحثان

الأول: حول العلاقات الأسرية.

الثاني: حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

تمهيد

كان الحوار مع الزوجات مختلفاً كل الاختلاف ؛ فقد تنوعت طرقه وأساليبه حسب المواقف التي تصدر في بيت النبوة، منها ما كان لصيقاً بشؤون الأسرة، وكيف كانت عشرته لهن، فكان المثل الأعلى في اللطف والرفق ؛ إذ كان – صلى الله عليه وسلم – يلاطفهن ويرفق بهن، وكان يعالج ما يكون من خصائص النفس البشرية كالغيرة، والمنافسة بالحكمة التي يترجمها قوله – صلى الله عليه وسلم – (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [(١)]، وما اختص بحياتهن الاجتماعية والإنسانية، فجعل علاقتهن مع الغير مبنية على أساس الدين فهو من يهذب الأخلاق ، ويصقل السلوك، وبذلك يكون هو النموذج الحقيقي لكل زوج مؤمن يسعى إلى تحقيق السعادة والوئام. ويتمثل كل ذلك فيما يلي :

---

(١) قال أبو عبسى هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، الجامع الصحيح سنن الترمذي ٧٠٩/ ٥.

أولاً : حوار النبي – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته حول العلاقات الأسرية :

١ - عن عائشة تخبر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت : فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها النبي – صلى الله عليه وسلم – فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير(١)، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له ، فقال : (بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له ، فنزل ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [٢] **إلى قوله** ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ **لعائشة وحفصة** ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ [٣] **لقوله : (بل شربت عسلا)** [٤].

عندما تضطرم نار الغيرة في قلوب النساء فإن السبيل إلى إخمادها يكون صعب المنال ، وما دار بين عائشة وصاحبتها من حوار لجأتا فيه إلى الحيلة والمكر يشعر بتلك الغيرة المفرطة في الحرص على الاستئثار بالرسول – صلى الله عليه وسلم – وهذه الغيرة بلا ريب مذمومة ؛ لأن حفصة وعائشة تظاهرتا على الرسول بغير حق ؛ فهو مثل في العدل بين الزوجات ، ولكنه الحرص الذي يقود إلى المكر والحيلة[٥].

وقد كشف الحوار ما يختلج في الضمائر ؛ حيث تبين ما تضمره عائشة وحفصة نحو زينب – رضي الله عنها – من الكراهة ، والخوف منها أن تستأثر بحبه – صلى الله عليه وسلم- ، وكشف عن عدله ؛ حيث حلف أن لا يشرب عسلاً إرضاء لهما ، فهو عادل في قسمه ، ضابط لمشاعره.

---

(١) جاء في لسان العرب معنى المغافير: "صمغ شبيه بالناطف ينضجه العرفط فيوضع في ثوب ثم ينضح بالماء فيشرب، واحدها مغفر ومغفر، ومغفور، ومغفار ومغفير، ويقال له مغافير". لسان العرب ٦٦/ ١١ حرف العين. وينظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣١٢/ ٢ باب الغين مع الفاء.

(٢) سورة التحريم آية (١).

(٣) سورة التحريم آية (٣).

(٤) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٥٩ – ٦٠ – ٦١.

(٥) يقول ابن قيم الجوزية: "أصل الغيرة: الحمية والأنفة، والغيرة نوعان: غيرة للمحبوب، وغيرة عليه؛ فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمته وناله مكروه من عدوه فيغضب له المحب ويحمى وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقاً، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحل محارمه وعصى أمره، أما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره، وهذه أيضاً نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه أحد. "روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، حققه وعلق عليه سيد عمران ص ٢٤٤، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

والألفاظ الواردة في الحديث الشريف واضحة جداً ومع الوضوح كانت جزلة تعطي المعنى في دقة بالغة.

وأما ما في الحديث من فنون بلاغية تحليه وتزيده جمالاً وإبداعاً، ما توحيه التراكيب من خلال سياق الكلام من ضم المفردة إلى غيرها في نظم واحد، والدقة المتناهية في اختيار اللفظة، كما هو الحال في اختيار لفظ "مكث، تواطأت"؛ فلفظ "مكث[1]" بمعنى يطيل البقاء عندها، فاحتبس هناك فترة طويلة وبقاؤه عندها جر الغيرة على نفس عائشة وحفصة ، ولذا لم يكن هناك لفظ يفيد هذا المعنى غيره. ولفظ "تواطأت" تعني أن الاتفاق كان بينهما خلسة، دون أن يشعر بهما أحد ، وفيه تصوير لتلك الحيلة وما تنطوي عليه من الرغبة في صرفه عن الإقبال على زينب.

وفي قول حفصة للنبي – صلى الله عليه وسلم - : "إني أجد منك ريح مغافير" ألقي الخبر مؤكداً بـ (إن، والفعل الماضي أجد) لتشكيك النبي – صلى الله عليه وسلم – في أمره فهي تعلم أنه من أطيب الخلق ريحاً لكنها أرادت تشكيكه ، وتحيره في أمره.

والاستفهام في قولها له: "أكلت مغافير؟" جرى مجرى من يريد الاستخبار عن أمر لم يسبق العلم به، وإن كانت تعلم عن يقين أنه لم يكن يأكل ما يغير رائحة فمه، ولكنه الإمعان في الحيلة. كما يقول ابن الشجري أن من معان الاستفهام الاستخبار والمراد به الخبر"[2].

والتعريف والتنكير في بعض الألفاظ واضح، فالتعريف في (زينب بنت جحش ، مغافير) جاء للمدح في حقها ، وأنها سقته شيئاً من عسل لذيذ أهدته بعض جاراتها. أما المغافير فهو اسم لنبات يكره من رائحته، وينفر من صاحبه الذي أكل منه فهو هنا للذم.

وفي قوله – صلى الله عليه وسلم - : (بل شربت عسلا) إيجاز بالحذف ماثل في جملة مطوية دل عليها حرف الإضراب (بل) والتقدير : لا لم آكل مغافير بل شربت، والعطف بها يفيد القصر وهو هنا قصر صفة على موصوف حيث قصر الشرب على العسل. وهذا يفهم من قول ابن جني: "والحذف هنا للإيجاز، وقد جيء بالحرف "بل" التي تفيد الإضراب عن

---

(١) جاء في لسان العرب معنى مكث: "المكث": الإقامة مع الانتظار والتلبث في المكان. والمكيث: المقيم الثابت، والماكث: المنتظر. "لسان العرب لابن منظور حرف الميم ١٤/ ١٠٩، وينظر ترتيب مختار الصحاح للرازي باب الميم ص ٧٥٤، وينظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب الميم ص ٤٧١.

(٢) أمالي ابن الشجري، للإمام هبة الله علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي، ٤٠٤/ ١، تحقيق ودراسة د/ محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني بمصر، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

الكلام الأول الذي قالته إحدى زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – له، والقول بغيره، أو كما يقول ابن جني: "وأما (بل) فقال: هي للإضراب عن الأول والإثبات للثاني وهذا المعنى المتداول بين النحويين، وذكره ابن السرج وقوم ينكرون ذلك، والصحيح أن يقال: هي لترك شيء من الكلام وأخذٍ في غيره وهي تعطف في الإيجاب والنفي وما بعدها على كل حال مثبت وما قبلها متروك، تقول: قام زيد بل عمرو، وتقول في النفي :ما قام زيد بل عمرو." (١)

والحذف في (ولن أعود له) أي: إلى شرب العسل، حذف لتقدم ما يدل عليه.

وقدم الجار والمجرور على المسند إليه – وهو فاعل – في قول عائشة – رضي الله عنها – أن أيتنا ما دخل عليها النبي – صلى الله عليه وسلم – وتقدم للاهتمام؛ لأن الضمير المتصل بحرف الجر منوط به القول المتفق عليه دخول النبي الكريم بها، وتقدم الجار والمجرور على المفعول في قول إحدى زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – له: إني أجد منك ريح مغافير "دون أن تقول: "أجد ريح مغافير منك" ؛ لأن فيه مبادأة النبي – صلى الله عليه وسلم – بأمر لم يكن يتوقعه، زيادة في التنفير من السبب المؤدي إلى كراهة رائحته.

وقد عبرت إحدى زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفعل الماضي وقصدت به الفعل المضارع في قولها "أن أيتنا ما دخل عليها النبي – صلى الله عليه وسلم - ؛ لتدل على أن القول الذي ستقوله إحداهما إنما يكون عند تحقق دخوله عندها. أما التعبير بالفعل المضارع في قولها "أجد منك ريح مغافير" فهو للدلالة على الحال الحاضرة، فهي لم تكن تجد منه هذه الريح من قبل، بل نشأت بدخوله وفي هذه الجملة حذف حرف الجر (على) الداخل على المصدر المؤول من أن واسمها وخبرها وهذا الحرف يعدى به الفعل (تواطأ) إلى مفعوله، والتقدير : تواطأت أنا وحفصة على قول أيتنا تقول له عند دخوله...، وكأن عائشة بحذف هذا الحرف تتعجل إلى بيان ما تواطأت عليه هي وحفصة – رضي الله عنهما - .

---

(١) كتاب البيان في شرح اللمع لابن جني، ص ٣٠٦، إملاء الشريف عمر بن إبراهيم الكوفي،دراسة وتحقيق د/ علاء الدين حموية، دار عمار، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما رواه هشام عن أبيه قال:

كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما ما كان، أو حيثما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي – صلى الله عليه وسلم – قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلي ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان الثالثة ذكرت له فقال: (يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل الوحي علي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها). [1]

بدافع الغيرة المعروفة في مجتمع النساء، ولحب ما يناله النبي الكريم من هدايا القوم طلب نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – من أم سلمة أن يعدل في معاملته لهن ويحث الناس على أن يهدوه حيث كان عند هذه أو تلك من زوجاته.

وحين أخبرت أم سلمة النبي – صلى الله عليه وسلم – بما قال لها زوجاته كره ذلك منهن وكان إعراضه عن كلامها دليل شدة رفضه وفي قولته (يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل الوحي علي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) دليل على أنها مكرمة عند الله جل وعلا؛ لأن الوحي لم ينزل عليه وهو مشتمل بلحاف امرأة سواها وهذا تكريم لها وشرف لمكانتها.

والحوار الذي دار بين النسوة ساعد على تصور الحدث، كيف بدأ وكيف كان، وكيف نشأ عنه اتخاذ موقف لكل واحدة منهن تجاه السيدة عائشة، والحوار الذي دار بين زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم – وأم سلمة يوحي بالانفعال، والخوض، والإفاضة في أمر عائشة – رضي الله عنها – أما حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجته أم سلمة فكان هادئاً وإن كانت أم سلمة قد أكثرت عليه – صلى الله عليه وسلم – القول، وضايقته، لكنه لما رفض ما طلب أزواجه منه نهاها برفق، ولين دون أن يزجرها أو يعنفها ومع ذلك بيَّن سبب محبته لعائشة – رضي الله عنها – .

والألفاظ كما يراها المتلقي واضحة تجلو المعنى في نفس القارئ لأول وهلة، ولا تكلفه عناء البحث، والإطلاع في معاجم اللغة.

---

(١) صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ١١٥٥/ ٣.

وعند النظر والتمحيص لما في الحديث من سمات بلاغية يتجلى سرها المطوي في ثنايا الكلام سواء كانت الألفاظ أو العبارات. فحين يتأمل المتذوق يحس بالإبداع الفني لكل لفظة وعبارة جاءت فيه وأحاول الكشف عن ذلك – حسب ما يهديني الله إليه - فيما يلي :

استخدام النبي – صلى الله عليه وسلم – للفظ الأذى في قوله "لا تؤذيني في عائشة" والأذى ما يتألم منه المرء، فأطلق عليه هذا لأن ما طلب منه أمر لا يستطيعه ؛ لأنه لو أمر الناس أن يفعلوه لكان له آثار غير محمودة، فقد يفهم منه الناس أنه تغير قلبه نحو عائشة فتهمس الألسنة همساً يصل صداه إلى أبي بكر، وإلى عائشة نفسها وفي ذلك من الأذى لها ولأبويها ما فيه ، وحتى يتضح المعنى ويزداد تأكيداً أضاف حرف الجر "في" إليها ؛ للمبالغة في تصوير الأذى الذي يحسه في نفسه وأنه تمكن منها. أما استخدام نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – للفظ "يتحرون" فالتحري كما جاءت في لسان العرب : "القصد والاجتهاد في الطلب والعزم على تخصيص الشيء بالفعل والقول ، وقيل تحرى ذلك تعمده"[1]. فجميع الناس كانوا يتعمدون أن يهدوا النبي – صلى الله عليه وسلم – في يوم عائشة ، ويترقبون ذلك اليوم، وهذا اللفظ أدق من غيره في تصوير مشاعر نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – تجاه ما يحدث ، ومدى إحساسهن بالغبن نتيجة هذا التعمد ، وقد يكون هناك لفظ غيره كـ "ينتظر" ونحوه لكنه لا يفي بما في صدورهن من خلجات ومشاعر.

وفي التأكيد المكثف في قول زوجات النبي – صلى الله عليه وسلم - : "والله إن الناس يتحرون بهداياهم..." تنزيل لأم سلمة منزلة المنكر للخبر، مع علمها به فهي إحدى زوجاته – صلى الله عليه وسلم – وتعرف ما يفعله الناس ، وفي هذا المسلك إيماء إلى أنها لم تشاركهن الغيرة التي يجدنها في نفوسهن، وأنها لترفع مطلبهن إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– وإن لم تكن هي بحاجة إليه ؛ لأن الأمر بالنسبة إليهن عظيم، ووقعه في نفوسهن جليل فقلن ما قلن لزيادة التنبيه عليها.

أما التأكيد المكثف في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لأم سلمة – رضي الله عنها- : (فإنه والله ما نزل الوحي وأنا في لحاف...) فأكد الخبر بإن والقسم والفعل الماضي الدال على التحقق، وكأن الأمر مفروغ منه ، وفيه دليل على مكانتها عند النبي – صلى الله

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ١٠٢/ ٣ حرف الحاء.

عليه وسلم – وأم سلمة على علم بحقيقة ذلك لكنه لما رأى منها حرصها على إبلاغه بما رغبت زوجاته بالغ في تأكيد القول حتى تكف عن معاودة ما حرصت عليه ، ولذا كان في إعراضه عنها ، وسكوته عن الخوض في الأمر ما يؤكد رفضه لطلبهن.

ومن الإيجاز الإشارة لما حدّث به نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – أم سلمة بـ "ذلك" وفي قول أم سلمة : "فلما عاد إلي ذكرت له ذلك" ولأنه قد ذكر آنفاً فلم تذكره أم سلمة هنا ، وقد قام اسم الإشارة مقام تلك العبارة الطويلة (إنا نريد الخير كما تريده عائشة.... حيثما كان أو حيثما دار).

وقد تقدم ذكر الضمير المتصل ضمير الشأن في قول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (فإنه والله ما نزل علي الوحي...) ؛ حتى تترقب النفس لذلك الشيء المبهم ، ويزداد شوقها لمعرفته ، وحين يتمكن ذلك الشيء ويظهر فإنه يظل عالقاً بالنفس لا يزول عنها. أما في ذكر الضمير المنفصل "أنا" في قوله – صلى الله عليه وسلم – (وأنا في لحاف امرأة...) فلأن المقام مقام تكلم عن نفسه – صلى الله عليه وسلم – كما يقول السكاكي : "وأما الحالة التي تقتضي كونه– أي المسند إليه – مضمراً فهي إذا كان المقام مقام حكاية كقوله :

أنا الذي يجدوني في صدورهم   لا ارتقي صدراً منها ولا أرد"[(١)]

وقد حذف المسند إليه في قوله (نزل الوحي) وتقديره : نزل جبريل بالوحي ، والمسوغ لحذفه وجود قرينة معنوية هي أن الوحي لا ينزله إلا جبريل – عليه السلام – وهذا أمر بديهي أو كما يقول أحد الباحثين : "ومسوغ حذف الفاعل قوة القرينة وهو أمر هام بنى عليه العرب كثيراً من الأساليب والأحكام اللغوية ، كما في قولهم : أرسلت ، وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء التي هي فاعل الإرسال ، فالفاعل معروف وهو السماء ؛ لأن المطر لا يأتي إلا من جهتها." [(٢)]

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله (وأنا في لحاف امرأة...) وتقدير المحذوف : وأنا مشتمل أو مستتر في لحاف امرأة ، وحذف هنا للدلالة عليه من خلال السياق.

وفي ندائه لأم سلمة مع أنها قريبة منه إيماء إلى التلطف والرفق بحاله.

---

(١) هذا البيت نسبه صاحب عروس الأفراح لبشار بن برد، ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ٢٧٤/١.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، ٣١/ ٢، مكتبة وهبة، القاهرة ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ومن قصر الصفة على الموصوف ما يلحظ بشكل بارز في قوله – صلى الله عليه وسلم- : (ما نزل الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) فقصر النبي نزول الوحي وهو مشتمل بلحاف امرأة من نسائه على السيدة عائشة وحدها فقصر هذا الفضل والشرف على عائشة وهو من قبيل قصر الإفراد نظراً إلى حال المخاطب.

ومن الاستعارات الخفية في الحديث الشريف ما يكمن في قوله (نزل الوحي....) فالوحي لا ينزل إلا بواسطة جبريل – عليه السلام – وكأنه شبه الوحي بإنسان من صفته النزول، فتنوسي التشبيه وجيء بالمشبه، وحذف المشبه به، ودل عليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن بديع هذا الحديث الشريف ما جاء من حسن التعليل في قوله – صلى الله عليه وسلم – (لا تؤذيني في عائشة فوالله ما نزل الوحي علي وأنا في لحاف ....)؛ فقد علل سبب تفضيله لها لشرفها بنزول الوحي في بيتها.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما ذكرته عائشة – رضي الله عنها – قالت:

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها. حمراء الشدقين قد أبدلك الله ـ عز وجل ـ بها خيراً منها، قال: (ما أبدلني الله ـ عز وجل ـ خيراً منها قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله – عز وجل – ولدها إذ حرمني أولاد النساء)[1].

من حب النبي – صلى الله عليه وسلم – لخديجة – رضي الله عنها – كان يذكرها بعد موتها، وكان إذا ذبح الشاة أهدى منها لبعض أصدقائها[٢]، وهذا دليل وفائه لها، وحسن عشرته، وفي هذا الحديث بيان لما كان من عائشة حين ذكرها يوماً (ما) حيث اشتعلت الغيرة في نفسها، فأخذت في التهوين من شأنها، والاعتداد بنفسها فما كان منه – صلى الله عليه وسلم – إلا أن انتصر لخديجة – رضي الله عنها – وشرع يعدد على مسامع عائشة فضائلها، وأن ما فعلته من أجله – صلى الله عليه وسلم – كان سببا لحبه لها وذكرها بالخير والفضل.

وبالنظر إلى أسلوب الحوار وسمات ألفاظه تبدو جلية مع شيء من علو النبرة، فقد ظهر فيه الحزم وكظم الغيظ، لما بدر منها، ويتجلى ذلك في بيان أسباب ذكرها، وشدة حبه لها؛ فهي من آمنت برسالته، وصدقت بما جاء به من الحق، وأغنته بمالها حين كان معدماً فقيراً، وكانت أم أولاده.

أما ما في الحديث من خصائص بلاغية فهي تكمن فيما يلي:

في قول عائشة – رضي الله عنها - : "إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء" يلحظ المتلقي أنها جعلت جواب الشرط أمرين: الثناء، وإحسان الثناء، وفي ذلك إيماء بأنه – صلى الله عليه وسلم – كان يكثر من الإشادة بها، وقد أردفت هذا التلويح بالتصريح حيث قالت: (ما أكثر... الخ) تقول ذلك تعجباً من كثرة ذكره إياها "ما أكثر ما تذكرها"؛ لأن معنى (ما)

---

(١) رواه أحمد في مسنده وصححه الألباني وحسن إسناده، مسند أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ١١٧/ ٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٥٧١.

الأولى تعجبية، والثانية موصولة[1]، وكأن خديجة امتازت عنها بشيء ليس فيها. فهذا يحتمل معنيين كما يقول السكاكي: "أحدهما إثبات زيادة الفضل للموصوف على غيره، والثاني إثبات كل الفضل له"[2]. ولذا ظنت عائشة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – يفضلها ويثني عليها لأجل جمالها وليس الأمر كذلك بل لكثرة مناقبها مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولذلك قالت: حمراء الشدقين[3]؛ لبيان كبرها، والاعتداد بجمالها وصغر سنها.

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وضع الضمير موضع الاسم الظاهر في قول عائشة "تذكرها" أي: تذكر خديجة؛ والعلة في ذلك التحرز من ذكر اسمها غيرة منها، وقد يكون هذا على سبيل التنقيص.

وقد ألقي الخبر على مسامع النبي – صلى الله عليه وسلم – مؤكداً بـ (قد) التي تفيد التحقيق، والفعل الماضي (أبدلك)، ولم تقصد عائشة إلا المباهاة بجمالها أمام الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكأنها تظن أنه لا يعلم ذلك لكن لما رأت النبي – صلى الله عليه وسلم – يبالغ في ذكر خديجة ويثني عليها بمحاسن الكلام، وأطيب النعوت قالت ما قالته من شدة غيرتها، وللفت انتباه النبي الكريم إليها، وكأنها تطلب منه مراعاة الحال التي هي عليها.

وتدل الفاء في قول عائشة: "فغرت يوماً فقلت ما أكثر ما تذكرها" على سرعة غيرة عائشة فبمجرد أن ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – خديجة أمامها أصابها ما يصيب النساء من الانفعال والغيرة التي عندها تفقد المرأة صوابها ولا تدري ما تقول أو تفعل. أما (إذ) فتدل على الزمن الماضي كما يقول ابن هشام: "إذ أن تكون اسماً للزمن الماضي ومن استعمالاتها أن

---

(١) جاء في مغني اللبيب: "أن (ما) تكون معرفة وهي نوعان ناقصة وهي الموصولة نحو: ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وتامة وهي نوعان عامة: أي مقدرة بقولك الشيء وهي التي لم يتقدمها اسم تكون هي وعاملها صفة له في المعنى، والثاني أن تكون نكرة مجردة عن معنى الحرف وهي أيضاً نوعان ناقصة وتامة فالناقصة هي الموصوفة والتامة تقع في ثلاثة أبواب أحدها التعجب نحو: ما أحسن زيدا، والثانية في باب نعم وبئس والثالث قولهم إذا أرادوا المبالغة في الإخبار عن أحد بالإكثار من فعل كالكتابة: (إن زيدا مما أن يكتب) ؛ ولذلك كانت (ما) الأولى في قول عائشة للتعجب والثانية موصولة." مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، ٣٢٦ – ١/٣٢٧.

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي، ص ٥١.

(٣) حمراء الشدقين: أي وصفتها بالدرد وهو سقوط الأسنان من الكبر فلم يبق إلا حمرة اللثاة. "النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٣١/ ١ باب الشين مع الدال.

تكــون ظرفــاً وهـــو الغالـــب نحـــو قولـــه تعـــالى: ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[1][2]" فحين أمره الله بالجهر بالدعوة لم يصدقه كفار قريش بل وقفوا في وجهه ، ووصفوه بالكذب والافتراء ، وآذوه ، وحرموه ولم يكن هناك في ذلك الوقت إلا خديجة فنصرته وآمنت به ، وصدقته ، وواسته بمالها ؛ ولذا كانت الباء في قوله (بمالها) للاستعانة أي هي من هب لمعاونة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بكل ما تملك من مال وعز وجاه وبذلت نفسها رخيصة للنبي – صلى الله عليه وسلم – فكانت نعم النصير ونعم السند.

وفي قوله – صلى الله عليه وسلم – (آمنت بي ، وصدقتني) إيجاز بالحذف أي: آمنت بأني رسول الله للناس كافة ، وصدقت ما جئت به من الحق وهو القرآن الكريم ، وفي ذلك طي لما يغني المقام عن ذكره ليكون الأسلوب قوي السبك خالياً مما يؤدي إلى الإملال.

ويبدو المجاز بإطلاق المفرد وإرادة الجمع في قوله (ورزقني الله ولدها) أي: أولادها[3]، بدليل قوله بعد ذلك: (أولاد النساء) ، ومن المجاز أيضاً إطلاق الكل على الجزء في قوله (كذبني الناس) فأطلق لفظ الناس ولم يقصد إلا فئة معينة منهم ، فمنهم من كفر بما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – ومنهم من آمن وصدق ، وهنا قصد النبي – صلى الله عليه وسلم – كفار قريش الذين آذوه ، وحاربوا دعوته. ومثله المجاز في قوله (حرمني أولاد النساء) والمقصود بالنساء أزواجه – صلى الله عليه وسلم - .

وعرف المسند إليه بـ (أل) في (الناس ، النساء) فالتعريف فيهما للعهد فكلاهما معروف عنده فالناس كفار قريش الذين خبرهم ، وحصل منهم الأذى والعداء ، والنساء هن أزواجه – صلى الله عليه وسلم - .

ويبدو الوصل بين الجمل في قوله – صلى الله عليه وسلم – (آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس...) ؛ فالجملة الثانية مرتبطة بالأولى من طريق الواو ؛ لما

---

(١) سورة التوبة، آية (٤٠).

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٩٤/ ١.

(٣) جاء في فتح الباري: "كان جميع أولاد النبي – صلى الله عليه وسلم – من خديجة إلا إبراهيم، فإنه من جاريته مارية، والمتفق عليه من أولاده منها القاسم وبه كان يكنى، مات صغيراً قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب ثم رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة، وعبد الله ولد بعد المبعث فكان يقال له الطاهر والطيب، ويقال هما أخوان له وماتت الذكور صغاراً باتفاق. "فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ٧/ ١٦٩.

بينهما من التوسط بين الكمالين ؛ فكلتاهما خبريتان لفظاً ومعنى ، وبينهما تمام المناسبة ؛ فالمسند إليه واحد فيهما والمسند في الثانية مناسب لنظيره في الأولى ، والجامع بين الجملتين الحدوث وهو أمر واقع ، والمقام مقام تعدد لأفضال خديجة عليه لذا وصل بين الجمل بالواو.

وتتراءى الكناية العجيبة في هذا الحديث في قول عائشة (حمراء الشدقين) كناية عن كبرها ، وهي من الكنايات اللطيفة التي تبرز المعنى في صورة مشاهدة محسوسة ، تخلع النفور على من كان الحديث بشأنه ، والإيحاء بفضل غيره عليه.

وحين نفى النبي – صلى الله عليه وسلم – قول عائشة لم يرد إلا بيان فضل خديجة – رضي الله عنها – ، ولذلك لم يزجرها وإن بدا عليه شيء من الغضب تجاهها ، لكنه قال لها برفق : خديجة كذا وكذا... ، وهذا من حسن التعليل.

ويلحظ تكرار لفظ الناس في نهاية كل جملة مما يوحي بانسجام الفواصل ، ووقعها في النفس ، ومدى تأثيرها في وجدان السامع ، وإن كانت اللفظة من الجملة الأخيرة تغيرت لكنها بما فيها من مد للألف في "الناس" و "النساء" وما فيهما من توافق في بعض حروفهما ما يحرك النشوة في النفس ويطربها. كما يلحظ كذلك في قوله (واستني بمالها ، رزقني الله ـ عز وجل ـ ولدها) التوازن العجيب في الفواصل ، ومراعاة موسيقا الكلام.

والتضاد بين (أبدلك ، ما أبدلني) و (أمنت ، كفر) و (صدقتني ، كذب) و (واستني ، حرمني) و (رزقني ، حرمني) يزيد المعنى وضوحاً ويقرره في النفس.

وكذلك من حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أزواجه حول العلاقات الأسرية ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت :

قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من غزوة تبوك أو حنين، وفي سهوتها ستر، فهبت ريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب، فقال: (ما هذا يا عائشة؟)، قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع، فقال: (ما هذا الذي أرى وسطهن؟) قالت: فرس. قال: (وما الذي عليه؟) قالت: جناحان. قال: (فرس له جناحان؟) قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه.[1]

يمثل هذا الحوار نموذجاً للقدوة الحسنة في معاملة الزوجة بالمعروف والمودة إذ هو حوار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وعائشة يمتاز بالطرافة والتندر، والمداعبة باللطف ، وكان الحوار في صورة سؤال وجواب أفضى إلى الاقتناع بمنطق الحجة، مما يدل على خيال عائشة حينما استوحت الزمن الماضي – زمن سليمان عليه السلام – وأتت بما يقنع النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى قالت فيه: "فضحك حتى بدت نواجذه".

والألفاظ الواردة في هذا الحديث واضحة لكن هناك بعض منها يحتاج إلى بيان معناها مثل: "سهوة، رقاع"؛ فالسهوة كما جاء في لسان العرب: "سترة تكون قدام فناء البيت، ربما أحاطت بالبيت شبه سور حول البيت، وقيل :هو شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشيء[2]."

والمراد في الحديث هو القول الأول ، أما لفظ الرقاع فهو: "الخرقة" وهي تعبر عن روح العصر وتدل على بساطته.

وبالنظر إلى الحديث وملامحه البلاغية فإن أول ما يطالع المتذوق لفنون الكلام العربي الأصيل اختيار لفظتي: الفرس والخيل ، والدقة العجيبة في استعمال أحد اللفظين في موقعه ، والإصابة في هذا الاختيار كما نسبت عائشة لفظ الخيل دون الفرس إلى سليمان – عليه السلام – والواقع أن الفرس والخيل معناهما واحد ولكن الخيل تكتسب صفات الجودة والقوة والأصالة؛ ولذا وصفت في القرآن بالصافنات الجياد كما جاء في الكشاف: "ووصفها بالصفون والجودة؛ ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية: يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها، وفي معنى ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني إسناده، مشكاة المصابيح للإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ٩٧٤/ ٢.

(٢) لسان العرب لابن منظور حرف السين المهملة ٢٩١/ ٧.

حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾[1] قيل الخير: المال والمال هو الخيل التي شغلته وسمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها[2]" وسميت الخيل خيلاً لاختيالها بالمشي. قال ابن فارس في مقاييس اللغة: "سمعت من يحكي عن بشر الأسدي عن الأصمعي قال: كنت عند أبي عمرو بن العلاء وعنده غلام أعرابي فسئل أبو عمرو: لم سميت الخيل خيلاً؟ فقال: لا أدري، فقال الأعرابي: لاختيالها. فقال أبو عمرو: اكتبوا، وهذا صحيح؛ لأن المختال في مشيته يتلون في حركته ألواناً. [3]" ويلحظ ورود لفظ الخيل دون الفرس في القرآن الكريم بكثرة، فالنبي الكريم يختار بعناية ودقة متناهية اللفظة الحسنة والمعبرة عن المعنى بقوة ووضوح.

وجاء في الحديث ألفاظ قصد تنكيرها وهي (ستر، ريح، بنات، فرسا، رقاع، خيلا، أجنحة) فالسر في تنكير "ستر" لوصفه من حيث السماكة أو الرقة وقصد به هنا الخفة والرقة حتى أن الريح كشفته بسهولة. والتنكير في "ريح" قصد به وصفها بالشدة في الهبوب، والتنكير في "بنات" للتكثير، والتنكير في "فرسا" ليتسنى وصفه بالجملة التي بعده؛ لما في ذلك من غرابة، والتنكير في "رقاع" للإيماء إلى اختلاف ألوانها وإلى تأنق عائشة في صنعها، والتنكير في "خيلا" أي عظيمة وقوية، والتنكير في "أجنحة" يومي إلى الكثرة.

ومن الإيجاز بالحذف ما جاء في جواب عائشة عن سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم – في قولها: "بناتي"، وتقدير المحذوف: هذا بناتي، أو هؤلاء بناتي. وكذلك الحذف في قولها: "فرس، جناحان": أي: هذا فرس، والذي عليه جناحان. وحذف ذلك؛ لأن في ذكره مسارعة إلى ما هو مناط الغرض.

والاستفهام في قول النبي – صلى الله عليه وسلم - : (فرس له جناحان؟) خرج إلى معنى التعجب والتملح إذ الفرس في واقع الأمر ليس له ذلك، كأنه – صلى الله عليه وسلم – يقول إلى أين ذهب بك الخيال يا عائشة، أما الاستفهام في قول عائشة – رضي الله عنها - :

---

(١) سورة ص آية (٣٢).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، ٣٧٣/ ٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، ٢/ ٢٣٥، باب الخاء والياء وما يثلثهما، تحقيق وضبط/ عبد السلام هارون، دار الفكر، د. ت.

"أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟" قصد به الإخبار فهو إنشاء والمراد به الخبر. وقد يكون هذا من المذهب الكلامي .[1].

وفي هذا الحديث تشبيه في قول عائشة مجيبة عن سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم – "بناتي" أي هن كبناتي وأنا أم لهن، وهو تشبيه بليغ، حذفت فيه الأداة ، ووجه الشبه ، وحذف أيضاً المشبه ، ولكنه مقصود في الكلام، ومن ثم لم يخرج إلى حيز الاستعارة ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[2] فالمشبه مقدر والمقدر كالمذكور وعليه فالمشبه الدمى والمشبه به البنات[3].

وفي قولها – رضي الله عنها – : "فهبت ريح فكشفت ناحية الستر" استعارة مكنية حيث شبهت الريح بالإنسان الذي من فعله الكشف عن الستر، فالمشبه الريح والمشبه به الإنسان فتنوسي التشبيه، واستعير الإنسان للريح ثم حذف المستعار وهو الإنسان، وجيء بشيء من لوازمه، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية وفي هذه الاستعارة التشخيص وبث الحياة في الجماد.

---

(١) المذهب الكلامي: "هو احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه؛ لأنه مأخوذ من علم الكلام الذي هو عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية. "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري، ص ١١٩. ينظر كذلك معجم البلاغة العربية لبدوي طبانة ص ٢٣٣، وعلم البديع د/ عبد العزيز عتيق، ص ١٧٠ – ١٧١.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨.

(٣) ينظر في البيان العربي دراسة ميسرة لفنونه وصلتها بالرمز، د/ عبد الموجود متولي بهنسي، ص ٢٩.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما روي عن جابر بن عبد الله قال:

دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي – صلى الله عليه وسلم – جالساً حوله نساؤه، واجما ساكتا، فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: (هن حولي كما ترى يسألنني النفقة) فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ قال: فبدأ بعائشة، فقال: (يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك.) قالت: (ما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: (لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلماً ميسرا.)[1].

يلمح المتلقي لهذا الحديث إيماءه إلى ضرورة حسن عشرة الزوجة لزوجها، ومشاركته الصبر على الشدائد فنساؤه – صلى الله عليه وسلم – قد اجتمعن حوله يسألنه النفقة الموسعة، ولم يكن عنده ما يلبي حاجتهن، وشاع أمر هذا الاجتماع، فاجتمع الناس أمام بابه ينتظرون ما يسفر عنه الأمر، وجاء أبو بكر وعمر – عندما بلغهما الخبر – وأراد عمر أن يعرف سر هذا الاجتماع الذي أضفى على المجتمعين جواً من الوجوم والكآبة، فقال: (يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة – يعني زوجته – سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/ ٦٥.

وهو بهذا القول يريد أن يزيل هذا الوجوم، ويكسر حدة الكآبة، ويشيع جواً من المسرة(١)، وتحقق له ما أراد فابتسم النبي – صلى الله عليه وسلم – كاشفاً عن سبب ما يريان بقوله (هن حولي ـ كما ترى ـ يسألنني النفقة). فقام كل منهما إلى ابنته يؤدبها.

واعتزل النبي نساءه شهراً، ثم نزل الوحي يخيرهن بين متعة الحياة الدنيا ومعاشرة النبي – صلى الله عليه وسلم – فاخترن – جميعاً – معاشرته مع الصبر على ما يعتري الحياة من خشونة العيش.

وللحوار في قصة هذه الحادثة دوره، وإن كان قد بدأ بداية سَرْدٍ لمجرياتها، ولكن السرد لم يظل على وتيرة واحدة بل تحول إلى نسق تصاعدي كان له دور فعال في إبراز الشخصيات، وما صدر منها من أفعال تبين ما يختلج في الضمائر من أحاسيس وانفعالات، كان في القصة حواران أحدهما داخلي تمثل في قول عمر حين حدَّث نفسه قائلاً: "لأقولن شيئاً أضحك النبي – صلى الله عليه وسلم – "، والآخر خارجي تمثل كذلك في حوارين أولهما جرى بين الصحابين وابنتيهما – رضي الله عنهم - ، وثانيهما جرى بين عائشة والنبي – صلى الله عليه وسلم - ، كما ساعد الحوار كذلك على ارتقاء الإحداث وتأزم المواقف كما يلاحظ ذلك في فعل كل من أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – وبرزت البداية الأولى للمشكلة من جانب أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – من احتياجهن إلى النفقة، أما من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلم يملك حينها ما يصرفه في شئونهن وكلاهما مشكلة: الاحتياج للمال، وعدم القدرة على ذلك ، ثم أخذت العقدة تنفرج مع توالي الأيام حين جاء الوحي بالحل الرباني لها في آية كشفت الغمة ، وفرجت الكربة عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم تأتي المفاجأة السعيدة حين تختار عائشة الله ورسوله والدار الآخرة، فينشرح صدر الرسول الكريم، وترتسم على محياه ابتسامة عريضة يشرق بها النور في وجهه.

أما طبيعة الحوار فكانت زاجرة نوعاً ما عند أبي بكر وعمر، أما من جانب الرسول الكريم فقد كانت نفسه هادئة لم يصدر منه سوى أنه كان ساكتاً يبدو عليه آثار الحزن الشديد.

---

(١) وقول عمر هذا من باب ما أصطلح على تسميته بتجاهل العارف، لغرض من الأغراض والغرض هنا التسرية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والوقوف منه على سر هذا الوجوم.

وألفاظ الحوار الواردة في الحديث واضحة إلا أن هناك لفظتين هما (واجما ووجأ) قد يصعب على القارئ معرفة معناهما إلا من خلال السياق والقرائن ، وقد يظن أن الأذن تنبو عنهما لاسيما لفظة "وجأ" فهي شديدة الوقع على الأذن ، لكنهما فصيحتان وقد أصابتا كبد الحقيقة ، فحين استعمل عمر – رضي الله عنه – لفظتي (واجما(١) ، وجأ(٢) عبر عن انفعال أو غضب وشدة حزن ؛ انفعال غضب من أبي بكر وعمر ، وانفعال حزن عند النبي الكريم جعله يضرب عن الكلام ، فناسبت هذه اللفظة الحالة النفسية لدى أبي بكر وعمر ، وكذلك "واجما" فهي تصور مشهد النبي الكريم بدقة ، أما استعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – للفظتي "معنتا ومتعنتا" فهما وإن كانت حروفهما متجانسة تختلفان من حيث المعنى وعلاوة على ذلك استعمال النبي – صلى الله عليه وسلم – لهما كان واضحاً يسهل على اللسان النطق بهما دون أن تمجهما الآذان بل لسلاستهما يدخلان القلب بدون استئذان.

وعند النظر لجماليات الأسلوب النبوي ، وتذوق بلاغة كلامه بحس أديب مرهف ، وذوق ناقد سليم فإن اللطائف البلاغية التي تزهو بها جمل ومفردات الحديث ستبدو في التنكير في (شيئا ، شهرا ، أمرا ، امرأة ، معنتا ومتعنتا ، معلما ، ميسرا) فتنكير (شيئا) يفيد العموم والشمول ؛ فالمعنى : لا نسأل رسول الله أي شيء قليلاً أو كثيراً ، وفي (شهرا) للإيماء بالإفراد إذ المعنى : شهراً واحداً ، والتنكير في "أمرا" للتعظيم ؛ لما يترتب عليه من قرار يتخذه النبي أو يتخذه نساؤه ، وفي "معنتا ومتعنتا" للتعميم والشمول في النفي ؛ فالمعنى : نفي أي عنت أو تعنت عنه – صلى الله عليه وسلم – ، و تنكير "معلما ميسراً" بمعنى : متواضعاً في علمه يبتغي مرضاة الله ؛ فالتنكير للتأليف والاستمالة ، فالمعلم الميسر يألفه الناس ويميلون إليه ويقبلون عليه ، أما التعريف فهو في "النفقة" للدلالة على أنها شيء معروف ومعهود لدى النبي وأزواجه لذا جاءت (أل) التعريف للعهد العلمي.

وقدم الظرف – حولي – على المسند – يسألنني – لبيان الحال ، والمبالغة في تصوير ما هن عليه ، وإظهار حرصهن على النفقة. وكذلك تقديم الجار والمجرور (أفيك؟) في استفهام

---

(١) الوجوم: السكوت على غيظ، والواجم: الذي اشتد حزنه حتى أسكت عن الكلام، لسان العرب ١٦/ ١٥ حرف الواو.

(٢) الوجء:" اللكز ووجأه باليد والسكين ضربه ووجأ في عنقه كذلك وقد توجأته بيدي ووجىء فهو موجوء، ووجأت عنقه وجأ: ضربته" لسان العرب لابن منظور ١٥٣ / ١٥ حرف الواو.

عائشة على المسند (استشير) ؛ لإظهار عظمة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومكانته في قلبها.

وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر في قول أبي بكر وعمر: تسألن رسول الله ما ليس عنده؟ خرج إلى التوبيخ والزجر ، وقد يكون للتهديد ، أما الاستفهام في قول عائشة للنبي – صلى الله عليه وسلم - : "أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟) يومىء إلى استشارتها لأبويها في أمر يتعلق به ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو أعظم من أن يستشار أحد في شأن يتصل به لاسيما العشرة ، أما النهي في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لعائشة: (لا تعجلي فيه) فقد خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى التحضيض ، والحث على التؤدة والروية وترك العجلة.

وتأكيد الخبر في قول عائشة وحفصة: "والله لا نسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم– شيئاً أبداً ليس عنده ، بالقسم (والله)، ولفظ (أبدا) لإرادة طمأنة صاحبيه ـ أبي بكر وعمر ـ بعدم سؤالهن الرسول الكريم لاعتقادهما أن أبا بكر وعمر يبالغان في اتهامهما وينكران عليهما ذلك. وفي تأكيد الخبر في قول النبي لعائشة: (إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا) فهنا نزل النبي – صلى الله عليه وسلم – عائشة منزلة من يتردد في الأمر وقد عرض عليه شيء من الشك فيه.

وقد عبر النبي الكريم بثلاثة أفعال مضارعة هي (أريد، أعرض، أحب) ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – يستحضر الأمر وقد بلغ منه جهدا، وظل بمثابة الشيء الذي يتكرر في ذهنه مرة بعد مرة فيلازمه ولا يزول عن نفسه، وهذه الأفعال توحي ببنيتها بما يدور في خلد النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يتردد في أمر التخيير بين شيئين، ويحس بالحرج منه فكلاهما – في نظره – أمران أحلاهما مر.

وقد عبر عمر بالفعل الماضي (سألتني) بينما عبر النبي بالمضارع (يسألنني) وفي تعبير عمر بالماضي دلالة على الشيء الثابت المحقق الوقوع لأنه يحكي للنبي – صلى الله عليه وسلم– أمراً كان بينه وبين زوجه ، أما في جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – لعمر: (هن كما ترى حولي...) أي جالسات يسألنني النفقة ، وحذف المسند ، وبقي متعلقه وهو الظرف (حولي) ؛ للتأكيد على تلك الحال ، والحذف في قول عائشة: "لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت" أي:

بالأمر الذي قلته لي وهو أمر التخيير بين البقاء معه أو الطلاق ، وحذف للدلالة عليه في قول النبي الكريم (أحب أن أعرض عليك أمرا) وكذلك الحذف في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : (لا تسألني امرأة منهن) وتقديره: لا تسألني امرأة عن الأمر الذي جاء في الآية إلا.... الخ، وحذف أيضاً للدلالة عليه آنفا ، وكذلك الحذف في قوله – صلى الله عليه وسلم ـ: (إن الله لم يبعثني...) أي: لم يبعثني إلى الناس معنتا... الخ، وإنما آثر هذا الإيجاز تحاشياً للإملال بذكر مالا تدعو إليه حاجة مادام المطوي من الكلام يتراءى من خلال السياق.

ومن القصر ما جاء في قول النبي الكريم: (لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها) قصر موصوف على صفة ؛ حيث قصر نفسه عند سؤال أي امرأة من نسائه على صفة الإخبار، وهو من قبيل قصر القلب باعتبار حال المخاطبة، فهي تطلب منه ترك الإخبار وهو يؤكد فعله وطريق هذا القصر النفي والاستثناء. وفي الحديث قصر آخر بطريق العطف ببل وهو ما كان في قول عائشة (بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة) فأصل الكلام: لا أريد الحياة وزينتها بل أختار الله ورسوله ، والمقصور عليه هو: اختيار الله ورسوله، والمقصور هو إرادتها (قصر موصوف على صفة)وهو أيضاً من قبيل قصر القلب؛ لأن اختيار الله ورسوله مقابل لإرادة الحياة الدنيا وزينتها، وفي هذا إيجاز بحذف ما قبل (بل) لدلالة الآيتين عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) ومن التغليب في لفظ (تسألن) وهو خطاب لعائشة وحفصة على وجه الخصوص وكان الأصل أن يكون بالتثنية (تسألان) لكن قال ذلك لأن الخطاب – وإن كان في ظاهره يقصد به عائشة وحفصة ـ فهو أيضاً يشمل الباقيات من باب النصح لهن والتوجيه.

ومن التغليب كذلك لفظ (أبويك) فغلب اسم الأب على الأم؛ لأنه الأكثر استعمالاً في لغة العرب.

ومن الكناية الخفية ما كان في قول عائشة: "لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت" فهو كناية عن اختيارها الله ورسوله المعبر عنه بقولها (بل أختار الله ورسوله) وكأن عائشة تريد

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان (٢٨ – ٢٩).

بذلك أن تنفرد بهذا الاختيار على ظن أن تختار الأخريات زينة الحياة الدنيا ، ويرشح هذا الظن عندها ما يعلمنه عنها من تدللها على النبي – صلى الله عليه وسلم – .

ومن بديع هذا الحديث المقابلة بين المعنيين في قول النبي الكريم لعائشة : (إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا) وقد وضح المعنى في نفس عائشة ؛ لأن بالأمور المتباينة تتضح الأشياء ، وتتقرر في النفوس وتثبت في العقول.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع أزواجه حول العلاقات الأسرية ما روته عائشة أم المؤمنين قالت : أول ما بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : (ما أنا بقارئ) ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : (ما أنا بقارئ) ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : (ما أنا بقارئ) ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – فقال : (زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (أو مخرجي هم؟) قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي[1].

---

(١) صحيح البخاري ٢٢/ ١.

يدل الحديث الشريف على حسن تبعل المرأة لزوجها ومؤاساته ومساندته فيما يعرض له من نوائب الزمان ، وكانت أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها – قدوة حسنة لنساء أمة محمد– صلى الله عليه وسلم – فعندما قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – إليها خائفاً ترتعد فرائصه ، ويرجف فؤاده ، وتضطرب مشاعره بادرت إليه بالتخفيف من مصابه وقالت قولتها المشهورة على مدى الدهر: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق." وهذه المقولة إن نظر إليها المتأمل وجد فيها النصرة والمؤازرة من جانب ومن جانب آخر يلمس منها حسن التصرف والتبعل للزوج والمؤاساة القلبية له.

لقد بدأت القصة بتمهيد سرد على القارئ كل أبعاد القصة الزمانية والمكانية ، ووصف حال النبي – صلى الله عليه وسلم – وما كان عليه من سيرة ومنهج قبل نزول الوحي عليه ، "كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها" ، وهذه المقدمة لها ارتباط بما سيكون بعدها من أحداث خطيرة تستهوي القارئ ، وتشوقه في متابعة ما يجري في تضاعيفها من أحداث لاسيما إن كانت تلك الأحداث مثيرة وغريبة ، وترسم الدهشة على الوجوه ، وكل تلك الأحاسيس من دهشة ، وغرابة ، وإثارة تزيد من تطلعه وانتباهه لأحداث القصة من أولها لآخرها.

وتنشأ أولى ذروات الحدث في مفاجأة الملك للنبي – صلى الله عليه وسلم – بالوحي ، ويجري حوار بين الملك (جبريل) والنبي – صلى الله عليه وسلم - ، ومن هنا يحس النبي – صلى الله عليه وسلم – بالغرابة ويصيبه ذلك الفزع الشديد ؛ لأنه شيء لم يعهده في حياته ، وحين يسمع من يناديه ويأمره بأمر ليس في مقدوره ، ويشاهد هذا الشيء الغريب يضمه ضما قوياً إليه ، ويتكرر أكثر من مرة من هنا تكمن الغرابة ، وتكثر في وجدان النبي الكريم التساؤلات ، وتعصف بنفسه فلا يكون منه إلا التوجه إلى زوجه خديجة – رضي الله عنها - .

وبعد فترة من الزمن ينشأ حوار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وزوجه خديجة – رضي الله عنها – وقد ظهر على النبي – صلى الله عليه وسلم – الفزع وبلغ منه مبلغه في قوله (زملوني ، زملوني) (لقد خشيت على نفسي) ، وحين يخبرها بما جرى تصدر منها كلمات هي كالبلسم الشافي فهي شهادة حق تقولها في حق النبي – صلى الله عليه وسلم – فمن كان شأنه صلة رحمه وأقاربه ، ومساعدة الضعيف ، وإكساب المعدوم... ونحو ذلك فلن يخزيه الله أبداً.

❖ لاشك أن الحوار الواضح في هذه القصة هو الواقع بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وورقة بن نوفل ولا يندرج ذلك تحت الحوار في نطاق الأسرة والذي يعنيني منه بالتحليل البلاغي ما دار من حوار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وخديجة – رضي الله عنها - .

ثم يأتي المشهد الثالث وهو حوار جرى مع ابن عم ابن خديجة ورقة بن نوفل والرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وتتصاعد الأحداث بذهاب خديجة إلى ابن عمها ورقة بصحبة النبي الكريم، وعند استطلاع الخبر يصارحه بالحقيقة وهي أن ما جاءه هو جبريل – عليه السلام – (الناموس الذي نزل على موسى) ويتمنى ورقة أن يعيش إلى ذلك الوقت حتى ينصر النبي الكريم عندما يخرجه قومه من مكة ويعادونه، ويكون في استفهام النبي – صلى الله عليه وسلم– : (أو مخرجي هم؟) الاستغراب والدهشة من كلامه، ولم يخرجونه؟ ، ولم المعاداة للإسلام؟، وهل هناك من ينصره ويؤازره؟، وكل هذه الأسئلة قد تدور في وجدان النبي الكريم، وقد يكون في التفكير فيها ما يصرفه عن تحمل أعباء الدعوة إلى الله، ولكن النبي يصبر ويقوى إيمانه بالله وحده وما النصر إلا من عند الله، وفي هذا الحوار تبرز شخصية ورقة بن نوفل فهو كما ذكرت عائشة "امرؤ تنصر في الجاهلية وله علم بالإنجيل، إذ يكتب منه ما شاء الله أن يكتب". فهو يدين بالنصرانية لكن قوله للنبي – صلى الله عليه وسلم – : "وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً" دل على أنه آمن بالنبي – صلى الله عليه وسلم – بعدما سمع منه ما سمع، وهذه وظيفة الحوار كما أبرز الأحداث وضح كذلك الشخصيات وما امتازت به من سلوك ودين.

ومن يتأمل القصة سوف يتذوق طعوما من الفنون البلاغية متمثلة فيما يلي:

البراعة في انتقاء اللفظة الموحية بالمعنى، والقدرة على تأليفها في نظم الكلام، مثل: (زملوني، يخزيك) يعطيان دلالة أكثر عمقاً في نفس السامع؛ فلفظ (زملوني) بمعنى لفوني بثياب ونحوها فيدل على شدة التلفيف، يقول العيني: التزميل التلفيف والتزمل الاشتمال[1]". ففيه زيادة معنى فهو يعني الغطاء والاشتمال معاً، ولفظ (يخزيك) من الخزي وهو العار والفضيحة وجاء في ترتيب مختار الصحاح: "خزي أي: ذل وهان وقال ابن السكيت: وقع في بلية(٢)". فهي تجمع كل هذه المعاني في لفظ واحد؛ ولذا نفت خديجة عن النبي الكريم كل ذلك.

---

(١) عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، ١٩/ ٣٠٦.

(٢) ترتيب مختار الصحاح، باب الحاء، ٢٢٥.

وفي الحديث ألفاظ معرفة وهي: (الرحم، الكل، المعدوم، الضيف، نوائب الحق) وكل منها له دلالته البلاغية التي توضح المعنى بدقة في معرض جميل، فالتعريف بأل في (الجهد، الرحم) يفيد العهد فهو معروف عند خديجة ، أما التعريف بها في (الكل، الضيف، المعدوم، نوائب الحق) فهو للجنس، المفيد للعموم والشمول فهو – صلى الله عليه وسلم – يعين أي ضعيف، ويعطي المال أي فقير معدم، ويكرم أي ضيف يأتيه، أما التعريف بالإضافة في (نوائب الحق) فهو للاختصار فالمقام لا يسمح بشرح تلك النوائب.

وفيه إيجاز بالحذف، وهو ماثل في قوله – صلى الله عليه وسلم - : (لقد خشيت على نفسي) حيث حذف متعلق الفعل (المفعول) فإن المعنى قوله: خشيت على نفسي الهلاك أو الموت. يدل على ذلك قوله (حتى بلغ مني الجهد) أي التعب والمشقة أو غاية التعب والمشقة، ومن الإيجاز بالحذف قوله (فأخبرها الخبر) فههنا اقتضاب للأحداث وكأن جملاً كثيرة قطعت من الكلام وتقدير ذلك: أخبرها بذهابه إلى الغار ثم تعبده فيه وأثناء ذلك جاءه الملك فأمره بأن يقرأ ورده عليه بعدم علمه بالقراءة وتكرار هذا أكثر من مرة، كل ذلك للاختصار، وإيثاراً لعدم الإطالة المفضية إلى الإملال بغير طائل.

وفي قول خديجة له: "إنك لتصل الرحم" أكد الخبر تأكيداً مكثفاً مع أن مضمونه أمر مستقر في ذهن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهي بذلك منزلة منزلة المنكر؛ والعلة في إلقاء هذا الخبر مؤكداً بـ (إن، ولام الابتداء، والفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار) تثبيت فؤاد النبي الكريم والتهدئة من روعه.

أما إتيان الأفعال في كلام خديجة بالمضارع (تصل، تحمل، تكسب، تقري، تعين) فهو لاستحضار حال النبي الكريم وما كان عليه في الجاهلية من سلوك حميد، وسيرة زكية وأنه مازال ذلك دأبه.

وفي قول خديجة للنبي – صلى الله عليه وسلم - : "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". وصلت الجملة (وتحمل الكل) بما قبلها (إنك لتصل الرحم) لأنها مشاركة للأولى في حكمها الإعرابي فهو وصل لجملة على أخرى لها محل من الإعراب وقصد به التشريك بينهما في الحكم، فوجب الوصل بينهما وهنا تعدد خديجة صفات النبي – صلى الله عليه وسلم – التي لا يمكن لأحد استيفاءها كلها وذلك من باب المبالغة في شأن النبي الكريم.

وفي الفعل (تحمل) استعارة تبعية ؛ إذ المراد به الإعانة ؛ حيث شبهت الإعانة بالحمل بجامع المسرة الناشئة عن كل منها، فتنوسي التشبيه، واستعير الحمل للإعانة واشتق منه: (تحمل) بمعنى تعين، والقرينة (الكل) وتومئ هذه الاستعارة إلى بذل أقصى الجهد في المعاونة.

وفي هذا الحديث من البديع مراعاة النظير أو التناسب وهو من المحسنات التي تكسب الكلام رونقاً فقرى الضيف، وحمل الكل، وإكساب المعدم من باب المروءة والكرم.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما روته عائشة – رضي الله عنها – :

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: (مالك يا عائشة أغرت؟) فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (أقد جاءك شيطانك؟) قالت: يا رسول الله أومعي شيطان؟ قال: (نعم.) قلت: ومع كل إنسان؟ قال: (نعم.) قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: (نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم[1].

في هذا الحديث الشريف دار حوار بسيط بين النبي الكريم وزوجه السيدة عائشة – رضي الله عنها – وساد هذا الحوار شيء من الدعابة واللطافة؛ ففيه دليل على حسن العشرة والتعامل بالمعروف بين الزوج وزوجه.

وبالرغم من جريان الحوار على هذا النحو من الدعابة والمزاح، فإنه كان صادقاً مؤدياً للحق، فالشيطان حين يحاول إغراء ابن آدم، ويتمكن منه، يوسوس له بالشر، ويسيطر على مشاعره وأحاسيسه، وهذا ما حدث للسيدة عائشة – رضي الله عنها – حين غارت من النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو منزه عن الريبة والشك، لكن الشيطان تغلغل في فؤادها، وأثار فيه الظنون، وأشعل فيه الغيرة؛ فمن أجل هذا قال لها النبي مداعباً لها: أقد جاءك شيطانك؟ حتى يكسر حدة الغيرة ويضعفها.

وفي الحديث لمحات بلاغية تظهر في ألفاظه وعباراته تتجلى فيما يلي:

التعبير بلفظ الربوبية (ربي) دون أي اسم من أسمائه تعالى في قوله (ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم)؛ لأن فيه معنى التربية بما تتضمنه من الرعاية له والتلطف به – صلى الله عليه وسلم – فهو عبد من عباده لا حول له ولا قوة فهو تعالى المربي لجميع الخلق المنعم عليهم ولذا عبر بلفظ (الرب) دون أي اسم آخر من أسمائه تعالى فلفظ الرب مناسب للإعانة التي لا تكون إلا برب الخلق أنسهم وجنهم.

وعبر بلفظ (أعانني) دون غيره نحو عصمني أو حفظني؛ لأن التغلب على وسوسة الشيطان تحتاج إلى مجاهدة النفس، والمداومة على حملها على فعل الطاعات وفي ذلك مشقة كبيرة؛ لأن النفس تميل بطبيعتها إلى حب الراحة، وتنفر من العناء، ومكابدة المتاعب، فحين

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٩٣ – ٢٨٤/ ٦.

يوافق ذلك وسوسة من الشيطان فهي تطاوعه وتستجيب لـه ، والرسـول الكـريم راعـى المقـام فناسب بين الحال وما يعبر عنه فقال (أعانني).

والحديث يكثر فيه الاستفهام والسر في توالي الأسئلة والأجوبة في مثل قوله (مالـك يـا عائشة؟ أغرت؟) لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يسألها وكأنه يستنكر منها هذا الفعل ولكن بشيء من المداعبة والرفق. أما الاستفهام في قولها (ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟) فقد خرج إلى التعظيم من شأن الرسول وجلالة قدره عندها. أما استفهامه – صلى الله عليه وسلم – في (أقد جاءك شيطانك؟) فهنا يثبت على سبيل المداعبـة مجـيء الشيطان وأكـد تلـك الحـال بالحرف (قد) فهو شيء محقق الوقوع وذلك لتقريره عند زوجه عائشة.

والاستفهام في قولها (يـا رسـول الله أومعـي شـيطان؟) للتعجـب مـن هـذا الأمـر الـذي أخبرها به النبي – صلى الله عليه وسلم – ولذا كان في نـدائها لـه (يـا رسـول الله) بـأداة النـداء الموضوعة للبعيد مع قربه منها ، وبصفة الرسالة تعظيم لقدره ، وإشارة بشدة الرغبة في المعرفـة لأن هذا لم يكن في بالها. ومثله الاستفهام في قولها (ومع كل إنسان؟ ، ومعك يا رسول الله؟) فحـذفت أداة الاسـتفهام وهـي مقـدرة في الكـلام وكـان الحـذف للإيجـاز. ونظـير حـذف همـزة الاستفهام ما قاله ابن هشام في قول المتنبي : [1]

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

أحيـا : فعـل مضـارع ، والأصـل أأحيـا ، فحـذفت همـزة الاسـتفهام ، والـواو للحـال ، والمعنى التعجب من حياته ، يقول : كيف أحيا وأقل شيء قاسيته قد قتل غيري"[2].

والفاء العاطفة في الأفعال : (فجاء ، فرأى ، فقال ، فقلت ، فقال) تدل على أن كل فعل أعقب الآخر وتلاه بلا مهلة ؛ فهنا الأحداث متنامية تنشأ بسرعة لترقـى إلى النهايـة وهـذا مـا تقتضيه الحبكة ، أما حذفها في (قالت ، قال) فهو لاستئناف الكلام فهناك وقفة اقتضاها المقـام مع كل سؤال أجابها عليه النبي الكريم.

في قوله (جـاءك شـيطانك) فالمسـند فعـل مـاض دل علـى الثبـوت ؛ ففيـه إثبـات المجـيء للشيطان فهذا الفعل لـه لأنـه هـو مـن يفعـل السـوء والمنكـرات ويحـث عليهـا ، ويـزين الشـر في

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٣/ ٣٥٢، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط٢، ١٣٥٧هـ/١٩٨٣م.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢١/ ١.

النفوس، وكذلك التقديم في قوله (لكن ربي أعانني عليه) حيث تقدم المسند إليه وهو لفظ (ربي) على المسند وهو الفعل الماضي (أعانني)؛ لاختصاص الفاعل وحده بالفعل فهو سبحانه القادر على كل شيء، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

وجاء لفظ الشيطان معرفة مرة، ونكرة مرة أخرى، فالمعرفة في قوله (شيطان) حتى يتسنى للمتلقي تخيله في وجدانه واستشعار تلك الصورة البشعة المرأى لهذا الشيطان، بحيث أنه ملازم للإنسان فهو معه على الدوام.

ومن يتأمل بلاغة السيدة عائشة- رضي الله عنها- يجد السر العجيب في اختيار لفظ (المثل) بدلاً من أن تقول: "ومالي لا أغار عليك" كناية عن النسبة إليها، وإليه- صلى الله عليه وسلم- حيث نسبت الغيرة إلى مثلها، وعلى مثله ، وأرادت نسبتها إليها واقعة عليه، ذلك أن المثل في اللغة هو "الشبيه ويطلق على صفة الشيء ويطلق على أماثل القوم أي خيارهم[(1)] فيكون المعنى في قولها وما لخير النساء لا تغار على خير الرجال، يقول الرازي: "مما يكون التقديم فيه كاللازم (مثل) و (غير) كقول الناس: مثلك يرعى الحق والحرمة، وكقول الذي قال له الحجاج: لأحملنك على الأدهم. يريد القيد فقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب. وما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه إي إنسان سوى الذي أضيف إليه، والمعنى: أن من كان مثله في الحال والصفة كان من مقتضى القياس أن يفعل ما ذكر." (٢) والفعل المضارع (يغار) فيه استحضار لصورة الغيرة الشديدة من السيدة عائشة على النبي- صلى الله عليه وسلم- ، والذي يلفت النظر أن النبي الكريم استخدم الفعل بصيغة الماضي (أغرت) ليثبت تلك الصفة للسيدة عائشة.

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله (نعم) عند السؤال عن مصاحبة الشيطان للإنسان، والتقدير: نعم ، معك شيطان، ومثله في الجملتين اللتين تلتا هذه الجملة، والتقدير فيهما: نعم مع كل إنسان شيطان، ونعم معي شيطان؛ وقد حذفت الجملة لدلالة ما قبلها عليها فكان

---

(١) ترتيب مختار الصحاح للرازي، باب الميم ص ٧٣٧.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق د/ بكري شيخ أمين، ص٣١١ ، ٣١٢ دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط١٩٨٥،١م. .
وينظر تفسير الكشاف للزمخشري في تحليل قوله تعالى من سورة الشورى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ٣/٤٦٢.

الإتيان بها فيه شيء من التكلف ولم يكن هذا طبعه، بل كان يورد الحديث موجزاً يحمل في ثناياه أشياء تتراءى من خلال السياق ؛ تحاشياً للعبث بذكر ما لا طائل من وراءه.

وتجد البلاغة النبوية في الفصل بين الجملتين (مالك يا عائشة؟، أغرت؟) كلتا الجملتين إنشائيتان تحملان معنى الاستفهام ؛ والثانية بيان للأولى فبينهما كمال اتصال ؛ ولذا كان الفصل بينهما. أما الوصل بين الجملتين، الأولى التي جاءت جواباً لسؤال السيدة عائشة في قوله : (نعم) والثانية في قوله : (ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم) ؛ فكلتا الجملتين خبريتان لفظاً ومعنى فبينهما التوسط بين الكمالين مع تمام المناسبة فالشيطان عدو للإنسان والعون من الله للإنسان في مواجهته.

ومن هذا حواره – صلى الله عليه وسلم –مع زوجاته حول العلاقات الأسرية. وما روي عن عائشة- رضي الله عنها- قالت:

قال لي النبي- صلى الله عليه وسلم- (إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى)، فقلت: من أين تعرف ذلك؟، فقال: (أما إذا كنت راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم) قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك. (١)

يحاور النبي – صلى الله عليه وسلم – زوجه السيدة عائشة – رضي الله عنها- بمودة وألفة؛ لذا كان حواره معها حواراً لطيفاً وهادئاً. حوار فيه الدعابة والرفق بمن يحبه، وهو مثال حي للعشرة بالمعروف، والمعاملة الطيبة للأهل، وكانت ألفاظ الحديث الشريف لينة، سهلة التناول، يفهمها العقل، وتدخل القلب برقة ولطف، وتأخذه النشوة من مضمونه الجميل؛ لأنه يحمل الكلمة الطيبة التي تثير مشاعر السعادة الزوجية الصادقة، وتبعث الألفة والمودة في عروقها، ومنه يتعلم الناس كيف يبنون حياتهم الزوجية بصفاء وهناء، وكيف يكسبون ود أزواجهم أمثالنا في هذا العصر الذي شحبت فيه العلاقة فيمن يوصفون بالإسلام.

والحديث فيه من البيان النبوي ما يجعل المتذوق يقف وقفة مع نفسه، ويستشعر اللذة في سماعه والتفوه به فيرى فيه الحكمة والبراعة، مثل قوله – صلى الله عليه وسلم – (إني لأعلم إذا...) حيث صدر النبي الكريم كلامه بهذا التأكيد (إن، واللام الداخلة على الخبر "أعلم") وكأن التي يخاطبها تنكر هذا مع أنه صادق في دعواه، وزوجه السيدة عائشة تعلم هذا؛ ولكن جاء الخبر مكثفاً بالتأكيد حتى يتغور هذا الخبر في نفسها يقيناً فيكون وقعه عظيما، وفيه أيضاً تودد لها وزيادة محبة، وعبر بالفعل (أعلم) على صورة المضارع للإشارة إلى تجدد العلم وقتا بعد وقت كلما حدث غضب أو رضا.

كما استخدم اسم الفاعل (راضية) ولم يقل ترضين لعلة بلاغية؛ لأن اسم الفاعل يدل على ثبوت الحدث ودوامه، حيث لا تكون راضية على الدوام إلا بذكر اسمه عليه الصلاة والسلام.

وبدلاً من إتيان الوصف على صورة اسم الفاعل (غاضبة) جاء على صيغة (غضبى) ولا يمكن أن تكون كلمة غير هذه تؤدي ما قصده النبي بصورة حية وحقيقية؛ لأنه – صلى الله

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٦٨١.

عليه وسلم – حين نعتها بالغضب فإن هذا يعني أن الغضب قد يلازمها في بعض حالاتها[1]. وبالتعبير بالفعل المضارع في قول السيدة عائشة (تعرف) دون الماضي (عرفت) لدلالته على الحدوث والتجدد كلما صدر منها ما يوحي له بذلك.

والسر في التعبير بالشرط (إذا) دون (إن) مع أن كلتيهما تدلان على الشرط فهو لأن (إذا) كما يقول أهل العلم: "تدل على تحقق وقوع الفعل بخلاف (إن) فإنها تستعمل مع المشكوك في حصوله[2]"، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – لا يشك في ذلك لأنه يعرف زوجه جيداً في حالة الرضا والغضب.

وعبر الرسول- صلى الله عليه وسلم- بالمضارع (تقولين) في جواب الشرط (إذا كنت راضية) وبالماضي (قلت) للإيماء إلى كثرة قولها (ورب محمد)؛ لأن المضارع يدل على التجديد والحدوث مرة بعد مرة في جواب (إذا كنت غضبى) للإشارة إلى قلة قولها (ورب إبراهيم)؛ لأن الماضي وإن دل على التحقق فهو لا يتكرر؛ لأن الفعل الماضي لا يحدث مرة بعد أخرى. أما التعبير بقولها (أجل يا رسول الله والله ما أهجر..) دون قولها (أجل والله ما أهجر) ففيه تأدب مع الرسول- صلى الله عليه وسلم- بندائه نداء البعيد للتشريف من مكانته وعلو قدره عندها.

والسر البلاغي في التعبير بفعل الكينونة في صورة الماضي (إذا كنت) مع أن (إذا) للزمن المستقبل والأصل أن يقال: إذا تكونين؛ فهو لتحقق وقوع فعل الرضا أو الغضب منها.

وعبرت عائشة – رضي الله عنها – باسم الاستفهام المسبوق بحرف الجر (من) في قولها (من أين؟) ولم تعبر باسم الاستفهام (ما) بأن تقول: مم تعرف؟ ؛ففيه استخدام بلاغي جميل؛ حيث أن اسم الاستفهام أين ـ كما هو معروف ـ يستفهم به عن الجهة وبتقديم (من) التي من معانيها الابتداء فهو بيان عن الجهة التي تكون منها تلك العلة أما الاستفهام بـ (ما) فهو لغير العاقل ولا يمكن أن يؤدي المعنى بوضوح كما أداه الاستفهام بـ (أين).

---

(١) يقول ابن قتيبة: " ما كان من النعوت على فعلان فالأنثى فعلى، هذا هو الأكثر نحو: غضبان وغضبى وسكران وسكرى وبعضهم يقول: سكرانة وغضبانة. "أدب الكاتب لابن قتيبة، ص٤١٥، شرح وضبط وتقديم أ/ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. وينظر كذلك التطبيق الصرفي د/عبده الراجحي حيث يقول: وزن فعلى قياسي في كل وصف يدل على هلاك أو توجع أو عيب."ص١١٨.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ص٣٢٧، قرأه وعلق عليه/محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط١٤١٣هـ ٣هـ/١٩٩٢م.

والفاء في قولها "فقلت من أين..الخ" وفي قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (فقال: أما إذا كنت..الخ) فهو للترتيب والتعقيب؛ أي بمجرد أن دهشت من قول النبي الكريم حين قال: (إني لأعلم إذا كنت..الخ) قالت عقب ذلك: "فقلت من أين..الخ" وبادر النبي الكريم على الفور فقال: (أما إذا قلت..الخ) وذلك من فطنة النبي الكريم وتيقظ فكره. أما حذفها في قولها: قلت: أجل..الخ "فهو لاستئناف الكلام لما قبله.

ومن صور الإطناب الجميلة في هذا الحديث التفصيل بعد الإجمال؛ فالإجمال في قوله (إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى)، والتفصيل في قوله (أما إذا كنت راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم)، وأطنب النبي الكريم لأنه يريد التودد لزوجه، والتقرب إليها وهذا مقام يقتضي مثل هذا الإطناب ؛ لأن الإجمال يجعل المتلقي متلهفاً على العلم بالشيء تفصيلاً بعد العلم به إجمالاً، فإذا ورد مفصلاً بعد ذلك شعر بلذة الحصول على الشيء بعد الشوق إليه، فيستقر في أعماقه.[1].

على أن قوله (وإذا كنت علي غضبى) تصريح بما يوحي إليه قوله (إذا كنت عني راضية)؛ كأن هذه الجملة توحي بما يليها؛ لأنه إذا علم ما يكون من رضاها، فإنه يعلم ما يكون من غضبها، وفي التصريح بعد التلميح ما يشد النفس ويعمق فيها المعنى. يقول أبو هلال العسكري: "قيل لقيس بن خارجة: ما عندك في حمالات داحس؟ قال: عندي قرا كل نازل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لدن مطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع. قيل لأبي يعقوب الخريمي: هلا اكتفى بقوله: آمر فيها بالتواصل عن قوله: وأنهى عن التقاطع؟ فقال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف؟![2]."

وكذلك القصر يجسد جمالاً آخراَ، يكسو الحديث بأروع المعان البلاغية، في قول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ (والله ما أهجر إلا اسمك) إذ فيه قصر صفة على موصوف

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١٩٧/٣،د.ت.

(٢) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٩٢- ١٩٣، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. وما ذكره أبو هلال منقول عن الجاحظ في البيان والتبيين ينظر البيان والتبيين ١/٧٩ تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

بطريق النفي والاستثناء ، قصر الهجر على اسم النبي وليس على النبي نفسه ، ومن حسن التأدب مع النبي الكريم لم تنسب إليه الهجر وإنما كان هجرها لاسمه لا له هو، كما يقول الطيبي: "هذا الحصر من اللطف في الجواب؛ لأنها أخبرت أنها إذا كانت في غاية من الغضب الذي يسلب العاقل اختياره لا يغيرها عن كمال المحبة المستغرقة ظاهرها وباطنها الممتزجة بروحها، وإنما عبرت عن الترك بالهجران؛ لتدل بها على أنها تتألم من هذا الترك الذي لا اختيار لها فيه وأنشد:

إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل"[1]

وفي الحديث محسنات بديعية مثل طباق الإيجاب بين الرضا والغضب (راضية، غضبى) وجاء لتوضيح المعنى، وتقريره في نفس السيدة عائشة.

والمقابلة في قوله (أما إذا كنت راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم) وبهذه المقابلة يتأكد المعنى ويتمكن في النفس وخاصة في نفس السيدة عائشة- رضي الله عنها- .

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، المسمى بالكاشف عن حقائق السنن ٧/٢٣٢٨. والبيت للأحوص، ينظر شعر الأحوص ص٢٠٩، جمعه وحققه: عادل سليمان جمال الأنصاري، قدم له د/ شوقي ضيف، مكتبة الخانجي. القاهرة، مطبعة المدني بالقاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما ذكر عن عائشة قالت: وارأساه، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك)، فقالت عائشة: "واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك، لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك."فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- : (بل أنا وارأساه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فاعهد أن يقول القائلون أو يتمني المتمنون، ثم قلت يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون." (١).

من يتأمل الحديث الشريف يرى العجب من فعل عائشة- رضي الله عنها- مع الرسول الكريم، فيعجب من تلك الغيرة حتى في أوج المرض، ويعجب من فعل النبي- صلى الله عليه وسلم- وحسن تصرفه وبراعة تخلصه من هذا الموقف وذلك بمداعبتها والانبساط لها بكلام لطيف يخفف عنها ما تجده من الألم والضجر، وهذه رحمة النبي- صلى الله عليه وسلم- بأهله أما رحمته بأمته وما يؤول الأمر إليه من بعده فكانت أشد، فهمه منصب على تولية أمر الخلافة لأحد الصحابة، ولم يكن هناك من هو أهل لتحمل الأمانة والقيام بواجباتها كاملة أفضل من أبي بكر الصديق، وتلك رحمة الوالي لرعيته ومحبته لهم واشتغاله بمصالحهم العامة والخاصة، وسعيه في توحيد كلمتهم، والتمسك بالكتاب المنزل وسنته المطهرة، لئلا يدب الخلاف في صفوفهم، ومن هنا لم يرتض غير أبا بكر الصديق يكون هو الإمام من بعده والخليفة الراشد في سيرته وأخلاقه.

ومن يلاحظ الحديث يجد تنوع صيغة الحوار وتدرجه من الضعف إلى القوة ، ففي بداية حوار النبي- صلى الله عليه وسلم – مع عائشة امتاز بالرقة والمداعبة ثم انتقل الحوار بعد ذلك إلى ما هو أهم وهو الحرص على الأمة من بعده كيف يكون حالها؟ ومن يتولى أمرها؟. وأما الألفاظ الواردة في ثنايا الحديث فقد كانت سهلة جداً، لا تعقيد فيها ولا التواء، حيث يجتلي القارئ معانيها في نفسه ، ويستحضر دلالتها دون عناء.

وعند تأمل الحديث مرة أخرى لبيان ما فيه من ملامح بلاغية فإنها تدرك بالنظرة الثاقبة والفكرة المتأنية.

فمن الملحوظ اختيار بعض الأفعال دون غيرها؛ لما لها من ومض مثل: "أظنك، ظللت، هممت، أعهد "فالفعل (أظنك) استعمل هنا استعمالا مجازيا فهو يتضمن معنى

(١) صحيح البخاري ٤/١٨١٤.

"علمت"[(١)] " والفعل " ظللت" مضمن معنى "بات" لأن ظل لا يطلق إلا على كل فعل يعمله الإنسان بالنهار[(٢)]، لكن كان هناك قرينة لفظية تمنع إرادة هذا المعنى وهي (آخر يومك) وآخر اليوم دليل على انتهاء الليل وقدوم الصباح، أو لأن عائشة راعت المقام الذي هي فيه فكان حديثها مع النبي- صلى الله عليه وسلم- قبل قدوم الليل، أما (هممت) فهو للعزم على الفعل، لكن تركه ولم يفعله، ففيه إيماء إلى التريث ثم التنحي عن الفعل بعد العزم عليه، فهو في نفسه معقود النية به ، واستعمل الفعل المضارع (أعهد) دون أوصي مع أنه يفيد معنى الوصية ، بمعنى أوصي بكذا، أي: أوصي بالخلافة من بعدي لأبي بكر، وفيه استحضار تلك الحال والعزم على تنفيذ ما يراه مناسباً في حق الرعية ، ولذا لم يقل أوصي؛ لأن الوصية تكون عند مشارفة المرء على الموت ، وتوديع الأهل والأحباب فيوصي بشيء مهم ينفذ بعد وفاته ، أما العهد فهو جعل الأمر في عهدة من يثق به ، وإن لم يكن ثمة أمارة على مشارفة الموت.

ومن الملحوظ أيضاً التقديم في قوله- صلى الله عليه وسلم - : (ذاك لو كان وأنا حي) فقدم اسم الإشارة "ذاك" على الجملة الشرطية "لو كان وأنا حي فأستغفر.." للتنبيه على خطورة شأن الموت وأنه لو كان لكان من شأن النبي- صلى الله عليه وسلم- الاستغفار والدعاء لها بالرحمة والمغفرة، ومن التقديم كذلك تقديم الخاص على العام فقدم الاستغفار على الدعاء في (استغفر لك وأدعو لك)؛ فالاستغفار جزء من الدعاء ، وقدم لأنه إذا تمكن الاستغفار ، وغفر الله السيئات ، وتجاوز عنها فإن العبد سينعم بالخير، ويسعد بالعفو.

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قول عائشة: "وارأساه" هنا حذف جملة تامة بدليل قول النبي- صلى الله عليه وسلم – لها بعد ذلك (ذلك لو كان وأنا حي...) كأنها قالت: وارأساه إني سأموت ونحو ذلك ، ولذا يقول الطيبي: "قولها: وارأساه، ندبت نفسها وأشارت إلى الموت، وقول النبي- صلى الله عليه وسلم- : (ذاك لو كان وأنا حي) أي: إذا حصل ذلك أي: موتك وأنا حي أستغفر لك[(٣)]."ومن الحذف قوله- صلى الله عليه وسلم- (بل أنا

---

(١) جاء في لسان العرب: "قد يجيء الظن بمعنى العلم، وفي حديث عبيدة: قال أنس سألته عن قوله تعالى (أو لامستم النساء) فأشار بيده فظننت ما قال أي علمت. "لسان العرب ٩/١٩٧ حرف الظاء المعجمة.

(٢) ظل "لا يقال إلا بالنهار لكنه قد سمع في بعض الشعر ظل ليله، وظللت أعمل كذا بكسر اللام، ظلولا إذا عملته بالنهار دون الليل، قال الليث: يقال: ظل فلان نهاره صائما ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل. "ا لمرجع السابق٩/١٨٨ حرف الظاء المعجمة.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٢/٣٨٢٥.

وارأساه) حذف المسند وتقدير المحذوف: بل أنا من يقول وارأساه، والإيجاز هنا لضيق المقام فالمقام مقام تألم وهو يقتضي طي ما لا تدعو الحاجة إليه.

وحذف المفعول في قوله- صلى الله عليه وسلم- : (أن أرسل إلى أبي بكر) وتقدير المحذوف: رسولاً، وحذف للعلم به فالمتبادر في الذهن - بطبيعة الحال - أنه أرسل رسولاً إلى أبي بكر؛ ولذا حذف المفعول لتجنب الإطالة بذكر ما يفهم من السياق، وحذف مالا تدعو إليه الحاجة أو لا تتأتى به فائدة.

ومن ذلك الإيجاز حذف مقول القول في قول النبي – صلى الله عليه وسلم- : (أن يقول القائلون) وهو جملة تامة والتقدير: أن يقول القائلون ما جعل أبا بكر خليفة من بعده، وفي قوله (أو يتمنى المتمنون) حذف المفعول- وهو لفظ مفرد- والتقدير: أو يتمنى المتمنون الخلافة من بعد النبي، وكذلك حذف المفعول في قوله (يأبى الله ويدفع المؤمنون)؛ إذ التقدير: يأبى الله إلا خلافته، ويدفع المؤمنون خلافة غيره. ومثله الحذف في (يأبى الله ويدفع المؤمنون). قال الطيبي: "وقوله (أن يقول القائلون) مفعول له على تقدير محذوف، أي: اجعل أبا بكر ولي عهدي؛ كراهة أن يقول القائلون: لم يعهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى أبي بكر الخلافة، أو يتمنى المتمنون الخلافة، ثم قلت: يأبى الله إلا خلافته؛ ولذلك يدفع المؤمنون خلافة غيره لاستخلافي إياه في الإمامة الصغرى والله أعلم.[1] "وكل هذا الحذف في الجمل جاء للإيجاز وطي ما يمكن الاستغناء عنه.

وفي قول عائشة للنبي- صلى الله عليه وسلم- : "والله إني لأظنك تحب موتي.."ألقى الخبر مؤكدا وهو تأكيد مكثف جمع القسم، وحرف التأكيد (إن)، ولام الابتداء والفعل (ظن)، مع كون النبي- صلى الله عليه وسلم – خالي الذهن من مضمون الخبر، فنزلته منزلة المنكر ليتلقى الخبر بالقبول من غير مناقشة فيه لما فيه من غرابة؛ فمن غير المألوف أن يحب الرجل موت زوجته التي يحبها حباً جماً، والمغزى البلاغي منه هو إبداء الاستياء والضجر لاسيما في حالة الغيرة والموجدة، والمبالغة في ذلك من فرط حبها للرسول- صلى الله عليه وسلم- ولذلك أعقبت الكلام بقولها: (ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٢/٣٨٢٥.

و عبرت عائشة- رضي الله عنها- بالمصدر (موتي) دون الفعل المضارع (أموت) ؛ لأن المصدر الصريح يدل على حصول الموت وثبوته دون ربطه بالمستقبل، ففيه إيماء إلى كينونته أو اقترابه جداً من وقت التكلم، بخلاف المصدر المؤول يكون فيه صورة الفعل المضارع (أن أموت) وفيه إيماء بحدوث الموت مستقبلاً، وكأن عائشة- رضي الله عنها – تريد أن تقول: تحب موتي الآن ولذلك آثرت التعبير بالمصدر الصريح.

والفاء الداخلة على جملة (فأعهد أن يقول..) للترتيب والتعقيب أي أن العهد بالخلافة عقب الإرسال مباشرة، أما (ثم) فهي تدل على المدة اليسيرة بين قول القول الذي قالوه وبين قوله: يأبى الله ويتمنى المتمنون.

وفي قوله- صلى الله عليه وسلم- : (يأبى الله ويدفع المؤمنون) جملتان والثانية مرتبطة بالأولى من طريق الواو للتوسط بين الكمالين، فعندما يأبى الله إلا من هو أهل طاعته وهو أبو بكر - رضي الله عنه - فإن المؤمنين يدفعون غير أبي بكر فعطفت الثانية على الأولى ؛ لذلك وصلت بالواو.

وفي الحديث من البيان كنايات ثلاث: تتمثل الأولى في اسم الإشارة (ذاك) حيث كني به عن الموت كراهة التلفظ به، وتتراءى الثانية في قوله- رضي الله عنها- (معرساً ببعض أزواجك) فهو كناية عن صفة هي نسيان عائشة أو الاغتباط بموتها، فإن التعريس ببعض أزواجه آخر يوم موتها دليل على المسرة بموتها، أو على الأقل عدم الحزن على فقدها، وتكمن الثالثة في قوله- صلى الله عليه وسلم- (يأبى الله ويدفع المؤمنون)، فهو كناية عن صفة الإصرار على خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الأسرية ما رواه أنس قال:

بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم. وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت :قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم- :(إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟، ثم قال: اتقي الله يا حفصة!) [1].

من المنغصات التي تكدر النفس الإنسانية ذكر الصفات التي تعد منقصة في عرف المجتمع، فهي منغصة له وتسيء إليه، وهذا ما أحسته صفية – رضي الله عنها – فبادرت بالبكاء حزنا مما سمعته من نعت حفصة لها بـ (بنت يهودي) لكن النبي – صلى الله عليه وسلم- يواسيها، ويطيب خاطرها بكلمات لها وقعها الجميل في نفس صفية- رضي الله عنها- ؛ فهي تحظى بشرف الانتساب إلى نبيين صالحين كإسحاق وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ويكفيها فخرا كذلك أنها زوجة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- وهذا أعظم الشرف والفخر.

وطبيعة الحوار مختلفة فصفية حين سمعت قول حفصة تأثرت جدا لأنها كلمة ذم آلمتها فما كان منها إلا الإجهاش بالبكاء ، والبكاء دليل على مدى الحزن الذي خالط مشاعرها حتى بلغ أقصى شغافه ، فهو انفعال عن نفس حزينة ، أما في جانب النبي- صلى الله عليه وسلم- فكانت نفسه مطمئنة فتعامل مع الموقف بحزم وهدوء، ومن يسمع بهذه القصة وما فيها من حوار نبوي لطيف مع الزوجة سوف تدخل نفسه النشوة والسرور لما يجري بينهما ، وكأنه يحس بأحاسيس زوج النبي – صلى الله عليه وسلم- وتلك أهم وظائف الحوار؛ فهو يجسد الموقف في صورة حية مشاهدة، فيها روح الشخصيات، وما يصدر عنها من سلوكيات ومواقف.

وفي الحديث خصائص بلاغية لا تخطئها العين، وأحاول بيانها فيما يلي:

تعريف المسند بالإضافة (بنت يهودي) والعلة البلاغية في تعريفه إرادة الاحتقار والتنقيص ، أما التنكير فهو في (نبي) للتعظيم والتشريف، ورفع مكانته في نفس صفية ، أما تقديم الجار والمجرور (لي) على المسند وهو الخبر (حفصة) فلنسبة الكلام السيئ الذي قالته حفصة لصفية ؛ فحفصة خصت به صفية دون غيرها ، أما حذف المسند إليه في قول حفصة: بنت يهودي، وتقديره: هي بنت يهودي، وحذف للعناية بشأن المسند دون المسند إليه ولأنه

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وصحح الألباني اسناده، مشكاة المصابيح للتريزي ٣/١٧٤٥.

معروف فلم تشأ ذكره ؛ بعدا عن فضول الكلام ، وحذفه في قوله- صلى الله عليه وسلم- : ففيم تفتخر عليك؟ ، أي: حفصة ؛ حيث حذف لضيق المقام فالمقام مقام إنكار لصدورهذا الفعل من حفصة.

وتأكيد الخبر في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- : (إنك لابنة نبي ، وإن عمك لنبي...) جاء لأن صفية لما علمت بقول حفصة عنها ظنت أنها كذلك وجيء بالتأكيد بـ (إن ، ولام الابتداء ، واسمية الجملة (ابنة نبي) التي تدل على الثبوت) لصرف هذا الاعتقاد عن نفسها ، وأنه غير صحيح في الحقيقة ، فأنزلها منزلة من يبالغ في الإنكار من حيث قد بدا عليها ما يشعر بذلك وهو البكاء وتألمها من أن تكون كذلك.

وأما الاستفهام في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- لصفية: (ففيم تفتخر عليك؟) خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر قصده النبي- صلى الله عليه وسلم- وهو التعجب من شأن حفصة كيف تفتخر على صفية ؟! وقد عبر عن هذا المعنى بحرف الجر (على) الذي يدل على الاستعلاء على الغير بشيء لا قيمة له وهذا هو الفخر الذي نهى النبي- صلى الله عليه وسلم – أمته عنه ، والفاء هنا فصيحة ؛ لدلالتها على الشرط المحذوف والتقدير: إذا افتخرت عليك ففيم تفتخر؟ حيث قال: (فيم تفخر عليك؟ وأنت ابنة نبي ، وعمك نبي ، وأنك لتحت نبي).

أما الأمر في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- لحفصة: (اتقي الله يا حفصة) فخرج كذلك عن معناه الحقيقي إلى الزجر والتحذير من عقاب الله تعالى.

ومن قصر الصفة على الموصوف ما كان في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- : (إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي) فكل من صفة (الابنة) و(العم)، و(الزوج) صفات اقتصرت على صفية واجتمعت عندها ، وهو كذلك من صور الوصل بين الجمل ؛ فالجملة (وإن عمك لنبي) معطوفة على ما قبلها (إنك لابنة نبي) وهكذا الجملة التي تلي الثانية معطوفة على الثانية ؛ ووصلت بالواو لأنها جميعا تشترك في نفس الحكم.

ومن الكناية الخفية التي لا تلمح إلا بالتأمل والبحث عن الجمال في الألفاظ ما كانت في قوله- صلى الله عليه وسلم- :(وإنك لتحت نبي) فهي كناية عن النبي الكريم وأنها زوجته- صلى الله عليه وسلم- وما زالت في عصمته.

وقد تكررت نفس الكلمة (نبي) وهي تختلف من حيث المعنى ؛ فالأولى كناية عن النبي إسحاق ـ عليه السلام ـ ، والثانية كناية عن النبي إسماعيل ـ عليه السلام ـ ، والثالثة كناية عن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم- .

ومن المذهب الكلامي ما جاء في جملة كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- لصفية : (إنك لابنة نبي ، وإن عمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، ففيم تفخر عليك؟) فقدم النبي- صلى الله عليه وسلم- الأدلة والبراهين في البداية التي تناقض قول حفصة لها ، ثم استدرك بعدها بسؤال يعطي مجالا للتفكير والاستدلال بالحجة على القضية التي هي محل نقاش ، وهذا السؤال أثار في نفسها تساؤلات تفضي إلى إعادة النظر ، والتسليم بالحق ، وترك الأوهام والظنون الكاذبة.

ثانياً: حوار النبي- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الاجتماعية والإنسانية.

أولاً: العلاقات الاجتماعية:

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

جاء عمي من الرضاعة يستأذن علي فأبيت أن آذن له حتى أستأمر رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فلما جاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قلت: إن عمي من الرضاعة استأذن علي فأبيت أن آذن له . فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (فليلج عليك عمك) قلت: إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل. قال: (إنه عمك فليلج عليك.)[1]

ظاهر الحديث مسألة اجتماعية تقع غالباً بين الأقارب، وقد يقعون في اشكال كبير فلا تفهم المسألة فهما صحيحا ، وهذا ما جعل عائشة تتساءل وتقول: "إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل. "فهذه المقولة تدل على فطنة عائشة ، وحرصها على الوصول إلى الحكم الدقيق الموافق لما شرع الله؛ فهي ترى أن زوج المرأة التي أرضعتها ليس له علاقة بالرضاعة، فبين النبي- صلى الله عليه وسلم- أن له علاقة سببية؛ حيث قرر أنه عمها، وهذا ما فهمه أهل العلم فقالوا" هذا دليل على ثبوت حكم الرضاع في حق زوج المرضعة وأقاربه كالمرضعة؛ وذلك لأن سبب اللبن هو ماء الرجل وماء المرأة معا، فوجب أن يكون الرضاع منهما كالجد لما كان سبب ولد الولد منه أوجب تحريم ولد الولد به لتعلقه بولده. "[2]فهو إن كان أخا لعمها من الرضاعة وعمها تزوج التي أرضعتها فهو عمها كذلك ، فلا ينبغي لها أن تحتجب عنه فرخص النبي- صلى الله عليه وسلم- لها وأمرها بالإذن له. ومثل هذه الأمور الاجتماعية لا يفهمها كثير من الناس اليوم.

وما دار بين النبي الكريم وزوجه عائشة من حوار بسيط في صورة سؤال يطرح ويناقش امتاز بالهدوء ولكنه نقل المشهد مصورا في خلد المتلقي وكأنه يرى في سؤال عائشة" إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل" أثراً من الشك في كون الرجل له علاقة في التحريم بالرضاع، وحين حاورها النبي الكريم بقوله: (إنه عمك فليلج عليك) أزال عنها مسحة الشك هذه ومن ثم لم تعقب على ما بيَّن.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠/٤.

(٢) ينظر سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام٣/٤٤٢ وينظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨/٤.

أما الخصائص البلاغية فتتمثل في اختيار اللفظة ، وانتقائها ببراعة ، ومزجها في بنية الكلام في نظم فريد يجلي المعنى الكامن في النفس كما يرتئيه النبي الكريم وزوجه عائشة في ألفاظ سهلة قريبة المأخذ ، وهذه الألفاظ هي (أبيت ، أستأمر ، يلج) ؛ فلفظ "أبيت" فيه شدة الرفض والامتناع والإصرار على موقفها ، فهو يصور حال عائشة مع عمها هذا ، فحين نزل الأمر الإلهي بالحجاب امتثلت له بقوة ويقين وثبات ، أما لفظ ، استأمر "فهو على وزن" استفعل "وفي دلالة هذه الصيغة يقول ابن قتيبة : "تأتي استفعلت بمعنى سألته ذلك ، تقول : استوهبته كذا ، أي : سألته هبته لي ، واستعطيته سألته العطية[1] .. "فقولها استأمر بمعنى أطلب من النبي- صلى الله عليه وسلم- الأمر في شأنه ، ولفظ "يلج" مناسب كل المناسبة حيث الولوج هو الدخول[2] ، لكن مع الدخول لابد من الاستئذان حتى يلج فهو يعني الدخول باستئذان وليس مجرد الدخول فقط كما دل على ذلك حديث عائشة" فأبيت أن آذن له حتى استأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- "وكل هذه الألفاظ امتزجت في بنية محكمة فحين ذكرت عائشة ذلك للنبي- صلى الله عليه وسلم- نسب إليها لفظ العم الذي يؤذن بشرعية الدخول عليها دون حجاب.

وفي الحديث إيجاز بالحذف في بعض الكلمات ؛ ففي قول عائشة (رضي الله عنها) : "فأبيت أن آذن له حتى استأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- "أي تستأمره في شأن عمها حذف وتقدير المحذوف : في عمي ، وحذف لذكره في بداية حديثها ، وكذلك الحذف في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (فليلج عليك عمك) أي : (إن كان عمك من الرضاعة فليلج عليك) ؛ حيث حذف جملة الشرط وبقي جوابها للاختصار.

ويلحظ القارئ التقديم في قوله- صلى الله عليه وسلم- :(فليلج عليك عمك) فقد تقدم الجار والمجرور (عليك) على المسند إليه (عمك) وقد يجوز في سعة الكلام أن يقال :

---

(١) أدب الكتاب، لأبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ص٣٠٥.

(٢) "جاء معنى الولوج بمعنى الدخول " ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٨٧٨/٢، وينظر أساس البلاغة لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ٣٥٣/٢، تحقيق/ محمد باسل عيون السعود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. وينظر ترتيب مختار الصحاح للرازي، ص ٨٧٨، وينظر القاموس المحيط للفيروز آبادي ص٢٦٧، حرف الواو فصل الجيم.

فليلج عمك عليك، لكنه- صلى الله عليه وسلم – عدل عن ذلك ؛ والعلة البلاغة تكمن في اختصاص حكم الدخول عليها هي لأنه عمها.

وتبدو نبرة الحوار في هذا الحديث عالية تعكس حرارة الانفعال النفسي ؛ لغرابة الموقف كما تصورته أم المؤمنين عائشة ويجد علوها البدء بتأكيد الخبر في قولها لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- إن عمي من الرضاعة استأذن.. " مع أنه- صلى الله عليه وسلم- خال الذهن، وكأنها- رضي الله عنها- أرادت من هذا التأكيد أن تجعل الرسول شريكاً لها فيما رأته من أنه لا يجوز لعمها من الرضاعة الدخول عليها ، وقد حرص الرسول- صلى الله عليه وسلم- على أن يزيل هذا الاستغراب بهدوء، فأجابها بعبارة هادئة خالية من التأكيد حيث قال: فليلج عليك عمك. إنه أمر قصد به بيان الإباحة، ومن ثم خرج على تلك الصورة الهادئة ليرد إلى نفسها الهدوء بتحريرها من ذلك الانفعال الذي أنشأه تصورها لعدم جواز الولوج عليها.

بيد أن أم المؤمنين- لحرصها على تمام التصون- مضت عالية النبرة في حوارها ، وبدا ذلك في استخدامها لأسلوب القصر في قولها: إنما أرضعتني المرأة؛ حيث قصرت صفة الإرضاع على المرأة قصر قلب، ولم تقف عند هذا الحد بل أردفت قائلة (ولم يرضعني الرجل) وهي بهذا اللفظ تريد أن تتجلى لها الحقيقة نقية صافية حتى لا يكون هنالك شيء من لبس أو غموض، ولذا أجابها النبي- صلى الله عليه وسلم- منتقلا من النبرة الهادئة إلى النبرة العالية ليكافئ ما عند أم المؤمنين فقال: (إنه عمك) بسوق الجملة مؤكدة ، ثم إردافها بجملة أخرى هي قوله (فليلج عليك) والجملة الأولى تعليل لحكم يفهم من السياق ، وكأنه- صلى الله عليه وسلم- يقول: لا بأس من دخوله عليك إنه عمك ، والجملة الثانية جواب شرط محذوف والتقدير: إذا علمت ذلك فليلج عليك. وفي هذا الحديث فصل بين جملتي (إنه عمك، فليلج عليك)؛ فالجملة الأولى (إنه عمك) خبرية والثانية (فليلج عليك) إنشائية قصد بها الأمر، فهما مختلفتان خبرا وإنشاء ؛ لذلك وجب الفصل بينهما.

ويلحظ في قول أم المؤمنين (إنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل) مجيء الوصل بين جملتين ، ثانيتهما مؤكدة للأولى، وهذا خلاف ما جرى عليه العرف البلاغي من وجوب الفصل ؛ لما بينهما من كمال الاتصال؛ ذلك أن مضمون الأولى قصر الإرضاع على المرأة ،

وهذا القصر ينفي حدوث الإرضاع من الرجل ، ومجيء الثانية حاملة هذا المعنى يعد توكيداً لما أفادته الأولى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن ما قرره البلاغيون من الفصل في مثل هذه الصورة حكم يقوم على الغالب في بناء الكلام البليغ. ولا يخفى ما في هذا القول من المقابلة، فالإرضاع في الجملة الثانية يقابل ثبوته في الأولى، ولفظ الرجل في الثانية مقابل للفظ المرأة في الثانية، والجمع بين المتقابلين يكسب المعنى مزيد وضوح.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان: قالت:

دخل علي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقلت له: هل لك في أختي بنت أبي سفيان؟ قال: أفعل ماذا؟ قلت: تنكحها. قال: (أوتحبين ذلك؟) قلت: لست لك بمخلية وأحب من شركني في الخير أختي. قال: (فإنها لا تحل لي.) قلت: فإني أخبرت أنك تخطب درة بنت أبي سلمة؟ قال: (بنت أم سلمة؟) قلت: نعم. قال: (لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة أرضعتني وأباها ثويبة فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن.)[1]

قد يقع كثير من الناس في أمور لا يدركون حكمها أهي حلال أم حرام؟، مثل ما حصل لأم المؤمنين أم حبيبة زوج النبي- صلى الله عليه وسلم- كالجمع بين الأختين وإن كان هذا التحريم شيئا معروفاً ومجمعا عليه لكن توجد أسباب أخرى موجبة للتحريم كالتي ذكرها النبي- صلى الله عليه وسلم- كأن تكون المرأة ربيبة الرجل، أو يكون هو في مقام عمها من الرضاعة ونحو ذلك.

والحوار الذي جرى بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وزوجه أم حبيبة كان هادئا يؤدي غرضا قصد لذاته وهو الإقناع بفكرة معينة في أسلوب جميل، لأن مثل تلك المسائل تحتاج إلى فهم، وإقناع، وروية.

و كشف الحوار عن شخصية أم حبيبة الخيرة التي أرادت أن تشرك معها أختها في الخير الذي هي فيه، وقد يتساءل البعض كيف ترضى بمن تشاركها في الرسول- صلى الله عليه وسلم- لاسيما أن الغيرة موجودة في طبع النساء؟!، لكن حب الخير ملك قلبها فما تبالي إن كانت التي شاركتها فيه أختها، وتلك مفارقة ظنت من خلالها أن زواج النبي الكريم من أختها يجوز له ولكنه أخبرها أن الأمر محرم عليه وذكر أسباب هذا التحريم.

وعند الإطلالة على النواحي البلاغية في محاولة تذوقها في هذا الحديث يتجلى ما يلي:

اختيار المفردة ونظمها في سياق يؤدي المعنى بتمامه في لفظ (تنكحها) فاللفظة وحدها تحتوي على فعل وفاعل ومفعول به لكن الأهم من ذلك أنها تقصد معنى في نفس أم حبيبة؛ فالنكاح معناه أدق من الزواج فهو هنا ورد بصيغة المضارع أي في المستقبل فهو نية معقودة في الضمير دون فعل ما ينويه حقيقة، يقول أحد الباحثين: "إن شئنا التحديد الدقيق للدلالة النكاح

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/٢٢.

فإنه الرغبة في الزواج أو إرادة وقوعه أي قبل أن يتحقق الزواج ويتم فهو نكاح ولذلك نجد الأفعال التي تؤدي هذا المعنى في القرآن جميعا دالة على المستقبل ما عدا فعلين وردا بصيغة الماضي لكن قصد بهما المستقبل ، أما كلمة زوج والفعل زوج فلا يستعملان إلا بعد تمام العقد والدخول واستقرار الحياة الزوجية[1]" . فأم حبيبة حين عرضت الأمر على النبي الكريم كان من باب الترغيب فيه ، ولذا ناسبت هذه اللفظة ذلك المقام.

ثم تكمن البلاغة في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- لأم حبيبة : (أرضعتني وأباها ثويبة) تقدم المفعول به (أباها) على الفاعل (ثويبة) ؛ لأن المجهول هو نسبة الأخ من الرضاعة إلى النبي- صلى الله عليه وسم- وهو سبب التحريم وليس المرضعة نفسها لأنها معروفة عند النبي- عليه الصلاة والسلام- فتقدم ما هو أهم. وفي ذلك يقول الإمام فخر الدين الرازي : "إذا تعلق غرض الناس بقتل إنسان خارجي ، ولم يتعلق غرضهم بصدوره عن شخص معين فإذا قتل ثم أراد واحد أن يخبر عن ذلك فإنه يقدم ذكر المقتول الخارجي فيقول : قتل الخارجي زيد ولا يقول : قتل زيد الخارجي ؛ لأن الغرض يتعلق بإضافة القتل إلى الخارجي لا بصدوره عن زيد".[2] وكذلك تقدم الفعل على الاستفهام في قول النبي- عليه الصلاة والسلام- : (أفعل ماذا؟) وحق الاستفهام الصدارة في الكلام لكنه تأخرهنا ؛ لأن النبي يسأل عن فعله معها ، وكأنه قدم ما هو محط الانتباه ، أما تأخير المسند إليه وتقديم المسند عليه في قول أم حبيبة (وأحب من شركني في الخير أختي) للتشويق إلى ذكر المبتدأ.

أما التعريف في بعض الألفاظ مثل (الخير، الرضاعة ، وربيبتي) فالتعريف بـ (أل) في (الخير) لقصد العهد ، وهو مشاركة الأخت لأم حبيبة في نكاح النبي إياها وقد يكون مرادها وأحب من يشاركني في الخير عامة أختي ، ويدخل الخير الماثل في مشاركتها نكاح النبي داخلاً في هذا العموم ، والتعريف في (الرضاعة) للعهد فهذا الأمر معروف لدى النبي- صلى الله عليه وسلم- ، والتعريف بالإضافة في (ربيبتي) للتشريف والتعظيم بنسبتها إليه- صلى الله عليه وسلم- .أما التنكير في (مخلية) جاء في سياق النفي لإفادة العموم والمعنى : لم أجدك في حال

---

(١) من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم "دراسة في ظاهرة الترادف اللفظي" د/السيد خضر، ص٧٦، ط١ ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي، ص٢٩٩.

من الأحوال خالياً من الزوجات، يقول ابن الأثير: "في قول أم حبيبة لست لك بمخلية أي: لم أجدك خاليا من الزوجات غيري، وليس من قولهم امرأة مخلية إذا خلت من الزوج[1]".

وفي هذا الحديث إيجاز بالحذف في ثلاثة مواضع؛ في قول أم حبيبة (هل لك في أختي) أي: هل لك رغبة فيها؛ حيث حذف المسند إليه للعلم به؛ فالمعنى واضح لا يحتاج إلى بيان. أما الحذف في (لست لك بخلية) حذف حرف الجواب (نعم) واكتفت بقولها هذا للاختصار، ومثله الحذف في (أو تحبين ذلك) أي: تحبين ذلك الأمر ـ أمر زواجه من أختها ـ؟ تجنباً للإطالة بذكر ما يفهم من السياق؛ لأن في ذلك إملالاً لا مبرر له.

وقد خرج الاستفهام في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (أوتحبين ذلك) إلى معنى آخر غير معناه الحقيقي هو التعجب مما يسمع؛ ذلك أن النبي الكريم يتعجب من قول أم حبيبة إذ كيف ترضى بتزويجه من أختها بالرغم من وجود الغيرة في النساء بحكم العادة. أما النهي في قوله- صلى الله عليه وسلم- (فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن) كان للزجر والردع عن فعل مثل ذلك.

قد أكد الخبر بالباء في قول أم حبيبة (لست لك بمخيلة) لتنزيلها النبي منزلة من يشك فيه؛ لأن سؤاله إياها (أو تحبين ذلك؟) يجعله بمنزلة من يشك في كونها مخلية له ذلك الأمر.

وكذا ألقي الخبر في قولها" فإني أخبرت أنك تخطب..الخ" مؤكدا بأكثر من مؤكد واحد (إن، الفعل الماضي المبني للمجهول) وكأنها لما علمت الخبر من مصدر (ما) بالغت في اعتقاده و جزمت به وأنزلت النبي منزلة من يبالغ في الرفض حتى إذا عرفت سبب الرفض تكشفت عنها الحيرة التي تجدها في نفسها. وفي تأكيد الخبر لها في قوله - صلى الله عليه وسلم- : (إنها ابنة أخي من الرضاعة) بمؤكد واحد؛ لأنها كانت تشك في الأمر فاحتاج إلى تأكيده لها بـ (إن).

وفي الحديث يظهر الوصل والفصل بين الجمل؛ فالوصل يظهر في قول أم حبيبة (لست لك بمخلية وأحب من شركني في الخير أختي)؛ فالجملتان خبريتان لفظا ومعنى فكان الوصل بينهما للتوسط بين الكمالين، أما الفصل فهو في قوله- صلى الله عليه وسلم- (لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة)؛ فالثانية استئنافية وكأنها جواب

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/٥٢٨.

عن سؤال فهم من الجملة الأولى كأنه قيل: لم لا تحل لك فقال: إنها ابنة أخي من الرضاعة...الخ.

ومن البديع استخدام المذهب الكلامي في قوله- صلى الله عليه وسلم- : (لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي إنها ابنة أخي من الرضاعة...) ومن البديع كذلك الالتفات من خطاب المفرد إلى الجمع في قول النبي الكريم: (لا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن) وكأنه نهاها حتى ينتهي غيرها ممن يعلم تحريم ذلك ، وقد يكون ذلك من باب التغليب.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الاجتماعية ما روي عن عائشة :

أن رجلا استأذن على النبي- صلى الله عليه وسلم- ، فلما رآه قال : (بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة .) فلما جلس تطلق النبي- صلى الله عليه وسلم- في وجهه ، وانبسط إليه ، فلما انطلق الرجل قالت عائشة : يا رسول الله ، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ؟ فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (يا عائشة متى عهدتني فحاشا ؟! ، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره .)[1]

لا يخفى على الإنسان ما يصيبه من ضرر فادح حين يلقى أهل الشر ، فلا يجد بدا من الخلاص منهم إلا بالمصانعة والمجاملة وتنميق القول ، وكان تصرف النبي- صلى الله عليه وسلم- حكيما مع الرجل ؛ إذ لم يدفعه إلى ذلك إلا الفرار من شره وبذاءة لسانه ، والمبادرة إلى قمع كل الأسباب المفضية إليه كما يقول زهير بن أبي سلمى : [2]

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وكانت المفارقة الغريبة[3] التي ألجأت عائشة إلى سؤال النبي- صلى الله عليه وسلم- حين شاهدت الرسول- صلى الله عليه وسلم- يقول كلاما عنه ، ويتغير وجهه حين علم به ، ويتذمر منه ، وبمجرد أن استقبله بادره ببشاشة الوجه ، والانبساط إليه ، وتلك مفارقة اضطرتها إلى الحيرة والدهشة ، وفي توجيه السؤال إليها : متى عهدتني فحاشا؟ يجعلها تفكر وتنعم النظر لتدرك أنه- صلى الله عليه وسلم- كان حكيما في مسلكه مع هذا الرجل ، فمجال التفكير والاستدلال بمنطق العقل ما زال مفتوحا أمامها ، دون أن تتمكن الشكوك منها ، وعندما أخبرت بالأمر زالت عنها كل شبهة ، وانجلى عن نفسها كل ريب ؛ فأقنع عائشة بحسن تخلصه ، وقوة حجته ، بعد أن رأت في تصرفه ما يريبها. ولذا وصف الحوار تلك الحالة التي خامرت نفس عائشة وكذلك موقف النبي- صلى الله عليه وسلم- من توجيه عائشة السؤال إليه ، ففي جوابه لها انفعال صريح عن إنكاره لقولها ، وكشف عن وجه الحكمة في مسلكه أولا وآخرا.

---

(١) صحيح البخاري ١٩٠٦/٤.

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ، ص٢٨٦، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٣) المفارقة: تصوير آخر للمعنى يومئ إلى المعنى العكسي أو هي قول شيء والإيجاد بقول نقيضه، ينظر قراءة نقدية في نظرية المفارقة د/جميل عبد الغني محمد علي، كلية اللغة العربية بالمنصورة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

وما في الحديث من البلاغة النبوية فأحاول بيانه فيما يلي :

استعمال اللفظ الدال على الذم (بئس[1]) في معرض الإطناب من باب الإيضاح بعد الإبهام مع حذف خبر المبتدأ وتقديره : (بئس هو أخو العشيرة) يقول القزويني : "ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس على أحد القولين ؛ إذ لو لم يقصد الإطناب لقيل : نعم زيد وبئس عمرو ، ووجه حسنه ـ سوى الإيضاح بعد الإبهام ـ أمران آخران أحدهما : إبراز الكلام في معرض الاعتدال ؛ نظرا إلى إطنابه من وجه ، وإلى اختصاره من آخر ، وهو حذف المبتدأ في الجواب ، والثاني : إيهام الجمع بين المتنافيين.[2]"

وقد عرف المسند إليه (أخو العشيرة) بالإضافة ، وإسناد الفعل (بئس) إليه يدل على المبالغة في ذم هذا الرجل من تلك العشيرة المنتمي إليها وليس ذمها هي في ذاتها ، ومثله التعريف بالإضافة في (شر الناس) جاء كذلك للذم ، والتعريف بـ (أل) في (الرجل) للعهد العلمي ؛ لذكر ما يدل عليه في بداية الكلام ، وكذلك التعريف في (الناس) فهو لقصد الجنس دون النظر للأفراد أي : كل الناس يتقون شره فيتركونه. أما التنكير في (منزلة) يدل على هوان منزلته عند الله تعالى يوم القيامة ، وسوء حاله ، وما آل إليه من مصير.

وتقديم المسند إليه على المسند في قوله (إن شر الناس عند الله منزلة من تركه الناس اتقاء شره) فحين قال (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة) كان في هذه الجملة تشويق لما سيترتب بعد ذلك من الخبر وهو قوله (من تركه الناس اتقاء شره) وذلك يؤدي إلى تمكن الخبر في نفس عائشة كل التمكن. أما تقديم الظرف (عند الله) على التمييز (منزلة) فهو للتعظيم من هول الموقف ، وأنه مما لا يمكن الاستهانة به ؛ لأن الله تعالى سوف يحاسب كل على حسب عمله الذي عمله بالدنيا.

---

(١) يقول ابن جني عن نعم وبئس: "اعلم أن نعم وبئس فعلان ماضيان غير متصرفين ومعناهما المبالغة في المدح والذم، ولا يكون فاعلهما إلا اسمين معرفين باللام تعريف الجنس أو مضمرين على شريطة التفسير ثم يذكر بعد ذلك المقصود بالمدح أو الذم وذلك قولك: نعم الرجل زيد وبئس الغلام جعفر فـ (الرجل) مرفوع بفعله ، و (زيد) مرفوع ؛ لأنه خبر مبتدأ محذوف ، كأن قائلا قال: من هذا الممدوح؟ فقلت: زيد، أي: هو زيد ، وإن شئت كان (زيد) مرفوعا بالابتداء، وما قبله مقدم عليه."كتاب البيان في شرح اللمع لابن جني ص٤٦٩. وينظر كذلك أمالي ابن الشجري ٢/٤٠٤، وينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ص٣٨٧، وينظر لسان العرب لابن منظور ٢/١٠٠٩ حرف النون.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٣/١٦٨.

وقد عبرت عائشة- رضي الله عنها- بعدد من الأفعال صيغها مختلفة ؛ حيث عبرت بفعل ماض هو (قلت، تطلقت، انبسطت) والفعل الماضي يدل على الثبوت واللافت للنظر إتيان الفعل (تطلقت) على وزن" تفعل" وتفعل كما يقول ابن قتيبة : "تأتي بمعنى إدخالك نفسك في أمر حتى تضاف إليه أو تصير من أهله نحو تشجعت وتجلدت وتصبرت. "[1] فبينت هذه الصيغة ما كان عليه النبي الكريم من حالة شعورية تستدعي المجاملة والمداراة، وكأنه فرض على نفسه أمرا. وكذلك صيغة" انبسطت" تدل على الفعل الحاصل الذي يستثيره شيء (ما) فكان يظهر للرجل الانبساط، لأن النبي حمل نفسه على ذلك لسوء فعل الرجل وما عرف عنه.

وخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معنى آخر قصد به النبي- صلى الله عليه وسلم- الإنكار، ويوحي باللوم أو العتاب لعائشة على ما دار في خلدها من المصانعة التي لا تليق به.

وقد أكد الخبر بمؤكد واحد في قوله- صلى الله عليه وسلم- (إن شر الناس يوم القيامة..) لاستغراب عائشة- رضي الله عنها- وهذا يعني أنه جعلها في منزلة من يتردد في تصديق الخبر؛ ولذا اقتضى المقام تأكيده بـ (إن).

وفي هذا القول نفسه حسن التعليل حيث بين علة صنيعه مع ذلك الرجل وهي كونه شر الناس منزلة.

---

(١) أدب الكاتب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ص٣٠٤.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم –مع زوجاته حول العلاقات الاجتماعية ما ذكرته عائشة حين قالت:

سألت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا؟ فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (نعم تستأمر) فقلت له: فإنها تستحيي. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (فذلك إذنها إذا هي سكتت.)[(١)]

من الأمور التي ترتبط بحياة الناس الاجتماعية طلب إذن الفتاة عند إرادة الاقتران بها وهذا ضروري؛ لأنه يتعلق بأمر يمتد أمده بامتداد عمرها، أو عمر من سيقترن بها، وربما يجهل هذا كثير من أولياء الأمور لاعتقادهم بأنهم أدرى من الفتاة بمصلحتها دون الرجوع إلى رأيها فيحصل ما لا تحمد عقباه، وقد ينتهي أمرها بالطلاق، وهذا من الإجحاف والظلم؛ لذلك لابد من الحوار معها، ومناقشتها في أمر الزواج بموضوعية وشيء من اللطف، وسيظهر رضاها في صمتها وانبساط أسارير وجهها كما سيظهر إباؤها في نفورها وانقباض أساريرها.

وقد بدأت عائشة حوارها مع النبي- صلى الله عليه وسلم- بسؤال يدل على الرغبة في معرفة مثل تلك الأمور، وكيف يتصرف الإنسان آنذاك، ثم كان في اختصار النبي الإجابة عن سؤالها شيئاً آخراً فهي تحس بما تحس به الفتاة وهذا شعور طبيعي بحكم العادة تحس بالحياء مما تسمعه من كلام يقوله من يتولى أمرها أبا أم أخا أم عما..الخ. لذا قالت له: فإنها تستحيي يا رسول الله فتسكت، فبادرها بقوله: (فذلك إذنها إذا هي سكتت). لقد كان الحوار معينا على كشف خلجات الفؤاد وما يظهر على الشخصية من انفعال كانفعال الحياء والخجل عند الفتاة البكر.

وبالتأمل في هذا الحوار تظهر اللمحات البلاغية ففي قول عائشة: "الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا" حيث تُلْحَظ الدقة العجيبة في انتقاء المفردة وتركيبها مع جاراتها في نظم بديع، يعبر عن المعنى بصدق، دون مجال للتأويل أو الاحتمال مثل لفظة (الجارية) وكيف تآلفت مع الفعلين المضارعين (ينكحه، تستأمر) فلكونها فتية حديثة السن ناسب الإتيان بالفعل نكح الذي يدل على نية الشروع في الزواج وماذا يكون من الولي إزاء ذلك من تصرف؟ أيكون بالائتمار والتشاور، أم يكون بترك ذلك؟

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/٥٤٧.

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قول عائشة : "أتسامر أم لا ؟" أي : أتستأمر أم لا تستأمر؟ وحذفت الجملة بجزأيها (المسند والمسند إليه) لذكرها في بداية الاستفهام ، والحذف في قوله- صلى الله عليه وسلم- (فذلك إذنها إذا هي سكتت) ؛ حيث حذف جواب الشرط ؛ لتقدم الدليل عليه وهو قوله- صلى الله عليه وسلم- (فذلك إذنها) إذ التقدير : إذا هي سكتت فذلك إذنها[1].

وقد عبرت عائشة بالفعل المضارع (تستحيي) ؛ لتصور تلك الخلجات النفسية التي تعتري نفس الفتاة عندما يخطابها وليها في أمر ذي خصوصية كهذا الأمر.

وفي الإشارة إلى رضا الفتاة باسم الإشارة الدال على البعيد في قول النبي الكريم : (فذلك إذنها) كناية عن القبول والرضا.

---

(١) وهذا على رأي البصريين، أما الكوفيون فيرون أن مثل هذا التركيب لم يحذف الجواب بل قدم على الشرط فقوله (فذلك إذنها) هو الجواب نفسه، وليس دليل الجواب كما يرى ذلك البصريون. ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٢/٧٤٤.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم –مع زوجاته حول العلاقات الاجتماعية حديث عائشة- رضي الله عنها- حين قالت:

قلت للنبي- صلى الله عليه وسلم- حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته) قالت: وحكيت له إنسانا فقال: (ما أحب أني حكيت إنساناً، وأن لي كذا وكذا.)[1]

حينما كانت عائشة مع النبي- صلى الله عليه وسلم- تحدثه ذات يوم، خطرت ببالها صفية، فاجترأت عليها، وقالت من ورائها كلاما أغضب الني- صلى الله عليه وسلم- ولم تعلم أنها اغتابتها دون أن تشعر، وكثيراً ما يصدر من الإنسان أمثال ذلك دون أن يدري فيم أخطأ وأذنب؟، وتتكرر تلك المواقف، وتزداد الأخطاء، ويتعثر الإنسان في هفواته، ويزل لسانه بكلمة لا يلقي لها بالا فيهوي بها في جهنم سبعين خريفا.

و كان في حوار النبي- صلى الله عليه وسلم- ما يدل على انفعاله وكرهه لما قالت عائشة في جانب صفية، ومدى تأثير تلك الكلمة في نفسه، فقال تلك المقولة؛ حتى يكشف عن شناعة وقبح ما تفوهت به، ولذا قال النووي: "وهذا من أبلغ الزواجر عن الغيبة."[2].

وكانت ألفاظ الحديث بسيطة المأخذ، واضحة المعنى، وبالرغم من الإيجاز الواضح في ألفاظ الحديث فهو يحمل في تضاعيفه معاني تتولد في النفس وتزيد تقريرها لاسيما لو تخيل المرء صورة البحر يتغير ماؤه بكلمة لا يظن أنها تفعل ما تفعله.

وعند البحث في اللمحات البلاغية أجدها في اختيار المفردة" مزجت" وإيثارها دون غيرها لدلالتها المعنوية؛ فهي تعطي المعنى الذي يصيب قلب الحقيقة ويقصدها فالمزج والخلط كما قال الطيبي: "يستدعيان الامتزاج والاختلاط وكل من الممتزجين يمتزج بالآخر.[3]" فعندما يختلط البحر بشيء فإن لونه وطعمه ورائحته تتغير ويصعب الفصل بينهما وحينما ذكر النبي-

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، ومعنى مزجته: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه، أو ريحه لشدة نتنها وقبحها، ينظر رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام أبي زكريا يحيي بن شرف النووي ص٤٧٨، قدم له الشيخ/ عبد القادر الأرناؤوط، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه/يوسف علي بديوي، شرح غريبه/ رياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق، ص٤٧٨.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للإمام/شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، ١٠/٣١٢٩.

صلى الله عليه وسلم- أن الكلمة تمتزج بالبحر وكأنها شيء سائل يختلط بسائل مثله ويمتزجان معا قصد بذلك بشاعتها ونتنها فكيف إذا اختلطت بماء البحر ماذا تفعل به؟! وكيف يصبح؟!.

وفي قوله- صلى الله عليه وسلم- :(لقد قلت كلمة...) تأكد الخبر بـ (لقد) وهما كلمتان: اللام الواقعة في جواب قسم محذوف، وقد التي تفيد بدخولها على الماضي التحقيق، وهي- هنا- قد دخلت على الماضي (قلت)؛ وتأكيد الخبر جاء لتنزيل المخاطب- عائشة- منزلة من ينكر أن هذه الكلمة شنيعة على صاحبها، وجاء التأكيد لبيان فداحة الخطأ التي ارتكبته، وليكون هذا محل انتباه، وزجر، وتنفير منها.

وفي الحديث تنكير في لفظتي" كلمة، إنسانا" فأما تنكير" كلمة" فجاء لبيان شناعتها وخطرها، وفظاعتها، أما التنكير في "إنسانا" فللتغطية والستر حتى لا يعرف ذلك الإنسان الذي حاكته؛ لما في ذلك من إساءة إليه.

والفعل المضارع" أحب" يصور حال النبي- صلى الله عليه وسلم- وما هو عليه من كراهة محاكاة إنسان مهما كان حاله من الوضاعة أو القبح؛ ولذا عبر عنها بالمضارع؛ لبيان أن تلك الحال متجددة على وجه الاستمرار، فلا تمر به لحظة يحب فيها ذلك. وجاء لفظ (كذا وكذا) كناية عن صفة القصر التي قالت بها عائشة كما جاء هذا اللفظ عينه في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- كناية عن كثرة ما يأخذه في مقابلة محاكاة أي إنسان.

وفي وصف الكلمة بالامتزاج في قوله- صلى الله عليه وسلم- (لو مزجت) استعارة مكنية؛ حيث صورة الكلمة بصورة سائل يمكن أن يمزج مع ماء البحر، ثم حذف المستعار وهو السائل، ودل عليه بشيء من خصائصه وهو المزج على سبيل الاستعارة المكنية، وفي هذه الاستعارة بيان لبشاعة هذه الكلمة؛ حيث صورت في صورة شيء يدرك بالبصر حتى كأنه يشاهد ويرى رأي العين.

وقد يكون هذا من المبالغة إذ لا يتخيل السامع مثل ذلك يحصل حقيقة ولكن هذا ممكن عقلا لا عادة، وقد يكون المعنى كما قال الطيبي: " إن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر لغيرته من حاله مع كثرته وغزارته فكيف بأعمال نزر خلطت بها.[1]" وبذلك أفادت المبالغة هنا التنفير من هذه الصفة والتحذير من الوقوع فيها.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ص ١٠/٣١٢٩.

ثانياً: العلاقات الإنسانية:

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الإنسانية ما روي عن عائشة قالت:

استأذن رهط من اليهود على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله.) قالت: ألم تسمع ما قالوا؟! قال: (قد قلت وعليكم.) [1]

يدور الحديث حول معنى نبيل هو التحلي بالرفق ولين الجانب[2]، والبعد عن العنف والغلظة، وجفاء الطباع، ولؤم الأخلاق، والرفق يشمل هنا كل أمور الحياة في معاملات الإنسان مع أصحابه، أو مع جيرانه، أو مع أهله، حتى مع خصومه وأعدائه، وتلك العبارة تجمع كل أخلاق المؤمن الفعلية والقولية المحببة إلى النفوس، فكل محامد الصفات في هذه اللفظة الجامعة؛ فالرفق هو اللين واللطف، وترك العنف، والرفق هو الحلم والصبر، والرفق هو المعاملة بالمعروف، والرفق هو الترفع عن سفاهات الجاهل، واجتناب قبيح الكلام، والرفق هو كظم الغيظ عند الإساءة، أو كثرة الأخطاء، والرفق هو العفو عند المقدرة، فكل ما يعني بالتخلق بجميل الصفات من تلك الأمور تندرج تحته؛ فلذلك أورد النبي- صلى الله عليه وسلم- هذه العبارة على صورة مثل أو حكمة يستشف منها المؤمن دلالة الإنسانية العظمى من معانيها.

وقد حاور النبي- صلى الله عليه وسلم- زوجه عائشة بطريقة مهذبة ولينة ولم يكن يريدها أن تتصف بالجفاء والغلظة بل أحب أن تكون حليمة تترك السفيه وشأنه، ولا تلقي له بالا.

وبعد تبين الحديث من جهة مرماه أبين ما فيه من الوجهة البلاغية، فعند إنعام النظر تتجلى لكل ذي ذوق بلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم- ويكشف عن جواهرها فيما يلي:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٣٢٢.

(٢) الرفق:" ضد العنف، قال الليث: الرفق لين الجانب، ولطافة الفعل، وصاحبه رفيق، وقد رفق يرفق، وإذا أمرت قلت: رفقا، ومعناه: أرفق رفقا." لسان العرب لابن منظور ٦/١٩٥، حرف الراء وينظر ترتيب مختار الصحاح باب الراء ٣١٤.

في قول عائشة لليهود: (بل عليكم السام واللعنة) المناسبة بين اللفظين (السام، اللعنة) فالسام كما جاء في عمدة القارئ: "الموت، وقال الخطابي: " فسروا السام بالموت في لسانهم أي: اليهود كأنهم دعوا عليه بالموت، وقال: كان قتادة يرويه بالمد من السآمة وهو الملل أي تسأمون دينكم."[1] وهي ألفاظ تدل على الذم، والشناعة والقبح، وتلك الألفاظ إذا تآلفت مع ما يليها من ألفاظ في نظم تبلور ما تضمنه من المطالع القبيحة والاستهلالات المستكرهة التي يبتدئ بها الكلام، وهذا دليل كره اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم - من أجل ذلك كان في رد عائشة مشاكلة لهم من قولهم.

ويظهر الفرق في قول عائشة وقول اليهود من حيث التقديم والتأخير في المسند والمسند إليه ، ففي قول عائشة لليهود (بل عليكم السام) تقدم الظرف (عليكم) وهو المسند على المسند إليه (السام)؛ لاختصاص الدعاء بالموت عليهم دون غيرهم، وقد استعملت حرف الجر (على) الذي يدل على استعلاء الموت وتمكنه منهم، وقبل كل ذلك نقضت حكم كلامهم عليهم بالحرف (بل) الذي يدل على الإضراب عن قولهم، أما في قول اليهود (السام عليكم) لا نجد تلك البلاغة التي كانت في قول عائشة.

ونداء النبي - صلى الله عليه وسلم - عائشة بنداء البعيد مع أنها قريبة منه كان للتلطف وتهدئة نفسها ؛ فهي في حالة غضب قد تجعلها تندم على ما أقدمت عليه، وحتى يكون ما سيلقيه عليها من كلام جليل، وحكمة بالغة محط انتباهها.

وقد اقترن النداء بالتأكيد المكثف للمعنى بـ (إن، واسمية الجملة ولفظ" كله")؛ فحين كان من اليهود ما كان ظنت عائشة أن في مكافأتهم بالمثل رد اعتبار لها وللرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان في تأكيد الخبر تصحيح لهذا الوهم الذي وهمته عائشة فنزلت منزلة من ينكر الأمر لاندفاعها إلى الرد بما يكافئ الإساءة فكأنها تنكر محبة الله للرفق في كل الأمور.

وخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي في قول عائشة مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - : "ألم تسمع ما قالوا؟" إلى معنى آخر قصدت به عائشة تقرير النبي الكريم بما سمعه؛

---

(١) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، وينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير باب السين مع الهمزة ٧٤٣، ١/٨٢٨، وينظر لسان العرب لابن منظور حرف السين ٧/٩٨.

ليكون ذلك حجة لها لدفع اللوم عنها ، ففي قوله- صلى الله عليه وسلم- (يا عائشة إن الله...الخ) تعريض باندفاعها وغضبها وما يتبعه من اللوم.

ويظهر الحذف بجلاء في قول النبي- صلى الله عليه وسلم- : (قلت وعليكم) أي: قال مثل قولهم حين دعوا عليه، وتقدير المحذوف: قلت عليكم السام واللعنة، وحذف للاختصار ولا ستهجان التلفظ بسيئ الأقوال فهو معصوم من ذلك كله. يقول أحد الباحثين: " اكتفاء النبي- صلى الله عليه وسلم- بقوله: (وعليكم) دون تفصيل قول محقق للكثير من الغايات الأسلوبية منها: أنه حقق رد الدعاء عليهم بالموت الذي يتضمنه كلامهم عليهم دون تصريح ينأى بالأسلوب عما يليق به، ومنها كونه أقوى من التصريح ؛ لأن التصريح بالرد المساوي سهل التناول داخل في مقدور الجميع، ومنها كونه موجزا، ومنها محققا للرفق الذي ذكره- صلى اللهع ليه وسلم- في رده على عائشة: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله) ومنها كونه أقوى من دعائهم كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم- :(وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا.)"[1]

وفي الحديث وصل بين المفردات ماثل في قول عائشة (عليكم السام واللعنة) فوصلت الثانية بالأولى ؛ لإفادتها الاشتراك في الحكم فكما أنها دعت عليهم بالموت دعت عليهم كذلك باللعنة والطرد من رحمة الله تعالى فهم المغضوب عليهم من الخلق، الذين جعل الله منهم القردة والخنازير.

---

(١) من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د/ فتحية محمود فرج العقدة، ص١٠٠، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م. أما الحديث فقد رواه مسلم في صحيحه، ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٣٢٤

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الإنسانية ما روي عن هشام قال: أخبرني أبي عن عائشة:

أن النبي- صلى الله عليه وسلم- دخل عليها وعندها امرأة قال: (من هذه؟) قالت: فلانة"(١) تذكر من صلاتها قال: مه ؟ ، عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه.)[٢]

من شفقته- صلى الله عليه وسلم- بحال هذه الأمة نهى في كثير من أمور الدين عن المبالغة والتشدد في العبادة التي ترهق الجسد، وتقل من العزيمة، وهذا دأبه- صلى الله عليه وسلم- في مواطن كثيرة فقد أخبر- بطريقة من طرقه في الحوار- عن كراهيته الشديدة للمغالاة في الدين والتشدد فيه على نحو يضعف القوى البشرية؛ لأنها- بطبيعتها التي جبلت عليها - لن تتحمل الأعباء التي تفوق قدرتها ومن ثم كان التكلف على قدر الاستطاعة، فإذا أتى الإنسان من العبادة بما يوائم طاقته أجر، ولو كان في نظره قليلاً وقليل دائم خير من كثير منقطع.

وحوار النبي- صلى الله عليه وسلم- مع عائشة يظهر عليه شيء من الانفعال الذي اعتراه عندما ذكر له ما تقوم به هذه المرأة فعبر عن ذلك بهذا الأمر الذي يحمل في طيه الإنكار (مه) ، ثم وجه إلى الإلزام بما هو في حدود الطاقة بقوله (عليكم بما تطيقون) وذلك لأن القيام بما يشق على المرء من الأسباب المفضية إلى ترك العمل الصالح بالكلية ، فمن تكلف سئم ، ومن سئم ترك العمل ، وهذا ما يخشاه النبي- صلى الله عليه وسلم- .

وحين يقف المتذوق على عتبة البلاغة النبوية لاكتشاف جواهرها من خلال هذا الحديث الشريف فإن أول ما يمكنه اكتشافه الوضوح والجزالة في الألفاظ حتى أنه في استغناء عن بذل أي جهد في البحث عن مدلولاتها في معاجم اللغة ، وحين ينعم النظر ، ويعمل الفكر في محاولة اجتلاء ما توحي به بعض الألفاظ فسيجد أن استعمال اسم الفعل (مه) وتعقيبه باسم فعل آخر هو (عليكم) يستهدف غاية واحدة ؛ فالأول يراد به الكف عن فعل شيء مميز مرغوب ،

---

(١) ذكر العيني اسمها فقال: "هي الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى مرت بها عائشة وعندها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقالت عائشة: هذه الحولاء بنت تويت، وزعموا أنها لا تنام الليل فقال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ، ١/٣٧٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ١/٣٨.

والثاني يراد به التزام فعل مرغوب ، ولكنهما يلتقيان على هدف واحد هو الاستمرار في فعل الطاعة ، و (مه) كما جاء في اللغة : "اسم لفعل الأمر ومعناه أكفف[١]" أما (عليكم) فيعني : امتثلوا أو التزموا ونحوه ، وهذا هو السر في إلقاء الخبر مؤكدا بالقسم ، وإيقاعه على الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتجدد ؛ فهنا نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - عائشة والمرأة الأسدية منزلة من يبالغ في إنكار أمر (ما) مع أنهما كانتا خاليتي الذهن من مضمون الخبر، لكن لما علم بما صنعت تلك المرأة ، وموافقة عائشة لها في فعلها ، مع ما تلاقيه تلك المرأة من مشقة وجهد كبيرين دون أن تدرك هي أو عائشة أن في الأمر سعة حسن تأكيد هذا لهما ؛ لما ظهر في فعلهما من جهل واعتقاد خاطئ ، ولا يخفى على المتذوق ما في لفظ (عليكم) من تغليب واضح ؛ فالمخاطب عائشة والمرأة الأسدية فقط وكان مقتضى الظاهر أن يوجه الأمر إليهما لكن النبي الكريم غلب الفعل في جانب الذكورلبيان عموم الأمر لكافة الأمة ، وللإشارة إلى وجوب التزام الكل به فلذا غلب الفعل على الجماعة منهم وهو ما ذكره العيني[٢]. وكذلك استعمال النبي - صلى الله عليه وسلم - للفظ (يمل) وهو يدل بصيغته على نفي الملل على نحو يتجدد بتجدد الزمن الذي يحمل المرء فيه نفسه فوق طاقته ، وكذلك عبر بلفظ (داوم) دون غيره ؛ لما فيه من الاستمرار والتتابع في فترة زمنية دون انقطاع ؛ ولما في لفظ المداومة من المواظبة على فعل العمل ، والحرص على أدائه في كل أحواله.

وإضافة لفظ (الدين) إلى اسم التفضيل (أحب) من إضافة الصفة إلى الموصوف والأصل (الدين الأحب) ومن ثم كان تعريف المضاف إليه بأل للاستغراق ؛ فالمراد بالدين الأعمال التي تكافأ بالثواب، وظاهر العبارة أن لفظ الدين يضاف إلى اسم التفضيل ، والواقع أن ثمة مضاف آخر محذوف والتقدير : (أحب أعمال الدين)، فحذف المضاف الثاني للإيجاز ؛ ولما فيه من إيقاع الصفة (أحب) على الدين ؛ فهو - كما سبق - شامل لكل عمل ، وقول حسن، وفي قوله (الدين) حذف ؛ حيث يصح أن يقدر بـ (أعمال) أي : أعمال الدين ، والإيجاز بحذف المضاف ، وإرادة المضاف إليه نسق أسلوبي أثير في لغة العرب يقول أحد الباحثين : "يحذف المضاف كثيرا كضرب من التوسع في اللغة ، وإيراد المعنى في قليل من اللفظ ؛

---

(١) ترتيب مختار الصحاح للرازي باب الكاف ص ٧٦٥. وينظر القاموس المحيط باب الفاء فصل الكاف ص١٦١٨.

(٢) يقول "فيه عدول عن خطاب النساء إلى خطاب الرجال وكان الخطاب للنساء فيقتضي أن يقال عليكن ولكن لما طلب تعميم الحكم لجميع الأمة غلب الذكور على الإناث." عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ٣٧٩ /١.

لأن المضاف إذا حذف سهل تصوره كقوله تعالى﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ [1] فالمسئول أهل القرية وأهل العير لا القرية نفسها والعير نفسها فالحذف فيه لإظهار المعنى في صورة أتم وأوضح وعلى وجه أقوى وأشمل.[2]" ومن الحذف ما جاء في (قال، قالت، فلانة) فحذف المسند إليه في (قال، قالت) وتقديره: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وقالت عائشة، والحذف فيهما للإيجاز في الكلام. ومثلهما الحذف في قول عائشة (فلانة) فتقديره: هي فلانة أو هذه فلانة.

ومن بلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم- تقديم الجار والمجرور في قوله (ما داوم عليه صاحبه) لإيقاع الفعل المفيد للاستمرار على صريح الضمير المتصل بحرف الجر، فهو مناط الاهتمام، فالمداومة في العمل الصالح الذي هو مدلول الضمير هو في بؤرة الضوء ولو قال: ما داوم صاحبه عليه لذهبت الفائدة التي من أجلها قدم الجار والمجرور، ولأصبح الكلام سمجا لا تستسيغه النفس المتذوقة لمحاسن التقديم أو التأخير.

ويلمح من تلك البلاغة الاستعارة المكنية في قوله- صلى الله عليه وسلم- (أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه) حيث جعل الدين يصاحب ، ومؤدى هذا تشبيه الدين بإنسان عالي المنزلة ، بجامع الرغبة في كل ، ثم تنوسي التشبيه ، واستعير الإنسان العالي المنزلة للدين، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الصحبة.

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا يمل الله) مجاز مرسل علاقته السببية ، حيث أطلق الملل- وهو السبب- وأريد ترك الثواب- وهو المسبب- وقرينة المجاز إسناد الفعل (عمل) إلى لفظ الجلالة[3]. وهذا من باب المشاكلة.[4].

---

(١) سورة يوسف آية (٨٢) .

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/عبد العظيم إبراهيم المطعني ، ٢/ ٤٤-٤٥.

(٣) يقول العيني: الحاصل أن الملال لا يجوز على الله تعالى ولا يدخل تحت صفاته لأنه ترك الشيء استثقالاً وكراهية له بعد حرص ومحبة فيه، وهو من صفات المخلوق فلابد له من تأويل فقال الخطابي: معناه أنه لا يترك الثواب على العمل ما لم يذكر العمل وذلك أن من ملّ شيئاً تركه فكنى عن الترك بالملال الذي هو سبب الترك" عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ٣٧٩، ١/٣٨٠.

(٤) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني ١/٣٨٠.

يقول العيني : "فيه المشاكلة والازدواج وهو أن يكون أحدى اللفظين موافقة للأخرى وإن خالفت معناه كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ معناه : فجازوه على اعتدائه ، فسماه اعتداء وهو عدل لتزدوج اللفظة الثانية مع الأولى كما قال عمرو بن كلثوم : [١]

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أراد فنجازيه على فعله فسماه جهلا والجهل لا يفخر به ذو عقل ولكنه على الوجه الذي ذكرناه[٢]".

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات للأنباري، ص٤٢٦.

(٢) عمدة القارئ للعيني ١/٣٧٩.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الإنسانية ما روي عن عائشة- رضي الله عنها-

أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- (ما بقي منها؟) قالت : ما بقي منها إلا كتفها. قال: (بقي كلها غير كتفها.) (١)

في هذا الحوار وجه- صلى الله عليه وسلم- لأهله سؤالا قصد به نفي ما اعتقدوه في نفوسهم ، وتلك طريقة تزيد من تقرير المعنى لاسيما إذا كانت تعكس حكما غير ما تبادر عند الغير أو تنفيه عما سواه.

والحديث يحمل معنى الإنسانية المتمثلة في شخصه- صلى الله عليه وسلم- فما الصدقة إلا رحمة في قلوب المؤمنين تجاه إخوانهم المساكين، تحرك مشاعرهم نحو البر والإحسان هذا من جهة ومن جهة أخرى تبعث في نفوس هؤلاء المساكين مشاعر المحبة والمودة نحو المتصدقين ، فكل صدقة يتصدق بها الإنسان يعظم أجرها عند الله- عز وجل- ويدخر خيرها في الدنيا والآخرة. هذا معنى الحديث لكنه جاء بطريقة غير مباشرة تزيد من عمق المعنى وثرائه.

وبوقفة يسيرة على أسرار الحديث البلاغية تتجلى لمحات لافتة يمكن اقتناصها من هذا الحوار البسيط الهادئ وذلك في مثل قوله: ما بقي منها؟ فالاستفهام هنا جاء على غير صورته الحقيقية ؛ فالنبي يسأل وهو عارف بالأمر وإلا لما قال: بقي كلها غير كتفها ، والفائدة من هذا الاستفهام الإثارة والتنبيه إلى أمر مجهول وغير متوقع يتأتى العلم به عن طريق حمل المخاطب (عائشة) على قول شيء قد يحتمل الصواب ، وقد يحتمل الخطأ، فيكون ما يقوله على غير الحقيقة فيأتي رد النبي الكريم مناقضا له وقوله (بقي كلها غير كتفها) وكأنه يريد أن يقول لها إن الأجدر أن تقولي: بقي كلها غير كتفها، وقد يكون من تجاهل العارف ؛ لبيان خطأ، أو دفع توهم وما شابه ذلك يقول الطيبي: "لما جعلت عائشة المشاهد المحسوس باقيا والغائب فانيا على سبيل الحصر عكس- صلوات الله عليه وسلامه - أي ما تشاهدونه وتخصون به أنفسكم

---

(١) رواها الترمذي وصححه الألباني، الجامع الصحيح لسنن الترمذي، لأبي محمد الترمذي، ٤/٦٤٤.

خيال ؛ لأنه في معرض الفناء ووشك الزوال وما تؤثرونه عليها وإن كان غائباً فهو ثابت عند الله ووعده الصادق كما قال ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [1].

وفي قول عائشة : ما بقي منها إلا كتفها ، قصر بطريق النفي والاستثناء قصر صفة على موصوف ، وفي أسلوب القصر توكيد للخبر وكان يمكن لأم المؤمنين أن تجيب بالقول : بقي كتفها ولكنها آثرت أسلوب القصر ليتلقى النبي – صلى الله عليه وسلم- الخبر بالتصديق القائم على اليقين.

وعكس النبي- صلى الله عليه وسلم- لكلام زوجه عائشة جاء للمبالغة في عظم الصدقة وما تعود به من الأجر والخير على صاحبها ، أو ربما كان للفت انتباهها إلى أمر عظيم الشأن وبالغ الأثر كما يقول أحد الباحثين : " والرائع في الحديث هو تقرير الرسول- صلى الله عليه وسلم- لأمر يخالف ما يبدو للمرء في ظاهر الحال ، ويعكس كلام السيدة عائشة ويفاجئها بما لم تتوقع ، إن في ذلك لفتا للنظر وشدا للانتباه." [2]

---

(١) ينظر شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ، ٥/١٥٥٦، والآية (٩٦) من سورة النحل ، و ينظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/١٤٢، للإمام أبي العلاء محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي، د/ محمد الصباغ ص٣٤١.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الإنسانية ما روي عروة عن أبيه عن عائشة قالت:

دخلت علي بريرة (١) فقالت: إن أهلي كاتبوني على تسعة أواق(٢) في تسع سنين في كل سنة أوقية فأعينيني، فقلت لها: إن شاء أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة وأعتقك ويكون الولاء لي فعلت، فذكرت ذلك لأهلها فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم، فأتتني فذكرت ذلك قالت: فانتهرتها فقالت: لا ها الله(٣) إذا قالت: فسمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فسألني فأخبرته فقال: (اشتريها واعتقيها واشترطي لهم الولاء فإن الولاء(٤) لمن أعتق) ففعلت فقالت: ثم خطب رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عشية فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: (أما بعد فما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله. عز وجل. فهو باطل وإن كان مائة شرط، كتاب الله الحق وشرط الله أوثق، ما بال رجال منكم يقول أحدهم: اعتق فلانا والولاء لي، إنما الولاء لمن أعتق. [٥]

أنتهج النبي- صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث نهجا مهذبا شبيها بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴿١﴾ ﴾[٦] وذلك بطريقة من طرق حواره مع الصحابة، اعتمدت على التعريض بمن يحيد عن الحق دون وعي ومعرفة بكتاب الله تعالى دون تصريح بذكر اسمه، وهذه طريقة لها تأثيرها

---

(١) ذكرها العيني فقال: "بريرة هي بنت صفوان كانت لقوم من الأنصار أو مولاة لأبي أحمد بن جحش وقيل مولاة لبعض بني هلال وكانت قبطية وقال الكرماني: بريرة مولاة لعائشة كانت لعتبة بن أبي لهب، قلت ذكرها الذهبي في الصحابيات وقال يقال إن عبد الملك بن مروان سمع منها. "عمدة القارئ للعيني ٣/٤٩٤.

(٢) الأوقية: زنة سبعة مثاقيل، وزنة أربعين درهما، قال الأزهري: اللغة أوقية، وجمعها أواقي وأواق. "لسان العرب لابن منظور ١٥/٢٦٧ حرف الواو.

(٣) نقل العيني عن المازني في معنى هذا قوله" هذان لحنان وصوابه (لا ها الله ذا) بالقصر في (ها) وحذف الألف من (إذا) وما سواه خطأ ومعناه: ذا يميني ومعناه (لا والله هذا ما أقسم به) فأدخل اسم الله تعالى بين (ها) و (ذا) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١١٣.

(٤) ولاء العتق: هو إذا مات المعتق ورثه معتقه، وكانت العرب تبيعه وتهبه فنهي عنه. "النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٨٨١. باب الواو مع اللام.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١١٣.

(٦) نزلت في الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة حينما علم بغزو النبي لأهل مكة فأراد تحذيرهم خشية على أهله وليس نفاقا منه لذا أنزلت توبيخا له على فعله ولذا لم يذكر الله تعالى اسمه في القرآن بل عرض به. والآية(١) من سورة الممتحنة.

النفسي في سلوكهم ، فليس الغرض من التوجيه التشهير بالبعض بين الصحابة ؛ لأنه لو فعل لأحسوا بالخجل من الناس، والضعة بينهم ، وربما وجدوا في نفوسهم بغضا وكرها ؛ لذلك أدرك ما قد يترتب عليها من نتيجة سلبية فحذرهم من سوء فعلهم ، وقبيح تصرفهم فكنى عنهم ضمنا حتى ينتهي من قصده النبي- صلى الله عليه وسلم- بالكلام، ويحذر من سمع ممن لم يفعله فلا يقدم عليه.

وهي طريقة قلَّ تعامل الناس- اليوم- بها، فلو فعلوها لأراحوا غيرهم من الإحساس بالإهانة والتجريح في أوساط الجماعة كما أخبر الشاعر[1]:

تعمدني بنصحك في انفـرادي وجنبني النصيحة في الجماعـة

فإن النصح بين الناس نـــوع مـــن التوبيخ لا أرضى استماعه

والحديث انطوى على حوارين: أحدهما ما كان بين عائشة ومولاتها بريرة حين أخذت بريرة تراجعها في قضية الولاء ، وانتهت تلك المراجعة بعدم التوافق ونهر عائشة- رضي الله عنها- لها؛ لأن ما ذكرته بريرة عن أهلها كان مسببا لنهر عائشة لها[2]، والحوار الآخر جرى بين عائشة – رضي الله عنها- والنبي- صلى الله عليه وسلم- وترتب على هذا الحوار تقديم النبي- صلى الله عليه وسلم- خطبة وعظ فيها هؤلاء الصحابة الذين هم أهل بريرة، فألقاها على مسامع الصحابة تعريضا بهؤلاء ، وتخلل الخطبة الترهيب والزجر عن الحكم بشيء دون الرجوع إلى كتاب الله ، أو حكم ليس في كتاب الله ، فحواره هنا إذن خلا من الجفاء والغلظة التي صدرتا من عائشة نحو بريرة، وإن كان الزجر عن أمر عظيم لا يخلو عادة من إبداء مثل ما ابدته عائشة- رضي الله عنها- لكن شتان ما بين فعلها وفعل النبي الكريم؛ فإنه زجر ونهى لكن بطريقة فيها سمو ورقي، وفن في التعامل مع الآخرين.

وعند الوقوف على الخصائص البلاغية التي يحملها الحديث في ثناياه تتجلى واضحة وأحاول إبرازها فيما يلي:

---

(١) ديون الشافعي، ص٥٦، تعليق محمد عفيف الزغبي، دار المطبوعات الحديثة جدة- الطائف، ط٦، ص١٤١١هـ ١٩٩١م.

(٢) يقول الراغب في معنى نهر: "النهر والانتهار الزجر بمغالطة يقال نهره وانتهره ومنه قوله تعالى (وأما السائل فلا تنهر) سورة الضحى آية (١٠)" المفردات في غريب القرآن ص٥٠٧. كتاب النون.

البراعة في اختيار هذه الكلمة (كتاب الله) دون (القرآن) والمعنى يكمن في تأليفها مع غيرها في نظم واحد متسق ؛ لأن لفظ (كتاب الله) يعني حكم الله كما ذكر ابن الأثير في النهاية "في حديث بريرة (من اشترط شرطا ليس في كتاب الله) أي: ليس في حكمه، ولا على موجب قضاء كتابه ؛ لأن كتاب الله أمر بطاعة الرسول وأعلم أن سنته بيان له، وقد جعل الرسول الولاء لمن أعتق لا أن الولاء مذكور في القرآن نصا."[1] فتناول لفظ (كتاب الله) يرد في لفظ (القرآن)- لأن القرآن كما ذكره ابن الأثير: "كل شيء جمعته فقد قرأته وسمي القرآن قرآنا ؛ لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض."[2]

ولو تأمل المتذوق علة إلقاء الخبر مؤكدا كما هو في قول بريرة تخاطب عائشة: "إن أهلي كاتبوني على تسعة أوراق.." لوجدها تكمن في تنزيل بريرة السيدة عائشة منزلة من لديه شك في قولها، وتطلب من أجل ذلك توضيحا ؛ ولذا حسن توكيده بمؤكد واحد هو (إن)، ومثله توكيد النبي- صلى الله عليه وسلم- في قوله لعائشة: (فإن الولاء لمن أعتق).

وقد خرج الأمر عن معناه الذي وضع له حقيقة وذلك في قوله- صلى الله عليه وسلم- (اشتريها واعتقيها) إلى معنى التوجيه والترغيب، والحث على الأمر، أما ما أعقب ذلك من أمر بعده (واشترطي الولاء لهم) جاء الخبر بعده مؤكدا بـ (إن) في قوله: (فإن الولاء لمن أعتق) لتأكيد السبب في العتق وهو كون الولاء للمعتق، وفي جملة الأمر المفيد للتوجيه وسببه إيماء إلى فساد ما اشترطه أهل بريرة، وقد استدعى ذلك الإنكار الذي حملته خطبته- صلى الله عليه وسلم- .

والاستفهام أيضاً في قوله (ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله؟) خرج عن مقتضى الظاهر إلى معنى التوبيخ والنهي، وليس يخفى على المتذوق سبب إطلاق النبي- صلى الله عليه وسلم- الفعل المضارع (يشترطون) دون (اشترطوا) مع أن الذي صدر منهم كان ماضيا، لكنه- صلى الله عليه وسلم- أراد استحضار صورة هؤلاء في نفوس الصحابة، وما هم عليه من خطأ في اشتراط ما لا يجوز اشتراطه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٥٢٠ باب الكاف مع الهمزة.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٢٩ باب القاف مع الراء. وينظر النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د/ محمد عبد الله دراز اعتنى بتخريج أحاديثه/عبد الحميد الدخاخني ص٥، دار طيبة الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ط٢، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م.

ولينظر القارئ المتذوق إلى المسند إليه وما فيه من بلاغة تكمن مرة في تقديمه كما في قوله (فإن الولاء لمن أعتق) وقوله (الولاء لي)؛ فتقديمه جاء للطيفة بلاغية هي الاهتمام بشأنه بذكره أولا؛ لأن الشرط لا يتحقق إلا به. ولينظر إليه مرة أخرى ليجده يذكر وهو ضمير في قوله- صلى الله عليه وسلم- (ما كان من شرط ليس في كتاب الله- عز وجل- فهو باطل) في (هو باطل) وليس ذكره إلا لبيان التأكيد على بطلان هذا الشرط؛ لأنه لم يصدر عن كتاب الله تعالى. و كذلك الإيجاز بالحذف في قوله (وإن كان مائة شرط) أي: وإن كان مائة شرط فهي باطلة؛ إذ الحذف هنا جملة جواب الشرط وليس المسند؛ وحذفت للدلالة عليه آنفا في قوله- صلى الله عليه وسلم-: (فهو باطل).

ولا يخفى دلالة اسم التفصيل في نظم الكلام في (أوثق) فهو- كما هو معروف في علم النحو- فميثاق الله لا يضاهيه ميثاق.

أما التعريف في هذه الألفاظ (الولاء، الحق، كتاب الله، شرط الله، أهلي) فالتعريف في (الولاء) للعهد العلمي، فالصحابة يدركون حقيقة الولاء، ومثله التعريف في (الحق)، والتعريف بالإضافة في (كتاب الله، شرط الله)؛ فالإضافة إلى لفظ الجلالة (الله) للتعظيم والتشريف من شأن المضاف بإضافته إلى لفظ الجلالة (المضاف إليه). أما إضافة الأهل إلى ياء المتكلم (بريرة) فهو لتكتسب هي الشرف بنسبتها إليهم؛ لأنهم هم من يتولى أمرها، وقد يكون في إطلاق الأهل عليهم إطلاقا مجازيا وليس ذلك على وجه الحقيقة وهو كما ذكر آنفا؛ لبيان الشرف بنسبتها إليهم. أما تنكير (أقوام، رجال) فقصد به بعض الرجال أو بعض من الأقوام والدليل على هذا إتيان (من) في قوله (رجال منكم) فهي تبعيضية. وتنكير (شروطا) جاء لتعظيم خطورتها؛ لأنها باطلة بدليل قوله- صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك: (ما كان من شرط فهو باطل) وليس الأمر كذلك فحسب بل إنه- صلى الله عليه وسلم- قد جمع الشرط الذي اشترطوه في (شروط) مبالغة فيه. وتنكير (فلانا) لبيان أنه أصبح فردا يمكن تعيينه فيتصور الصحابة حاله كلا حسب خياله وتأملاته.

وبعد، فإن القارئ سيلاحظ التكرار المعنوي في قوله- صلى الله عليه وسلم- (ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله، ما بال رجال منكم يقول أحدهم اعتق فلانا والولاء لي) ولا يخفى على أحد سبب التكرار في كلتا الجملتين فهو لتأكيد المعنى في النفس، فعندما يتأكد يستقر في الوجدان فلا يزول عن الخاطر.

وقد يتساءل لم جاءت الجملة مؤكدة بـ (إن) مرة ومؤكدة بأسلوب القصر (إنما) مرة أخرى؟ والجواب هو أن التأكيد بأسلوب القصر، ليؤازر التأكيد بأن في كون سبب التوجيه إلى العتق هو كون الولاء لمن أعتق، لتأكيد سبب الأمر بالعتق عن طريق القصر بـ (إنما) وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف؛ قصر صفة (الولاء) على الموصوف (من أعتق) فالولاء لمن أعتق وليس لأحد غيره، فأثبت أولا الولاء، ثم نفى ثانيا الولاء لأحد غيره.

وعند النظر إلى جمل الحديث يلاحظ الوصل بين الجمل كما في عطف جملة (وإن كان مائة شرط) على جملة (ما كان من شرط ليس في كتاب الله- عز وجل- فهو باطل)؛ فالثانية معناها كثرة الشروط ، والأولى معناها بطلان الشرط، وكلتاهما خبريتان لفظاً ومعنى، وبينهما التناسب في البطلان وهما معاً لتأكيد معنى الترهيب في نفوس الصحابة.

ومن بديع هذا الحديث ما يحسه القارئ بذوقه ، أو يشاهده بعينه في أسلوب التعريض الذي أورده النبي- صلى الله عليه وسلم- ضمنا في كلامه في قوله (ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله؟) (ما بال رجال منكم يقول أحدهم أعتق فلانا والولاء لي؟) فهو تعريض[1] بأناس معنيين على وجه الخصوص، وتحذير لكل الحاضرين على وجه العموم، دون أن يفضح هؤلاء المعنيين أمام الحاضرين فيشتهرون بينهم، وهذا من أدب حواره- صلى الله عليه وسلم- مع صحابته ومن دواعي حكمته في تهذيب النفوس تلميحا. وقد يكون هذا تجريدا[2]؛ وكأنه- صلى الله عليه وسلم- جرد من هؤلاء أناسا من شأنهم أنهم يفعلون كذا أو يقول بعضهم لبعض: "اعتق فلانا والولاء لي" أو قد يرى هذا من تجاهل العارف[3] فحين يسأل عنهم وهو عالم بحالهم قصد من كل ذلك ـ أعني أسلوبي التجريد وتجاهل العارف ـ توبيخهم حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك.

---

(١) التعريض:" هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ٣/٥٦.

(٢) التجريد:" هو إخلاص الخطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه لأن أصله في وضع اللغة من(جردت السيف) إذا نزعته من غمده، و(جردت فلانا) إذا نزعت ثيابه". المصدر نفسه ٢/١٢٨.

(٣) تجاهل العارف: "هو سوق المعلوم مساق غيره لنكتة" مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب السكاكي ص٤٢٧ وينظر البديع في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين ص٧٩، دار المعارف بمصر ط٥، ١٩٩٧م.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع زوجاته حول العلاقات الإنسانية ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت:

لما مرض النبي- صلى الله عليه وسلم- مرضه الذي مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: (مروا أبا بكر فليصل). قلت: إن أبا بكر رجل أسيف إن يقم مقامك يبك فلا يقدر على القراءة، قال (مروا أبا بكر فليصل). فقلت مثله، فقال في الثالثة أو الرابعة :(إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل). فصلى وخرج النبي- صلى الله عليه وسلم- يتهادى بين رجلين كأني أنظر إليه يخط برجليه الأرض، فلما رآه أبو بكر ذهب يتأخرفأشار إليه (أن صل) فتأخر أبو بكر. رضي الله عنه. وقعد النبي- صلى الله عليه وسلم- إلى جنبه وأبو بكر يسمع الناس التكبير.[1] .

ساقت عائشة- رضي الله عنها- هذا الحديث بتمهيد بسيط بيّن حال النبي- صلى الله عليه وسلم- قبل وفاته ؛ فقد كان حريصاً على حضور جماعة المسلمين ، كما دل الحديث على توطيد العلاقة فيما بينه وبين أبي بكر- رضي الله عنه- وأمره أبا بكر بالصلاة بالمسلمين نيابة عنه يوحي بعظم مكانته في نفس الرسول- صلى الله عليه وسلم- ، والعهد له بالخلافة من بعده فهو أهل لها.

كما تدرج الحوار من اللين إلى أن بلغ مبلغ الشدة، وهذا ظاهر من نبرته- صلى الله عليه وسلم- حينما غضب من عائشة فقال (إنكن صواحب يوسف)، كما امتاز بقوة الألفاظ، وجزالتها ووضوحها.

أما ما يضفي عليه جمالاً ما فيه من الخصائص البلاغية المتمثلة فيما يلي:

في قول عائشة- رضي الله عنها- (إن أبا بكر رجل أسيف) حين رأت النبي- صلى الله عليه وسلم- ينيبه عنه في الصلاة بالمسلمين تعني أنه رقيق القلب، لا يملك نفسه عند قراءة القرآن، ولو رأى مكان النبي- صلى الله عليه وسلم- خالياً سيزداد تأثراً، ويجهش بالبكاء؛ ولذا عبرت بصيغة المبالغة (أسيف) أي: أنه رجل حاله أنه رهيف الحس، رحيم الفؤاد ، كما أن مجيء (إن) في قوله (إن يقم مقامك) على جهة اليقين وإن كانت لا ترد عادة إلا للشك في حدوث الشيء إيماء إلى أنه ينبغي أن لا يحدث بتنزيل المؤكد حدوثه منزلة المشكوك في حدوثه نظراً لحاله وما هو عليه من الرقة البالغة وهذه الفاء في قوله (فلا يقدر

---

(١) صحيح البخاري ٢٢٠/١.

على...) واقعة في جواب الشرط ؛ لأنه منفي بلا. وعرّف (القرآن) بـ (أل) للعهد العلمي لأن حقيقته معروفة.

وإذا نظر المتذوق إلى بلاغة النبي - صلى الله عليه وسلم - للفت انتباهه إيجاز الحذف في قوله (مروا أبا بكر فليصل) وتقديره: مروه بالصلاة فليصل بالناس ، وحذف لضيق المقام إذ المقام مقام تعب وشدة لما يجده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ألم المرض.

ولما كان كذلك كانت عائشة تلح عليه بأن يؤم غيره ، وراجعته مرات حتى أنكرعليها ذلك بقوله(إنكن صواحب يوسف) فأكد الخبر بـ (إن) لما رأى من حرصها على أن يكون غيره هو من يصلي بالناس كعمر، فأنزلها منزلة من تشك في حقيقة الأمر مع وضوحه وكأنها لا تعرف شدة تفضيله لأبي بكر وحبه له .

كما أن (صواحب) ومجيئها على صيغة منتهى الجموع يومئ بالمبالغة في الزجر إذ المخاطب عائشة وليس غيرها ولكن جاءت على وجه التغليب ؛ فقصد بالخبر عائشة ومن معها حتى تكف عن ذلك ويكون هذا درساً للأخريات ، كما أن في الجملتين كمال انقطاع ؛ لأن الأولى خبرية، والثانية إنشائية جيء بها للأمر، فكان لابد من الفصل بينهما.

وقوله (إنكن صواحب يوسف) تشبيه ؛ شبه فيه أم المؤمنين عائشة ومن معها بصواحب يوسف تشبيهاً مؤكداً بحذف الأداة والوجه وهو ما يسميه أهل العلم بالتشبيه البليغ ، وفي هذا التشبيه تعريض باللؤم ومجاوزة الحق توصلاً إلى غرض خبيث ، وأُدخل على هذا التشبيه المؤكد تأكيد آخر وهو (إن) وهذا تعبير عن شدة غضبه من صنيعهن فكأنهن مثل صواحب يوسف في إبداء ما هو غير صحيح على جهة الحيلة والمكر ، فعائشة تريد غير أبي بكر يؤم الناس خشية أن يتشاءموا منه إذا لم يروا النبي - صلى الله عليه وسلم - وليس الأمر كما قالت صراحة من أنه رجل أسيف ، رقيق الفؤاد، وبذلك اختصر الكلام في معاني كثيرة ، لها أثرها في نفوس أمهات المؤمنين خاصة عائشة - رضي الله عنها - .

الفصل الثالث

حواره صلى الله عليه وسلم
مع الطارئين على المدينة

وفيه ثلاثة مباحث:

- حواره مع الملائكة.
- حواره مع الوفود.
- حواره مع الأعراب.

حواره صلى الله عليه وسلم مع الملائكة

حاور النبي - صلى الله عليه وسلم - الملائكة ، ومحتوى هذا الحوار قائم على غرض نبيل يتمثل في بيان معنى الإيمان وما ينبني عليه من سلوك إنساني رفيع ، وكان حواره مع الملائكة هادئاً ، رزينا ، يخاطب العقل ، ويدعو إلى الحكمة. وفيما يلي بيان لبعض حواراته معهم التي يتجلى منها الحكمة والبيان البليغ.

من حواره- صلى الله عليه وسلم- مع الملائكة ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

بينا نحن عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال : (الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.) قال : صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان. قال : (إن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.) قال : صدقت. قال : فأخبرني عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.) قال : فأخبرني عن الساعة قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل.) قال : فأخبرني عن أماراتها. قال : (أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان.) قال : ثم انطلق ، فلبثت ملياً ، ثم قال لي : (يا عمر ، أتدري من السائل؟) قلت : الله ورسوله أعلم. قال : (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.)[1] .

يخبر عمر ـ رضي الله عنه ـ عن حوار دار بين النبي- صلى الله عليه- وجبريل- عليه السلام- ووصف عمر حال الرجل الغريب الذي جاء يسأل النبي الكريم عن أمور بعضها يتصل بعقيدتهم وعباداتهم ، وبعضها يتصل بأمور غيبية لا يعلمها إلا الله وحده.

وهو مثال حي لتعليم الصحابة بأسلوب يقوم على المشاهدة الحية ، بعيداً عن الأمر المعنوي الذي يعتمد على العقل وحده ، والحوار بما فيه من ترقي الأحداث زاد من إيقاظ شعورهم لاسيما أن المحاور مثير للاهتمام ؛ فهو مع كونه غير معروف لهم لا يبدو عليه آثار السفر ، كما أن حواره مثير للاستغراب ؛ إذ هو يسأل ويصدق المسئول فيما يجيب به ، وقد كان من وراء الحوار قصد نبيل هو تعليم الصحابة بأسلوب مشاهد يرونه بأعينهم ، ويكون محط اهتمامهم ، فيتابعون ما يجري. يقول أحد الباحثين : "قد يكون الهدف من الحوار تحقيق أهداف مشروعة يمكن تحقيقها عن طريق الحوار كتعليم السامعين ، كما في حوار جبريل مع النبي عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة بهدف تعليم الصحابة ولذلك قال- صلى الله عليه وسلم- في آخر الحديث (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.)"[2] وقد كان استغراب الصحابة موجباً للاهتمام بشأن السائل ، واستشرافهم لمعرفة خبره ؛ لأنه جاءهم بهيئة غريبة

---

(١) رواه مسلم مشكاة المصابيح ١/٩

(٢) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، إعداد: يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي ص٤٦، ٤٧.

كما يقول أحد الباحثين : "الحكمة في مجيء جبريل - عليه السلام - بهذه الهيئة الحسنة من شدة بياض الثياب ، وشدة سواد الشعر المستغربة من جهة أنه مع وجاهته غير معروف لهم ، وليس عليه آثار السفر ؛ ليعظم اتجاههم إليه ، وإصغاؤهم لما يقول ويقال له ؛ فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم ، وأعظم تطلعاً للأمر المستغرب ، وبذلك يتمكن من نفوسهم ما يدور بينهما - عليهما الصلاة والسلام - من سؤال وجواب."[1]. ولما أخبر عمر بحقيقة السائل زالت عنه وعن الصحابة تلك التساؤلات. فكان ذلك أدعى إلى التعليم الصحيح بطريقة نبوية حكيمة. كما يقول أحد الباحثين : "ثبت من هذا كله أن أسلوب الحوار من أساليب التربية الإسلامية ، ليقتدي المعلمون والمربون بهذا الأسلوب في حياتهم التعليمية والتربوية. [2]"

وبالالتفات للنواحي البلاغية في هذا الحديث فإنها تتجلى فيما يلي :

التعريف في (الإسلام ، الصلاة ، الزكاة ، البيت ، الإيمان ، واليوم الآخر ، القدر ، الإحسان ، الساعة ، الأمة ، الحفاة العراة العالة ، البنيان ، السائل) فكلها معرفة بـ (أل) ؛ وذلك لعلم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بحقيقة كل منها. أما التنكير في (سبيلاً) لتصور تلك الطرق الكثيرة التي تمكنه من الحج إذا تيسرت له.

والحذف بالإيجاز يكمن في قوله (حج البيت ، تصوم رمضان ، متى الساعة؟) بمعنى : تحج البيت الحرام ، وتصوم شهر رمضان ، ومتى تقوم الساعة؟ ؛ وحذف ذلك لأن الصحابة لا يحتاجون إلى إبانته لأنهم يعلمونه فيردونه إلى ما هو إليه.

وجميع الأفعال الواردة في الحديث الشريف مضارعة تعطي الصحابة كثيراً من التخيلات والصور المشاهدة حيناً بعد حين ، فلا تغيب عن عقولهم ووجدانهم.

وفي نداء جبريل للنبي - صلى الله عليه وسلم - بـ(يا محمد) مع أنه قريب منه وقد (أسند ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه) جذب لانتباه الصحابة إليه ؛ فالمقام مقام تعليم ؛ لذا وجب الانتباه والإنصات ؛ ولأن في نداء النبي الكريم بهذه الصورة تعظيما لشأنه - صلى الله عليه وسلم - وذلك لتنزيله منزلة البعيد ، فنزل بعد المكانة منزلة بعد المكان ، والقرينة الدالة على ذلك قربه منه حتى إنه أسند ركبتيه إلى ركبتيه ، أما في نداء النبي - صلى الله عليه

---

(١) من روائع الأدب النبوي، د/ كامل سلامة الدقس،٢٠٢، دار الشروق، جدة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، تأليف: عبد الرحمن النحلاوي،٨٥، دار الفكر، المطبعة العلمية، بدمشق، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

وسلم- لعمر بقوله (ياعمر) مع أنه كان مصاحباً للنبي الكريم فهو دليل على حرص النبي على لفت انتباه الصحابة وتعليمهم ما يجهلونه من أمور دينهم. وفي تأكيد الخبر لعمر في قوله: (إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) علة بلاغية؛ فعمر ومن معه من الصحابة- رضي الله عنهم- لما لم يعرفوا الرجل السائل كانوا في مثابة من يسأل أو يطلب توضيحا لأمره فأكد لهم ذلك بأن، وضمير الشأن، ولا يخفى أن ضمير الشأن يدل على أهمية الخبر.

وللتقديم أيضاً أسرار بلاغية تزيد المعنى وضوحاً وتأثيراً في نفس المتلقي كما في تقديم الإسلام على الإيمان؛ لأن الإسلام هو الأساس وبعده يكون الإيمان؛ فأول أمر الرجل أن يدخل في الإسلام وينطق بالشهادة وبعده يؤمن ويكلف بالعبادة، يقول العسقلاني: "بدأ بالإسلام لأنه بالأمر الظاهر، وثنى بالإيمان لأنه بالأمر الباطن."[1]

وفي ذكر المسند إليه في (الإسلام) في جواب النبي الكريم عن سؤال جبريل دليل على العناية بشأنه، والاهتمام بما يتعلق به من أمور. ومثله ذكر المسند في (تؤمن بالقدر).

ومن ذكر الخاص بعد العام ما جاء في بداية الحديث في (الإسلام: أن تشهد أن لا...)؛ ذكر الإسلام على سبيل الإجمال، ثم بدأ بتفصيل ما يترتب عليه من عبادات لا تكون إلا بأفعال العباد، وفي التفصيل آثر التعبير بالمضارع (تشهد، تقيم، تصوم) وضمير الشأن؛ لإفادة الحدوث والتجدد على نحو يؤدي إلى الاستمرار؛ فإن الشهادة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم يلزم حدوثها على نحو ما هو مطلوب شرعاً، أما الحج فإنه يتجدد بتجدد من يفرض عليه من المسلمين، ولو أجيب بالاسم فقيل: شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة... الخ، لم يفد هذا التجدد الاستمرارية؛ لأن الاسم خال من دلالة الزمن المفيدة للتجدد، يقول الإمام ابن حجر" فإن قيل السؤال عام لأنه سأله عن ماهية الإسلام، والجواب خاص لقوله أن تعبد أو تشهد، وكذا قال في الإيمان أن تؤمن وفي الإحسان أن تعبد، والجواب أن ذلك لنكتة الفرق بين المصدر وبين أن تفعل؛ لأن أن تفعل تدل على الاستقبال والمصدر لا يدل على زمان."[2]

ومن الالتفات الخفي الذي لا يفطن إليه إلا الحاذق المتذوق ما هو واضح في قوله (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) فجبريل- عليه السلام- يسأل النبي الكريم ويوجه له

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ١/١٦٨، وضع حواشي الكتاب وعلق عليه: أبو عبد الله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/١٧١.

السؤال لكن النبي- صلى الله عليه وسلم- أجابه بالغائب(المسئول)دون التكلم (أنا) إذ كان ظاهر الحال يقتضي أن يقال ما أنا بأعلم بها منك ؛ لأنه يريد تقرير أن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده، ولأن الغرض من ذلك أن يتلقى الصحابة هذا الخبر بالتصديق لأول وهلة ؛ فهم المعنيون بالتعليم في هذا الحوار، قال القرطبي: "مقصود هذا السؤال كف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة ؛ لأنهم قد أكثروا السؤال عنها ، فلما حصل الجواب بما ذكر هنا حصل اليأس من معرفتها ، بخلاف الأسئلة الماضية ؛ فإن المراد بها استخراج الأجوبة ليتعلمها السامعون ويعملوا بها.[1]"

وفي قوله (أن تلد الأمة ربتها) مجاز لغوي في كلمة (ربتها) ؛ لأن معنى ذلك كما جاء في فتح الباري: "أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام. فأطلق عليه ربها مجازاً[2]. أو المراد بالرب المربِّى فيكون حقيقة وهذا أوجه الأوجه لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون ـ مع كونها تدل على فساد الأحوال ـ مستغربة ومحصلة الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربَّى مربياً، والسافل عالياً وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى." [3].

وفي الحديث وصل بين جملتين واقعتين موقع المفرد في قوله (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ؛ فالثانية مشتركة مع الأولى في الحكم لذا كان الوصل بينهما. وكذلك قد وصلت جملة (أن ترى الحفاة...) بجملة (أن تلد الأمة ربتها) ؛ لتشريكها معها في الحكم الإعرابي ؛ ذلك أن جملة (أن تلد الأمة ربتها) خبر مبتدأ محذوف على تقدير: هي تلد...الخ أو مبتدأ والخبر محذوف على تقدير: من أماراتها أن تلد...الخ، ومن ثم عطف جملة (وأن ترى الحفاة..الخ) عليها لغرض تشريكها في هذا الحكم.

وفي قوله (ترى الحفاة...يتطاولون في البنيان) كناية عن الانهماك في الدنيا ؛ لكثرة المال في أيديهم، فيتنافسون في مباهج الحياة وزينتها، وينسون الآخرة وما فيها من حساب ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، أو كما يقول أحد الباحثين: "هذا كناية عن انقلاب الحال

---

(١) المرجع السابق ١/١٧٣.

(٢) المراد بالمجاز: الاستعارة التصريحية الأصلية؛ حيث شبهت الابنة بالسيدة في الانقياد لهما والطاعة لأمرهما ثم استعيرت كلمة (ربة) للابنة، والقرينة (تلد) فالتي تولد ابنة وليست ربة.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٧٥ ٥/١٧٦.

وانتقـال الأمـر والسـيادة إلى رعـاع النـاس ، فيصـبحون هـم السـادة، فيتطـاولون في البنيـان، ويتباهون به، ويلزم هذا انخفاض أعالي الناس ورءوسهم كما قال القائل: [١]

وكذا الدهر إذا ما عز ناس ذل ناس

وقيل هذا كناية عن تفتح كنوز الأرض واتساع خيراتها حتى تعم الثروة كافة النـاس فيتطاول الحفاة العراة في البنيان ، وينغمسون في البذخ والترف." [٢]

---

(١) ديوان ابن زيدون، ص١١٧، شرح وتعليق: عمر فاروق الطباع، دار القلم، دمشق للطباعة والنشر، د.ت.

(٢) من روائع الأدب النبوي، د/كامل سلامة الدقس،٢٢١.

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع الملائكة ما رواه عروة أن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي صلى الله عليه وسلم- حدثته أنها قالت للنبي- صلى الله عليه وسلم- :

"هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟" قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (١) فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين(٢)؟ فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.) [٣]

يروى النبي- صلى الله عليه وسلم- حادثة وقعت له أثناء دعوته إلى الإسلام ، بدأها بتمهيد استقطب به مشاعر زوجه عائشة- رضي الله عنها- فأصغت إلى ما يقول بشغف وترقب ، وأول العقدة في هذه القصة كانت بصدود عبد ياليل عنه وهم أشراف أهل الطائف وردهم عليه أقبح رد حتى بلغ به الأمر ما بلغ ، واشتد كربه - صلى الله عليه وسلم- فمضى هائماً على وجهه وقد ضاقت به الأرض بما رحبت ، وبينما هو كذلك أتاه جبريل ، وأخبره بأن معه ملك الجبال، جاء لنصرته ، ومن هنا تتابعت أحداث القصة فوصلت فيما بعد إلى نهاية تترك في نفس السيدة عائشة أثراً بليغاً يتجلى في تربية النفس على كثير من القيم الإنسانية النبيلة والخصال الجليلة مثل كظم الغيظ ، والصبر وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة؛ ولأن المحاور إذا لم يقبل الطرف الآخر وجهة نظره فعليه بالصبر والحلم، والمحاولة تلو المحاولة ليصل معه إلى نقطة التقاء واتفاق[٤] وهذا ما فعله النبي حين رفض القوم الإصغاء إليه وآذوه، لكنه- صلى الله عليه وسلم- تجلد، فلما سخر الله له من ينصره وهو ملك الجبال قال قولته المشهورة التي تدل على رفقه ورحمته بهم على الرغم من أنهم عاملوه معاملة سيئة ، ممتثلاً قول الله- ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾[٥].

---

(١) قرن الثعالب: "يسمى بقرن المنازل وهو اسم موضع يحرم منه أهل نجد." النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٤٨/٢.

(٢) الأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة ، وهما: أبو قبيس، والأحمر. "لسان العرب لابن منظور باب الخاء المعجمة ص٧٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٩٩٧/٢- ٩٩٨.

(٤) ينظر الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، إعداد/يحيي بن محمد زمزمي ١٨٢.

(٥) سورة الأعراف آية (١٩٩).

وهذه ألفاظ الحوار بين يدي القارئ وأمام عينيه يعرف معناها دون أن يكلفه ذلك أي عناء ، وقد أفصحت عن طبيعة الحوار في هذا الحديث ؛ فهو حوار هادئ كان مع النبي- صلى الله عليه وسلم- وملكين من الملائكة هما جبريل وملك الجبال- عليهما السلام- وأفصح الحوار عن نفس النبي الرحيمة و تجلى ذلك في قوله : (بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.).

أما عندما تقع عينا القارئ المتذوق على أسرار الحديث البلاغية فإنه سوف يكشف عن تلك الدرر المكنونة التي تظهر فيما يلي :

الإيجاز بالحذف في بعض الألفاظ كما في قوله (فنظرت فإذا فيها جبريل) وتقدير المحذوف : فإذا فيها جبريل قائم أو ماثل ونحو ذلك ؛ فحذف المسند لوجود (إذا) الفجائية وهي هنا تدل على الحال ، ليستحضر النبي الكريم تلك الحالة البشعة التي لا يزال يذكرها ، فقد أوى إلى مكان يسترد فيه أنفاسه ، وقد بلغ منه الجهد والإنهاك مبلغه ، يقول الطيبي : " ووضع (إذا) التي هي للاستقبال موضع (إذ) استحضاراً لتلك الحالة الفظيعة[1]".

وكذلك الحذف في قوله (إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين) وتقدير المحذوف : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (فعلت) ذلك ؛ فحذفت الجملة الفعلية وهي جواب الشرط ؛ والحذف في هذه الجملة للإيجاز ، ونظيره الحذف في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ ﴿٣١﴾﴾[2]. أي لكان هذا القرآن يقول الزمخشري : "في قوله (ولو أن قرآنا) جوابه محذوف كما تقول لغلامك : لو أني قمت إليك ، وتترك الجواب ، والمعنى (لو أن قرآنا سيرت به الجبال) عن مقارها وزعزعت عن مضاجعها ، (أو قطعت به الأرض) حتى تتصدع وتتزايل قطعا ، (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن ، لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف." [3].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢٧٢٧/١٢.

(٢) سورة الرعد آية (٣١)

(٣) الكشاف للزمخشري ٣٦٠/٢.

وقد ذكر المسند إليه بلفظ الجلالة (الله) في قول جبريل (وقد بعث الله إليك) ومثله في قوله- صلى الله عليه وسلم- (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم) لما يوحى به من الملك والسيادة، والقهر والتدبير، وفي هذا الإيماء بعث للراحة، وتسرية للرسول- صلى الله عليه وسلم- فهو سبحانه لم يتخل عنه في هذه الحال الحرجة ، كما أن فيه إيماء إلى الأصل في نشر الإسلام الذي يدعوه- صلى الله عليه وسلم- إلى الحلم.

والتعريف يكمن في بعض الألفاظ مثل: (جبريل، ملك الجبال، الأخشبين، محمد)؛ فآثر لفظ جبريل لما فيه من إيماء إلى قوته التي ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[1] والتنويه يقتضيه الموقف، ولاقتضاء الموقف التنويه بالقوة في مقام التفويض إليه- صلى الله عليه وسلم- بعقاب من آذوه عبر بلفظ (ملك الجبال) دون ذكر اسم هذا الملك الذي هو علم يدل على مثل (جبريل) ونداء ملك الجبال لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- باسمه الذي هو علم (محمد) دون وصفه بالرسالة، لما في هذا العلم من الإيماء بأنه خليقا بالحمد لما هو كائن منه من سلوك، وفي تعريف الأخشبين إشارة إلى شيء معروف في عهد النبي- صلى الله عليه وسلم- . أما التنكير في (سحابة) يعطي في نفس السيدة عائشة- رضي الله عنها- تصوراً بعيداً عن هذه السحابة فقد تكون سحابة عظيمة أظلت النبي- صلى الله عليه وسلم- وقد تكون سحابة قريبة منه- صلى الله عليه وسلم- وكذلك تنكير (شيئاً) تعطي نفس التصور؛ أي: لا يشرك مع الله أي شيء من الأصنام أو الطواغيت وأشباه ذلك.

وفي قوله (لقد لقيت من قومك ما لقيت) عرف المفعول به بالاسم الموصول (ما)؛ لما فيه من الإبهام، والغرض من هذا الإبهام التهويل لما لقيه من العناء من كفار قريش، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾[2] ثم بين في قوله (وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل..)، ليلفت انتباه السيدة عائشة إلى ما يقول أولاً، فحين يذكر بعد ذلك ما يبينه كأنه جعل ما

---

(١) سورة التكوير، الآية:٢٠.

(٢) سورة طه آية (٧٨) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٢/١٥.

يعقب ذلك من أهم ما لقي ليخصه بالاهتمام، فيزيد وقعه في نفس زوجه السيدة عائشة- رضي الله عنها- . وفي هذا التعبير عموم، ثم خص النبي الكريم من هذا العناء الهائل ما لقيه ليلة العقبة.

ومن التأكيد المكثف الذي زاد المعنى جلاء وتأكيداً في قوله: (إن الله قد سمع...) حيث أكد الخبر"بإن" و"قد" والفعل الماضي "سمع"؛ والعلة في مجيء الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد لأن النبي لما خاب ظنه في قومه وأحس باليأس ، وكان حاله حال من ظن أنه سينصر ، ويستجيب له لكن حدث ما لم يتوقعه ، فكان في تأكيد الخبر ما يطمئن قلبه بأن الله تعالى وملائكته معه، ولذا كان فيه جبر لخاطر الرسول- صلى الله عليه وسلم- .

والمقصود بالنداء الثاني للنبي- صلى الله عليه وسلم- تنبيه على أمر خطير وهو تعجيل العذاب لقومه الذين آذوه ، وقد ارتبط مصيرهم بمشيئة النبي الكريم إن أراد أن يطبق ملك الجبال عليهم الأخشبين فعل، وإن لم يشأ ذلك كان الأمر مفوضا إليه كما صرح بذلك ملك الجبال؛ لذا ناداه مرة أخرى ليؤكد على الأمر فقال: (ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق ...).

ولفظ (مهموم) على أصله والمراد: يملأني الهم فهو مهموم أي: مكروب شديد الحزن وقوله (انطلقت..) ففيه كناية عن الحيرة، وعدم الاهتداء إلى ما يلزم فعله، أو المسير إليه ولذلك فسره الطيبي بقوله (هائما) والهائم الحائر الذي لا يدري أين يتوجه وكأنه مغطي على عقله، وهذا ما يدل عليه قوله- صلى الله عليه وسلم- : فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب) وفي لفظ (استفق) ما يدل على التلبس بالإفاقة بعد أن كانت معدومة ، ولهذا كان الفرق واضحاً بين المهموم المحزون والهائم الحائر. فليس يراد بالمهموم الهائم كما وهم بعض المؤلفين.[1]

ومن الكناية الخفية التي يجتليها المتذوق لبلاغة النبي- صلى الله عليه وسلم- إطلاق لفظ (الأخشبين) على الجبلين وذلك لصلابتهما فكنى عن هذا المعنى بالأخشبين.

---

(١) قال ذلك الطيبي في مشكاة المصابيح، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣/٣٧٢٧.

أما ما يطلع القارئ من المحسنات البديعة في هذا الحديث يظهر له الأسلوب الحكيم في قول النبي الكريم (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.) فلو كان هناك شخص غير النبي لقبل ذلك كما فعل نوح عليه السلام عندما دعا على قومه فاستجاب الله له، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1] لكن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى أن من الحكمة أن يرجئهم الله حتى يظهر فيما بعد من يعبد الله وحده ويعلي راية الحق. فالأسلوب الحكيم: هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب تنبيها إلى أن الأولى أن يفعل غير ما يفعل أو يسأل عن غير ما سأل عنه، وقد تلقى النبي - صلى الله عليه وسلم - ملك الجبال بغير ما يتوقعه، حيث كان يتوقع أن يأمره بأن يطبق عليهم الجبلين، ولكنها الرحمة التي دعته إلى أن يقول: (بل أرجو...).

---

(١) سورة نوح آية (٢٦- ٢٧).

ومن حواره- صلى الله عليه وسلم- مع الملائكة ما روي عن أبي بن كعب:

أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان عند أضاة بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال: (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك) ، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك) ، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: (أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك) ، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا.)[1].

من سماحة الدين الإسلامي أن يسر لأمة محمد تلاوة القرآن على سبعة أحرف؛ مراعاة لاختلاف اللهجات القبلية آنذاك، وقد وقع بعض الصحابة في شك في بعض القراءات المختلفة التي يسمعونها من غيرهم، كما ورد عن عمر- رضي الله عنه- قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : هكذا أنزلت ثم قال لي: فقرأت فقال: هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه.) [2]

وقد وجه النبي الكريم الصحابة- رضي الله عنهم- فيما بعد إلى أن القرآن قد أنزل على سبعة أحرف؛ حتى لا يكون هناك أي اختلاف أو تعصب لبعض اللهجات دون الأخرى، وحتى يتسنى لهم ـ كل وفق لسان قومه ـ أن ينطق القرآن بيسر، وهذه القراءات هي المتواترة عن النبي- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه.

والحوار الذي دار بين النبي الكريم وجبريل، كان هادئاً لطيفاً، فعامل جبريل النبي باللين والرفق؛ لأن الله تعالى رحيم بعباده رءوف بهم.

وبالنظر للنواحي البلاغية في هذا الحديث فهي تبرز فيما يلي:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي،٢/٤٢٤.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٢٢.

ليس في هذا الحديث لفظة ثقيلة يحتاج الناطق بها إلى تمهل ليروض لسانه على النطق بها، وليس فيه لفظة يحتاج المتلقي إلى البحث عن معناها في معاجم اللغة.

أجل. هي ألفاظ سلسلة متلائمة الحروف، واضحة المعنى، ولكن طريقة التأليف والتركيب تجعل القارئ أو السامع يتذوق في عجب حلاوتها:

ففي قول جبريل: (إن الله يأمرك) عدول عن صيغة الأمر المباشر بأن يقال: اقرأ القرآن أنت وأمتك، إلى الخبر وهذا العدول يوحي بأمرين:

الأول: تبرؤ جبريل، وتنزهه من أن يكون الأمر صادرا منه، وإن كان هو مجرد مبلغ؛ فكلمة (اقرأ) عندما تصدر منه لا يستبعد الذهن البشري من أن يسبق إليه وهم أن جبريل قد استمد من ائتمان الله له على الوحي سلطانا يؤهله إلى أن يكون آمرا من تلقاء نفسه، فكثيرا ما يحدث من رسل الملوك في الدنيا، أو الذين لهم دالة عليهم أن يجدوا لأنفسهم مساغا لأن يأمروا بما يحلوا لهم أن يأمروا، وإن لم يكن ثمة علم لمن أولوهم الثقة بما أمروا.

الثاني: تشريف النبي - صلى الله عليه وسلم - من أن يواجه بالأمر؛ فإن الأمر في حقيقته إنما يصدر من الأعلى لمن هو دونه في المنزلة، ولذلك قد يتحاشى ذووا السلطان التعبير به إعزازا لمن هم في كنفهم وتحت سلطانهم، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وإن كان عبدا لله لا يمكن أن يهجس في خاطره أن يكون في منزلة مساوية أو حتى مقاربة لله أولى بأن يوليه الله من التكريم، والإعزاز من أي إنسان آخر، ولذلك أوثر في خطابه الخبر (إن الله يأمرك).

وقد فهم النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الجملة الخبرية لفظا، الطلبية معنى أن الأمر للوجوب؛ ولذلك مهد لطلبه التخفيف من هذا التكليف بالدعاء له، والتوسل إليه بطلب المعافاة والمغفرة، وهذا المهاد لافت للنظر؛ حيث تتراءى صيغته مشعرة بالخوف الجم من أن يكون طلب التخفيف ذنبا اقترفه على غير قصد منه، ولا تخلص من العقاب عليه إلا بالعفو والمغفرة.

ثم يأتي تكرار الخبر والرد عليه أربع مرات حتى أخذ الإخبار عنه صورة الحوار، ولهذا التكرار غاية لطيفة حملها النص لمن له القدرة على استشفاف المقاصد من القول، وتتمثل تلك الغاية في الربط بين الأسباب والنتائج، فلو أن الرسول تلقى الخبر، ولم يطلب التخفيف للزم الأمر، وأصبحت قراءة القرآن على لهجة واحدة من لهجات العرب أمرا حتميا لا خلاص منه.

ولعل فيه ـ بالإضافة إلى تلك الغاية ـ لطيفة أخرى هي ضرورة الإبانة عن ثقل المأمور به ، وعدم القدرة على النهوض به ، والعجز عنه ؛ فالناس في حياتهم بين آمر ومأمور ، وقد لا يكون في تقدير الآمر أن ما أمر به شاق ، فواجب المأمور أن يكاشف الآمر بذلك حتى لا يقع في حرج العجز أو التقصير.

وهكذا يعلمنا الإسلام كيف يكون التكليف ، وكيف يكون التلقي ، بل كيف تكون العلاقة بين السلطان ومن هو تحت سلطانه.

واللافت للنظر : أن الخبر جاء مؤكدا على الرغم من خلو ذهن النبي – صلى الله عليه وسلم – منه (إن الله يأمرك) ، وكان ظاهر الحال يقتضي أن يقال : (يأمرك الله) لكن أكد هذا الخبر بأمرين هما : إن ، وتقديم المسند إليه (الله) على المسند الفعلي (يأمرك) وتأكيد الخبر على هذه الصورة يومئ إلى حتمية القراءة على حرف ـ أعني ـ أن يتلقى الخبر بالقبول لأول وهلة ، وجاء الفعل (يأمرك) على صورة المضارع للإشارة إلى تجدد الأمر بتجدد الزمن.

كما يلحظ أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال في ضراعة لا تدانيها ضراعة عبد مطيع (أسأل الله معافاته وغفرته) وفي هذا القول عدل النبي الكريم عن لفظ الأمر – وإن كان الأمر منه دعاء – إجلالا لله الذي أعلى منزلته فتحاشى صيغة الأمر معه ، فلم يخاطبه بالأمر الصريح المباشر ، وآثر لفظ الجلالة (الله) دون غيره ؛ لما فيه من الهيبة ؛ فهو – صلى الله عليه وسلم – خير من يهابه ويجله ، ثم أضاف لفظ المعافاة والمغفرة إلى ضميره ؛ لبيان أهميتها ، وشدة الحاجة إليها ، ثم أرسل هذه الجملة خالية من التأكيد إيماء منه – صلى الله عليه وسلم – إلى أن مجرد الطلب منه يقابل بالرضا والإجابة.

وأردف – صلى الله عليه وسلم – هذه الجملة بجملة موصولة بها بحرف الصلة (الواو) ؛ ليرادف الطلب بالسبب فيه وهو (خروج هذا الأمر عن طاقة الأمة) ، وصدر هذه الجملة بحرف التأكيد ؛ استدرارا لرحمة الله حتى يخفف عنها ، وفي قوله (على حرف) مجاز مرسل علاقته الجزئية ؛ حيث ذكر الحرف وأريد اللغة ، فإن اللغة مكوناتها الحروف.

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم- مع الملائكة ما روي عن عائشة- رضي الله عنها- قالت:

واعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جبريل- عليه السلام- في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصا، فألقاها من يده، وقال: (ما يخلف الله وعده، ولا رسله.) ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال: (يا عائشة متى دخل هذا الكلب ههنا؟) فقالت: والله ما دريت، فأمر به فأخرج، فجاء جبريل، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : (واعدتني، فجلست لك، فلم تأت.)فقال: (منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.) (١)

كان جبريل ينزل بالوحي على النبي- صلى الله عليه وسلم- في أوقات معينة، وذات يوم تحرى النبي قدومه ، لكن جبريل لم يأت في تلك الساعة التي تواعدا على اللقاء فيها، وهنا استغرب النبي الكريم، وأخذ يسأل نفسه عن سبب تخلفه مع يقينه بأن الله لا يخلف وعده ولا ملائكته الكرام، فشرع يسأل نفسه وأهله لابد وأن هنا شيئا حدث ؟ ، فلما وقعت عينه على جرو كلب فطن للسبب، وأمر على الفور بإخراجه، وبعد مدة يسيرة جاء جبريل، وسأله النبي الكريم في تأدب ولين عن سبب تأخره، فكان الذي منعه هو نفس الكلب الذي أخرجه النبي- صلى الله عليه وسلم- من بيته.

إذاً ينطوي هذا الحديث على أمر ونهى، أمر بإخراج ما تكرهه الملائكة، ونهي عن اتخاذ الكلاب في البيوت لنجاستها، وكذلك الصور؛ لأن فيها تشبيها بخلق الله، أو لأن الملائكة ـ وهم عباد الله المكرمون ـ لا يحبون ذلك. قال الطيبي: "سبب امتناعهم من الدخول في بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى، ومن الدخول في بيت فيه كلب؛ كونه يأكل النجاسة ، ولأن بعضه يسمى شيطاناً والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحته، ومن اقتناه عوقب بحرمان دخول الملائكة بيته، وصلاتها عليه ، واستغفارها له، وهؤلاء الملائكة غير الحفظة؛ لأنهم لا يفارقون المكلفين. (٢)" هذا قوله، والذي يلوح لي أن النهي عن اقتناء كلب أمر تعبدي؛ وما ذكره الطيبي لا ينهض سبباً لعدم دخول الملائكة بيتاً فيه كلب. فإن بعض من يقتنون الكلاب في عصرنا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٢٦٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٩/٢٩٤٤.

يقدمون لها من الطعام الطيب ما لا يجده كثير من فقراء بني آدم ، ويعنون بنظافتهم عناية فائقة ، وكذلك يعنون بمرقدهم ، وصحتهم عناية لا يلقاها كثير من البشر.

والحوار الذي دار بين النبي وجبريل كان بسيطاً ولطيفاً حيث أفصح عن اضطراب النبي حين ألقى عصاه وأخذ يتساءل والحيرة قد ملأت نفسه عن عدم مجيء جبريل في تلك الساعة التي وعده فيها ولكنه خاطبه بكل أدب بقوله : (وادتني ، فجلست لك ، فلم تأت.).

وعند إرادة الإلمام بالنواحي البلاغية البارزة في هذا الحديث فإنها تكمن فيما يلي :

اختيار المفردة الموحية بالمعنى القائم في نفس النبي- صلى الله عليه وسلم- في قوله (واعدتني) دون قوله (وعدتني) إذ كلاهما يعطيان المعنى نفسه ، لكن في صيغة (فاعل) معنى المشاركة والاتفاق فيما بينهما فهو من قبل شخصين ، أما (وعدتني) فهو من قبل شخص واحد. وهنا ألقي الخبر بدون تأكيد ؛ لأنه يوحى بانطوائه على استفهام ، وكأن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال : لماذا لم تف بوعدك ؛ والسر في إيثار الخبر هو تنزيه جبريل عن المواجهة بالإخلاف حتى ولو كان ذلك على سبيل الاستفهام ، وفي ذلك تأدب النبي- صلى الله عليه وسلم- مع جبريل إذ لم يقل : لقد وعدتني ؛ لأن فيه تعريضا بإخلاف الوعد.

والتعريف والتنكير يبرز في (الكلب) حيث جاءت مرة معرفة ، وأخرى نكرة فتعريفه جاء لسبق ذكره فاللام فيه للعهد الذكري ؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم- يدرك حقيقته ، وقد أعقبه بالموصول وصلته في قوله (منعني الكلب الذي كان في بيتك) ؛ حتى لا ينصرف الذهن إلى كلب آخر غير الذي كان عنده- صلى الله عليه وسلم- . كما يقول عبد القاهر الجرجاني : "أنك لا تصل (الذي) إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها ، وأمر قد عرفه له ، نحو أن ترى عنده رجلاً ينشده شعراً فتقول له من غد : "ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشد الشعر؟" هذا حكم الجملة بعد"الذي" ، إذا أنت وصفت به شيئاً فكان معنى قولهم : "إنه اجتلب ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل "أنه جيء به ليفصل بين أن يراد ذكر الشيء بجملة قد عرفها السامع له ، وبين أن لا يكون الأمر كذلك." [1] ، أما التنكير فيه فجاء لتحقير شأنه ، وأنه من جنس الحيوانات المكروهة. كذلك التنكير في (صورة) جاء للعلة نفسها.

---

(١) دلائل الأعجاز، للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ص ٢٠٠.

وفي قوله- صلى الله عليه وسلم- : (ما يخلف الله وعده ولا رسله) حوار مع النفس، وهو يعكس القلق والحيرة؛ ذلك أنه إذا لم يكن من الله خلف وعد، ولا من رسله، فإن تأخر جبريل عن المجيء أو بعبارة أخرى، إخلاف وعده لابد أن يكون وراءه سبب فماذا يكون؟ وعدم العلم بالسبب هو مصدر القلق والحيرة.

وفي الحديث إيجاز بالحذف يتراءى في قوله (ولا رسله)؛ إذ المعنى: ولا رسله يخلفون وعدهم، حيث حذف المسند، وما يتعلق به؛ لدلالة ما قبله عليه، وفي هذا المسلك الأسلوبي يترك ما دل عليه تحاشياً للإملال بذكر ما يغني عنه السياق.

وفي قوله (منعني الكلب الذي كان في بيتك إنا لا ندخل..) انتقال من حكم قد يظن خصوصيته إلى حكم فيه تعميم؛ حتى لا يسبق إلى وهم النبي- صلى الله عليه وسلم- أن عدم دخول جبريل بيتا فيه كلب أو صورة أمر خاص به دون غيره من الملائكة، فهو إن أشبه ملحظا بلاغيا شبيه بالاحتراس؛ وهو أن يؤتي في كلام يوهم خلاف المراد بما يدفع ذلك الإيهام؛ ولأجل ذلك- فيما يبدو لي –جاء الخبر مؤكدا بإن مع أن النبي الكريم خالي الذهن من مضمون الخبر.

ولا يخفى على من رزق ذروا من الفهم أن في قوله- صلى الله عليه وسلم- (ما يخلف الله... ولا رسله) وصلا بين جملتين؛ حيث وصلت الجملة الثانية (ولا رسله) بالجملة الأولى (ما يخلف الله وعده) والسر في الوصل أن الجملتين خبريتان لفظاً ومعنى فبينهما كمال الاتصال، وحسن الوصل بينهما اتحاد المسندين (يخلف، ويخلفون)والتناسب بين المسند إليه فيهما وهو لفظ الجلالة (الله) في الأولى، و (رسله) في الثانية، كما أن في قوله جبريل (منعني الكلب..)، (إنا لا ندخل) اتصالاً سببه شبه كمال الاتصال، لأن الأولى تثير سؤالاً تقديره: لماذا منعك؟ ، فكانت الثانية بمنزلة الجواب عن هذا السؤال ومن ثم كان الفصل.

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم- مع الملائكة ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه . قال :

قال النبي- صلى الله عليه وسلم- : (قال لي جبريل : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، أو لم يدخل النار ، قال : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن.) [1] .

يترك هذا الحديث بما دار فيه من حوار بين النبي- صلى الله عليه وسلم- وجبريل- عليه السلام- يترك في نفوس الصحابة أثراً طيباً ؛ لأنه يرغبهم في العمل الصالح. وهذا إذا أقاموا التوحيد والعبادة لله تعالى وحده ولم يشركوا معه أحداً ، وتلك تربية نبوية بترغيب النفوس للخير. يقول أحد الباحثين : "استعان النبي- صلى الله عليه وسلم- بالترغيب والترهيب في إثارة الدافع إلى الإقبال على الإسلام ، ففي الحديث ترغيب شديد للناس في الدخول في الإسلام ، والإيمان بالله وحده لا شريك له ، ووعد من يفعل ذلك بدخول الجنة على ما عليه من ذنوب ومعاص ، ولقد كان هذا في أول الدعوة الإسلامية ، وقبل نزول الشرائع والأحكام ، ترغيباً للناس في الدخول في الإسلام." [2]

ومن خلال هذا الحوار البسيط يحس القارئ بالدهشة التي انتابت النبي- صلى الله عليه وسلم- حين سمع الخبر من جبريل ، ويسأله سؤال الذي يطلب منه تحقيقاً للأمر وتأكيداً له : وإن زنى وسرق ، وفعل ما فعل من المعاصي أيكون جزاؤه دخول الجنة؟! فيجيبه جبريل دافعاً ذلك الريب عن نفسه- صلى الله عليه وسلم- بالإيجاب نعم ، وإن فعل ما فعل من المعاصي ، فالله تعالى يغفر الذنب ، ويستر العيب ، ويرحم ، ويتجاوز عن كثير من الذنوب والخطايا.

وبالنظر للمحات البلاغية الواردة في الحديث فإنها تتضح فيما يلي :

---

(١) صحيح البخاري ٢/٩٦٦.

(٢) الحديث النبوي وعلم النفس، د/محمد عثمان نجاتي، ١٦٩- ١٧٠، دار الشروق، القاهرة- بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

بدأ الحديث بجملة الشرط (من مات من أمتك...) وهذا ابتداء حسن يجعل النبي- صلى الله عليه وسلم- يستشرف لما سيعقب هذا من جواب، وعندما يعرفه يتمكن ذلك من نفسه وحسن الابتداء له أثر في النفس؛ لأنه أول ما يطرق السمع.[1].

وقد عبر عن الفعل المستقبل بالماضي مع أن دخول الجنة يكون يوم القيامة ولكن عبر بالماضي وكأن دخول الجنة قد وقع فعلا ، فأبرز المستقبل في صورة الماضي؛ للإيماء إلى تحقق الوقوع لمن عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً.

وإضافة الأمة إلى الضمير المتصل العائدة على النبي- صلى الله عليه وسلم- في (أمتك)؛ للتشريف والفخر والتعظيم من شأنها ولبعث المسرة في نفسه- صلى الله عليه وسلم- فإنه ـ بلاشك- يسره دخول أفراد من أمته كان الظاهر من أمرهم دخول النار، لما كان منهم من معاص. والتعبير بحرف الجر(من) داخلا على لفظ (أمة) المضاف إلى ضميره- صلى الله عليه وسلم- بيان لخصوصيته بذلك ولو كان ذلك على العموم لقيل: من مات لا يشرك بالله شيئا دون ذكر للجار والمجرور؛ فحرف الجر (من) معناه هنا البيان. أما جملة (لا يشرك بالله شيئا) فهي حالية من فاعل (مات)؛ أي: من أمتك حال كونه لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، وهذه الجملة تسمى في علم المعاني (احتراسا)؛ وهو: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المراد بما يدفع ذلك الإيهام(٢)، فلو قيل: ـ(من مات من أمتك دخل الجنة) لتوهم السامع أو القارئ أن ذلك يشمل من مات مسلما أو مشركا، فلما قيل: لا يشرك بالله شيئا، اندفع ذلك التوهم، وخص بدخول الجنة من مات غير مشرك، وهذا لون من الإطناب.

وفي الحديث إيجاز بالحذف ماثل في قوله (وإن زنى وإن سرق) وتقدير المحذوف: وإن زنى وإن سرق دخل الجنة؟ ، وكذلك في إجابة جبريل (وإن) هنا حذفت جملة الشرط كلها لوجود القرينة اللفظية التي تدل على المحذوف في (من مات من أمتك...دخل الجنة) وهذا الحذف

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١٤٩/٦.

(٢) ينظر الجنى الداني في علم المعاني في ضوء كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ٨٢، د/إبراهيم طه الجعلي ود/نجلاء عبد اللطيف كردي مكتبة المتنبي، الدمام، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

جاء أيضاً للإيجاز في القول. يقول ابن هشام: " حذف الكلام بجملته يقع ذلك باطراد في مواضع... الرابع بعد إن الشرطية كقوله: [1]

قالت بنات العم يا سلمى وإن كان فقيرا معدما؟ قلت: وإن

أي: وإن كان كذلك رضيته." [2]

وهذا الإيجاز يطوي وراءه ذلك المحذوف ليكسب الأسلوب متانة وجزالة، ويحول دون التصريح بما يؤدي إلى الإملال؛ وطبيعة الحوار تقتضي الاقتصار على ما يفهم المعنى، ويشير إلى الغاية.

---

(١) نسبه صاحب التحرير والتنوير إلى رؤبة بن الحجاج، ينظر تفسير التحرير والتنوير/ الشيخ محمد الظاهر ابن عاشور، ج١، ص٤١٠، الدار التونسية، د.ت.

(٢) معنى اللبيب عن كتب الأعاريب ٢/٧٤٧.

حواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الوفود

قبل الشروع في بيان حوار الوفود لا بد من معرفة من الوفود ؟

جاء في لسان العرب" وفد فلان يفدُ وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير وقيل الوفدُ اسم للجميع وقيل جمع وأما الوفودُ فجمع وافد وقد أوفده إليه ، ويقال وفده الأميرُ الذي فوقه قيل : هم القوم يجتمعون فيردون البلاد واحدهم وافد والذين يقصدون الأمراء لزيارة واسترفاد وانتجاع وغير ذلك.[1]

وقد كانت الوفود تأتي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتعلن إسلامها كوفد تميم ، ووفد هوازن ، ووفد عبد القيس ، وغيرهم [2] وعرف العام الذي كثر فيه مجيئهم بعام الوفود(٣) ؛ لأنه العام الذي كثر فيه وفود الناس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلنون إسلامهم طوعاً ، بعد أن أعز الله الإسلام بدخول الناس فيه أفواجا ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحاورهم مبينا لهم ما يجب عليهم نحو ربهم ، ونحو المجتمع الذي يعيشون فيه ، وإن كان عند بعضهم شك حاوره بالحجة الواضحة التي من شأنها أن ترده إلى اليقين ، كل ذلك بأسلوب لين ولطيف يترجم عظمة الإسلام ، ومن ثم عظمة الرسول المكلف بالتبليغ ، وسيتبين ذلك من خلال دراسة نماذج من حواراته معهم .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، ٢٤٩/ ١٥ حرف الواو .

(٢) مثل وفد بني حنيفة ووفد غسان ووفد عبس ووفد كندة ووفد نجران ووفد طي.

(٣) قيل إنه كان في السنة التاسعة من الهجرة.

من حواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الوفود ما روي عن أبي جمرة قال :

قدم وفد عبد القيس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (مرحباً بالقوم ، غير خزايا ولا الندامى). فقالوا : يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركون من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر الحرم ، حدثنا بجمل من الأمر : إن علمنا به دخلنا الجنة ، وندعو به من وراءنا . قال : (آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ، الإيمان بالله ، هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : ما انتبذ في الدباء ، والنقير ، والحنتم ، والمزفت.)[(١)]

لما كان المشركون يحاولون بشتى الطرق مقاومة الدعوة إلى الإسلام ، وكان الذي يدخل في الدين الإسلامي لابد أن يناله شيء من أذاهم طلب وفد عبد القيس من النبي الكريم أن يخبرهم عن أمور هي دعائم الإسلام ، وأركانه التي لا يقوم كيانه إلا بها ، حتى لا يضطروا إلى القدوم إليه في غير الأشهر الحرم فيتعرضوا لأذى المشركين ، فأمرهم بملاك ذلك كله وهو الإيمان بالله تعالى وحده ، ومعناه جليل ؛ لأنه يقوم على النطق بالشهادة ، وبعده تكون سائر الواجبات.

ويلحظ في تعامل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع وفد عبد القيس لطفه وبشاشته ، وانبساطه لهم ، ففي الحديث إشارة إلى حسن المعاملة ، والتحلي بالأخلاق الكريمة مع الغير خاصة إن كانوا يطلبون الحق بمحض إرادتهم ، فإن رأوا المحاور كذلك ارتاحت نفوسهم ، ورضيت بالحق ، وأذعنت إليه دون جدال ، وهكذا كان حواره معهم بسيطا يحمل في تضاعيفه الرفق واللين وحسن الخلق .

والإبداعات البلاغية في هذا الحديث تتجلى فيما يلي :

أول ما يثير الانتباه لفظ (مرحباً) ؛ ففيه إيجاز بالحذف ، وفي تقدير المحذوف ما يجعله متردداً بين الخبر والإنشاء ، ذلك أنه اسم مكان قد يكون مفعولا به لفعل يدل على الماضي ، وهذا ما بينه ابن منظور حيث قال : " وقولهم في تحية الوارد : أهلا ومرحبا أي : صادفت أهلا ومرحبا ... وقولهم : مرحبا وأهلا أي : أتيت سعة وأتيت أهلا[(٢)]". وجرى على هذا التقدير

---

(١) صحيح البخاري ١٣١٩/ ٣.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١٩ / ٢ ، حرف الراء .

الراغب الأصفهاني حيث قال : " وقولهم مرحبا وأهلا أي : و جدت مكانا رحبا[١]". وهو على هذا التقدير يكون خبرا يُعلم به الضيف أن نزوله على أهل المكان مبعث البهجة والمسرة ، وقد يكون مفعولاً لفعل على صورة الأمر وهذا ما نقله ابن منظور عن الليث قائلاً : "قول العرب : مرحباً ، أنزل في الرحب والسعة وأقم فلك عندنا ذلك. كما نقل مثل ذلك عن الخليل.[٢] وعلى هذا فصيغة الأمر مرادا منها الإباحة المفهمة للمسرة بنزوله ، لكن كون العبارة على تقدير الماضي أبلغ ؛ لأنها عندئذ خبر مراد به الأمر ، وكأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحاشى مخاطبة هذا الوفد بصورة الأمر إكراما لهم ، أو مبالغة في الإكرام. ونقل ابن منظور عن ابن الأعرابي : " أنه من المصادر التي تقع في الدعاء للرجل وعليه[٣]" فيكون مصدرا ميميا مع احتمال كونه مصدرا بعيد ؛ لا قترانه بكلمة(أهلا) وقولهم : " أتيت سعة ، وأتيت أهلا " لا يقع من النفس موقعا كقولهم وجدت مكانا رحبا.

وفي التعبير بلفظ (القوم) موصولا بلفظ التكريم (مرحبا) ما يشد متذوق الكلام إليه ؛ ذلك أن ظاهر المقام يقتضي أن يقال : مرحبا بكم ، فالعدول عن الخطاب إلى لفظ الغيبة لما يتضمنه لفظ القوم من المبالغة في التكريم ، فضمير الخطاب وإن كان جمعا يصدق بالاثنين فصاعدا ، أما لفظ القوم فإنه يدل على الكثرة الكاثرة ، وفي تنزيل هذا الوفد منزلة (القوم) إيماء إلى الاعتزاز ورفع المنزلة .

وفي التعبير بالحال (غير خزايا ولا الندامى) ما يشير إلى استحقاق هذا التكريم ؛ فقد يصدر الترحيب تعريضا بالتغاضي عن زلة سبقت ، أو خطيئة اغتفرت ، وربما كان ذلك مراد صاحب الفتح بقوله : " أنهم أسلموا طوعاً من غير حرب أو سبي يخزيهم ويفضحهم [٤]".

وفي قولهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إن بيننا وبينك المشركين ..) تأكيد للخبر بـ (إن) مع أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم ذلك جيداً فلم يطلب منهم إخباره به ، لكن أراد القوم أن ينبهوا على الأمر ؛ لأنه يؤرقهم ، ويقض مضجعهم وفي قولهم (إن عملنا به دخلنا الجنة) جاءت الجملة وصفا للأمر ؛ لبيان الغاية منه ؛ فهم لا يريدون أمرا لا يصل بهم إلى ما تطمح إليه نفوسهم وهم على صواب في ذلك فما جدوى أمر لا يحقق غاية لمن ينهض

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١٩١.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١٩ / ٢ حرف الراء .

(٣) المرجع السابق ١٢٠ / ٦ حرف الراء .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني ١٨٧/ ١ .

به؟ ! وبعبارة أخرى : التقييد بالصفة لتمييز هذا الأمر عن سواه مما قد يكون العمل به محققا لغرض دنيوي ، وكأنهم لا يريدون من متاع الدنيا أكثر مما هم فيه ، وأصبحت همتهم متعلقة بالنعيم الدائم الذي دفعهم إلى الإسلام طوعا حين أدركوا حقيقته .

والإيجاز بالحذف ماثل في قوله (آمركم بأربع ..) فالمراد به أربعة أمور[(١)] ، بدليل قولهم له فيما تقدم : (جمل من الأمر) وحذف المسند إليه وصفته في قوله (الإيمان بالله) ؛ فإن التأمل في تركيب الحديث يشير إلى أن الأصل : مجمل الأربع التي آمركم بها الإيمان بالله ، وحذف المسند إليه وحده في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (شهادة أن لا إله إلا الله) ؛ إذ : الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله . كما حذف المسند إليه وصفته في قوله : (وإقام الصلاة .. وأن تعطوا ..) فإن التأمل في التركيب يهدي إلى أن المراد : وتفصيل الأربع التي آمركم بها إقام الصلاة ..). أما قوله : (وصوم رمضان) فقد حذف منه المضاف إليه إذا الأصل : وصوم شهر رمضان .[(٢)]

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلت ـ (وأنهاكم عن أربع : ما انتبذ.. والمرفق) فقد حذف المسند إليه في الأمور الأربعة ، إذ التقدير : الأول ما انتبذ ، والثاني النقير ، والثالث الحنتم ، والرابع المزفت.

كل هذه الحذوف كفلت للأسلوب القوة والجزالة ؛ حيث طوى ما يشير إليه السياق لمعاجلة الوفد بما هو مناط الفائدة ، فهو الذي يتطلعون إلى معرفته ، ولو سيق الحديث مشتملاً على هذه الأمور المطوية لكان فيه من الإطالة ما يهلهل أسلوبه ، ويمل سامعه إذا شغله من الكلام ما ينبغي الترفع عنه ، ولذا ترفع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو شأنه دائماً عن الإطالة المملة ، وصفى أسلوبه تصفية تليق به بوصفه مبلغاً يهمه توصيل ما يجب إبلاغه بأقل القليل من الكلام .

---

(١) لا ينبغي أن يظن أن التقدير: أربع جمل نظرا للعدد المذكور (أربع) ؛ لأن العدد من ٣ ـ ٩ ، ١٠ إذا أفرد يجوز تذكيره إذا لم يذكر المعدود كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من صام رمضان وأتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر). وكلمة (جمل) في الحديث ليست جمع (جملة) بل هي بمعنى (مجمل) أي موجز . ينظر حاشية الصبان على الأشموني ح ٤، ص ٦٥، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة. د.ت .

(٢) لا يخفى أن المحذوف في مثل هذا التعبير (صوم شهر رمضان) مضاف إليه ومضاف ؛ فهو مضاف إلى لفظ صوم وهو في الوقت مضاف، ولفظ رمضان مضاف إليه.

والتعريف كثير في ألفاظ الحديث في مثل (المشركين ، أشهر الحرم ، الأمر ، الإيمان بالله ، المغانم ، الدباء ، النقير ، الحنتم ، المزفت)[1] وهي جميعها معرفة بـ (أل) للعهد العلمي ؛ لأنها معروفة في زمن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ .

وفي قوله (آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع) هنا أبهم النبي - صلى الله عليه وسلم- ثم بيَّن ما أجمله بقوله (الإيمان بالله ...) ؛ ليكون في إبهامه لفت الانتباه إليه فتتشوف النفس له وبعد أن يبينه لهم يكون قد أكد المعنى في نفوسهم مرتين ؛ مرة حين أبهم ، ومرة حين كرره كما يقول العسقلاني : " الحكمة في الإجمال بالعدد قبل التفسير أن تتشوف النفس إلى التفصيل ، ثم تسكن إليه ، وأن يحصل حفظها للسامع ، فإذا نسي شيئاً من تفاصيلها طالب نفسه بالعدد ، فإذا لم يستوف العدد الذي في حفظه علم أنه قد فاته بعض ما سمع ." [2] وهو أيضاً من اللف والنشر المرتب بحيث يرد القوم كل شيء لما هو له على الترتيب.

والغرض من الاستفهام في قوله (هل تدرون ما الإيمان بالله ؟) التعظيم من شأنه ، والمبالغة في أهميته. وفي البدء بالمصدر دون الفعل في (شهادة ، إقام ، إيتاء ، صوم) دلالة على أن هذه الأمور مفروضة عليهم فهي بمثابة الشيء الثابت المقرر. أما المجيء بعده بالفعل المضارع في (أن تعطوا) ففيه التجدد على نحو يفيد استمرار الأمر إلى ما شاء الله ؛ لأنهم كانوا يغنمون من الغنائم في حروبهم المستمرة مع المشركين .

ويطالع العارف ببناء الكلام الوصل بين الجمل في قول الوفد (إن بيننا وبين المشركين) ، (وإنا لا نصل إليك) ؛ فقد وصلت الثانية بالأولى من طريق الواو للتوسط بين الكمالين ؛

---

(١) جاء في نيل الأوطار : معنى الدباء : القرع وهو من الآنية التي يسرع الشراب في الشدة إذا وضع فيها ، والنقير : هو فعيل بمعنى مفعول من نقر ينقر ، وكانوا يأخذون أصل النخلة فينقرون في جوفه ويجعلونه إناء ينتبذون فيه ؛ لأن له تأثيراً في شدة الشراب ، والمزفت : اسم مفعول وهو الإناء المطلي بالزفت وهو نوع من القار ، والحنتم : بفتح الحاء المهملة ، جرار خضر مدهونة كانت تحمل الخمر فيها إلى المدينة ثم أتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم واحدها حنتمة وهي أيضاً مما تسرع فيه الشدة . " نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ١٦٥١ ، قدم له واعتنى به و خرج أحاديثه : رائد بن صبري بن أبي علفة ، بيت الأفكار الدولية ، لبنان ، ٢٠٠٤م.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩٠/ ١.

فالجملتان خبريتان لفظاً ومعنى ،وكذلك الحال في قوله (أمركم ..)، و(أنهاكم) وفي قوله (ما أنتبذ)، و(الدباء) ، و(والختم)، و(المزفت) وهذه الجمل كلها خبرية لفظاً ومعنى، والوصل بينها للتوسط بين الكمالين، أما جملة (وندعو به من وراءنا) فقد وصلت بجملة (دخلنا الجنة) بطريق الواو ، ولكن لسبب آخر هو المشاركة في الحكم الإعرابي .

أما الاسم الموصول وبناء الفعل معه للمجهول في قوله (ما انتبذ في الدباء) فهو كناية عن الخمر الذي يذهب العقل أو كل مسكر ، وفي قول القوم: (ندعو به من وراءنا) كناية عن قومهم الذين لم يعلموا الدين الإسلامي ، فإن رجعوا إليهم فقهوهم بما يتعلق به من أمور.

ومن السجع ما جاء في (خزايا، الندامي) (١) فهو يعطي توازناً نفسياً لاسيما أن القوم ارتاحت نفوسهم بقول النبي الكريم حينما استقبلهم بوجه طلق، ومثله سجع الفواصل بين الجمل في قوله (الإيمان بالله ، إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة).

---

(١) معنى خزايا :" الخزي : السوء ، خزي الرجل يخزي خزيا وخزي ؛ الأخيرة عن سيبويه : وقع في بلية وشر وشهرة فذل بذلك وهان ، وقد يكون الخزي الهلاك والوقوع في بلية ، ومنه حديث شارب الخمر : أخزاه الله ويروى خزاه الله أي قهره . وفي الدعاء : اللهم أحشرنا غير خزايا ولا نادمين أي : غير مستحيين من أعمالنا ، وفي حديث وفد عبد القيس : غير خزايا ولا ندامى ، خزايا جمع خزيان وهو المستحي ." لسان العرب لابن منظور ٦٤. ٥/٦٥ باب الحاء المعجمة ، أما معنى ندامي :" النديم الشريب الذي ينادمه وهو ندمانه أيضاً ، وجمع النديم ندام ، وجمع الندام ندامى ، وفي حديث : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامي أي نادمين ، فأخرجه على مذهبهم في الأتباع بخزايا ؛ لأن الندامى جمع ندمان ، وهو النديم الذي يرافقك ويشاربك ، ويقال في الندم : ندمان أيضاً ، فلا يكون إتباعاً لخزايا ، بل جمعاً برأسه ." لسان العرب لابن منظور ٢٢٥- ٢٢٦ / ١٤ حرف النون .

ومن الحوار مع الوفود ما رواه عمران بن حصين قال :

إني كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : (أقبلوا البشرى يا بني تميم) قالوا : بشرتنا فاعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن، فقال : (أقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنوتميم . قالوا : قبلنا . جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء .) ، ثم أتاني رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت. فانطلقت أطلبها ، وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم .)[1]

من تلك الأحداث الجارية ، والمواقف الحياتية المتكررة بين الناس آنذاك تتبين الطبائع الأصيلة ، وتتجلى الأخلاق الرفيعة ، ومن قصة وفد بني تميم وأهل اليمن مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجري حوار يفضي عن هذه النفوس البشرية التي آثرت الدنيا ، وطمعت بالقليل المغري ولم ترض بما عند الله ورسوله ، وهذا ما جرى مع بني تميم حين استقبلهم النبي الكريم ، وكانوا مقبلين عليه رغبة في دخول الدين الإسلامي ؛ ولأنهم حديثو عهد بالإسلام ، ولأن في طباعهم جفاء استعجلوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طلب الخير ، وقد أثنى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل اليمن ؛ لأن في طبعهم لينا وهدوءا ، ولأنهم كانوا حريصين على معرفة ما ينفعهم في دينهم قبل معرفة الذي ينفعهم في دنياهم .

وفي تعامل النبي الكريم مع القوم دليل على رفعة أخلاقه فهو القدوة لأمته ؛ لذا جاء حواره مع بني تميم رزيناً ، لم يعنفهم أو يزجرهم حين بدر منهم ما بدر ، لأنه إن كان في طبعهم الجفاء ففي طبع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التسامح والعفو ، وإن كانوا مندفعين وفي عجلة من أمرهم في تحقيق مطالبهم، فإنه متريث صابر ، وفي سكوته وتغير وجهه بلاغة لا تكون في الكلام .

ومن اللفتات البلاغية في الحديث الشريف ما يكمن في قوله (اقبلوا البشرى يا بني تميم) إذ خرج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر، قصد به النبي الكريم الدعاء لهم بالبشرى، والبشرى تدل على الخير والثواب ونحوه. وقد جاء النداء(يا) لبيان الحال التي كان عليها

---

(١) رواه البخاري . مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ٣/١٥٨٨ .

النبي– صلى الله عليه وسلم- حين فرح بقدومهم فناداهم بنداء البعيد ؛ لتعظيمهم ، ورفع مقامهم.

وفي قوله (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم) بهذه الصيغة " صيغة التعليل " كان لزوم امتثالهم للأمر آكد في نفوسهم ، وفيه حفز لهمتهم في قبول ما جاء به – صلى الله عليه وسلم – وقوله (إذ لم يقبلها بنو تميم) فهم في بداية الأمر قبلوا ولو لم يقبلوا لما جاؤوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لهم (أقبلوا) لكن عندما بدا منهم استعجالهم للأمر كان ذلك في حكم من لم يقبل فنزل القابل منزلة غيره تعريضا بغلبة العاجل على الآجل ، والزائل على الباقي.

ومن الإيجاز بالحذف في بعض الألفاظ ما يظهر في قوله (قبلنا) أي : قبلنا بما بشرتنا به ، والحذف في (بشرتنا فأعطنا) أي : بشرتنا بالخير فأعطنا منه ، وحذف للدلالة عليه في بداية الكلام. وأما قوله (كان الله) فليس فيه حذف كما قد يتوهم في ذلك البعض ؛ لأن كان هنا تامة لا تحتاج إلى خبر ومعناها (وجد) والمعنى أن الله موجود ولم يكن شيء معه ويمكن أن تكون ناقصة ويكون كان الله قبل الخلق ولم يكن شيء معه ، ولا يصح أن يقال : كان أول الأمر ؛ لأن الله لا أول له .

وفي قول أهل اليمن (جئناك لنتفقه ...) ألقي الخبر على مسمع النبي الكريم بدون تأكيد فالنبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم سبب قدومهم ، ولكنهم لا يعلمون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم ذلك ، وفي الإشارة إلى الأمر الذي سألوا عنه دليل على المبالغة في تعظيمه في نفوسهم . وفي قوله (كان عرشه على الماء) تخييل لا يدرك كنهه إلا الله تعالى ، ولذا قال العسقلاني : "معناه أنه خلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء وذكر قول الطيبي حين قال" : هو فصل مستقل لأن القديم من لم يسبقه شيء ولم يعارضه في الأولية لكن أشار إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل خلق السموات والأرض ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء." [1] وفي التعبير عنه بالفعل(كان) دليل على الثبوت فهو ثابت منذ الأزل ولذا جاء بعده قوله (ولم يكن شيء) بعطفها على ما قبلها بالواو لتأكيد هذا المعنى ، وليس للمعية. يقول العسقلاني :" في قوله : لم يكن شيء . معطوف على قوله : كان

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٦٩ .

الله ، ولا يلزم منه المعية إذ اللازم من الواو العاطفة الاجتماع في أصل الثبوت ، وإن كان هناك تقديم وتأخير، ونقل صاحب الفتح عن الراغب قوله : " كان عبارة عما مضى من زمان ، لكنها في كثير من وصف الله تعالى تنبئ عن معنى الأزلية."[١]

وفي قوله (الذكر) مجاز مرسل علاقته الحالية ؛ حيث أطلق الحال وهو الذكر وأراد المحل وهو اللوح المحفوظ ، وقد يكون من إطلاق المحل وإرادة الحال .

ومن طباق السلب ما جاء في قوله (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم) وكان بين (اقبلوا ، لم يقبلها) وهذا يقرر المعنى ويؤكده في النفس.

---

(١) المرجع السابق ١٣/٥١٨ .

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الوفود ما رواه عروة :

أن مروان بين الحكم والمسور بن مخرمة أخبراه : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم : (معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبي وإما المال. وقد كنت استانيت) .... (١)، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : (أما بعد ، فإن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين ، وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل .) فقال الناس : طيبنا يا رسول الله لهم ، فقال لهم : (إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .) فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فاخبروه : أنهم طيبوا وأذنوا . (٢)

من خلال الحوار يتخيل القارئ أنه أمام مشهد من مشاهد الحياة يدور في وجدانه بكل أحداثه ، وكأنه يشاهد وفد هوازن حين قدموا جماعة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والنبي مجتمع كذلك مع نفر من الصحابة متحلقين حوله يسمعون ما يجري من حوار مع القوم النازحين إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحديث يدور حول ما طلبه وفد هوازن ، وما يمكن تنفيذه منه أو لا يمكن ، وقد بيَّن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا يمكن إغفال حق أصحابه الذين بذلوا أرواحهم ، وناضلوا معه بحرمانهم من كل ما غنموا ، وخيَّرهم بين المال والسبي فاختاروا السبي ، وعندئذ ناشد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه أن يفكوا أسراهم إما ابتغاء وجه الله ، وإما على وعد بالتعويض في المستقبل.

وحوار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتسم بالبر والإحسان لمن قدم إليه راغبا في الصلح ، ورجاء الخير من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمل أنه لن يخذلهم بل سوف يردهم راضين بما قسم الله لهم ورسوله ، لكن لما نصر الله رسوله والمؤمنين ، وعرف القوم الحق ،

---

(١) كان النبي – صلى الله عليه وسلم – انتظرهم بضع عشرة ليلة، حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن النبي– صلى الله عليه وسلم – غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين. قالوا : فإنا نختار سبينا " صحيح البخاري ٢٨٦- ٢/٢٨٧

(٢) المرجع السابق ٧٨٦ . ٢/٧٨٧.

﴾ وأشرق في قلوبهم نور الإيمان أسلموا ، وما كل ذلك إلا لأنهم تأثروا بأخلاقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وعند تأمل الحديث من الناحية البلاغية فأن أول ما يطالع المتذوق هذه الألفاظ (استأنيت ، إخوانكم ، الطائفتين ، طيَّب) ؛ فلفظ استأنيت [1]" يعني أنه لم يعجل عليهم بل انتظرهم آملاً أن يأتوا تائبين قبل تقسيم الغنائم ، وما يترتب على ذلك من رق الأسرى ، وكان مع الانتظار الصبر والتؤدة ، وليس هذا المعنى في لفظ " انتظرت" ؛ لأنه يدل على مجرد الانتظار ، أما لفظ " إخوانكم" ففيه تحبب وإثارة لعلاقة التآخي بين المسلمين لتبعث في نفوسهم الإيثار والتضحية ، فالحب الأخوي من أنبل الأخلاق وأجلها عند الله تعالى ، ولا نجد ذلك في إطلاق لفظ الوفد ونحوه فليس فيه أي من هذه المعان السامية. ولفظ" الطائفتين" أطلق على السبي أو المال ، وإن كان يطلق على العاقل ، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾[2] وهنا أطلق على غير العاقل مجازاً والطائفة تعني الجماعة ؛ فالسبي أو المال مجموعة كبيرة من الغنائم التي غنموها من القوم ، أما لفظ (طيَّب) على صيغة " فعَّل " فهو يدل على رد الأسرى الذين صاروا في ملك أيديهم عن اقتناع ورضا ، ويدل على التأكيد على الفعل مرتين ؛ مرة بالمضي ، وأخرى بالتشديد ، وهذا لا يكون في الفعل الماضي طاب.

وفي قوله – صلى الله عليه وسلم – (معي من ترون ، وأحب الحديث إلي أصدقه) أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – إشهاد من يرى من الصحابة ما يحدث بينه وبين القوم ، فإن كان وفد هوازن يعلمون أنه لا يقول إلا الحق ، ولا يرضى بغير الصدق ، فإنه حين أخبرهم بذلك مع علمهم بأخلاق النبي – صلى الله عليه وسلم – قصد فقط إشهاد الناس على ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإقرارهم بما سيكون ويجري حتى يكونوا على بينة من الأمر. وفي التأكيد بإن في قوله (فإن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين) ؛ فالصحابة أو

---

(١) جاء في لسان العرب معنى استأنيت : " أنِيت وأنَيت بمعنى واحد ، وفي حديث غزوة حنين : اختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال وقد كنت استأنيت بكم أي انتظرت وتربصت ؛ يقال : آنيت وأنيت وتأنيت واستأنيت. قال الليث : يقال استأنيت بفلان أي لم أعجله ويقال : استأن في أمرك أي لا تعجل . " لسان العرب لابن منظور ١٨٣/١ .

(٢) سورة الحجرات آية(٩)

المحيطون بالنبي الكريم حين أكد الخبر بمؤكد واحد كانوا في حكم من ينظر في ترقب ويستشرف لما يجري ويقال ؛ ولهذا أكد لهم. أما تأكيد الخبر في قوله (إنا لا ندري من أذن له ...) حتى لا يكونوا على ظن من أن النبي لا يعلم عنهم شيئا ، ويذهب ما كان في نفوسهم من الظن أو الشك .

وجاء الأمر على سبيل الإلزام لهم في قوله (فاختاروا ..) فعليهم تعيين أحد الأمرين ولذا جيء بـ (إما) التي من معانيها التخيير بين شيئين لا ثالث لهما [(١)] ، أما الأمر في قوله (فمن أحب .. فليفعل .) خرج الأمر إلى معنى آخر هو الإباحة فهما من حيث الاستحباب سيان ، (فمن أحب أن يطيب عن ذلك نفساً فليفعل ومن أحب أن ...)

وأما تقديم السبي على المال ؛ فقد يكون لبيان أهميته عندهم ؛ فالسبايا يكونون عبيداً أو إماء وليس أغلى عند الناس من الحرية ؛ ولذلك اختار الوفد السبي ، وآثروه على المال.

و قوله (فاختاروا إحدى الطائفتين) هنا أبهم النبي الكلام ثم بيَّن بعد ذلك في قوله (إما السبي وإما المال) [(١)] وذلك من باب التوشيع [(٢)] .

وفي تعريف المسند إليه وهو ضمير متصل في (إخوانكم) اختصار للكلام ؛ فالمقام مقام إشهاد للناس عليهم ، فيكون المعنى حاضراً في ذهن السامع منهم ، كما يقول صاحب المطول : " من تعريف المسند إليه إضافته إلى شيء من المعارف ؛ لأنها أخصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع نحو قول جعفر بن علبة الحارثي : هواي ، أي مهويي وهذا أخصر من الذي أهواه ونحو ذلك [(٣)]. والاختصار هنا مطلوب ؛ لأن الموقف يتطلبه ؛ فالوفد منتظر ، ويخشى أن يرفض الصحابة ما يعرضه عليهم ؛ لأن تنازل المرء عما في ملك اليمين أمر صعب

---

(١) أي من معاني(إما) التخيير . ينظر معجم البلاغة العربية د / بدوي طبانة ٤٩ . وينظر موسوعة الحروف في اللغة العربية د / إميل بديع ١٢٩ . وينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٧٢ .

(٢) والتوشيع : " لون من الإطناب ينبثق من الإجمال ثم التفصيل . أو الإبهام ثم الإيضاح . وهو أن يؤتي بمثنى مفسر باسمين معطوف أحدهما على الآخر . " ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٣/١٩٩.

(٣) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ، تحقيق د / عبد الحميد هنداوي، ص ٢٢٣،دار الكتب العلمية ببيروت لبنان ، ط ١ ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

تشح به النفوس ، وكأن النبي – صلى الله عليه وسلم – يتعجل نقل الخبر إيماء إلى تعجل الجواب .

و تقدم الفعل على الضمير " إياه " في قوله " نعطيه إياه " لأنه الأصل هنا فلا يمكن التأخير فيه وفي ذلك زيادة تأكيد على فعل الإعطاء .

وفي قوله (إني رأيت أن أرد...) عبر عن المستقبل بالفعل الماضي " رأيت" ليقر لهم بأن رد السبي لوفد هوازن شيء مفروغ منه ، ولا يمكن الرجوع عنه . ومن التقديم كذلك تقديم الظرف " إلينا " على الفاعل " عرفاؤكم " وقدم لاختصاص البت في شأن القوم بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته لأنهم هم من يخاطبهم عرفاؤهم وسادتهم .

وفي التعبير باسم الإشارة في قوله (فإن إخوانكم هؤلاء) ما يدل على رفع شأنهم وعلو مقامهم ، أما الإشارة في قوله (فمن أحب منكم أن يطيب ذلك) أي : فليفعل ، فهو للاختصار .

أما الحذف في ألفاظ الحديث فيلاحظ في قوله (إما السبي وإما المال) وتقدير المحذوف : اختاروا إما السبي أو المال ؛ حذف المسند " اختاروا " للدلالة عليه من خلال السياق ، والحذف في قوله (فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل) وتقديره : فيرده فليفعل ، وحذف أيضاً للعلة نفسها ، والحذف في قوله (إنا لا ندري من أذن منكم فيه) وتقدير المحذوف : أذن له منكم ؛ حذف حرف الجر مراعاة لنظم الكلام ، ودرءاً للمعاظلة فيه فلو ذكر لقيل : (أذن منكم فيه) ، وكان فيه تكرار للحروف بدون طائل ، أما الذكر ففي موضع واحد في قوله (من أول ما يفيء الله علينا) ذكر المسند إليه " الله" لإظهار تعظيمه في نفوس الصحابة أو من يسمع النبي – صلى الله عليه وسلم – فهو من سيكرمهم بالمغنم والنصر معاً[1] .

ومن الالتفات في الأسلوب النبوي الذي يجعل النفس دائماً مع المسموع فتتيقظ له ما جاء في قوله (فإن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين وإني رأيت أن أرد) هنا التفات من المتكلم للجماعة إلى المتكلم المفرد ، وكذلك في قوله (إنا لا ندري من ...) تكلم النبي باسم الجماعة ولم يقل : إني لا أدري مثلاً ، وهذا من الالتفات الذي قال فيه ابن النظام : " والعرب يستكثرون منه لأنهم يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وإملاء باستدرار إصغائه ." [2]

---

(١) كما قال صاحب المصباح :" إن العلة في إثبات المسند إليه تعظيمه " المصباح في المعاني والبيان والبديع ص ١٠٤ وينظر الكشاف ١/٦٢.

(٢) المصباح في المعاني والبيان والبديع ١١٦.

وفي الحديث طباق بين (من أذن ، ومن لم يأذن) وهو طباق من قبيل السلب ، للجمع بين فعلين من مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفي . [٣] و هو يزيد المعنى رسوخاً في النفس.

(٣) ينظر تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ص ١٧٩.

حواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الأعراب

يجدر بالقارئ قبل أن يشرع في استجلاء كوامن بلاغته – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب أن يكون على معرفة بحقيقتهم ، فمن الأعراب ؟ وما أسلوبهم ؟ وكيف كانت حياتهم؟

الأعراب كما ذكر ابن منظور : " ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة ، والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهش له ، والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب له ، فمن نزل البادية أو جاور البادين ، وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف ، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب [1] " إذن هم قوم بسطاء الحال ، لا يملكون صناعة إلا الرعي كما يخبر عنهم الشاعر : [2]

فما عصمة الأعراب إن لم يكن لهم طعام ولا در من المال يعصر

كانوا يتتبعون مواقع الكلأ لمواشيهم ، ويحبون صنعتهم هذه فغلب عليهم الجفاء لشدة ما قاسوه في الصحراء من خشونة العيش فيها ، وصبرهم على الجوع والعطش ، فطبعت الصحراء في نفوسهم القسوة ، كما يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل)[3] ولبعدهم عن المدن كانوا في جهل كبير بأمور دينهم ؛ إذ كانت تسودهم معتقدات وأفكار من الجاهلية ؛ ولذلك كانوا أشد الناس استعصاء على الإسلام وأصعبهم مراسا ، وأوغلهم في النفاق كما حكا عنهم ذلك عز وجل – بقوله : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4]

ولكن الإسلام هذب الكثير من سلوكهم ومع ذلك فقد كان بعضهم ذوي جرأة في محاورة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يحسن طرح السؤال معه بل ربما أكثر البعض عليه الأسئلة

---

(١) لسان العرب لابن منظور حرف العين ٨٢/١٠.

(٢) بعد البحث والإطلاع لم أعثر على قائل هذا البيت.

(٣) رواه أبو داود في سننه وصححه الألباني ، سنن أبي داود ١٢٤/٢.

(٤) سورة التوبة ، آية ٩٧.

تعنتا ، ولكن البعض منهم كان يفد ليسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بعض أمور الدين ، وكان النبي يراعي أحوالهم، ويخاطبهم بقدر عقولهم ، ويبين لهم بعضا من شؤون الدين بأسلوب سهل لا تعقيد فيه. وبين يدي القارئ نماذج من حوارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الأعراب لعله من خلالها يتبين عجيب بلاغته ، وجمال أسلوبه الذي يحمل – مع ذلك- حلمه ورفق معاملته بهم ، رغم ما يصدر عنهم من أفعال ممقوتة وأقوال جافة .

من حواره – صلى الله عليه وسلم-   مع الأعراب ما روي عن أنس بن مالك قال : نهينا أن نسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال : صدق ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله. قال : فمن خلق الأرض ؟ فقال :الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال :الله ، قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا . قال : صدق . قال :بالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال :نعم،قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا. قال : صدق. قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال :صدق . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال :نعم . قال : وزعم أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . قال : صدق . قال : ثم ولى . قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن.فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لئن صدق ليدخلن الجنة .)[1]

الحوار الذي دار بين الأعرابي والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ طابع السؤال والجواب للوصول إلى نتيجة هي محل النقاش والبحث ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم-   حليماً مع الأعرابي ، وإن بدا منه شيء من الجفاء كما هي عادة الأعراب ، فلم يتضجر منه بل أجابه عما سأل بإيجاز وصدق، وقد كانت قضية الحوار الإيمان والإسلام وما يتعلق بهما من أمور، وانتهى الحوار بإيمان الرجل بما سأل عنه واقتناعه بما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – ولذا قال النبي عنه : (لئن صدق ليدخلن الجنة .)

وعند النظر إلى النواحي البلاغية في الحديث يطالع المتلقي ما يلي :

اختيار المفردة والدقة في تأليفها في نظم الكلام ومن هذه الألفاظ المختارة (زعم ، نصب) والزعم يراد واحد من أمور ثلاثة بينها صاحب لسان العرب حيث قال : " قال الليث : سمعت أهل العربية يقولون إذا قيل: ذكر فلان كذا وكذا فإنما يقال ذلك لأمر يستيقن أنه حق، وإذا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٠ـ١٤١ / ١.

شك فيه فلم يدر لعله كذب أو باطل قيل: زعم فلان وقال ابن السكيت : يقال للأمر الذي لا يوثق يزعم، وقال بعض المفسرين :الزعم أصله الكذب[(1)]"

فهو لا يخرج عن هذه المعاني: الأمر المشكوك فيه، أو الذي لا يؤمن به ، أو الكذب، ومعنى الزعم في هذا الحديث هو الشك في هذا الأمر؛ ولذا قدم الأعرابي بنفسه إلى الرسول الكريم متحملا أعباء السفر حتى يتبين الخبر له ويزداد يقينا به بمقابلة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا خلاف ما قال به النووي في معنى الزعم [(2)]. وأما اختيار لفظ " نصب" دون رفع أو ما في معناه ففيه إيحاء بالصورة فيتخيل السامع رفع الجبال على عظمتها وضخامتها وكأنها منصوبة على أوتاد ونحو ذلك.

وفي النداء بالحرف (يا) الدال على البعيد ما يشعر بأن الرجل لديه حاجة ملحة في نفسه فهو يريد الثبات على الحق ، والمضي فيه دون شك أو تردد ، وأن ما وصله لابد من التحري في شأنه، والاستخبار عنه؛ ليطمئن فؤاده وترتاح نفسه حين يصادف النبي ويشافهه وجهاً لوجه ، وبذلك يستقي الخبر من ينبوعه ولذلك فهو يريد بهذا اللفظ (يا) التنبيه ليتلقى المخاطب السؤال وهو في غاية اليقظة حتى يجيب عنه الإجابة الشافية ، وقد تكلم الأعرابي بصيغة الجمع في قوله (أتانا)؛ لأنه يتحدث عن قومه ، وقد يوحي هذا الأسلوب بالفخر والاعتداد بالنفس ونحوه ، لكن الرجل لم يقصد سوى السؤال باسم قومه.

وفي إلقاء الجواب دون تأكيد أو إضافة ونحوه في قوله : (صدق) ،(الله) ، وإن كان المقام يقتضي تأكيد الخبر للرجل لأنه طالب له ، لكن الرجل لما صادف النبي مسلماً ، ولما هو معروف عن النبي – صلى الله عليه وسلم –بأنه الصادق الأمين ، وأنه لا يقول إلا الحق استغني عن ذلك وكأن المخاطب كان خالي الذهن من الخبر فأخبر به دون الحاجة إلى تأكيده.

وفي كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إيجاز شديد اقتصر على الإجابة دون الإسهاب في الحديث بلا طائل ؛ لأن المقام اقتضى هذا ، كما في قوله (الله) في إجابته عن سؤال الأعرابي وقد تقدم ما يدل على الحذف من خلال السياق ، ومثله الحذف في قوله (صدق)

---

(1) لسان العرب لابن منظور ٧/٣٤حرف الزاي .

(2) قال النووي : زعم وتزعم مع تصديق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أياه دليل على أن الزعم ليس مخصوصاً بالكذب والقول المشكوك فيه بل يكون أيضاً في القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه ". صحيح مسلم بشرح النووي ١٤١/ ١.

وذلك دليل على بلاغته – صلى الله عليه وسلم - ؛ فإنه راعي حال المخاطب وهو – هنا- أعرابي تكفيه اللمحة .

وقد قدم الأعرابي السؤال عن خلق السماء والأرض على السؤال عن الرسالة المحمدية ؛ حتى يكون ذلك تأكيدا لما سيقول ويجزم عليه ، ولذلك راعى الترتيب في عباراته ، يقول النووي : " قال صاحب التحرير : هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه ؛ فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو ؟ ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع ، ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مرسله ، وهذا ترتيب يفتقر إلى عقل رصين." (١)

وفي قول الرجل : " والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن " أكد الخبرللنبي مع أنه لم يكن شاكاً في قول الرجل لكن أراد التنبيه على ما يقول والاقتصار عليه . أما التأكيد في قوله النبي – صلى الله عليه وسلم – : (لئن صدق ليدخلن الجنة) ؛ حيث أكد الشرط بالقسم المدلول عليه باللام الواقعة في جوابه ، وأكد جواب الشرط باللام ، وبنون التوكيد الثقيلة ، ليكون التأكيد على وتيرة واحدة وأن الله لا يظلم أحداً ، وفي ذلك بث اليقين في أفئدة من حوله من أصحابه ، وأن الاقتصار على أداء ما أفترض الله دون تطوع لا يحول دون دخول الجنة ، وإيماء إلى أن التطوع إنما هو لرفع الدرجات فيها لا لدخولها ، كما بين ذلك – صلى الله عليه وسلم – في حديث قدسي جاء فيه (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..."(٢).

وفي الحديث ألفاظ معرفة وأخرى منكرة ؛ حيث عرفت الجبال و(البيت) بأل وهي في الأول للاستغراق ؛ فالمقصود كل أفراد الجبال الموجودة على سطح الأرض ، وفي الثاني للعهد العلمي ؛ فالبيت الحرام معروف للعرب كافة ، وعرفت (شهر) بالإضافة إلى (رمضان) وهذا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ١٤١.١٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٢- ٤/٣٩. وينظر معجم الأحاديث القدسية الصحيحة ومعها الأربعون القدسية ، للإمام أبي الحسن نور الدين علي بن سلطان محمد القاري ، تحقيق أبي عبد الرحمن كمال بن بديع بسيوني الأبياني المصري. ص٧١مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، لبنان ط١ ١٤١٣/١٩٩٣م . وينظر الأحاديث القدسية ١/٦٦. دار الكتاب العربي . بيروت . ط ٨. ١٤٢٢/٢٠٠٢م .

التعريف للتخصيص ونكرت ألفاظ كـ(زكاة) ، (صلوات) وتنكير الأول للتنويع ؛ فهي ذات أنواع متعددة بتعدد أنواع المال ، وتنكير الثاني لقصد بيان العدد (خمس).

وفي استخدام اسم الإشارة مع الجبال دون غيرها إيحاء بعظمتها لقربها منه ، ورؤيتها شامخة ؛ فهي أقرب إلى حسه ، وهو يعرف عنها ما لا يعرفه عن السماء والأرض. أجل هو يعرف السماء فوقه ، لكنه لا يعرف أبعادها ، وما تحويه من عظائم ، وكذلك الأرض وإن كان يمشي عليها هو لا يرى لها بداية ، ولا يعرف لها نهاية ، وهي تحت أقدامه لكن ماذا هي سوى أنها أرض؟ وهذا غير الجبال فهو يراها ، ويرى ما فيها ؛ ولذلك يعرف شموخها ويعرف قدرة الصانع الذي نصبها ، فهي قدرة خارقة ؛ ولأن شأنها كذلك أتبع الأعرابي جملة (نصب هذه الجبال) بجملة (وجعل فيها ما جعل) للتكثير والتهويل على نحو قول الشاعر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها   وفي الزجاجة باق يطلب الباقي [1]

ومن الوصل بين الجمل ما جاء في قول الرجل : " فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب .." عطفت الجملة الثانية على الأولى للتوسط بين الكمالين ؛ فكل منهما خبرية في اللفظ والمعنى وبينهما تناسب في الدلالة على قدرة الخالق ، وكذلك في قول الرجل : " والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن " وصلت الجملة الثانية بالأولى ؛ للسبب نفسه ؛ فكل منهما خبرية في اللفظ والمعنى ، والجامع بينهما التناسب الماثل في كون المسند إليه واحد فيهما ، وفي التضاد في المسند .

وبين الزيادة والنقص في (لا أزيد عليهن ولا أنقص) طباق إيجاب ، وإن كان واقعا في حيز النفي ، ونظير هذا الطباق الواقع في سياق النفي قوله تعالى (وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴿٢٢﴾)[2]

فبين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات طباق إيجاب ؛ لكون التضاد حاصلا بينها في المعنى ، وإن كان ذلك كله في سياق النفي كما هو ظاهر[3]

---

(١) نسبه القزويني لأبي نواس. ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/١٥ .

(٢) سورة فاطر من آية (١٩) إلى آية (٢٢) .

(٣) ينظر المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للتفتازاني ص ٦٤١. وينظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٣١، والمثل السائر لابن الأثير ١٤٥/ ٣ / والإيضاح للخطيب القزويني ١٠ / ٦ .

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب ما روي عن أبي سعيد الخدري :

أن أعرابيا سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الهجرة فقال : (ويحك، إن شأن الهجرة لشديد، فهل لك من إبل؟ قال : نعم . قال : فهل تؤدي صدقتها ؟ قال : نعم . قال : فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئاً .)[1]

من صور الحوار النبوي ما جاء في صورة سؤال وجواب ربما كان السؤال من النبي – صلى الله عليه وسلم – أو من غيره، وأكثر الحوارات النبوية تبنى على هذا النحو ، وفيه يصل السائل إلى ما يريده ويقتنع بما يقوله المسئول.

وفي الحديث نهي صريح عن الهجرة بعد فتح مكة، وبعد أن انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة أما قبلها فقد كانت الهجرة مطلوبة ؛ ليقوى الإسلام في المدينة فنهى النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا الأعرابي عن الهجرة ؛ حتى لا يبتعد عن وطنه ، ويغترب عن أهله، فحين يصبر- وهو مكره- على العيش في بلاد لا يستطيع الهجرة منها، واحتسب كل ذلك عند الله تعالى فإن الله لن يضيع ما عمل من أعمال صالحة، فينال بها الأجر، والجزاء العظيم في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث إشارات بلاغية تمثل جمال العبارة كما في قوله (ويحك ، إن شأن الهجرة لشديد) ؛ فكلمة (ويح) لها دلالتها في سياق الجملة ؛ إذ الغرض منها هو التنبيه إلى شدة أو خطر الأمر الذي يفكر في الإقدام عليه، ويشير إلى ذلك ما نقله العيني عن الداودي حيث قال : "وويح كلمة تقال عند الزجر والموعظة والكراهة لفعل المقول له أو قوله ، ويدل عليه أنه إنما سأله أن يبايعه على ذلك على أن يقيم بالمدينة ولم يكن من أهل مكة الذين وجبت عليهم الهجرة قبل الفتح [2]" كأنه عليه الصلاة والسلام يقول: تنبه. ما الذي تفكر فيه ؟ أعلمت ما يترتب على ذلك؟ إن شأن الهجرة لشديد. وفي هذه الجملة تأكيد مكثف بـ (إن) ولام الابتداء واسمية الجملة، وإنما جاء هذا التكثيف في التأكيد- مع أن الأعرابي خالي الذهن من مضمون الخبر- ليدرك خطر ما يترتب على الهجرة من معاناة الاغتراب عن الأهل والوطن ، خاصة إذا لم يكن مضطهدا في بلده ، فارتباط الإنسان بوطنه متين ، وربما كان مشيرا إلى ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – عن الهجرة مخاطبا مكة : (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي ٥/١٠.

(٢) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ٤٤٦، ٦/٤٤٧

إلى الله - عز وجل –ولولا أني أخرجت منك ما خرجت [1]. ومثله التأكيد في قوله (إن الله لن يترك من عملك شيئا) بعد قوله (فاعمل من وراء البحار) ؛ حيث ألقى الخبر مؤكداً بـ (إن) ؛ لإيضاح الأمر فيتقرر في نفس الرجل وإذا تقرر أطمأنت نفسه ، فلو صبر واحتسب فلن يضره ذلك بشيء حتى ولو كانت داره بعيدة ، وبقول النبي له أطمئن وارتاحت نفسه لأنه متوكل على الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [2]

وفي الحديث تعريف وتنكير لبعض ألفاظه ؛ فالهجرة معرفة بـ (أل) والتعريف فيها للعهد فهي معروفة لدى الأعرابي ، وكذلك التعريف في البحار ، غير أن (أل) فيها للجنس المحقق في فرد من أفراده ، فالعمل من وراء أي بحر يوجد فيه الإنسان لن يضيع أجره. أما التنكير في (إبل ، شيئاً) فهو يزيد من الدلالة المعنوية في نفس السامع ففي لفظ (إبل) ما يوحي بأنه صاحب إبل كثيرة ، وتنكير (شيئاً) للتقليل بمعنى أن الشيء إذا كان قليلاً وتافها فإن الله تعالى سوف يجازيه عليه ، وينال به الأجر والمثوبة.

والإيجاز بالحذف في الحديث واضح في قوله (فاعمل من وراء البحار ...) ؛ حيث حذفت أكثر من جملة قبلها ، وتقديرها : إذا أردت الجنة ونعيمها ، وخفت من النار وعذابها (فاعمل من وراء ...) ، أو إذا أردت رضوان الله (فاعمل من وراء...) وقد دل على هذا الحذف الفاء الفصيحة . يقول العيني : " قوله فاعمل ... معناه إذا كنت تؤدي فرض الله عليك في نفسك ومالك فلا تبال أن تقيم في بيتك وإن كانت دارك من وراء البحار." [3] وإيثار الإيجاز هنا لكون الأعرابي لماحاً شديد الذكاء فلم يشأ النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يمله بذكر ما لا تدعو إليه حاجة ، وفي مقابلة الإيجاز بالحذف ذكر المسند إليه بلفظ الجلالة (الله) في قوله (فإن الله لن ..) لبث الثقة في نفس الأعرابي في أن الله لن يضيع عمله ولا شيئاً منه ؛ فهو للدلالة على قدرة الله تعالى وعظمته.

ومن الكناية اللطيفة ما جاء في قوله (فإن الله لن يترك من عملك شيئاً) منظور فيه إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [4] .

---

(١) رواه أحمد وقال الشيخ الأرنؤوط : إسناده صحيح . مسند أحمد بن حنبل ٤/٣٠٥ .

(٢) سورة الطلاق آية (٣) .

(٣) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري للعيني ٦/٤٤٧ .

(٤) سورة محمد آية (٣٥).

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب ما روي عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (لا عدوى ولا صفر ولا هامة) فقال أعرابي: يا رسول الله ، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها ؟ قال : (فمن أعدى الأول ؟)[1]

في الحديث نهي صريح عما كان سائداً بين العرب في الجاهلية من معتقدات باطلة وبظهور الإسلام ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً أبطلت جميع تلك الخرافات، ومنها القول بالعدوى ، والعدوى كما جاء في لسان العرب : " أن يكون ببعير جرب فتتقى مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه، وقد أبطله الإسلام ؛ لأنهم كانوا يظنون أن المرض بنفسه يتعدى، فأعلمهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الأمر ليس كذلك، وإنما الله تعالى هو الذي يمرض وينزل الداء.[2]" والقول بصفر هو : " داء في البطن، أو كما تزعم العرب حية في البطن تعض الإنسان إذا جاع ، واللذع الذي يجده عند الجوع من عضه، والصفر والصفار دود في البطن وشراسيف الأضلاع ، فيصفر عنه الإنسان جداً وربما قتله.[3]" وكذلك القول بالهامة يقول ابن منظور: " يقول أبو عبيدة: أما الهامة فإن العرب كانت تقول إن عظام الموتى وقيل أرواحهم تصير هامة فتطير، وقيل كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت الصدى، فنفاه الإسلام ونهاهم عنه.[4]"

والحوار جاء في معرض السؤال عن معضلة صعبت على الأعرابي ، فلم يجد لها أي مسوغ يبررها سوى الحيرة والظن ، فكان في جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – ما يدعوه للتفكير والاستنتاج بمنطق وعقل ؛ حيث سأله قائلاً: (فمن أعدى الأول؟) وكان على الأعرابي أن يكفر ويتعمق في التفكير ليهتدي بعقله إلى الحقيقة، وتزول عن نفسه كل الشكوك، ثم يسلم بهذه القضية لأنه إذا اهتدى إلى ذلك ، وتوكل على الله واتقاه كفاه الله شر ما يجد ويحاذر.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، صحيح مسلم بشرح النووي ٥/٣٧٧.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٠/٧٠ . حرف العين .

(٣) المصدر السابق ٨/٢٤٩.حرف الصاد .

(٤) المصدر السابق ١١٢/ ١٥. حرف الهاء.

وقد وصل الحوار إلى تقرير معنى الإيمان بقضاء الله وأن كل شيء بقدرته ، ورهن إشارته وليس كما اعتقده العرب في جاهليتهم.

وبرز الحوار في صورة هادئة وإن كان قد أفصح عن حيرة الأعرابي وبحثه عن الحقيقة التي خفيت عنه ، وكانت الألفاظ على قلتها متضمنة للمعاني الغزيرة ، وبالتالي فهي واضحة جداً تدل على تلك الحياة المتواضعة ، وتعبر عن روح العصر.

أما ما تضمنه الحديث من لطائف بلاغية فهي تتمثل في قوله – صلى الله عليه وسلم– (لا عدوى ولا صفر ولا هامة) ؛ حيث حذف المسند وتقديره : " لا تقولوا عدوى ولا..." ؛ لأنه لما كانت تلك العادات منتشرة بين العرب ، وأصبحت شيئاً معروفاً حذف المسند لأنه لا حاجة إلى ذكره لأن العادة جرت عليه ، ومن هذا القبيل ما ذكره أبو البقاء من أن من دواعي الحذف" العادة الشرعية كما في قوله ﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النَّمْلِ ﴾ [1] أي التناول."[2] وكذلك الحذف في قول الأعرابي : " فما بال الإبل تكون في الرمل " أي : تكون جالسة على الرمل أو باركة ونحو ذلك ، وحذف المسند للدلالة عليه من خلال السياق فكان في حذفه اختصاراً للكلام ؛ اكتفاء باللمحة الدالة ، إذ الخطاب لأعرابي عادته التجاوز عما يدل عليه السياق.

والاستفهام في قوله الأعرابي للنبي – صلى الله عليه وسلم – ليس من التعريض ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أصدق البشر ، وقوله هو الحق ، وهو كما قال الجاحظ : " لا ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة."[3] لكنه خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر قصد به الأعرابي التعجب من شأن الإبل حين تختلط بالبعير الأجرب فيصيبها ما أصابه ، وفي ندائه للنبي بحرف النداء للبعيد مع أنه قريب جداً من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويستمع مع أصحابه – رضي الله عنهم – ما يدل على الحيرة الشديدة التي تملكت الرجل ، واستغرابه مما يحدث في مرعى الإبل ، وقد أجابه النبي – صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٣).

(٢) الكليات " معجم في المصطلحات والفروق اللغوية " لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، ٢/٢٢٧ .قابله على نسخ خطية ووضع فهارسه د/عدنان درويش و محمد المصري، دار الكتاب الإسلامي . القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٣) البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ٢٤٤ ٢/٢٤٥.

وسلم – نحواً من سؤاله(فمن أعدى الأول) ولكن في استفهام النبي الكريم تعجيز وتنبيه على الخطأ فيما انطوت عليه أفهامهم من ظنون.

وفي تعريف البعير بـ (أل) وكونه موصوفاً بقوله (الأجرب) ما يدل على أن هناك فرد غير معين من أفراد الجنس أي : بعير غير معين يدخل بين الإبل فتصاب بالمرض بالعدوى والانتقال .

وفي استعمال حرف الجر " في" في قول الأعرابي " تكون في الرمل " وهو بمعنى " على" وغالباً ما تكون الإبل باركة على الرمل، واستخدام (في) المفيدة للظرفية دون (على) الدالة على الاستعلاء إشارة إلى بعد الإبل عن المناطق الوخيمة التي يمكن أن تؤدي إلى إصابتها بالمرض، كأن الرمال ظرف يحوط الإبل ويحميها من الإصابة بالجرب، ولذلك أتبعها بالتشبيه الدال على تمام السلامة من المرض وهو قوله (كأمثال الظباء) فإن وجه الشبه المكني عنه هو السلامة والخلو من المرض وعن استعارة الحرف أو استعماله بمعنى حرف آخر يقول ابن الأثير " وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها في مواضعها، وقد علم أن (في) للوعاء، و(على) للاستعلاء ، كقولهم: زيد في الدار، وعمرو على الفرس، لكن إذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى، فمما ورد منه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] . ألا ترى إلى براعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرفي الجر هاهنا، فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل ؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه ، لا يدري أين يتوجه وهذا معنى دقيق، قلما يراعى مثله في الكلام. "[2] .

والفاء في قول الأعرابي : " فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها " جاءت للترتيب والتعقيب ، أما في قوله (فيجربها) فهي تدل مع ذلك على السببية ؛ أي بعد فترة يسيرة جداً قد لا تستغرق يومين تصاب تلك الإبل بالجرب بسبب اختلاطها به ، فيكون جربها مرتبا ومسببا عن مجيئه ودخوله فيها.

---

(١) سورة سبأ آية (٢٤).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١٨٩ ٢/١٩٠.

ومن التشبيه المصور للمعنى ما يكشف عن الخيال العربي الخصب الذي يصور البيئة العربية الساذجة في قول الرجل : " ما بال الإبل تكون كالظباء.." ؛ فهنا تشبيه ؛ حيث شبه الرجل الإبل بالظباء ، بجامع الصفاء وصحة الجسم ، وخفة الحركة وهذا التشبيه يقرر في النفوس ما يريد قوله بمزيد من الإيضاح .

وفي قوله (فمن أعدى الأول؟) كان هذا الاستفهام مفحماً للرجل ؛ لأن فيه نفي العدوى بالحجة والدليل القائم على التفكير المستقيم وهذا من المذهب الكلامي .

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب ما رواه أبو هريرة قال:

بينما النبي – صلى الله عليه وسلم – في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال : متى الساعة ؟ فمضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم – يحدث، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم: بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه قال : (أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله ! قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قال: كيف إضاعتها ؟ قال : (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة .) (1)

وصف أبو هريرة مجلس الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه – رضوان الله عليهم – بهذا الوصف الحي وكأن السامع يرى الصحابة وهم جلوس حول النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يحدثهم عن أمر (ما) قد يكون من أمور الدين ، ثم يأتي أعرابي فيقاطع حديثه ويسأله عن أمر لا صلة له بالموضوع الذي هو محل الحديث، فيترك النبي الكريم الإجابة عنه ريثما ينهي كلامه حتى لا يشتت انتباه السامعين.

وفي الحديث حواران ؛ حوار دار بين القوم ـ وهم الصحابة ـ وحوار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والأعرابي ؛ أبرز شخصية الأعرابي وكشف عن طباعه ؛ لأنه سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – والنبي – صلى الله عليه وسلم – منشغل، وكذلك الصحابة كان اهتمامهم منصبا على ما يلقيه النبي الكريم على مسامعهم ، فكان تصرف النبي حكيماً ، وتعامله مع الأعرابي كان حليماً.

وفي الحديث حث على أمر جليل هو الأمانة ومراقبة الله فيما يولي السلطان غيره من أمور تكفل استقرار المجتمع ، والحفاظ على حقوق الأفراد، وذلك يتطلب منه الحرص، ودقة التحري فيمن يوليهم ؛ لأنه سيتحمل النتيجة فيما بعد ، ولهذا كان من علامات يوم القيامة ضياع الأمانة حين يتولى أمر الدين من هو جاهل لا دراية له ولا دين ، وما أكثرهم اليوم ، يكون الجاهل في – نظر البعض – عظيم القدر مهاباً ، فيتولى من أمور المجتمع ما يصعب عليه تحمله ، أو الوفاء به على الوجه المطلوب وفقاً للمصالح العامة وبما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – فحين يسند إليه ذلك يكون ظالماً لغيره ولنفسه ، ثم يكون مضيعاً للأمانة كما أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للإمام أبي زكريا النووي ٥٦٧- ٥٦٨.

ومن ينعم النظر في الحديث يجد فيه خصائص بلاغية في عباراته وألفاظه ومن هذه البلاغة استخدام المفردة الدالة على ما يكنه النبي الكريم في نفسه مثل (ضيعت ، وسد) والسر في استخدام لفظ " ضيع" دون ما يشابهه كخان ونحوه هو أن الضياع : فقد الشيء مع الحاجة إليه ، ومثله ضياع الأمانة مع احتياج الناس إليها في كثير من مجالات الحياة ، فهناك إبراز للمعنى في صورة موحية ، وأسلوب بديع ، وأما استعمال لفظ (وسد) دون غيره كأسند أو وكل ونحوهما مما هو في معنى وسد ففيه تصوير للحال التي يأسف فيها المؤمن على الأمانة ؛ كما أنه فيه زيادة معنى لا تكون في غيره ، فهو مع إفادة الإسناد والتفويض ففيه تأكيد بالصورة الموحية على المعنى المراد في النفس.

ويجد المتأمل التعريف في (الساعة ، الأمانة ، الأمر) ؛ فالتعريف في لفظ (الساعة) فمرده إلى العهد العلمي ؛ فقد كان الحديث عنها منتشرا بين العرب الذين سمعوا رسول الله يحدث عنها ، فصدق منهم من هداه الله ، وكذب من كذب ممن يحكي الله عنهم بقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾[1] ، فكأن الأعرابي يسأل النبي قائلا : متى الساعة التي تحدث بأمرها؟ والتي يلزم الإيمان بها؟ ، أما الأمانة فالشأن فيها كذلك ؛ أعني (أل) فيها للعهد العلمي ؛ ذلك أن المراد تحدث بأمرها ؟ والتي يلزم الإيمان بها؟ ، ذلك أن المراد بها ما اؤتمن المرء على حفظه من أمر ، أو كلف القيام به سواء أكان وديعة مالية ، أو سرا من الأسرار طلب كتمانه ، أو القيام بحقوق الرعية في ولايته . أما التعريف بـ (أل) في لفظ (الأمر) فهو كذلك ـ أعني ـ أن (أل) فيه للعهد العلمي ؛ إذ المراد به الحكم وتدبير شؤون الجماعة سواء أكانت ماثلة في الأقاليم أو الدولة ، وما يكون تحت سلطانها من ولايات على تنوعها .

والإيجاز بالحذف في بعض ألفاظ الحديث ماثل في قوله : (إذا ضيعت الأمانة) وتقدير المحذوف : إذا ضيع الناس الأمانة ، حذف المسند إليه هنا ؛ لأن الاهتمام منصب على الفعل " ضيع " وكأن الأمانة شيء له وجود ومشاهد بالعين وهو في الحقيقة أمر معنوي يدرك بالعقل. ومثله الحذف في قوله(إذا وسد الأمر) ، وكذلك حذف المسند إليه في قوله (فانتظر الساعة) وتقديره : إن كان الأمر كذلك فانتظر الساعة ، وحذف لوقوعه بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط.

---

(١) سورة النازعات آية (٤٢ ، ٤٣) .

وما جاء في قوله (فانتظر الساعة) عقب الجملتين (إذا ضيعت الأمانة) (إذا وسد الأمر على غير أهله) ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – ما كان يغني عن ذكر السؤال ؛ فالرسول – صلى الله عليه وسلم – قال : (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) فسأله الأعرابي عن كيفية إضاعتها ، فكان يكفي أن يقال : (إذا وسد الأمر إلى غير أهله) ففي توسد الأمر تضييع الأمانة وهذا هو الجواب المحذوف ، وكأن الأصل : إذا وسد الأمر إلى غير أهله ضاعت الأمانة ، ولكن الرسول الكريم أعرض عن ذكر الجواب ، وذكر ما يترتب عليه وهو قيام الساعة ؛ لأنه هو مناطق الاهتمام ، فكأنه ذكر المسبب وهو قيام الساعة ، وأراد السبب وهو تضييع الأمانة .

أما في قوله (إذا وسد الأمر إلى غير أهله) استعارة مكنية تلمح من اللفظ" وسد " ؛ حيث شبه الأمر بالوسادة التي يتوسد عليها ، وتنوسي التشبيه ، ثم استعير الوسادة للأمر ، ثم حذف المستعار وهو الوسادة ، وجيء بشيء من لوازمه وهو " التوسد " على سبيل الاستعارة المكنية ، يقول الشريف الرضي : " هذه استعارة والمراد إذا أسند الأمر إلى غير أهله ، فأقام الوساد هاهنا مقام السناد ؛ لأن المتوسد للشيء مستند إليه ومعتمد وإنما جعل – عليه الصلاة والسلام – الأمر مستنداً لهم ؛ لأنهم القائمون بأحكامه والمقيمون لأعلامه ، فهم له كالمساك والسناد ، والدعائم والعماد.[1]

وقد يكون قوله " إذا وسد الأمر إلى غير أهله" من الكناية كما ذكر أحد الباحثين ذلك حين قال : " هذا كناية عن إسناده إلى غير الأكفاء ذوي الجدارة. كتسليم الجاهل أمور التعليم وتولية الخائن وظائف الدولة ، وإسناد الشؤون العامة إلى من لا يحسن التدبير كالمرأة.[2]

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضي : ٢٦٦.

(٢) من كنوز السنة دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف. للشيخ / محمد علي الصابوني ، ١١٦– ١١٦ ، دار الجهل. د.ت.

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب ما روى عن أنس بن مالك :

أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يهدي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – هدية من البادية ، فيجهزه النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أراد أن يخرج ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم- : (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه) وكان يحبه ، وكان رجلاً دميماً ، فأتاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يوماً وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره ، فقال : من هذا ؟ أرسلني. فالتفت ، فعرف النبي – صلى الله عليه وسلم – فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي – صلى الله عليه وسلم- حين عرفه ، فجعل النبي – صلى الله عليه وسلم- يقول : (من يشتري هذا العبد؟) فقال : يا رسول الله ! إذاً والله تجدني كاسداً ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : (لكن عند الله لست بكاسد) أو قال : (أنت عند الله غال). [1]

يعجب المرء من تعامل النبي الكريم ، ويزداد إعجابه به عندما يعامل البسطاء من الناس بالرفق والإحسان ، ويتواضع وينزل إلى مستواهم ، كما هو شأنه- صلى الله عليه وسلم – مع ذلك الرجل جين مازحه في استظراف ولطف ، وألان له الحديث ، وجبر كسره بكلمة طيبة كان لها وقعها الخاص في نفسه ، فمقامه عند الله كما يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – ينال به الكرامة والعزة ، ويكفيه أن الله يتولى من عباده من يشاء ويختار ، وكما يشير الحديث إلى معنيين عظيمين هما المعاملة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، وعدم احتقار الناس لفرد منهم لدمامته.

وكان للحوار الذي دار بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والرجل دور في تشخيص نفسية الرجل ؛ إذ هو يحس بمدى نقصه في عيون الناس ، وأن المجتمع يرفضه وينبذه ـ فهو على حد قوله – كالبضاعة الكاسدة التي رغب عنها الناس ، وهذا شعور أي رجل ليس له أي ذنب جناه إلا أنه أسود اللون ، أو فقير الحال ، أو به عاهة ونحو ذلك ، كما هو الشأن في هذه الأيام ؛ هناك فجوات كبيرة بين الناس بعضهم البعض ، وصارت علاقاتهم قائمة على أساس الطبقة

---

(١) قال الألباني : " إسناده صحيح على شرط الشيخين" مختصر الشمائل المحمدية للإمام أبي عيسى محمد بن سؤرة الترمذي صاحب السنن ، اختصره وحققه / محمد ناصر الدين الألباني ، : ١٢٧ـ ١٢٨ ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض ، ط١ . ١٤٠٥هـ ، ط ٢ ١٤٠٦ ، ط٣ ١٤١٠ هـ. ط٤ ١٤١٣هـ .

والمستوى ، فضاعت من قواميسهم العبارات الجميلة ، واختفت من قلوبهم روح الكلمة الطيبة ، وزادوا في القسوة والعبوس فكبرت جراح غيرهم.

وكانت كلمات الحديث على قلتها واضحة فيها إيجاز شديد ينبئ عن معان كثيرة مطوية في ثنايا الكلام ، وهذا من البلاغة النبوية التي يصعب الارتقاء إلى ذروتها .

وعند تذوق الحديث وما فيه من فنون بلاغية يشعر المتذوق بمتعة ؛ لما تمثله من قسمات الجمال والإبداع كما هو جلي في قوله – صلى الله عليه وسلم – (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه) ؛ حيث ألقى النبي – صلى الله عليه وسلم – الخبر مؤكداً بـ (إن) ؛ حتى يزيل عن نفس الرجل ما تداعى إليها من حرج أو ضيق ، والإشارة للعبد بـ (هذا) جاء للدلالة على قربه ، وعلو مكانته عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، كما جاء الاسم بعده معرفاً بـ (أل) للعهد الحضوري ؛ فقصد النبي الكريم الرجل الذي بين يديه ، ولم يقصد به أي واحد ممن يصدق عليه وصف العبد ، وإطلاق هذا اللفظ عليه إنما هو من باب المزاح والملاطفة فالرجل معروف بكونه حرا لكثرة تردده على المدينة وبيع متاعه فيها.

والاستفهام في قول الرجل (من هذا ؟ أرسلني) حقيقي ؛ لأن الرجل لم يعرف من الذي احتضنه ولذلك أتبعه بالأمر المراد به الحث والترغيب في إطلاقه بقوله (أرسلني) ، أما الاستفهام في قوله (من يشتري هذا العبد ؟) فهو للإثارة ، والتحريض على الانتباه إلى محبة النبي – صلى الله عليه وسلم – لزاهر ، حيث يرونه محتضنا له. وفي جواب الرجل في قوله (يا رسول الله ، إذن والله تجدني كاسداً) إذن هنا لاستبعاد من يشتريه ولو بدراهم معدودة أو حتى ينظر إليه ؛ ولذا جاءت في جواب جملة محذوفة تقديرها : لو كنت عبداً ، وكان هناك من يشتري العبيد إذن تجدني كاسداً ، فقوله جاء جواباً . يقول ابن هشام في (إذاً) : " قال سيبويه معناها الجواب والجزاء ، فقال الشلوبين : في كل موضع ، وقال أبو علي الفارسي : في الأكثر ، وقد تتمحض للجواب ، بدليل أنه يقال لك : أحبك ، فتقول : إذن أظنك صادقاً إذ لا مجازاة هنا ضرورة."(١)

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ٢٨٢٧ /١. وينظر الكتاب لسيبويه ١٣-١٤ / ٣، ومعاني الحروف للرماني ، : ١٥٩. ١٦٠ . وموسوعة الحروف في اللغة العربية لإميل بديع ٨٣.

وفي تقديم الظرف (عند الله) على المسند ما يدل على اختصاص العبد بتلك المنزلة العظيمة عند الله تعالى ، وأنه ينال من الكرامة ما ينال ، ففي الظرف تصور لتلك الحال ، إذ هي مستقرة وثابتة مما جعل النبي – صلى الله عليه وسلم – يستخدم اسم الفاعل الذي يدل على هذا المعنى ، و قد أكد ذلك بالباء الزائدة في اسم الفاعل (بكاسد) لكونه في سياق النفي .

ويطالع المتلقي الوصل بين الجمل في قوله – صلى الله عليه وسلم – (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه) ؛ فالجملتان خبريتان لفظاً ومعنى ، لكنهما متضادتان ؛ فالبادية ضد الحاضرة ؛ ولذا وصلت الجملتان ، وكذلك يطالعه الفصل في قول الرجل مستفهماً : من هذا؟ أرسلني ؛ فالأولى إنشائية جاءت للاستفهام ، والثانية إنشائية كذلك جاءت للأمر ، فبينهما كمال الانقطاع .

وفي الحديث من البيان : المجاز المرسل في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه) ؛ حيث استعمل النبي الكريم لفظي (البادية) و(الحاضرة) وهما المكان الذي يعيش فيه الناس ولكل خصائصه التي تؤثر في سلوك ساكنه ، ولم يقصد بهما إلا الحال المؤثرة عن تصرفهم ، وقصد به النبي الكريم المزاح والملاينة في الكلام).[1]

والاستعارة في قوله" إذاً والله تجدني كاسداً " فهنا استعارة مكنية ؛ حيث شبه الرجل نفسه بالبضاعة الكاسدة التي لا رواج لها ، وحذف المستعار ، ودل عليه شيء من خصائصه وهو الكساد ، وهذا يثير في ذهن السامع مزيداً من التأمل والخيال ويزيد من عمق الصورة في نفسه .

وفي الحديث يلمح الطباق الذي يزيد المعاني توضيحاً وتقريراً في النفس في قوله (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه) فجمع بين البادية والحاضرة وهو طباق إيجاب ، وفيه إلى جانب ذلك طباق السلب بين " كاسد ، لست بكاسد".

على أن في هذا الحديث تورية بديعة ؛ فلفظ (العبد) يطلق على معنيين : الأول الظاهر غير المراد وهو الفرد من أفراد العبيد ، والثاني وهو الخفي المراد وهو الواحد من أفراد العباد ،

---

(١) أعني مجاز مرسل علاقته المحلية ؛ حيث أطلق المحل وأريد الحال ، والمعنى : أن زاهراً من أهل باديتنا ، ونحن من أهل حاضرته وإنما أوثر المجاز ؛ لبيان أثر المحل في سلوك الإنسان وحاله .

فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يقصد المعنى الثاني ، والقرينة الدالة على ذلك كون زاهرا معروفاً للصحابة بالحرية فهو يقصد المدينة ويبيع فيها متاعه وهو يهدي النبي – صلى الله عليه وسلم – والنبي الكريم يجهزه . واستعمال التورية في الحديث النبوي يكشف عن تمكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من توظيف اللغة في ذلك العصر الذي كان يندر فيه استعمال التورية .

ومن حوار النبي – صلى الله عليه وسلم- مع الأعراب ما روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال أعرابي للنبي – صلى الله عليه وسلم - : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليري مكانه ، من في سبيل الله ؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .)[(١)]

الحديث يدل على من هو جدير بلقب المجاهد ، فالذين يخوضون غمرات الحروب كثيرون ، لكنهم ذوو دوافع شتى ، وقد بادر الأعرابي بسؤال النبي –صلى الله عليه وسلم – وهذه عادة الأعراب يسألون ويستخبرون عن كل ما يجري في نفوسهم من خواطر ، فالأعرابي في نفسه حاجة ماسة إلى معرفة من هو الجدير بصفة الجهاد في سبيل الله ، فعدد للنبي الكريم أصناف الذين يقاتلون في ساحة المعركة ، فهناك الذي يقاتل من أجل أن ينال غنائم الحرب ، وهناك الذي يقاتل من أجل الشهرة بين الناس ، ومن يقاتل لتصبح له مكانة ومنزلة رفيعة بين قومه وعشيرته فبين له النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الجدير بصفة الجهاد في سبيل الله من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

وكان الحوار في صورة سؤال يتطلب إجابة حكيمة من النبي – صلى الله عليه وسلم – وفي إجابة النبي الكريم للأعرابي إيجاز شديد يزيد من ثراء المعاني في النفس وهذا من بلاغته – صلى الله عليه وسلم – يقول العسقلاني : " في إجابة النبي – صلى الله عليه وسلم – بما ذكره غاية البلاغة والإيجاز ، وهو من جوامع كلمه- صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله وليس كذلك ، فعدل إلى لفظ جامع ، عدل به عن الجواب عن ماهية القتال ، إلى حال المقاتل فتضمن الجواب وزيادة . [(٢)]

والحديث على وجازته يحمل فنوناً بلاغية تلمح بالنظرة ويكشف عنها الذوق البلاغي كما هو واضح في تعريف هذه الألفاظ" الرجل ، كلمة الله ، العليا" ؛ فلفظ الرجل عرف بـ " أل" للجنس المراد به فرد من أفراد هذه الجنس غير معين ، إذ المراد بالرجل هنا فرد غير معين من أفراد الرجال ، وعرف لفظ" كلمة الله " بالإضافة للتعظيم من شأنها ، وما تحمله من دلالة على

---

(١) صحيح البخاري ٢/٩٦١.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٦/٣٦.

العبادة الخالصة لوجه الله ، وعرف لفظ " العليا" وهو على وزن " فعلى " وهي صيغة التفضيل للمؤنث للدلالة على الشرف والعزة والمكانة .

ويتجلى الإيجاز بالحذف في قول الأعرابي : " الرجل يقاتل ليذكر ، ويقاتل ليرى مكانه" ؛ ففي الفعل المبني للمجهول " يذكر" و" يرى " حذف تقديره : ليذكره الناس بالشجاعة فتشتهر بينهم، أو ليرى الناس مكانته فيحظى بتقديرهم ، والحذف هنا جاء لأن المسند إليه لا يتعلق به غرض، فالغرض هنا منوط بالمسند وهو الذكر والرؤية ، وكذلك حذف المسند إليه " الرجل " لدلالة ما قبله عليه.

أما ذكر المسند إليه في قول النبي – صلى الله عليه وسلم – :(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ..) فذكر الضمير " هي " لتخصيص الخبر؛ أعني قصر العلو على كلمة الله لا يتجاوزها إلى غيرها ؛ لأن الأعرابي ظن أن الذي يقاتل لغرض من تلك الأغراض يكون مقاتلاً في سبيل الله .

واستعمال " قاتل " بصيغة فاعل بمعنى قتل يدل على علو المقاتل، وكأنه قرر ثبوت القتل للمجاهد في سبيل الله .

ومن قصر الصفة على الموصوف ما جاء في قوله – صلى الله عليه وسلم - : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) ؛ حيث قصر صفة العلو على كلمة الله ، والعلو صفة، وكلمة الله موصوف ، وهذا من قبيل الإفراد ؛ لأن الرجل ظن أنه من قاتل للشهرة مع ابتغاء وجه الله ، فرد عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم – بذلك. ويجوز أن يكون قصر قلب على اعتبار أن الرجل كان يعتقد أن من قاتل للشهرة فقط ، أو المغنم فقط ، فرد عليه بذلك قاصداً أن يقلب عليه اعتقاده ببيان أن من قاتل لإعلاء كلمة الله هو المقاتل في سبيل الله لا غيره ، ولا يخفي أن ضمير الفصل (هي) يفيد القصر. وقد يكون هذا من الأسلوب الحكيم ؛ فحين ذكر الأعرابي هؤلاء لاعتقاده بأن أحدهم يقاتل في سبيل الله فكان جواب النبي – صلى الله عليه وسلم – له عكس ما توقعه وقال إن الذي يستحق أن يوصف بالمجاهد في سبيل الله هو الرجل الذي يدافع عن كلمة التوحيد.

أما الوصل فهو في قول الأعرابي : " الرجل يقاتل للمغنم ويقاتل .." فالثانية مشاركة للأولى في الحكم لذا كان الوصل بينهما بالواو ، وقد يكون كلام الأعرابي من باب الجمع

والتقسيم ؛ فهو قسم وعدد من يقاتل في ساحة المعركة ، ثم جمعهم بقوله مستفهماً : " فمن في سبيل الله ؟ " وهو مثل قول حسان بن ثابت : [1]

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم　　　أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجيـــة تلك غير محــدثـة　　　إن الحــوادث فاعلـم شرها البـدع

فهناك قسم ثم جمع. [2]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٢٣٨، تحقيق د. سيد حنفي حسنين، مراجعة، حسن كامل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة العربية- القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للجرجاني ٩٤. ومعجم البلاغة العربية ، د / بدوي طبانة ، ص ١٣٣.

ومن حواره – صلى الله عليه وسلم – مع الأعراب ما روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رجلاً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود . فقال:ـ صلى الله عليه وسلم ـ :(هل لك من إبل ؟) فقال:نعم ، قال: ما ألوانها؟ فقال: حمر، قال : هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لورقاً . قال: فأنى أتاها ذلك ؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرق. فقال. صلى الله عليه . وهذا عسى أن يكون نزعه عرق) [1].

استخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – أسلوب الحوار، ليقنع الأعرابي بالحقيقة التي خفيت عليه ، ولم يجبه بما سأل عنه ، وعرض به ، بل ساعده بهذا الأسلوب، ليستخلص تلك الحقيقة بنفسه ، مما قدمه إليه من المثل الحي الذي يعايشه ويراه أمام بصره ويدرك سره.

لقد جاء الأعرابي والقلق يستبد بنفسه والحيرة والشك يملآن قلبه ، فألقى عليه هذا الخبر الذي استجاش مشاعره، وألهب خواطره : (إن امرأتي ولدت غلاماً أسود) فأدرك النبي – صلى الله عليه وسلم – الغرض الذي ألمح إليه ، ولم يصرح به ، وهنا برزت الحكمة المعهودة فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يذكر له تلك الحقيقة بطريقة مباشرة، أو بأسلوب مجرد يعتمد على الإدراك العقلي، دون سند من الواقع ينير الطريق إلى فهم المراد به، لكن أخذ يسأله ويتلقى الجواب على سؤاله، ومن السؤال والجواب وصل به إلى الغاية التي جعلته يدرك السبب في كون الغلام أسود، وهو الميراث من أحد الأعراق التي ينتمي إليها ، فقام عنه وهو مقتنع راض النفس، مطمئن القلب، ثابت الجنان .

هذا هو مضمون الحديث في هذا القالب الأسلوبي ، فإذا نظر المتذوق إليه من الوجهة البلاغية راعه بخصائصه التالية :

أول ما يلفت النظر في بلاغة هذا الحوار، وضوح ألفاظه فليس فيها لفظ يحتاج إلى استشارة مرجع لغوي ليوقف على معناه ، وهذا شأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأعم الأغلب فيما يختاره من مفردات اللغة ، لكن الذي يلفت النظر بصورة أقوى هو قول الأعرابي: (إن امرأتي ولدت غلاماً أسود) فقد ألقى الخبر على مسمع النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد أن مهد له بهذا النداء: يا رسول الله منادياً إياه نداء البعيد ، وفي النداء بهذه الصورة إيماء إلى استغاثة به ، ولا جرم ؛ فهو في مأزق يريد أن يستنقذه منه ؛ مأزق الاحتمال

---

(١) صحيح البخاري ٤/٢٢٨٤.

لأن تكون زوجته اتصلت بغيره ، فأتت بغلام لا يشبهه في لونه ، وليس لديه من دليل إلا اختلاف اللون فقط ، ولن يجد سواه فهو الذي يأتيه وحي السماء فيخبره بحقيقة الأمر.

وبعد هذا التمهيد للخبر ألقاه إليه مؤكداً مع أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالي الذهن منه فكان حقه أن يقول له : (ولدت امرأتي ...) ولكن لأن الهواجس تمور في نفسه وتنازعها خواطر القلق والخوف من أن لا ينقذه أو يجد نفسه في موقف يستلزم حد القذف، نزله منزلة الشاك، فألقى إليه على تلك الصورة من التأكيد بمؤكد واحد (إن) ليقع الخبر من نفسه موقع التصديق لأول وهلة.

على أن وتيرة التأكيد هذه بلغت غاية أبعد في قوله مجيباً سؤاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (هل فيها من أورق؟قال: إن فيها لورقاً) ولا يخفى ما في هذا التأكيد من تكثيف ؛ حيث أكد هذا القول بثلاثة مؤكدات هي إن ، واللام، واسمية الجملة ، ومثل هذه الصورة من التأكيد إنما تكون لمن ينكر الخبر ، ولم يكن الرسول بحاجة إلى هذا التأكيد ، لأنه لم يسبق له علم بهذا الخبر لينكره أو حتى ليشك فيه ، ولكن الأعرابي آثر هذه الصورة المكثفة ليرى ما سيترتب على هذا الخبر المؤكد من حكم هو لا يعرف محتواه .

وليتأمل المتذوق لبلاغة الكلام التي تتراءى في هذا السؤال : (هل لك من إبل ؟) إذ لم يقل ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (هل لك من إبل ؟) فهذا الحرف (من) يشير إلى كثرة المسؤل عنه ، ولو جاء خالياً منه لصدق بواحد أو اثنين كأن يقول: عندي جمل أو اثنان، واحتمال تعدد الألوان فيها بعيد ، ومن ثم جاء السؤال التالي (ما ألوانها؟) بالجمع دون الإفراد ، على أن هذا الحرف إنما دل على الكثرة لكونه مبيناً لمحذوف والتقدير: هل لك قطيع من إبل ؟ ، والإيجاز بالحذف يملأ النفس لاكتناز العبارة، وبعدها عن الترهل في موقف لا يحتمل إطالة اللفظ بغير طائل.

على أن هذا الحرف في السؤال القائل (هل فيها من أورق ؟) بمعنى بعض ؛ إذ التقدير: هل فيها بعض أورق ؟ والسؤال عن بعض الأورق هو محور القضية ومركزها ؛ فهو الذي سيقدم البرهان الساطع لحسم الحكم فيها، وإزالة الشك وإحلال اليقين محله.

والـذي يـراوغ الفكـر في هـذا الحـديث لفـظ (عسـى)؟ فهـو في الكـثير الغالـب مـن الاستعمال يكون بمعنى الرجاء ، إذا كان الأمر محبوباً ، أو الإشفاق إذا كان الأمر مكروهاً[(١)] وليس مراداً به هذا أو ذلك في السياق الذي بين أيـدينا ؛ إذ لا يصـح أن يكـون المراد أرجـو أو أخشى أن يكون نزعه عرق ، بل المراد به هنا إما القطع ، وإما الشك والاحتمال ؛ إذ يصح أن يكون المعنى يقيناً نزعه عرق ، أو ربما نزعه عرق ، وهذا اللفظ قد يستعمل مراداً به أحد هذين المعنيين ، كما ذكره اللغويون غير أنه في مثل هذا الاستعمال يكون جارياً على نهج الاستعارة بأن ينزل الأمر المتيقن ، أو المحتمل منزلة الأمر المرجو بجامع المحبة في كل ، ثـم استعير الفعـل (عسى) لأي منهما على سبيل الاستعارة التبعية .

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (وهذا عسى أن يكون نزعه عرق) تشبيه ضمني ؛ حيث شبه الغلام الذي خالف لونه لون والديه بالجمل الذي خالف لونه سائر القطيع ، ووجه الشبه اكتساب اللون من أحد الأصول البعيدة ، وفي إسناد الفعل (نزع) إلى(عرق) استعارة تبعية في الفعل ، حيث شبه الاكتساب بالنزع ، ثم استعير النزع للاكتساب ، ويجوز أن يكون في لفظ (عرق) استعارة مكنية ؛ حيث يشبه العرق بالكائن القوي الذي يأخذ الشيء بالقوة.

وأياً ما كانت الاستعارة فإنها تصور للقارئ عمل الوراثة في صورة مرئية مشاهدة صورة النزع ، أو الكائن وهو ينزع شيئاً بقوة ، أرأينا كيف تتداخل الصور البيانية في عبارة قصيرة لا تتجاوز خمس كلمات ؟ ! إنها بلاغة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا ينبغي أن ننسـى مـا في لفظ (عرق) من التنكير ، ودلالته على الإفراد والإبهام ، إذ لا يمكن تحديد عـرق يكـون هـو السبب في اللون المخالف وإنه ليروع القارئ المتذوق لجمال التعبير هذا الترقي في السؤال ترقيـاً قائماً على التسلسل الطبيعي الذي يقره العقل وينتهي إلى نتيجة يلـزم التسـليم بهـا ، وهـذا مـا يسميه البلاغيون المـذهب الكلامـي ، وفي القـول الـذي حمـل قضـية الأعرابي : (إن امرأتـي ولدت ..) تعريض ؛ إذ يفهم من هذا الكلام اتهام غير صريح لزوجته ، ولم يرجع عنه إلا بعد أن ضرب له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً من الواقع الحي المشاهد .

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادي ، باب الواو والياء ، ص ١٦٩٠ .

ومن حواره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الأعراب ما روي عن أسامة بن شريك قال :

شهدت الأعراب يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلينا حرج في كذا ؟ أعلينا حرج في كذا ؟ فقال لهم : عباد الله ! وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً فذاك الذي حرج) فقالوا : يا رسول الله هل علينا جناح أن لا نتداوى ؟ قال : (تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم) قالوا : يا رسول الله ما خير ما أعطي العبد ؟ قال : (خلق حسن .) [1].

قدم الأعراب من البادية فحضروا مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أخذوا يسألونه عما يتصل بحياتهم العامة ، فأجابهم عما سألوا ، وكأنه لمس بذكائه اللماح بساطة ما يكون في حياتهم ، فرآه بعيداً عما فيه إثم ، فخاطبهم قائلاً : رفع الله الحرج عامة إلا ما كان ماساًبعرض الأخ المسلم فإن فيه التحريم الشديد ؛ لأنه غيبة ومن باشرها كان كمن أكل لحم أخيه ميتا ، ولا جرم أن تكون بهذه المثابة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين.

وهنا شرعوا يسألونه عن حكم التداوي ، وعن خير ما أعطي العبد ، فأجابهم أن التداوي مشروع لأنه أخذ بالأسباب ، ولا ينافي التوكل على الله وأن خير ما أعطي العبد حسن الخلق .

والحوار ـ كما هو واضح ـ هادئ لطيف ليس فيه شائبة من شدة ،ولا تلمح فيه نبرة عالية ، لأنه يلتمس الإبانة عما فيه إثم ليجتنب ولا مراجعة فيه حول أمر ملتبس ليجتلي وجه الحق فيه .

أما ما فيه من سمات بلاغية فهاهي ذي على نحو ما استبان لي :

تبدو الألفاظ واضحة لا تلجئ القارئ إلى استشارة معجم لغوي فما هي إلا أن يقع عليها النظر حتى تدرك معانيها ، وهي سهلة على اللسان لا يجد في نطقها شيئاً من العسر وهي مع يسرها ووضوحها يحتاج بعضها إلى التوقف يسيراً ، لمعرفة سر إيثارها على ما يقرب منها في المعنى ،ومن ذلك لفظ (الحرج) ولفظ (اقترض) ،ولفظ (الجناح) ؛ فالأول يراد به التحريم ، يقول ابن الأثير: " الحرج الإثم والضيق ، يقال : حرج على ظلمك أي حرمه أو حرجها بطلقة أي حرمها " وهو بهذا القول يجمع بين معان متقاربة دون أن يكشف عن المفارقة بينها ، فالإثم الذنب ، والحرمة ارتكاب الذنب ، والضيق الكف والمنع منه ، وإيثار ـ لفظ

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه ، إسناده صحيح ورجاله ثقات ، سنن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ٢/١١٢٧. تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي . د.ت .

الضيق ـ كما ينتبه من له ذرْو من الذوق اللغوي ، لما فيه من الإيماء إلى الإبعاد عن الأمر الحرام فإن القرب منه مدرجة إلى الوقوع فيه ، ولا جرم فمن حام حول الحمى أوشك أن يواقعه.

وإيثار لفظ (القرض) على ما هو بمعناه وهو (الغيبة) ، لما يؤمن إليه من الكراهية المؤدية إلى القطيعة ؛ فالقرض في اللغة معناه القطع ولينظر القارئ إلى ما ذكره ابن منظور إذ يقول : " أصل القرض في اللغة القطع ، والقرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازي عليه ، ومنه المقارضة ، وتكون في العمل السيئ والقول السيئ يقصد به الإنسان صاحبه."[١].

والقول السيء الذي يقصد به الإنسان صاحبه أكثر ما يكون في الغيبة ، وهذا الاستعمال منظور فيه إلى ما يترتب عليه من قطيعة بين من صدر منه هذا القول ، ومن قصد به ، وينظر المتلقي إلى مرماه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين استعمل القرض مريداً به الغيبة ، إنه الإيماء إلى القطيعة التي يحذر من وقوعها لما يترتب عليها من البغضاء والتناحر المؤدي إلى تفكك الروابط بين المسلمين ، أما إيثار لفظ الجناح على ما يقاربه في المعنى وهو الإثم ؛ فلا يومئ إليه لفظ الجناح من الميل إلى الشيء والرغبة فيه ، والرغبة في الإثم تدفع إلى سيطرة الهوى على النفس ، فيصير الإنسان أسير رغباته وشهواته ، وينتهي به الأمر إلى الهلكة ، فانظر إلى العربي المستقيم الفطرة حين يخشى على نفسه أن يجنح إلى الإثم في عمل يظن أنه ينافي التوكل على الله وهو التداوي !! ومن ثم لمح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الخشية ، وأدرك دلالتها على العبودية الخالصة ، فأرشدهم إلى التداوي مخاطباً إياهم بلفظ العبودية قائلاً : (تداووا عباد الله).

هذا في المفردات ، أما في التركيب فتتراءى للمتذوق إيماءات بالغة حد الروعة ومن تلك ما يلحظ في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخاطباً هؤلاء الأعراب (عباد الله) مؤثراً لفظ (عباد) مضافاً إلى لفظ الجلالة ؛ لما فيه من تكريم وتشريف ، ولو لم يكن يومئ إلى ذلك لقال (أيها الناس) مثلاً وقوى تلك الإيماءة بأخرى تتمثل في الإيجاز بحذف أداة النداء ؛ ليلحظ المخاطبون قربهم من نفسه ، ولولا ذلك لقال : أي عباد الله ، أو غيرها من أدوات النداء الموضوعة لنداء القريب كالهمزة .

---

(١) لسان العرب لابن منظور، حرف القاف . ٧٠ ـ ٧١ / ١٢.

ومنها إسناد وضع الحرج إلى الله في قوله (وضع الله الحرج) ؛ ليشير إلى أن مصدر التشريع بالتحليل أو الحريم هو الله ، وإنما هو مبلغ ، وفي ذلك ترويض لنفوسهم حتى تستجيب لما أمروا به أو نهو عنه راضية مطمئنة ، وذكر المسند إليه بلفظ الجلالة لتربية المهابة في نفوسهم ، فهو السيد المالك ، الذي له الأمر والنهي ، وما يترتب عليهما من ثواب أو عقاب ، وأورد متعلق المسند (وضع) معرفاً بأل (الحرج) لإفادة استغراق الجنس استغراقاً عرفياً . إذا المعنى : وضع الله كل الحرج عن الممارسات المعهودة في أرضكم ، ولو كان هذا الاستغراق غير مراد لما كان للاستثناء الماثل في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إلا من اقترض ..) معنى .

ومن السمات البلاغية في هذه الجملة الكبيرة تنكير مفعول (اقترض) فإن تنكيره يوحي بالقليل ، فالقليل من الغيبة محرم ، أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ (حرج) ، ويروع القارئ إيراد المسند إليه في جملة جواب الشرط اسم الإشارة للبعيد ، فإنه يوحي ببلوغ ذلك الشيء القليل من الغيبة مدى بعيداً في الحرج ، وفي ذلك من التحذير من اقتراضه أو ممارسته ما فيه .

وقد استتبع هذا البيان الشامل لوضع الحرج سؤالاً عما ظُن أنه غير مشمول بوضع الحرج وهو التداوي ، وذلك قولهم (يا رسول الله : هل علينا جناح ألا نتداوى ؟) هكذا بالفاء التي تدل على فورية السؤال عقب البيان ، وبالتمهيد لهذا السؤال بندائهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بـ (يا) الموضوعة لنداء البعيد ، مع إيثار وصف الرسالة ، فلم يقولوا (يا محمد) كما كان يحدث من بعض الأعراب الجفاة ، وهذا القول يوحي بتعظيمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والإقرار برسالته ، فهم مؤمنون بكونه رسول الله إليهم ، ومن ثم كان حوارهم إياه حول ما ينبغي اجتنابه من الممارسات ، وإيرادهم لفظ (جناح) منكراً للإفراد ، أو للتنويع ؛ إذ المعنى هل علينا جناح (ما) صغيراً كان أو كبيراً ؟

ومن سمات بلاغته في هذا الحوار جوابه إياهم بقوله (تداووا عباد الله) ؛ فإنه لم يجبهم بما يوافق سؤالهم بأن يقول : نعم عليهم جناح ، وهو بهذا يتحاشى أن يجيبهم تصريحاً بما يدل على ارتكابهم إثماً إذا لم يتداووا ، وآثر أن يلوح لهم بذلك بما يومئ إليه الأمر بالتداوي ، فإن الأمر به يوحي بأن في تركه إثماً ، وهذا لون من التلطف في الخطاب لا يرقى إليه إلا القليل من البشر ، ويؤكد إيثار التلويح على التصريح نداؤه إياهم بوصف العبودية لله ،

ومن كان عبدالله كان جديراً بالترفع معه في الخطاب حتى ولو كان ذلك في إطار البيان والإيضاح ، وكما يؤكده حذف النداء ولو كانت لنداء القريب .

ولم يكتف الرسول بالأمر المراد به التوجيه والإرشاد بل أتبعه بالتعليل بقوله (فإن الله لم يضع داء ...) وفي جملة التعليل هذه أورد المسند إليه بلفظ الجلالة ؛ للإيماء بأن حصول الداء وإيجاد الدواء واقع بإرادته وقدرته، فالسيد يتصرف في ملكه وفق إرادته، ويحدث ما أراد بقدرته ، ومادام هو المحدث، والموجد فإن التداوي لا ينافي التوكل عليه ، وهو أخذ بالأسباب وترك الأخذ بالأسباب إثم ، وتنكير المفعول في هذه الجملة للإيماء إلى الشمول ؛ فكل داء أوجده الله أوجد له شفاء .

ويبدو أن الأمر بالتداوي أحدث في نفوسهم نوعاً من الدهشة ؛ إذ كان في حسبانهم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيجيبهم بنفي الجناح ؛ لأنهم كانوا يظنون أن تركه دليل التوكل على الله ؛ ولذلك سادهم الصمت لحظة من الزمن ثم قالوا : (يا رسول الله ما خير ما أعطي العبد؟) ويشير إلى الصمت الناشئ عن الدهشة ترك الفاء في لفظ الحكاية (فقالوا) فهذه الفاء تشير إلى فورية السؤال عقب ما ذكر قبله كما سبق بيانه ، وتركها هنا يشير إلى حدوث الحوار بعد برهة زمنية قصيرة تعبر عما ساورهم من الدهشة .

وعاد الحوار بعد انقطاع تلك البرهة حاملا السؤال عن خير ما أعطي العبد ؟ وفي جملة السؤال أو في جعل المسند إليه يطل من خلف السياق ببناء الفعل المسند لما لم يسم فاعله، وإقامة المفعول مقامه فقيل (أعطي العبد) فمن المعلوم وفقاً للسياق أن المسند إليه هو الله تعالى ؛ إذ لا معطي للعبد سواه ـ جل شأنه ـ ، وذلك للمسارعة إلى بيان المعطى فهو الذي ينتفع بالعطاء ، ومعرفته العطاء نفسه هو ما تعلق به نفس السائل ، ومن ثم فهو يسأل عنه وأوثر تعريف القائم مقام المسند إليه (العبد) بأل التي تفيد العموم ؛ إذ ليس لهذا اللفظ مراداً به فرد معين من الإفراد التي تندرج تحته ولا فرد غير معين ، على نحو قوله تعالى : ﴿وَجَآءُو فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۝١٧﴾[1] بل المراد كل ما يندرج تحته من الأفراد .

كل ما سبق من خصائص بلاغية إنما هو في إطار الجملة الواحدة ، ويضاف إلى تلك الخصائص الإيجاز بالحذف في عدة مواضع : هي في قوله (وضع الحرج إلا من اقترض) فقد

---

(١) سورة يوسف آية ١٧ .

حذف المستثنى منه ، والأصل أن يقال : وضع الله الحرج عنكم ؛ إذ لا يصح الاستثناء إلا بذلك ، و المسند ومتعلق الفعل في جملة الصلة ، إذ الأصل أن يقال : فذاك الذي حرج الله عليكم ، والمسند إليه في جملة الجواب عن السؤال الأخير ، إذ الأصل أن يقال : خير ما أعطي العبد خلق حسن .

وهذا ـ كما هو واضح ـ من قبيل حذف جزء من الجملة ، وإلى جانب ذلك يلحظ في الحديث حذف جملة تامة أومأ إليها المذكور من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تداووا عباد الله) فإن أصل الجواب أن يقال : نعم عليكم إثم إن تركتم التداوي ، والإيجاز في ذلك كله يقتضيه الحوار ، إذ التحقق من ذكر ما يدل عليه السياق عون على المسارعة إلى ذكر ما هو أعلق بالغرض تلبية لحاجة المحاور من الاقتصار على مناط الفائدة .

ومن اللافت في هذا الحديث تأكيد الخبر في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء) مع أن المخاطبين ذهنهم خال من مضمون الخبر، وكان ظاهر المقام يقتضي سوقه عارياً من التوكيد ، والسر في هذا حرصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الاقتناع بالخير ولو قال : لم يضع الله داء إلا وضع له دواء ، لجاز أن تثور في نفوس المخاطبين تساؤلات ، وإن لم تفصح بها ألسنتهم مفادها : أكل داء وضع الله له دواء ؟؟

أليس هناك أمراض لا دواء لها ؟ وقد زاد هذا التأكيد أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء قصر موصوف هو وضع الداء على صفة هي وضع الشفاء. ولا يخفى دلالة الأمر على التوجيه والإرشاد ؛ فإن الإلزام هنا غير وراد إلا من جهة المخاطب ؛ فقد يلزم الإنسان نفسه بأمر فيه منفعة وإن لم يكن واجب الالتزام .

وإذا كان في الحديث إيجاز فإن فيه إطناباً يتمثل في الاحتراس بالاستثناء في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً فذاك الذي حرج) فلو اقتصر ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قوله (وضع الله الحرج) لتوهم المخاطبون أن كل الممارسات لا حرج فيها ، ولأن ذلك غير مراد ، احترس النبي فأخرج من هذا العموم الغيبة ، وصار وضع الحرج غير شامل لها . وكذلك الشأن في الاحتراس بالاستثناء في قوله (.. إلا الهرم) ، فلو لم يذكر هذا الاستثناء لتوهم المخاطبون أن للهرم دواء ، ولذلك احترس ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكره حتى لا يقع هذا التوهم من أول الأمر .

ومن السمات البلاغية في هذا الحوار الاستعارة التبعية في قوله (اقترض من عرض أخيه شيئا) حيث شبه القدح بالاقتراض بجامع التناول في كل ، ثم استعير الاقتراض للقدح ، واشتق منه اقترض بمعنى قدح فيه ، ويمكن أن يكون في القرينة (عرض أخيه) استعارة مكنية بأن يشبه العرض بالثوب بجامع الإصابة بالقذى في كل ، ثم استعير الثوب للعرض ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاقتراض ، وعلى أي من التقديرين فقد صور المعنوي في صورة محسوسة يلمس فيه القبح المؤدي إلى التنفير من اقتراض هذا الإثم.

وكذلك الاستعارة في قوله (لم يضع داء إلا وضع له شفاء) حيث شبهت الإصابة بالدواء بوضعه بجامع الإيلام في كل ، ثم استعير الوضع للإصابة (وضع بمعنى أصاب) على سبيل الاستعارة التبعية ، ويمكن أن تكون الاستعارة مكنية ؛ بأن يشبه الداء بالحمل الذي يوضع على العاتق بجامع المشقة في كل ، ثم استعير الحمل للداء، ثم حذف المستعار ورمز إليه بشيء من لوازمه و هو الوضع على سبيل الاستعارة المكنية [1] ، وعلى أي من التقديرين فالاستعارة صورت الداء في صورة محسوسة ، يتبين بها الأمر المكروه ، ونظير ذلك وضع الشفاء غير أن الوضع هنا يراد به الإيجاد ، فيقال : شبه أيجاد الدواء بوضعه بجامع الاحتياج إلى المكان في كل، ثم استعير الوضع للإيجاد على سبيل الاستعارة التبعية ، أو يمكن أن يكون المستعار شيئاً مادياً محبوباً ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو وضعه في يد من يحب .

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إلا الهرم) تشبيه ضمني ؛ حيث يفهم من استثناء الهرم من الداء تشبيه بالداء وفي ذلك إيحاء بآلام الشيخوخة ومتاعبها التي لا علاج لها[2].

وبين الداء والشفاء طباق لامع وإن كان يلفه خفاء فإن مقابل الداء السلامة وهي لازمة للشفاء.

---

(١) من المعروف أن قرينة المكنية يمكن اعتبارها استعارة تبعية .

(٢) يقول صاحب التحفة نقلاً عن الخطابي : " جعل الهرم داء وإنما هو ضعف الكبر وليس هو من الأدواء التي هي أسقام عارضة للأبدان من قبل اختلاف الطبائع وتغير الأمزجة وإنما شبهه بالداء ؛ لأنه جالب التلف والأدواء التي يتعقبها الموت والهلاك " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ١٦٠/ ٦.

الباب الثاني

حوار الرواية

بينت في هذا الباب عدة نقاط لكي يعطى القارئ صورة جلية لما يترسمه هذا البحث من دراسة لأحاديث مختارة من أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم- وهذه النقاط تندرج فيما يلي:

١ - التعريف بالرواية والقصد منها.

٢ - أهمية الحوار في الرواية.

٣ - ماذا يقصد بالرواية في هذه الدراسة.

٤ - اشتمال أحاديث النبي الكريم على قصص تروى عن الملأ الأعلى أو الأمم السابقة منها القصيرة جداً والمتوسطة والطويلة أحياناً، لكنها لا تمثل الرواية المعروفة في الأدب اليوم.

تعريف الرواية لغة واصطلاحا:

جاء في القاموس "قولنا هو رواية للحديث للمبالغة، ورويته الشعر حملته على روايته"[١] وفي ترتيب مختار الصحاح "روَّى في الأمر تروية نظر وفكر ويقول: أنشد القصيدة يا هذا ولا تقل ارْوِها إلا أن تأمره بروايتها أي باستظهارها."[٢] وفي النهاية" وفي الحديث عبد الله: شرُ الروايا روايا الكذب، هي جمع روية وهي ما يُرَوِّي الإنسان في نفسه من القول والفعل أي يزور ويفكر"."[٣]

فالرواية تعني القوة والإرادة والتمكن بعد فهم الراوي للمروي وتدبره بشرط صحة إسنادها وصدق روايتها وتكون خاصة في رواية الحديث والشعر.

أما في الإصطلاح: فهي نقل الخبر أو الحديث من شخص إلى آخر.

ولا يقصد بالرواية في هذه الدراسة الرواية المعروفة الآن، وإنما يعني بها ما رواه الرسول- صلى الله عليه وسلم- لأصحابه من قصص قد تطول وقد تقصر، ويكون فيها عنصر الحوار واضحاً في عباراتها وهو بذلك يبعدها عن السرد الرتيب الذي يفقدها الإثارة، وإن كان لابد منه أحياناً.

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي، ص١٦٦٥، باب الواو والياء فصل الراء، دار الريان للتراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢) ترتيب مختار الصحاح للرازي ص٣٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدين أبي السعادات الجزري المعروف بابن الأثير، ج١، ص٧٠٤-٧٠٥، باب الراء مع الواو، دار المعرفة، بيروت- لبنان- ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

أهمية الحوار بالرواية وخاصة القصة[1] . :

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يروي أحاديثه في صورة قصة للعبرة والعظة أو لبيان شرائع الدين الإسلامي أو الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، أو لتربية وتهذيب السلوك الإنساني حسب ما يلهمه الله من الوحي كما قال تعالى﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[2].

---

(١) القصة النبوية تختلف بلا شك عن القصة الحديثة إذ القصة النبوية قوامها الوحي وهدفها التربية والإرشاد والتوجيه إلى المثل العليا، أما القصة الحديثة فقوامها الخيال المحلق وغايتها الإمتاع وإثارة الخيال. ينظر بحث بعنوان "القصة في الحديث النبوي دراسة أدبية بيانية ص٤٦، أ/ حفصة مصطفى محمد نور منكابو لعام ١٤٠٢هـ- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م — ١٩٨٣م.

(٢) سورة يوسف آية (٣)

الباب الثاني

حـــوار الرواية

وفيــه فصــلان

الأول : الحوار في الملأ الأعلى

الثاني: الحـــوار على الأرض .

الفصل الأول

الحوار في الملأ الأعلى

وفيه مبحثان

الأول : الحوار مع الملائكة.

الثاني : الحوار مع الجنة والنار وأهلهما.

الفصل الأول: الحوار في الملأ الأعلى

في الفصل الأول تناولت الحوار في مبحثين أولهما : مع الملائكة وثانيهما مع الجنة والنار وأهلهما .

وهي مرتبة على حسب المتكلم أو من دار معه حوار ولكن كان مع الملأ الأعلى ، وهم الجماعة من القوم وأعني بهم الملائكة الكرام ، سواء أكان الحوار معهم أو كان بين الجمادات (الجنة والنار) ، وفي الفصل الثاني تناولت الحوار بحسب مكانه ، فهو مقسم إلى مبحثين أيضاً هما : حوار الملائكة مع الناس والثاني حوار الناس مع بعضهم البعض وجميع هذه الأحاديث قد بينتها وذلك فيما يلي :

الحوار مع الملائكة

عن أبي هريرة :

عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال : لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه قال : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها .فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ! قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات فقال : ارجع إليها فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها [1].

حوار بين الله ـ عز وجل ـ وجبريل ـ عليه السلام ـ وموضوع الحوار الجنة والنار، فمنذ خلقتا كانتا مناطا للنعيم أو العذاب ؛ فالنار خلقها الله للعذاب الأبدي، وقبل أن تحف بالشهوات بدت مخيفة مهلكة ، إذ لا يتصور أن يقبل إليها إنسان به مسكة من عقل ، فلما حفت بالشهوات صارت مغرية شديدة الإغراء، وكذلك الجنة خلقها للنعيم الأبدي، وقبل أن تحاط بالمكاره بدت بارعة الجمال ، حيث لا يتصور أن يعرض عنها إنسان إلا أن يكون مغطى على بصره ، ثم حفت بالمكاره ، فتغيرت صورتها ، واحتجب جمالها، فلم يعد ظاهرا للعيان، وصارت عرضة أن لا يقبل عليها أحد .

والمغزى المقصود من عرض هذه القصة الحث على مجاهدة النفس ، وحملها على الطاعة أملا في ثواب الله ، ووعده لعباده الصادقين ؛ فأهل الجنة هم من خالفوا هواهم ، وأعرضوا عن الشهوات المغرية ، وعملوا ليوم العرض الأكبر ، وقهروا النفس والشيطان في سبيل الفوز بجنة عرضها السموات والأرض ، فالجنة غالية ، و طريق الوصول إليه صعب المسلك ، وفي الطريق الأشواك والأهوال وجعلت كذلك ليميز الله الصادقين من المدعين.

وهكذا أدى الحوار وظيفته في تجدد الأحداث ، والمضي بها قدما حتى نهاية القصة، وكشف أيضاً عن موقف جبريل تجاه ما يراه أمامه ، ويشاهده بعينيه ، فلما كانت الأحداث لا تسير على وتيرة واحدة جاءت العقدة ، وتأزم بسببها الموقف حين حفت الجنة

---

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح . الجامع الصحيح لسنن الترمذي ٤/٦٩٣ .

بالمكاره ، والنار بالشهوات ، إذاً كيف يا ترى تكون النتيجة ؟ وما الذي يترتب عنها ؟ ، ولم ياترى حفتا بأشياء لا يمكن أن تدور في حسبان أحد من خلق الله ؟ لقد قلبت الموازين عند جبريل ـ عليه السلام ـ فصور الحوار ما انتابه من شعور بالخوف تجاه مصير البشر ، فبعد أن حفت الجنة بالمكاره أشفق عليهم فقرر مقسماً : (وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد) على النقيض مما قرره قبل أن تحف بها المكاره حين أقسم قائلا (وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها) وكذلك النار بعد أن حفت بالشهوات أشفق عليهم فقرر مسقماً (وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد) على النقيض مما سبق أن قرره قبل أن تحف بالشهوات حيث أقسم قائلا : (وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها) أرأيت أيها القارئ كيف انقلب الحال رأسا على عقب؟! إن أثر المكاره على البشر شديد بالغ الشدة حتى لا يفلت منه إلا ذوو العزائم القوية ، والهمم الكبيرة ، وهم من القلة بمكان ، كما أن أثر الشهوات شديد بالغ الشدة حتى أنه ليوشك أن يوردهم موارد التهلكة ، ولا ينجو منهم إلا الذين اعتصموا بحبل الله وهؤلاء من القلة بمكان ، وبذلك تدرج الحوار من الهدوء إلى الإثارة والحركة .

وتأتي في طيات الحديث معان بلاغية تكسبه الحسن الأدبي والجمال الفني ، الذي يكمن في الألفاظ والعبارات وانتظامهما في سياق محكم يؤدي المعنى في حبكة عجيبة بإيثار لفظة على غيرها وترتيبها مع جاراتها في إتقان وروعة . يتجلى هذا في اختيار لفظ السماع دون الرؤية (يسمع) والتعبير بالخوف مرة ثم الخشية مرة أخرى ، والتعبير بلفظ النجاة دون غيره كالسلامة مثلا ، والتعبير بالفظ الركوب دون غيره في (يركب بعضها بعضا) مما يثير في النفس معاني لا يمكن أن تكون إلا بهذه الألفاظ وفي هذا السياق .

ففي السماع مثلا ربما كان كل ما يلقى على مسامع الإنسان دون أن يراه حقيقة أدعى لتخيل كل ما يقال في صورة بشعة ، كصورة الجنة حين تحف بالمكاره فكيف لو رآها بأم عينيه ، ووقف على حقيقة الأمر بنفسه ، وحين يأتي لفظ السماع بصيغة المضارع فلا يخفى ما في التعبير به من تخييل مكثف ، وإعطاء مزيد من المشاهد في نفس السامع ؛ لما فيه من إشارة إلى حدوث السمع وتجدده . وكذلك التعبير بالخوف في موطن ، والخشية في موطن آخر ، مع أن كلتا العبارتين في نظر البعض متساويتان في المعنى لكن ليس الأمر كذلك بل هناك فرق بين اللفظين ؛ فالخشية أشد من الخوف فلا تكون إلا في مقام المولى ـ عز وجل ـ كما ذكر العسكري ذلك بقوله : " الخشية تتعلق بمنزل المكروه ، ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية ، وقال بعض

العلماء : يقال : خشيت زيدا ، ولا يقال : خشيت ذهاب زيد ، فإن قيل ذلك فليس على الأصل ولكن على وضع الخشية مكان الخوف ، وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه."[1] .

ولفظ الركوب يدل على الارتفاع العظيم [2] ومجيئه حالا (يركب بعضها بعضا) ينقل المعنى المجرد إلى حسي مشاهد ، فهول الصورة وكأن السامع يرى في خلده النار في أوج عظمتها ، وشدة حرارتها تعلو بعضها بعضا ، ومع هذا الركوب تنشأ أصوات مخيفة مفزعة للرائي فضلا عن السامع .

وتتابع حروف العطف مثل الفاء في (فجاءها ، فرجع إليه فأمر بها ، فحفت ، فقال) تفيد أن كل فعل أعقب الآخر دون مهلة ، وكأن تلك المفاجآت تتابعت سراعا ، وأمر جبريل بمشاهدتها دون فرصة للتريث .

والتعبير بالضمير في أكثر من موضع واضح في مثل قوله (فرجع إليه) أي : إلى الله ، وفي (دخلها) أي : دخل الجنة وفي (انظر إليها) أي : إلى الجنة أو النار ، وفي (أعددت لأهلها) أي : أهل الجنة أو أهل النار ، فالتعبير فيها بالضمير دون الاسم لاقتضاء المقام إياه ، أما التعبير بضمير الغائبة في قوله (فإذا هي يركب بعضها بعضا) للتنزه عن ذكر اسم النار ؛ لعظم هولها أو لتميز الصورة البشعة المخيفة للنار في ذهن السامع ويستحضرها في ذهنه فهي لا تغيب عنه ، لاسيما إذا عبر عنها بالفعل المضارع (يركب) .

وفي الحديث إيجاز بالحذف يتجلى في حذف المسند إليه ، وإبقاء المسند في قوله (فأرسل) أي : أرسل الله جبريل وذلك للعلم به ، كما حذف المسند إليه في قوله (حفت) وبني الفعل للمفعول والأصل : حفها الله أي الجنة أو النار ؛ وذلك للعلم به تأدباً مع الله حيث نزه عن إسناد الفعل إلى لفظ الجلالة ؛ لأنه فعل مما الشأن فيه أن ينزه عنه . وكذلك حذف المسند إليه والمفعول في قوله (فأمر بها) أي : أمر الله ملائكته أن تحف النار بالمكاره فكان الحذف للعلم به ، وللتعويل على القرينة.

---

(١) الفروق اللغوية ص ٢٧٠ .

(٢) ركب : ركب الدابة علا عليها ، وتراكب السحاب وتراكم صار بعضه على بعض وركب الشيء وضع بعضه على بعض ." لسان العرب ، ٢١٠ - ١١٢ / ٦ حرف الراء .

وتقديم الجار والمجرور في (لأهلها) على الجار والمجرور (فيها) لإرادة التخصيص فكل نعيم أعده الله فهو لأهل الجنة ثم إتيان (ما الموصولة) في (ما أعددت لأهلها) يعطي للسامع صورا زاخرة لا يمكن إحصاؤها بالخيال وهذا الخير العظيم خص الله به أهل الجنة المستحقين لها ولذا قال : أهل ولم يقل أصحاب ، ومثله مع أهل النار ، وتعريفهما (الجنة والنار) للعهد العلمي أما تنكير (أحد) في (لا يسمع بها أحد) أي : أحد من الخلق ، قصد به تقليل عدد من يدخل الجنة ، وتكثير عدد من يدخل النار .

وتأكيد الجملة بالقسم والفعل المضارع وأسلوب القصر من طريق النفي والاستثناء بإلا في قول جبريل ـ لله تعالى ـ (وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها) وهذا التأكيد ليس المقصود به الله ـ جل وعلا ـ بل المقصود التأكيد الصادر من المتكلم (جبريل) لنفسه مبالغة في خوفه مما رآه فالمتكلم ، قد يؤكد الخبر الصادر منه لنفسه إيماء إلى تعظيم الخبر ، ونظيره من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] فإن الله ـ جل وعلا ـ عالم بأنه هو الذي نزل القرآن ، ولكن سوق الخبر الصادر منه ـ سبحانه ـ على هذه الصورة من التأكيد الغرض منه تعظيم القرآن أو تعظيم إنزاله ، ومثله تأكيد الخبر في لقد (خفت أن لا يدخلها أحد) .

وفي قوله (لا يسمع بها أحد إلا دخلها) قصر موصوف وهو(أحد)على صفة وهي (الدخول) قصرا حقيقيا تحقيقيا ؛ إذ السامع لوصف الجنة وما فيها من ألوان النعيم لا يسعه إلا أن يدخلها لو لم تكن محوطة بالمكاره ، وهذه الجملة مع ما تحمله من تأكيد الدخول عن طريق القصر تومئ إلى عظم ما في الجنة من ألوان النعيم إلى درجة لا يملك السامع معها أن يفكر مجرد التفكير في أن يدخل أو لا يدخل ، كأن ما فيها من النعيم يشده إليها شدا غير رفيق ، فينطلق ، فيدخل دون أدنى روية [1].

---

(١) يقول صاحب التحفة في إلا هذه : " لا يظهر معناها إلا أن تجعل (إلا) هنا بمعنى (بل) " وفي كلتا الحالتين سواء كان القصر ببل أو الاستثناء بإلا فهنا قصر صفة على موصوف . تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٧/٢٣٧ .

ومن الحوار في الملأ الأعلى مع الملائكة ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :((إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهم أعلم منهم ، ما يقول عبادي ؟ فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك . فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك . فيقول : وكيف لو رأوني ؟ يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . يقول : فما يسألونني ؟ يقولون : يسألونك الجنة . يقول: وهل رأوها؟ يقولون : لا والله يارب ما رأوها . يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . قال : فمم يتعوذون ؟ يقولون: من النار . يقول : وهل رأوها ؟ يقولون : لا والله يارب ما رأوها . يقول: كيف لو رأوها ؟ يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال: هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم .)) [1]

في هذا الحديث الشريف أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه بما دار في الملأ الأعلى من حوار بين الله ـ عز وجل ـ وملائكته الكرام ـ ساقه حواراً في أقصوصة رائعة ، مفادها الترغيب في ذكر الله تعالى والمداومة على ذلك في مجالس خاصة ، فاجتماع أهل الذكر للتدارس والتذكرة له ثواب عظيم ؛ لأن الله يباهي بهم ملائكته ويقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، فكان عنصر الحوار مهماً ؛ لأنه زاد من تتابع الأحداث والوصول في نهاية القصة إلى ما انتهى إليه الحوار ، وهو ما أخبر الله به ملائكته من مغفرته ورضوانه عن هؤلاء الذاكرين.

ولا يخفى أن المتلقي يتابع هذا الحوار بشغف ؛ ليرى ما سينتهي إليه ، وهذا ما بينه بعض الباحثين في قوله : " فماذا يرى القارئ في تسلسل الحوار واطراده ، وكيف انتقل من شجن لشجن ليعلن فضل الذاكرين ، وخير المسبحين ، وليشمل هؤلاء بنعيم الله ورضوانه ، ثم لا يقتصر عليهم بل يلحق بهم من جالسهم داعياً بذلك إلى مصاحبة الذاكرين العابدين . لقد أدى الحوار دوره الأدبي إذ تمشي بالسؤال والجواب تمشية مستقيمة لا عوج فيها ولا أمت ، ثم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، صحيح البخاري ٢٠١٢/٤.

أدى دوره الديني حين بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضل الالتجاء إلى السماء ، وتذكر الله في مجالس العبادة ، ومطارح التسبيح ."[1]

ومن يتأمل الحديث الشريف يجد فيه أسراراً تعبيرية كثيرة تفصح عن روعته ، وحسن بلاغته ، كما هو واضح في قوله (إن لله ملائكة يطوفون بالطرق) ؛ حيث ألقى النبي الكريم الخبر مؤكداً بـ (إن) وحين ألقاه إليهم لم يكن لديهم علم به وهم لا يشكون في كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما ألقاه مؤكداً ليكون محل اهتمامهم ، وفي قوله (وهل رأوني) وقوله (و هل رأوها) استفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر ؛ فهو استفهام قصد به التعظيم لشأنه تعالى ، لأنه الملك القدوس ذو القوة المتين ، ومثله الاستفهام في قوله (وهل رأوها) فهو التعظيم لشأن الجنة والنار ، وأما الاستفهام في قوله (وكيف لو رأوني) وفي قوله (فكيف لو أنهم رأوها) خرج الاستفهام عن معناه الأصلي لمعنى آخر وهو التعريض بعدم علم الملائكة للغيب ، وقصور علمهم ، كما جاء في شرح الطيبي حيث قال : " وفائدة السؤال مع العلم بالمسئول التعريض بالملائكة ، وبقولهم في آدم ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[2] وفي قوله هل رأوني ، وهل رأوا جنتي ، وهل رأوا ناري) تقريع للملائكة وتنبيه على أن تسبيح بني آدم وتقديسهم أعلى وأشرف من تقديسهم ، لحصول هذا في عالم الغيب مع وجود الموانع والصوارف"[3]

وفي قوله (فأشهدكم أني قد غفرت لهم) أكد الخبر بعدة مؤكدات هي " أن ، قد ، والفعل الماضي غفرت " والملائكة حينما أخبروا بذلك لم يبالغوا في إنكار مغفرة الله تعالى لعباده الذاكرين ، فحينما أنزل غير المنكر منزلة المنكر قصد به التأكيد على سعة رحمة الله ، وأنها ثابتة في حقهم ، وأنه لما كان الملائكة يحاورون الله تعالى بشأن هؤلاء الذاكرين أراد تكريمهم ، وتفضيلهم بمغفرته لهم. وفي قوله تعالى للملائكة : (أشهدكم أني قد غفرت لهم) فليس الله في

---

(١) البيان النبوي ، د / محمد رجب البيومي ، ص ١٣٤، ط ١ ، دار الوفاء ـ المنصورة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) سورة البقرة آية (٣٠) .

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٧٢٩/ ٥.

حاجة إلى أن يشهد على نفسه الملائكة ، ولا يتوقع منه الرجوع عن المغفرة ، وإنما الغرض من ذلك كله هو مباهاته تعالى بهؤلاء الذاكرين ، بحيث كان فضلهم عنده عظيماً .

وكذلك يلحظ التعريض في قوله (إنما جاء لحاجة) بـ (إنما) كما جاء في دلائل الأعجاز " إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه ، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [1] إن يعلم السامعون ظاهر معناه ، ولكن أن يذم الكفار ، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل ، و إنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا ، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب. " [2] وفي ضوء ذلك فاستعمال (إنما) هنا قصد به التعريض بهذا الشخص ، وأنه لم يأت وفي قلبه نية حضور تلك المجالس ، بل لضرورة من ضرورات الدنيا اقتضت مجيئه إليها ، وجلوسه بين الذاكرين .

وفي قوله (هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) المسند إليه تقدم على المسند المعرف بـ (بأل) ؛ لبيان فضلهم ، وزيادة مدح لهم ؛ ذلك أن تعريف المسند بـ (بأل) هنا يفيد قصر صفة الجلوس عليهم قصراً ادعائيا للمبالغة في الثناء على جلوسهم ، كأن جلوس غيرهم لا اعتداد به ؛ و من المعروف عند أهل العلم أن تعريف المسند بأل الجنسية قد يفيد قصره إما تحقيقاً كقولك : زيد الأمير إذ لم يكن أمير سواه ، وإما مبالغة لكمال معناه في المحكوم عليه كقولك : عمرو الشجاع ، أي : الكامل في الشجاعة ، فتخرج الكلام في صورة توهم أن الشجاعة لم توجد إلا فيه ؛ لعدم الاعتداد بشجاعة غيره ؛ لقصورها عن رتبة الكمال."[3]

وقول الحق ـ جل وعلا ـ لا ينفي جلوس غيرهم ، بل يظهره بمظهر ما لا يعتد به ؛ لقصوره عن درجة الكمال التي بلغها جلوس الذاكرين. ومن دلائل اصطفاء مجالسهم أن ينال جليسهم من الفضل ما يختصون به ؛ لتأثره بها ، وإلا كان شقياً يقول الطيبي : " إن مجالستهم مؤثرة في الجليس ، فإذا لم يكن للجليس نصيب مما أصابهم كان محروماً فيشقى فإذاً لا يستقيم وصف القوم بهذه الصفة " [4]

---

(١) سورة الرعد آية (١٩) .

(٢) دلائل الإعجاز : ٣٥٤.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، ١٣١ ـ ١٣٢/ ٢.

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٧٢٩/ ٥.

وفي قوله : (يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك) إطناب بذكر ما يعلمونه تفصيلاً ولو أوجز لقالوا : يذكرونك. فالذكر يتضمن التسبيح والتحميد والتكبير ، وهذا النوع من الإطناب داخل في إطار الإجمال والتفصيل ، بذكر العام بعد الخاص ؛ فالتمجيد شامل للتسبيح والتكبير والتحميد ؛ وإنما ذكر الخاص للإيماء إلى خصوصية فيه ، بينها النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث آخر جاء فيه : (كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .) [1]

وفي قوله : (أشد لك عبادة ... تسبيحاً) إطناب بذكر الخاص بعد العام ؛ فقول الملائكة : (أشد عبادة)عام يشمل التسبيح وغيره ، وقولهم بعد ذلك : وأشد لك تمجيداً ، وأكثر تسبيحاً) خاص ؛ فالعبادة تشمل التحميد والتمجيد والتسبيح ، وإنما سلكوا هذا المسلك للاهتمام بالتمجيد والتسبيح ، وذلك بذكره مرتين ؛ مرة في إطار العام ، ومرة وحده لخصوصية فيه ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ٢٣٨ ﴾[2]

ومن الإيجاز قوله (من النار) وذلك بحذف المسند والمسند إليه المتصل به ؛ لدلالة السؤال عليه ، والتقدير : يتعوذون من النار ، فحذف الفعل (يتعوذ) والفاعل الذي هو واو الجماعة ، والإيجاز يمنح الأسلوب قوة ، ويضع المتلقي في مواجهة المتعوذ منه ، كأنهم - أعني الملائكة - أرادوا هذا الإيجاز ، وأسرعوا إلى ذكر ما يخشاه الذاكرون ؛ ليكون ذلك أدنى إلى استعطاف الله عليهم حتى يعيذهم منها ، ويتضح هذا بصورة أكبر بمقارنة هذا الجواب بما قبله مباشرة ، حيث أجابوا على سؤال الله إياهم فما يسألوني ؟ فقالوا : يسألونك الجنة . حيث ذكروا المسند والمسند إليه ؛ لأن المقام مقام الإبانة عن مطلوب مرغوب ، وهو سؤال الجنة ، وفرق بين المرغوب والمرهوب ؛ ففي الأول سعة وطمأنينة ، وفي الثاني ضيق وخوف .

وفي قوله : (كانوا أشد عليها حرصاً ... وأعظم فيها رغبة) تقدم ذكر المسبب قبل ذكر السبب ؛ فالرغبة ينشأ عنها شدة الحرص والطلب ؛ وذلك لتعلق النفس بالجنة ، والحرص عليها ، والإلحاح في طلبها . كما في قوله (كانوا أشد منها فراراً .. مخافة) تقدم المسبب على السبب كذلك ؛ فإن المخافة سبب الفرار ، وإنما قدم للإشارة إلى ما فيه من مظنة النجاة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٧/ ٦.

(٢) سورة البقرة آية (٢٣٨) .

ومن البيان النبوي ما يجده المتذوق لتلك الأساليب البيانية الرائعة مثل الكناية في قوله : (فيحفونهم .. إلى السماء الدنيا) ؛ فهي كناية عن التكريم والتعظيم ، ولو كان الغرض مجرد تسجيل ما يعملون لا كتفوا بالجلوس حولهم .

وفي الحديث طباق زاد من وضوح الصورة في ذهن المستمعين ـ الصحابة ـ وكان الطباق بين الجنة والنار، وبين سؤال الجنة والتعوذ من النار، وبين الحرص والرغبة في الجنة، والفرار والخوف من النار.

ومن الحوار في الملأ الأعلى ما دار من حوار مع ملائكة الرحمة والعذاب (١) وذلك فيما يروى عن أبي سعيد الخدري :

أن نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض . فدل على راهب . فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل لي من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناس يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة أدمي ، فجعلوه بينهم، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه ، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة)[٢]

ورد هذا الحديث الشريف في صورة قصة تاريخية ، رواها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه ؛ لما تحمله من معنى شريف يدرك بالإيمان وهو سعة رحمة الله تعالى ، إذ هي قصة مثيرة للانتباه ؛ لأن الصراع الدائر من خلال الحوار زاد من تولد الإثارة ، وإشعال روح الإثارة والانفعال في نفوسهم ، والأهم من ذلك الشعور بعظمة المولى وشمول رحمته .

---

(١) يبدو للقارئ أنه من قبل حوار الناس بعضهم البعض ولكنه ختم بحوار ملائكة الرحمة والعذاب في شأن الرجل التأئب قاتل المائة نفس .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٣٥/ ٦ .

والصحابة حينما يقص النبي الكريم عليهم هذه الحادثة ، ينتظرون بشغف ما ستنتهي إليه ، فقتل مائة رجل ليس أمراً هيناً ، والتوبة على مرتكب هذه الجريمة تبدو جد مستبعدة ، وموت القاتل قبل أن يعمل خيراً (ما) يجعلها أشبه بالأمر المستحيل ، هنا يزداد تعقد الحدث ، وتصبح العقدة في القصة في أقصى أحوالها ، ويشتد انتظار الحل ، والشوق إلى الخاتمة ، وعندما يختصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ويشتد الحوار حرارة وتتراءى لحظة التنوير ، عندما يقترح الملك الذي جاء حكماً على الفريقين أن تقاس المسافة بين القريتين ، وبقياسها تكون الخاتمة حاملة لمدى رحمة الله الواسعة ، إذ يكون الرجل أقرب إلى القرية الصالح أهلها ، وتقبضه ملائكة الرحمة .

هنا تستريح نفوس الصحابة ، ومن بعدهم ممن يتلقى هذه القصة سماعا أو قراءة ، فيدركون مدى تلك الرحمة ، وتلوح لهم بوادر الأمل في التوبة النصوح ، كما يقول أحد الباحثين : " هي دعوة إلى رحاب الله الكريم ، تفيض بالحب والحنان لكل مذنب خطاء ، مهما كانت خطيئته ، ومهما عظم جرمه ، كما يدل على ذلك ويصوره مصير الرجل الذي قتل مائة نفس ، وبالرغم من كثرة الأرواح التي أزهقها طوال حياته الإجرامية إلا أنه الآن وقد استيقظ ضميره ، وأدركته لحظة القوة والارتفاع يجد الفرصة عريضة أمامه في باب التوبة المفتوح ، كما يعبر عن ذلك أحد شخصيات القصة وهو الرجل العالم ، حين أنكر عليه سؤاله وقال : ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ ! ، ويتوب القائل فيتوب الله عليه ، وتدركه رحمة الله تعالى " [(١)] .

والحديث الشريف يزخر بالكثير من اللمحات البلاغية اللافتة وهي تتمثل في التنكير في بعض الكلمات ، وهو واضح في مثل قوله " رجلاً ، نفساً ، رجل عالم ، توبة ، خيراً ، سوء ، أناساً ، ملك) والنكرة ـ كما هو معهود لدى علماء البلاغة القدماء ـ تكون للتصور وعمق الخيال ، وتعطي المصور في الذهن أبعاداً كثيرة ، فهي أعم من غيرها ، كما يقول العلوي : " فهي أبهم ، وجملتها شيء ، ثم جسم ، ثم حيوان ، ثم إنسان ، ثم رجل ؛ فكل واحدة من هذه النكرات هي أدخل في الإبهام والتنكير مما بعدها كما تراه في صورها "[(٢)]

---

(١) القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية : ٣١٧.

(٢) الطراز للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي ، ٨ / ٢ / . تحقيق د / عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية، صيدا ـ ببيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

فكلمة (رجلاً) نكرة تدل على فرد غير معين من ذلك الجيل الغابر ، بدلالة قوله (فيمن كان قبلكم) وأما تنكير (نفساً) فهو للدلالة على حرمة وعظمة النفس المقتولة بغير حق ، كما توحي ببشاعة الجريمة في تصور المستمعين ـ الصحابة ـ إذ هو في نظرهم رجل أسرف وبالغ في القتل والإيذاء ، وسفك الدماء ، وتجرأ وتجاوز الحدود ، أما لفظ (رجل عالم) فهو نكرة تدل على شخص غير معين اتصف بالعلم ، ووصفه بالعلم تنويه لشأنه ، ومدح لشخصه ، ولفظ (توبة) جاء نكرة مرة ومعرفة مرة أخرى ، فكونها نكرة لتدل على نوعية هذه التوبة هل تكون شاملة لجميع خطاياه أم تكون مختصة ببعض ذنوبه اليسيرة بدلالة اقترانها بحرف الجر الزائد (من) الذي من وظائفه التبعيض ، أي شيئاً ولو يسيراً يناله منها ، وفيه إيحاء بما وصلت إليه حالته النفسية من الضيق والحزن ، كما ذكره أحد الباحثين بقوله : " من يوحي بالحالة النفسية الكئيبة التي يمر بها القاتل النادم ، فهو يبحث عن قسط من توبة ولو كان صغيراً ولا يسأل عن توبة كاملة ، فاستخدام (من) التبعيضية يعطي دلالة على أن المراد من السؤال التعلق بأي نوع من أنواع الأمل في التوبة ."[1] أما لفظ (خيراً) فالتنكير فيه لتعميم النفي ، وأنه لم يقدم شيئاً ينفعه في هذه اللحظة الحرجة وقت انتزاع الروح منه . وفي تنكير (سوء) إشارة إلى التهويل فقد بلغ من شدة الشيوع والانتشار ما يجعل تصور الصحابة ما عليه أهل هذه الأرض من إسراف في ارتكاب الخطايا وما يقترفونه من منكرات كثيرة ، وأفعال سيئة ، حتى استحال المقام بتلك القرية للصالحين فهم يفرون منها حفاظاً على دينهم ، وخشية من الفتنة . وتنكير (ناساً) يومئ إلى تعظيم أهل هذه القرية ، وفيه تصوير لحال هؤلاء القوم من حيث الصلاح والاستقامة على الحق . وتنكير (ملك) يومئ إلى الإفراد أي : فرد من جنس الملائكة بما يدل عليه لفظه من الطهر والنقاء وهذا يجعل الصحابة يتخيلون ماهية هذا الملك ، وكيف تحول إلى صورة آدمي وما توحيه تلك الصورة من حيث الحكمة والإنصاف وما إلى ذلك مما لا يستطيع العقل البشري تخيله .

---

(١) مجلة المنهل ، العدد ٥١٨ ، لعام ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م : ٨٠ ، الإعجاز اللغوي والتربوي في قصص الصحيحين. بقلم د/ مصطفى رجب .

ومما يلفت الانتباه الاستفهام في قول الرجل العالم : ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ ! والاستفهام كما هو معروف طلب العلم بشيء غير معلوم للسائل من قبل ، لكنه خرج عن معناه الأصلي لعلة بلاغية جميلة هي التعجب والاستغراب ؛ فهو يتعجب وفي نفس الوقت يستغرب أن يوجد من يتصف بالعقل والحكمة ويمنع عن هذا التائب كل إشراقة تبعث في نفسه الشعور بالحياة في ظل أمل يعيشه بتوبة صادقة مع ربه ـ عز وجل ـ ، كيف يمكن لعاقل أن يحكم برفض قبول توبته ويرمي بها عرض الحائط ؟! ، وهذا ما جعله يكرر فعلته مع الراهب ، كيف يحول بينه وبين التوبة ، كما أشار إلى هذا أحد الباحثين فقال : " في سؤال العالم للقاتل التائب : ومن يحول بينه وبين التوبة ؟! استخدم أداة الاستفهام " من " التي يطلب بها تعيين العقلاء ، ولكن السؤال لا ينتظر إجابة ، أي : أن قائله لا يطلب تحديد شخص معين ، ولكنه يستنكر أن يوجد عاقل يحول بين إنسان يريد أن يتوب وبين التوبة ، فالاستفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى بلاغي يفيد الاستنكار والتعجب ."[1]

وجميع الأفعال في الحديث جاءت ماضية تدل على التحقق والثبوت إلا فعلاً واحداً جاء مضارعاً وهو (يعمل) والعلة البلاغية تكمن في استحضار أي شيء يمكن التشبث به ، ويمكن أن يشفع لهذا القاتل ، لكن لا يوجد له أي عمل سابق ، ومما يؤكد ذلك إتيان لفظ (قط) بعده وهو كما قال ابن هشام : " ظرف زمان لا ستغراق ما مضى وتختص بالنفي يقال : ما فعلته قط فمعنى ما فعلته قط : ما فعلته فيما أنقطع من عمري ؛ لأن الماضي منقطع عن الحال والاستقبال ، وبنيت لتضمنها معنى مذ وإلى ، والمعنى : مذ أن خلقت أو مذ خلقت إلى الآن ." [2] وهذا ما احتجت به ملائكة العذاب نحو هذا الرجل .

وفي استخدام النبي الكريم للفظة المناسبة ، ووضعها في مكانها المناسب ما يفصح عن تلك البلاغة التي يقف الإنسان عاجزا عن التعبير بما يمكن أن يعبر عنه من الدهشة والإعجاب نحو هذا النبي العظيم ، فحين يقف مثلا على لفظ (يحول) ، وقد يجد ما يمكن أن يؤدي لمثل هذا

---

(١) مجلة المنهل ، العدد ٥١٨ ، الإعجاز اللغوي والتربوي في قصص الصحيحين ،ص ٨١.

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ١ / ١٩٨.

المعنى كلفظ (يمنع) ، لكن النبي الكريم يدرك ما يقول فهو ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[1].

ففي لفظ يحول تصوير لحال الرجل وحال من جاء إليه سائلاً ، وكما جاء في معنى يحول في القاموس : " الحول والحيل والحولة والحيلة والحويلة والمحالة والمحال والاحتيال والتحول : هو الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على التصرف ، والمحال من الكلام ما عدل عن وجهه ، وحاوله حوالا ومحاولة : رامه ، وكل ما حجز بين شيئين ، فقد حال بينهما. "[2]

فلفظ الحول إذن يدل على معنى أعم من لفظ المنع ؛ لأن المنع كما ذكره صاحب القاموس بقوله : " منعه ضد أعطاه ومنُع صار منعياً والامتناع الكف عن الشيء"[3] فهو يدل فقط على الكف والابتعاد ، أما الحول فهو يدل على تغيير الشيء عن وجهه الصحيح بنوع من الحيلة التي تحجب عن الإنسان الحقيقة وتصرفه عنها .

وكذلك لفظ (اختصمت) لم يستخدم لفظة أخرى كاحتجت مثلاً ؛ فالخصم كما جاء في المفردات : " مصدر خصمته أي نازعته خصماً ، وأصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي جانبه ، والخصيم الكثير المخاصمة ."[4] فهذه اللفظة أدق من غيرها ؛ لأنها تصور موقف كل من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وهم تعلو أصواتهم ، ويحاول كل منهم جذب الرجل القاتل إليه تنفيذاً لأمر المولى ـ عز وجل ـ ، إلى من يأت في النهاية بحل يرضي الطرفين ، هو حكم ملك منهم أرسله الله ليحل المشكلة ، ويحسم الأمر بينهما لصالح ملائكة الرحمة . وكذلك عبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المستقبل بالمشتق في قوله (تائباً مقبلاً) فهو في المستقبل القريب سوف يعمل الخير ، ويلتزم به ، ويكون فيما بعد رجلا صالحاً ، وكأن هذا محقق ، كما قال أحد الباحثين : " يجعل العارفون اسم الفاعل واسم المفعول في قوة الماضي ، ويجعلون علة التعبير بأحدهما بدلاً من المستقبل قصد الدلالة على تحقق الوقوع مبالغة كالدلالة بالماضي "[5]

---

(١) سورة النجم آية (٣،٤) .

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، باب اللام فصل الحاء ، ص ١٣٧٨ .

(٣) المرجع السابق باب العين فصل الميم ، ص ٩٨٨ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ١٤٩ .

(٥) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : ٣٤١، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م .

ويلحظ كثرة حروف الجر مثل : له ، من ، على ، إلى ، حتى ، فيه ؛ فهي لم تأت من فراغ بل جاءت إيجازاً لأحداث القصة ، وتتابعها ، وارتقائها للوصول للخاتمة السعيدة التي انتهت بها القصة ، وهو إيجاز اقتضته طبيعتها ، وكان بعيداً عن الإطناب الممل ، أو الإيجاز المخل ، وهو واضح كذلك من خلال حذف بعض الجمل في قوله (فقتله) أي : قتل الراهب ؛ حيث حذف الصفة التي يمثلها الاسم الموصول وجملتا الصلة والتقدير : قتل الراهب ؛ الذي سأله وأجاب بلا ، والحذف في قوله (فإنها أرض سوء) إذ التقدير : يعمل أهلها السوء ، وكذلك حذفت جملة الجواب في قول العالم (نعم) فإن الأصل : نعم له توبة ، أو لك توبة ، والحذف في قوله (أتاه الموت) أي : أدرك أمارات الموت حذف المضاف وهو كلمة (أمارات) ، وحذفت الكلمة أيضاً في قوله فجعلوه بينهم ؛ أي : جعلته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب حكماً بينهم ، وهو حذف متعلق الظرف (بينهم) وهذا المتعلق مفرد ، وهو المفعول الثاني للفعل (جعل) ؛ فالحذف فيها جميعاً جاء لمعرفة المخاطبين به ، فكان ذكر كل هذا من الزيادة التي يمكن الاستغناء عنها ؛ لوجود ما يدل عليها ، ولتحاشي ما يعوق السرعة في تطور الحدث.

والسر البلاغي في التعبير بالاسم الظاهر في قوله (فاعبدالله) مع سبق ذكره في قوله (يعبدون الله) مع أن المقام يقتضي الضمير ؛ لإيقاع الفعل (أعبد) على صريح لفظ الجلالة ، وتأكيد لاستحقاقه العبادة ، وإلى مثل هذا الغرض قال الإمام عبد القاهر الجرجاني تعقيباً على قول البحتري[1] :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ　　　دد وا لمجد والمكارم مثلاً

حذف مفعول (طلبنا) قصد إلى إيقاع الفعل المنفي (فلم نجد) على صريح لفظ المثل تأدباً مع الممدوح ، ولو قال : قد طلبنا لك مثلاً فلم نجده ، لكان في ذلك مواجهة الممدوح بأنهم يطلبون مثلاً له. [2]

والعلة البلاغية في تأكيد الخبر بـ (إن) في قول العالم (فإن بها أناساً يعبدون الله) وقوله (فإنها أرض سوء) مع أن المخاطب ـ وهو الذي يريد التوبة ـ لا علم له بالخبر، وكان يمكن أن يقال : فيها ناس يعبدون الله ، وهي أرض سوء ؛ و كان ذلك لزيادة التقرير له إذ هو في موقف

---

(١) ديوان البحتري ، تحقيق وشرح وتعليق : حسن كامل الصيرفي ٣/١٦٥٧، دار المعارف مصر د . ت.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للجرجاني ١٦٨.

من شأنه أن يبعث على التردد ، وقد يتطلب منه الأمر مزيد إيضاح . والتأكيد بـ (إن) في قـول ملائكة العذاب : (إنه لم يعمل خيراً قط) وكان يمكن أن يقال : هو لم يعمل خيراً قط. ؛ لأنهم ظنوا أنهم أحق منهم بقبض روح الرجل ، فهـم يقررون أحقيتهم بقبضها ، فنزلـوا ملائكة الرحمة منزلة من يشك في ذلك.

وفي قوله (انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم) خرج الأمر هنا عن مقتضى الظاهر ؛ فإن العالم أمر الرجل التائب بالذهاب لتلك القرية من باب التوجيه والنصح ، والحث على الفعل ، وكأنه قال له : أنصحك بالذهاب إلى أرض كذا .. الخ. وفي قوله (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) خرج النهي عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر هو التحذير من الرجوع إلى تلك الأرض ؛ لوجود المنكر وانتشاره فيها .

وأما مجيء الفاء في قوله(فإنها أرض سوء) فهي تعليل لأمر العالم القائل بتركه لهذه الأرض. والفاء في قوله (فاعبد الله معهم) هي الواقعة في جواب الأمر (انطلق) ؛ لأن الأمر يتضمن الشرط ، كأنه قيل : إن انطلقت .. فاعبد الله . وبهذا فهو خلاف ما قاله الإمام العيني بأنها فاء الفصيحة فهو يقول : الفاء هنا فصيحة تقديره : فذهب إلى تلك القرية فأدركه الموت في الطريق " [(١)].

ومن براعة تلك البلاغة النبوية ما يجده المتذوق من جمال العبارة في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك في الالتفات في قوله (ومن يحول بينه وبين التوبة) حيث عدل عن مخاطبة الرجل التائب إلى ضمير الغائب ، . وجاء لتنشيط ذهن الصحابة ، وإثارة الحركة في نفوسهم ، وهذا لا يلمحه إلا المتذوق الفطن.

وبالنظر إلى الجمل يتجلى الفصل في قوله (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) ؛ فالأولى إنشائية من قبيل النهي ، والثانية مستأنفة لبيان علة النهي فبينهما شبه كمال اتصال ، وكذلك الفصل في الجملتين (فإن بها أناساً يعبدون الله) (فاعبد الله معهم) ؛ فالجملة الأولى خبرية والثانية إنشائية فبينهما كما الانقطاع .

وفي الحديث الشريف مجاز مرسل في قوله (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) وهذا المجاز علاقته المحلية ؛ حيث أطلق لفظ الأرض وأراد أهلها والأصل : ولا ترجع إلى

---

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري . ج ١٦ ، ص ٥٦ ، دار التراث العربي .

أرضك فإن أصحابها أهل سوء ، وفي هذا إيماء إلى شيوع السوء ، وشدة انتشاره حتى كأن الأرض نفسها تعمل السوء وإن كان أصل الكلام : أن أهلها يعملون السوء ، وفي قوله (حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت) استعارة مكنية ؛ فالموت لا يأتي بل الإنسان هو من يكون منه الإتيان ، وفي ذلك تشبيه ؛ حيث شبه الموت بإنسان بجامع الحلول في كل ثم استعير الإنسان للموت بعد تناسي الشبه ، ثم حذف المستعار وهو الإنسان، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإتيان على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي هذه الاستعارة تشخيص معنوي ، وإبرازه في صورة محسوسة تزيد المعنى وضوحاً في النفس .

هذه لمحات بلاغية تدل على عمق الأحاديث ، وثراء الكلمات، وإيحاء العبارات ، وربما كان في ثناياها لمحات أخرى هي أفضل مما ذكر ، وفيها من الندرة واللطافة ما يوفق إلى الكشف عنها باحث أصفى ذهناً ، وأبلغ قلماً .

الحوار مع الجنة والنار وأهلهما

من الحوار مع الجنة والنار ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم - : (تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول : قط قط قط فهنالك تمتلئ ، ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله ـ عز وجل ـ من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ـ عز وجل ـ ينشئ لها خلقاً .) [1]

تبين القصة منزلة الفقراء والمساكين عند الله تعالى وكرامتهم ، وهم ـ في الغالب ـ ليسوا من ذوي الجاه والسلطان ؛ لاتصافهم بصفات تحبب الناس فيهم ، فمن هم أهل الجنة ياترى ؟

أهل الجنة هم الذين يمشون على الأرض هوناً ، الزاهدون عن الدنيا ومتاعها ، وأما أهل النار فهم المتكبرون ، المتجبرون ، الظالمون لغيرهم ، المسرفون في أمورهم ، هم من يتصفون بصفات يكرهها الناس ويمقتونها ، ففي القصة ترغيب بالتخلق بهذه الخصال الحميدة ، وتنفير مما سواها من أخلاق سيئة.

وقد بدأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القصة بقوله (تحاجت الجنة والنار) وهي بداية بالحدث مباشرة لكن هذه البداية غريبة تستلزم من الصحابة الإنصات لها بكل اهتمام ، وتسمى عند النقاد المحدثين قصة الحادثة [2]، لاسيما أن المحاورة فيها بين طرفين ؛ الأول من قبيل الجماد وهو الجنة والنار ، والثاني هو الله ـ عز وجل ـ وهو ما يلفت انتباههم ويستحوذ على شعورهم.

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٥٤٠.

(٢) يقول د / عز الدين إسماعيل عن قصة الحادثة : " الحادثة في العمل القصصي مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنتظمة على نحو خاص هو ما يمكن أن تسميه (الإطار) ففي كل القصص يجب أن تحدث أشياء في نظام معين وكما أنه يجب أن تحدث أشياء فإن النظام هو الذي يميز إطارا عن آخر فالحوادث تتبع خطأ في قصة وخطأ آخر في قصة أخرى ، فالحادثة الفنية : هي تلك السلسلة من الوقائع المسرودة سرداً فنيا التي يضمها إطار خاص . وإذا كنا نتحدث عن عنصر الحادثة في القصة فينبغي أن نذكر أن هناك نوعاً من القصص يعني السرية .) " الأدب وفنونه دراسة ونقد د / عز الدين إسماعيل ، ص ١٤٧ـ ١٤٨ . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ . ١٩٦٥م .

وكان للحوار دور كبير في بيان ما يختلج في نفس كل واحد منهما ، فأدى وظيفته الفنية حين بيَّن على لسان الجنة حالها وكأنها تشتكي إلى الله ؛ لأن الذين يدخلونها المستضعفون الذين لا يعتد بطبقتهم في الوسط الاجتماعي ، أما النار فكأنها تفتخر ، وترائي بهؤلاء الذين يدخلونها من العظماء المتصفين بالجبروت والطغيان .

وبعد بيان معنى الحديث أشرع في بيان ما يحتويه من كنوز بلاغية تتجلى فيما يلي :

إيراد المفردة التي تفسر ـ بأدق تفسير ـ المعنى ، وتصور حقيقته ، مثل لفظ (تحاجت) دون " تخاصمت " ؛ لأن هذه الكلمة تفيد تدافع الحجة بين الخصمين أو المتناظرين ففي لسان العرب : " يقال حججته أحاجه حجاجاً ومحاجة حتى حججته أي : غلبته على الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة والتحاج التخاصم ، واحتج بالشيء : اتخذه حجة ، قال الأزهري إنما سميت حجة ؛ لأنها تحج أي : تقصد ؛ لأن القصد لها وإليها "(١) والمخاصمة : مصدر خاصم المزيد أما المجرد فهو خصم يقول الراغب : " الخصم مصدر خصمته أي : نازعته خصماً يقال : خاصمته وخصمته وخصاماً قال تعالى : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [٢] ثم سمي المخاصم خصماً وأصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي : جانبه ، وأن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب ." (٣) فالحجة أدق من المخاصمة ؛ لأن النار تقول : أوثرت بكذا ، والجنة تقول : ما لي لا يدخلني إلا ... فهما يحتجان بهؤلاء ، وهذا ليس في المخاصمة ؛ لأن المخاصمة تعني المنازعة في الشيء برفع الصوت ، وهذا لا يناسب المقام فالمقام مقام افتخار ، فتبين كل واحدة الحجة على صاحبتها.

ولفظ (سقطهم) يدل على الاحتقار ، وعدم الاعتداد بهؤلاء كما جاء هذا في لسان العرب : " السقط من الأشياء ما تسقطه فلا تعتد به من الجند والقوم ونحوه ، والسقاطات من الأشياء ما يتهاون به من رذالة الطعام والثياب ونحوه وسقطهم أراذلهم وأدوانهم[٤] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٨ / ٣ / حرف الحاء.

(٢) سورة البقرة ،آي ٢٠٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ١٤٩ ، كتاب الحاء .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٧ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩ حرف السين .

و(يزوي) له دلالة الحركة ، فهو في اللغة : " الجمع والقبض يقال : زوى الشيء يزويه : جمعه وقبضه ، وانزوت الجلدة في النار اجتمعت وتقبضت ."[1] فهو يبين تلك الحركة الهائجة ، وما يصدر عنها من أصوات مخيفة تجلب الفزع في نفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد أنضم بعضها إلى بعض ويوحي ذلك أيضاً بالصورة المشاهدة لحال النار وهي تأكل بعضها بعضاً.

وألقى النبي الكريم الخبر على الصحابة دون تأكيد في قوله (تحاجت الجنة والنار) ؛ لأن الصحابة لا يعلمون ذلك فجاء الخبر ابتدائياً.

وبعض الأفعال في الحديث الشريف مضارعة تدل على تصور الأحداث ، وكأنها حاضرة يراها الصحابة ماثلة أمام أعينهم فلا تزول عن خواطرهم ، وبعضها ماض مثل (تحاجت ، أوثرت ، قالت الجنة ، قالت النار، قال الله تعالى للجنة ، وقال للنار ،) وهي تنقل الحدث المستقبل كأن وقع في الماضي لتحقق وقوعه .

ومن الاستفهام الذي خرج عن معناه الحقيقي ما يلحظ في قول الجنة (مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟) وهو هنا للحسرة والحزن ، وكأنها تشتكي إلى الله ، وتتساءل في تعجب واستغراب عن سبب ذلك . وجيء باسم الإشارة الدال على البعيد (هنالك) تهويلاً لشأن النار .

وفي الحديث إيجاز بالحذف يتجلى في حذف الظرف (الجار والمجرور) في قوله (تمتلئ) وتقديره : تمتلئ بهؤلاء ، وحذفت أيضا (إنما) في قوله تعالى للجنة (أنت رحمي) فإن الأصل: إنما أنت . يدل على ذلك قوله للنار: إنما أنت عذابي ، والحذف جاء للاختصار في الكلام، وهومن بلاغته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ فهو إلى جانب صون الأسلوب عن الترهل يجعل الحدث يتبع بعضه بعضا ، فتظل النفوس متعلقة به ، مشدودة إليه . وفي ذكر المسند إليه بلفظ الجلالة في قوله (قال الله تبارك وتعالى للجنة) وفي قوله (لا يظلم الله) ؛ للتعظيم من شأنه ـ عز وجل ـ ، ولأنه لا يزول عن خاطره ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وفي الحديث ألفاظ وردت معرفة مثل (الجنة ، النار ، المتكبرين ، والمتجبرين ، ضعفاء الناس، رحمتي ، عذابي ، عبادي) ؛ فالصحابة يدركون معنى الجنة والنار، ويدركون حقيقة

---

(١) ترتيب مختار الصحاح للرازي ص ٣٤٦، باب الزاي .

المتكبرين والمتجبرين ؛ ولذلك عرفت هذه الأربعة بأل التي تفيد العهد ، أما التعريف في (رحمتي) فقد جاء للتعظيم من شأن الجنة عند الله ، والتعريف في (عذابي) جاء للتهويل من شأن النار في الدار الآخرة ، والتعريف في (ضعفاء الناس) بالإضافة فهو لبيان حالهم . أما التنكير في (أحداً) جاء للتعميم لكونه نكرة في سياق النفي ، والتنكير في (واحدة) جاء للتعيين أي : إما الجنة أو النار ، والتنكير في لفظ (خلقاً) جاء للتكثير فهم خلق كثير ينشئهم الله تعالى في جنته .

والقصر بيِّن في عبارات الحديث ، والغرض منه تأكيد المعنى وزيادة وضوحه ؛ حيث قصر الموصوف على الصفة في قوله (أنت رحمتي) وتقدير أداة القصر (إنما) بدليل وجودها في قوله (إنما أنت عذابي) ؛ فقصر الجنة على الرحمة الشاملة لجميع خلقه ممن يشاء تعالى ، ومثله القصر في قوله (إنما أنت عذابي) وفيه تعريض بأصحاب النار ؛ حيث لم يستخدم " إنما" مع الجنة بل اكتفى بالإخبار عنها ، ومن قصر الصفة على الموصوف في قوله (لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم) بالنفي والاستثناء ؛ فقصر دخول الجنة على هؤلاء الضعفاء ومن هم في نظر الناس من الطبقات الحقيرة .

والوصل بين الجمل يظهر جلياً في قوله (قالت النار: أوثرت ...) و(وقالت الجنة : مالي لا يدخلني..) فوصلت الجملتان بالواو ؛ للتوسط بين الكمالين ، لكونهما خبريتين لفظا ومعنى . أما الفصل بين جملتي (تحاجت الجنة والنار فقالت النار.. وقالت الجنة ...) وبين جملتي (قال تبارك وتعالى للجنة ...وقال للنار ...) ؛ لأن الأولى مثيرة لسؤال تقديره : ماذا قال الله عند قولهما هذا ؟ فكانت جملة (قال الله..) جواباً لهذا السؤال، وهذا ما يسمى بشبه كمال الاتصال.

ومن البديع الجميل الذي زاد المعنى تقريراً ووضوحاً في النفس ما يتجلى من المقابلة في قوله (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي) فقابل بين المعنيين بين رحمة العباد وعذابهم. وكذلك التضاد بين الجنة والنار، وبين الضعفاء والسقط من الناس وبين المتكبرين والمتجبرين. ومن البديع أيضا حسن التعليل في قول الله تعالى لكل من الجنة والنار: (أنت رحمتي ... أنما أنت عذابي ..) وهو تعليل كشف ستار الغموض، وأزال ما في النفس من حيرة.

ومن حوار الرب ـ تبارك وتعالى ـ مع بعض أهل الجنة بعد أن أخرجه من النار ما روي عن أبي ذر قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتي به يوم القيامة ، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول : نعم .لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا. فلقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضحك حتى بدت نواجذه.) [(١)]

في مجلس من مجالسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أصحابه بدأهم بعبارة مشوقة ، لافتة إلى ما سوف يزجيه إليهم من أحداث فقال : إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وأهل النار خروجاً منها. وبعد هذه اللفتة المشوقة شرع يقص عليهم قصة فقال : إنه رجل تأتي به الملائكة، وتقفه بين يدي الله ، فيأمرهم الله أن يعرضوا عليه ما عمله من صغار الذنوب؛ ليعرف أنه سيدهش من كثرتها التي تستوجب دخوله النار فضلاً عن كبارها التي يتفضل الله بأمره إياهم ألا يعرضوها عليه ، وتبدأ الملائكة عرض تلك الصغائر مقرونة بأيام اقترافها واحدة إثر أخرى ، فيقر بارتكابه إياها، ولا يستطيع إنكارها ، والخوف يملأ نفسه من عرض الكبائر، وفي هذه اللحظة الحرجة يمتن الله عليه فيطمئنه بأنه قد بدل سيئاته حسنات، وهنا تنفرج أسارير وجهه، ويشعر بسعادة غامرة؛ لأن الله أمنه، ويتذكر أعمالاً أخرى كان قد عملها وحجبت عنه ؛ ليرى ماذا سيقول بشأنها: أهو سيتجاهلها، أم يحرص على ذكرها حتى يحصل في مقابلها على حسنات كالتي عرضت عليه ، وهنا يكشف عنها ، وتبدل حسنات ، كما يفهم ذلك من ابتسام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عبر عنه ـ أبو ذر رضي الله عنه ـ بقوله: فلقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضحك حتى بدت نواجذه .

هذا هو مضمون الحديث أما ظواهربلاغته فأحاول الكشف عنها في الآتي:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/٤١٥.

وأول ما يلفت النظر من تلك الظواهر كلمات الحديث المفردة فهي واضحة ، سهلة يجري بها اللسان ، ويدركها الذهن غير متحمل في ذلك شيئاً من الجهد ، والتأمل ولكنها تدخل في بناء الجمل المترابطة فتكوِّن قصة قصيرة تقوم على الحوار المصور لهذه القصة ، المعبر عن أحداثها.

ويشد الانتباه تلك الجملة التي أوردها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاداً لهذه القصة : (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها) وفي هذا المهاد تشويق للصحابة ؛ لتستشرف نفوسهم إلى معرفة آخر أهل الجنة دخولاً فيها ، وآخر أهل النار خروجاً منها .

وهنا بدأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرض هذه القصة ؛ إنه رجل عمل كثيراً من المعاصي ، واستحق بها دخول النار ، ثم تتداركه رحمة الله تعالى ، فيخرج منها ، وقبل أن يدخل الجنة دار حوار بين الله وملائكته ، وبينه وبين الرجل ، وينتهي الحوار بذكر الرجل أعمالاً سيئة كانت حجبت عنه ليظهر موقفه : هل سيجعل تلك السيئات حسنات كما حصل على نظائرها أم سيسكت عنها مكتفياً بما أصاب من الخير ، فيبتسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتسامة عريضة تعبر عن أحد أمرين محتملين : سعة رحمة الله ، أو طمع الإنسان وحرصه على المزيد من فضل الله . هذا هو الإطار العام الذي يمثل سير الأحداث وصولاً إلى النهاية ، أما ما يتراءى في التركيب فألحظ ما يلي :

التأكيد المكثف في قوله : (إني لأعلم ...) الخ ، فيها أكثر من مؤكد (إن ، واللام والفعل المضارع الدال على تجدد العلم) ؛ حيث نزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحابة منزلة من يبالغ في إنكار الأمر مع أنهم من أكثر الناس تصديقاً له ؛ لكن لما كان الأمر له أهمية بالغة ، وله في النفس وقعه الخاص من حيث التأثير جاء مؤكداً بهذه المؤكدات. كما جاء التأكيد في جملة (يارب قد علمت .الخ) بقد والفعل الماضي الدال على الثبوت ؛ لبيان شدة دهشة العبد من ستر الله حين لم يبد له كبائر ذنوبه ، فكان جوابه مؤكداً لإقراره أمام الله لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية .

والتنكير في (رجل) و(أشياء) فهو في رجل يفيد الإفراد ، وفي أشياء يفيد الكثرة .

وفي الحديث إيجاز بالحذف في قوله (رجل يؤتي به يوم القيامة) وتقدير المحذوف : رجل تـأتي بـه الملائكـة بـأمر الله . وكـذلك الحـذف في (فيقـال أعرضـوا) والتقـدير: فيقـول الله اعرضوا..الخ ؛ حيث حذف المسند إليه في كلتا الجملتين ؛ لعلم الصحابة به فهم لا يتصورون غيره.

أما ورود لفظ (كذا) فهو كناية عن الكثرة ؛ فكان ما ارتكبه العبد المذنب من أنـواع الذنوب الصغيرة والكبيرة من الكثرة بمكان ، حتى لربما ظن أنه لن يغفر الله له ، ولـن يسترها عليه ، لكن رحمة الله تعالى به ، ورأفته بعباده ، واتساعها لكل شيء اقتضت تجاوزه عنها تكرماً منه وفضلاً .كما يقول ابن هشام: " تكون (كذا) كلمة واحدة مركبة من كلمتين مكنياً بها عن غير عدد كقول أئمة اللغة: قيل لبعضهم أما بمكان كذا وكذا وجد ؟ فقال: بلى وجد ذا، فنصب بإضمار أعرف، وكما جاء في الحديث: أنه يقال للعبد يوم القيامة: أتذكر يوم كذا وكذا ؟ فعلت فيه كذا وكذا. "[1]

ثم كان الحذف أيضاً في قوله (نعم ، لا يستطيع ..الخ) ؛ حيث حذف المسند والتقدير: نعم عملت ؛ وحذف لدلالة ما قبله عليه إذ هو معلوم لدى السامعين وعدم تكرار المعنى دون فائدة من تمام بلاغته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد عبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمكان دون المحل ، والمكان هو ما يستقر فيه الإنسان ويقيم فيه ؛ والسر في اختيار هذه اللفظة هو ثبوت الحسنات لصاحبها ، وأن الله يبدل سيئاته حسنات رحمة منه تعالى في ذلك اليوم العصيب .

ومما يزيد المعنى وضوحاً، ويقرره في النفس التكرار اللفظي لجملة (عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا) ؛ وجاء لبيان كثرة ما اقترف من الإثم.

وقد تقدم الجار والمجرور (لك) على اسم إن (مكان) ؛ لاختصاص تلك الأعمال بصاحبها ، فهو من سيحظى بستر الله عليه ، ورحمته به.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٢١١/ ١.

وعند الانتقال إلى جمل الحديث يلحظ الوصل بين الجمل مما يزيد المعنى عمقاً في النفس لاسيما الجملتان المختلفتان من حيث المعنى وذلك في قوله (اعرضوا عليه صغار ذنوبه)، (وارفعوا عنه كبارها).

ونلاحظ كثرة التضاد في الحديث ، والمقابلة بين الجمل ؛ والسر البلاغي في ذلك زيادة تقرير المعنى وتوضيحه في النفس ، فيدرك السامعون الفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ويستطيعون بعد ذلك تحديد الموقف ، وإدراك أبعاده . فالمقابلة في قوله (أهل الجنة دخولاً الجنة وأهل النار خروجاً منها) ؛ حيث قابل بين الجنة والنار، وبين أهلهما، وبين الدخول والخروج. وقابل بين العرض والرفع ، وقابل بين صغار الذنوب وكبارها ، في قوله (اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها) ومثله التضاد بين الحسنة والسيئة في قوله (فإن لك مكان كل سيئة حسنة) .

من الحوار مع بعض أهل الجنة ما روي عن ابن مسعود ـ رضي الله ـ عنه قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة . رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله ـ عز وجل ـ له : اذهب فادخل الجنة . فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع ، فيقول : يارب وجدتها ملأى . فيقول الله ـ عز وجل ـ له : اذهب فادخل الجنة . فيأتيها ، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع ، فيقول : يارب وجدتها ملأى، فيقول الله ـ عز وجل ـ له : اذهب فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا . فيقول : أتسخربي أو أتضحك بي وأنت الملك . فلقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضحك حتى بدت نواجذه فكان يقول : (ذلك أدنى أهل الجنة منزلة .)[1]

هذه قصة عجيبة من القصص المستقبلة ، قصها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مسامع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فبدأها بمقدمة مشوقة تستثيرهم ؛ ليترقبوا أحداثها وما سيحصل بعد ذلك، والقصة تومئ إلى معنى عظيم هو سعة رحمة الله تعالى بعباده، وشمول كرمه وعفوه عن المسيئين ، وتجاوزه عن بعض الذنوب منة منه وتفضلاً .

وبيَّن الحوار ما اعترى نفس ذلك الرجل من خلجات كالحيرة ، والخوف ، والاستغراب والدهشة ؛ لأن الله عندما أمره بدخول الجنة خيل إليه أن الجنة قد امتلأت بأصحابها ، ولا مكان له بينهم ، ولا يجد بدا من الحيرة والغرابة كيف ووعده تعالى حق وقوله حق ؟ ! فيرجع إلى ربه حيرانا، ويتكرر الموقف له مراراً ، حتى يظن أن هذا سخرية به فيقول: (أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك) .

وجميع ألفاظ الحوار جزلة ، معانيها واضحة ، ومصورة للمعنى المراد في النفس ، دون الخوض في زيادات وتفريعات لا طائل تحتها وهذا كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتي موجزاً ، وواضحاً في وقت واحد.

والنواحي البلاغية التي تحلي الحديث ، وتفصح عن جمال مفرداته وعباراته تتجلى في الآتي :

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، للنووي : ٥٨٤، ٥٨٥.

اختيار المفردة المعبرة تمام التعبير عن المقصود مثل (حبوا ، ملأى ، يخيل ، تضحك ، تسخر بي) ؛ فالحبو كما جاء في النهاية :"أن يمشي على يديه وركبتيه أو إسته ، وحبا البعير: إذا برك، ثم زحف من الإعياء ، وحبا الصبي: إذا زحف على إسته."[٢] فهو يصور كيفية خروج الرجل من النار وقد نجا من العذاب الشديد ، وفرَّ منه حتى حاول الخلاص بهذه الحال. ولفظ (يخيل) ولفظ (ملأى) ففي التخيل تصور الرجل للجنة وقد امتلأت ، وتعدد تلك الصورة مرة بعد مرة ، ورجوعه إلى الله وقد قال: وجدتها ملأى ، فيأمره الله بالذهاب إليها، والدخول فيها ، وهكذا يتصورها ممتلئة ، وعن لفظة (التخيل) يقول الراغب الأصفهاني : " تستعمل في صورة كل أمر متصور وفي كل شخص دقيق يجري مجرى الخيال ، والتخييل: تصوير خيال الشيء في النفس ، والتخيل تصور ذلك ، و خلت بمعنى ظننت يقال اعتباراً بتصور خيال المظنون ."[١]

التأكيد المكثف في قوله : (إني لأعلم ...) الخ ، ففي الجملة أكثر من مؤكد تمثل في (إن، واللام والفعل المضارع الدال على تجدد العلم ؛ حيث نزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحابة منزلة من يبالغ في إنكار الأمر ، ولم يظهر منهم أي من هذا ؛ لكن لما للأمر من أهمية، وتأثير في نفوس الصحابة، جاء مؤكداً بهذه المؤكدات.

والحذف في بعض كلمات الحديث يتجلى في قوله (رجل يخرج من النار) وتقدير المحذوف : هو رجل ؛ حيث حذف المسند إليه . ويتجلى في حذف الجار والمجرور من قوله (فيرجع) إذ التقدير: فيرجع إلى ربه ، أما حذف بعض الجمل ففي قوله (اذهب فادخل الجنة) وتقدير المحذوف بعدها : فيذهب إليها فيأتيها ، وإنما كان هذا الإيجاز بالحذف للمسارعة إلى إرواء نفوس الصحابة ؛ لشدة شوقهم إلى معرفة نهاية القصة ، فكان في طي الألفاظ تعبير عن سرعة تتابع الأحداث وصولاً بها إلى الخاتمة.

أما ذكر المسند إليه في قوله (فيقول الله ـ عز وجل ـ) فهو لإظهار تعظيمه تعالى في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم .[٢]

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٣٠/ ١ باب الحاء مع الباء .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٧ /٢.

أما التعريف في (أهل النار ، أهل الجنة ، الدنيا ، الملك) ؛ فـ (أهل النار ، أهل الجنة) معرفان بالإضافة فلفظ (أهل النار) يتضمن تحقيرهم وامتهانهم ، و(أهل الجنة) يتضمن تعظيم شأنهم ، كما يقول القزويني في الإضافة في المسند إليه : " لتضمنها تعظيما لشأن المضاف إليه كقولك : " عبدي حضر " فتعظم شأنك أو شأن المضاف كقولك: " عبد الخليفة ركب " فتعظم شأن العبد أو شأن غيرهما كقولك : " عبد السلطان عند فلان " فتعظم شأن فلان أو تحقيراً نحو " ولد الحجام حضر. "[1] أما لفظ (الدنيا) فعرف بأل ؛ لأن الصحابة يدركون حقيقة الدنيا وما تعنيه من مغريات ومتاع . ولفظ (الملك) مثله .

والفاء في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (فيأتيها ، فيخيل ، فيرجع ، فيقول ، فيقول الله ..) الخ تشير إلى تسارع أحداث القصة ؛ فالإتيان ، والتخيل ، والرجوع ، والقول كلها أمور تحدث عقب الأمر بالذهاب إلى الجنة ودخولها دون تمهل أو تراخ .

ومن ملامح البلاغة النبوية الاستفهام الذي جاء على لسان الرجل إذ يقول: (أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك ؟) فهو يومض بالتعجب ، وحق للرجل أن يتعجب فقد تكرر الأمر بالذهاب والدخول ، وهو يجد الجنة في مرأى العين ملأى .

ومن روعة الأداء وبلاغته ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: (رجل يخرج من النار حبوا بعد قوله : (إني لأعلم .. دخولا الجنة) فهذه الجملة تثير سؤال مؤداه: من هو يا رسول الله؟ ، فنزلت الجملة منزلة السؤال المثار، وكان قوله (رجل يخرج...الخ) جوابا عن هذا السؤال ، وذلك ما يسميه البلاغيون : شبه كمال الاتصال .

ومن البيان النبوي ما يلحظه المتذوق لبلاغة الرسول الكريم من التشبيه العجيب في قوله (فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا) فالمشبه به حسي ، فيتخيل السامع مدى اتساع ملك الرجل في الجنة ، وقد حذف وجه الشبه ، وذكرت الأداة وهي اسم (مثل) فهو إذاً تشبيه مرسل مجمل .

ومن بلاغة هذا الحديث تلك المراجعة فإنها تشير إلى ما يبدو لعين الرجل من كثرة أهل الجنة حتى يراهم على البعد وكأنهم لم يتركوا منها مكانا خاليا يتسع له ، فإذا ما دنا منها وفقا

(١) المصدر السابق ٣٤، ٣٥/ ٢ .

لأمر الله له بالذهاب والدخول وجد صدق ما أخبر الله به من اتساع لم يكن يتصوره وهو عشرة أضعاف الدنيا ، وفي ذلك إيماء إلى سعة فضل الله .

ومن بديع الكلام المشاكلة في لفظ (تضحك) وفي استعمال اللفظين (تضحك) و (تسخربي) دون غيرهما ، مع أنه لا يمكن أن يقول الإنسان هذا القول في حق الله تعالى ، وقد جاء من باب المقابلة كما يقول المازري : " الضحك من الله محمول على إظهار الرضا والقبول ؛ إذ الضحك في البشر علامة تدل على ذلك ، ويقال : ضحكت الأرض إذا ظهر نباتها ، كأنه تعالى لما أظهر له رحمته استعير له اسم الضحك مجازاً ، ولما كان عادة المستهزئ من المخلوقين والساخر أن يضحك وضع ها هنا " تضحك" موضع تستهزئ وتسخر لما كانت حالة للساخر . ولم يقع ـ أي : لفظ السخرية ـ إلا على جهة المقابلة ، وهي إن لم تكن موجودة في اللفظ فهي موجودة في معنى الحديث ؛ لأنه ذكر فيه أنه عاهد الله مراراً أن لا يسأل الله غير ما سأله ، ثم غدر ، وحل غدره محل الاستهزاء والسخرية فقدر أن قوله تعالى له : " ادخل الجنة " وتردده إليها ، وتخيله أنها ملأى ضرب من الإطماع له ، والسخرية به جزاء على ما تقدم من غدره ، وعقوبة له ، فسمى الجزاء على السخرية سخرية فقال : أتسخر مني أي : أتعاقبني بالإطماع ."[1] وربما قصد الشيخ بالمقابلة المشاكلة لأن معنى المقابلة في البلاغة تعني التضاد .

---

(١) المعلم بفوائد مسلم للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري ، ٢٢٧/ ١، تقديم وتحقيق الشيخ / محمد الشاذلي النيفر ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ط ٢ ، ١٩٩٢م .

ومن الحوار مع أهل الجنة ما كان من حوار بين الله ونبيه آدم ـ عليه السلام ـ فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أي رب من هذا ؟ فقال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة . فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت ، فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟! قال : أولم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته) [1].

شرع النبي – صلى الله عليه وسلم – في تقديم قصة حدثت وقائعها بعد خلق آدم ـ عليه السلام ـ ومن خلالها أراد الإبانة عن طبع بني آدم ، وما جبلوا عليه من فطرة الجحود والنسيان ، وما اعتادوه من نكران الخير والمعروف ، ولا يخفى على القارئ ما فيها من إشارات معنوية كثيرة ، منها توضيح اندفاعه إلى تحمل التبعات الثقال دون دراية بأعبائها فيحمل نفسه من ذلك ما لا تطيق كما تكلف بتحمل الأمانة ، وقد أبت حملها السماوات والأرض والجبال الراسيات ؛ لعلمها بالعجزعن الوفاء بها ، فأمرها ليس بالشيء الهين بل شأنها عظيم ، كما أبان تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [2] ومنها كثرة اغتراره بمباهج الدنيا الجميلة وانغماسه فيها لدرجة الغلفة عن بعض العبادات ، وشرائع الدين .

وفي القصة يظهر مشهدان ، انطوى كل مشهد على حوار معين ؛ الأول حوار مع الرب ـ جل جلاله ـ ونبيه آدم ـ عليه السلام ـ ، والثاني حوار مع آدم نفسه وملك الموت ، والحوار مع الرب ـ عز وجل ـ اتسم بالإيجاز والهدوء ، ويلحظ فيه ما تملك آدم من شعور السعادة والحبور حين لمح نورا يسطع عن قرب كما يصور ذلك قوله (فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه) فيبادر على الفور يسأل ربه (رب كم جعلت عمره ؟)، وليس هذا السؤال طلبا

---

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح ، الجامع الصحيح لسنن الترمذي ٥ / ٢٦٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية (٧٢) .

للإخبار عن شيء لا يعرفه فحسب بل يريد من خلاله التكرم بسخاء ، وعن طيب نفس منه بإعطاء ابنه (داود) سنوات من عمره ؛ لما رأى حسن وجهه ، وآثار عبادته لربه ، وآية ذلك الوبيص الساطع بين عينيه فيقول آدم : (أي رب زده من عمري أربعين سنة). والحوار مع ملك الموت يظهر شخصية آدم الجاحدة لربها بالرغم من تذكير الملك له بفعله (أو لم تعطها ابنك داود؟) ، وما أقرَّ به آدم أمام ربه يؤمئذ (أي رب زده من عمري أربعين سنة) ومن هنا يأخذ الحوار طابع الهدوء ، وإن بدت عليه علامات الاستغراب من قبل آدم بقوله (أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟) إلا أنه يمتاز بالرقي بفن الحوار ، وحسن التعامل مع الآخر وهذه الطريقة المثلى في الحوار خاصة إن عاند الطرف الآخر ، وأخذ برأيه ، وأصر على موقفه مع علم الآخر ببطلان ما يفعله ، وحين يتجه الحوار إلى هذا المنحنى وتغلق منافذه يجدر بالطرف الآخر أن يقدم بين يدي الطرف المعاند الحجة والبرهان على صدق ما يدعو إليه ، ويذكره إن نسي كما فعل ذلك ملك الموت مع آدم عليه السلام كما يقول أحد الباحثين : " على المحاور أن يرغب خصمه في التجرد وطلب الحق والتسليم بالخطأ متى تبين والإذعان لحكم الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرهبه من التعالي والتمادي في الباطل"[(١)] .

وبالتوجه إلى خصائص الحديث البلاغية يلفت فيها سهولة التناول ، ودنو المعاني ، وجزالة الألفاظ ، ودقة النظم في انسياب عجيب ينم عن بيان المنطق ، وحكمة النبوة المحمدية وذلك فيما يلي :

اختيار اللفظ المناسب في المكان المناسب وفي المقام المناسب كـ (جعل ، إنسان ، وبيص ، أعطى ، جحد ، نسي ، خطي) ؛ فإيثار لفظ (جعل) دون غيره كوضع مثلاً عند الوقوف على تفسير معناه فهو دقيق في موضعه ، ومعناه كما وضح العسكري بقوله : " تغيير صورة الشيء بإيجاد الأثر فيه وبغير ذلك ، ألا ترى أنك تقول : جعل الطين خزفا وجعل الساكن متحركا ، والجعل أيضاً يكون بمعنى الإحداث ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[(٢)] والجعل : أصل الدلالة على الفعل لأنك تعلمه ضرورة ، وذلك أنك إذا رأيت دارا مهدمة ثم رأيتها مبنية علمت التغير ضرورة ولم تعلم

---

(١) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ، يحيى بن محمد زمزمي ، ٤٤٣، ٤٤٤.

(٢) سورة النحل الآية (٧٨) .

حدوث الشيء إلا بالاستدلال ." (1) فالشروع في الفعل ، ومن ثم تغييره على نحو ما إما بتحسينه أو تقبيحه هو ما دل عليه لفظ (جعل) وهو بذلك دال على معاني التحول ، والإخبار عن الفعل ، أو المبادرة فيه التي لا تدرج تحت أي فعل غيره ؛ لأن الجعل كما هو واضح أعم منه يقول الراغب : " الوضع أعم من الحط ومنه الوضع ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ ﴾ (2) فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق ." (3) وعبر بلفظ (الإنسان) ؛ للدلالة على حاجته إلى الأنس ، أو ما طبع عليه من النسيان ، يتبين ذلك مما حكاه الراغب بقوله : " سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض ؛ ولهذا قيل : الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض ، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه ، وقيل : هو إفعلان وأصله : إنسيان سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي." (4) فناسب مقام الجحود والنسيان الكائن في طبع أبي البشر آدم ـ عليه السلام ، وذريته . والتعبير بلفظ (العطاء) دون لفظ (المنح) أبلغ ؛ لأنه يفيد التناول فقط دون أن يتناول معنى آخر كما أخبر ابن منظور بقوله : " العطو التناول ، وعطا بيده إلى الإناء تناوله وهو محمول قبل أن يوضع على الأرض " أما المنح أو المنيحة فقال عنها : " المنحة عند العرب على معنيين : أحدهما أن يعطي الرجل صاحبه المال هبة أو صلة فيكون له ، وأما المنحة الأخرى فأن يمنح الرجل أخاه ناقة أو شاة يحلبها زمانا وأياما ثم يردها. (5)" فدل لفظ العطاء على العموم ولم يفد المنح هذا المعنى . أما كلمة (وبيص) فتدل على شدة النور مع جماله دون أن يكون فيه إيذاء للناظر ، في حين لا تحمل هذا المعنى بعض الألفاظ كبرق ؛ لأن من النور ما هو مؤذ ومنها ما هو إلا لمعة بسيطة باهتة لا تجدي ، وبالنسبة للألفاظ الثلاثة مرتبة (جحد ، نسي ، خطئ) فلا يمكن أن يتقدم لفظ منها على الآخر ؛ لأنه لو حصل ذلك لتناقض المعنى ، وذهبت مزية النظم النبوي ، وفقد مغزاه ؛ إذ كل فعل صدر منه ترتب عليه فعل معين ، وفسر الراغب معنى جحد بقوله : " الجحود نفي

---

(1) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، ص ١٥٤. ١٥٥.

(2) سورة الرحمن الآية (١٠)

(3) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني باب الواو ، ص ٥٢٥. ٥٢٦.

(4) المصدر نفسه ص : ٢٨.

(5) لسان العرب لابن منظور حرف العين ، ١٣٢/ ١٤ حرف الميم .

ما في القلب إثباته .[1]" ولما حصل ذلك أي فعل الجحود من آدم تركه ، وبتركه ونسيانه بعد ذلك أخطأ ، ومن أجله ارتكب المعصية ، وباء بالذنب [2] . وهنا تكمن بلاغة النبوة وروعتها المنزهة عن زلل اللسان .

ولحروف العطف دور في تتابع الأحداث بسرعة ، والوصول بها إلى خاتمة هي بمثابة الخلاصة لمجريات القصة كالعطف بالفاء في (فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال...) و"ثم" كما هو ظاهر في (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور) فبعد اكتمال المشهد بجمال المحيا عرض الرب ذرية آدم عليه ولذا جيء بحرف العطف (ثم) ليدل على التراخي في المدة الزمنية .

وكل من الحذف والتنكير والتقديم وكل ما هو ذو صلة بعلم المعاني يدرك من خلال سياق الحديث فلو وقف المتذوق لأسرارها لأمكنه استجلاؤها بحسه الأدبي وهذا في الإيجاز بالحذف وهو كثير كحذف المسند إليه خاصة عند لفظ القول كالحذف في (فقال : أي رب) أي : قال آدم ، و في قوله(قال هؤلاء ذريتك) أي قال : الله هؤلاء ذريتك ، و في قوله (قال أولم يبق من عمري) أي : قال آدم لملك الموت كذا ... ، وفي قوله(أولم تعطها ابنك) أي : قال ملك الموت لآدم كذا .. ، وفي قوله(قال فجحد آدم) أي : قال الرسول الكريم كذا ..، وكل هذا الحذف للتعويل على القرينة ، وأن الصحابة يرودن ما جاء بعد لفظ القول لما هو له ، وبذلك الإيجاز بدا الأسلوب متخففا مما يؤدي به إلى الترهل ، ويعوق الذهن عن متابعة ما هو أعلق بالقلب ، وهو مصدر القول في هذا الحوار المثير .

وآثر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض الصيغ على بعض كالتعبير بصيغة اسم الفاعل (خلق) دون المضارع (يخلق) ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والدوام ، وجميع

---

(١) المفردات في غريم القرآن : ٨٨ كتاب الجيم .

(٢) تفسير ذلك كما جاء في التحفة : " جحد آدم ذلك ؛ لأنه كان في عالم الذر فلم يستحضره حالة مجيئ ملك الموت له فجحدت ذريته : لأن الولد سير أبيه ، قال القارئ نسي آدم أي نسي أن النهي عن جنس الشجرة أو الشجرة بعينها فأكل من غير المعينة وكان النهي عن الجنس " وخطئ " أي أذنب وعصى " تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، ٣٦٣/ ٨ .

أفعال القصة وكل أحداثها داخلة في حيز المضي (الفعل الماضي لأنها قصة قد وقعت في علم الغيب.

وتقديم الظرف " بين عيني .." على مفعول جعل " وبيصا" وإضافة المسند إليه (وبيص) إلى (ما) الموصولة جعل الاختلاف واضحاً بين جملة ((بين عيني كل إنسان منهم وبيصاء من نور) وجملة (فأعجبه وبيص ما بين عينيه) فالأولى تقدم فيها الظرف على مفعول جعل" وبيصاً " ؛ لتعلق النفوس بمكان الجعل فإن النفس وإن تعلقت بالنور فإن تعلقها بالمكان الذي جعل فيه أشد وأقوى، ولذا جيء بـ (من) لبيان الجنس [1]. أما الجملة الثانية فتقدم فيها المسند إليه المضاف إلى (ما) الموصولة ؛ لأن الأصل تأخر الصلة على الموصول، فليس يخفى أن لفظ (بين) هنا شبه جملة وهي صلة الموصول . ودل التنكير في (رجلا) على علو شأن داود وعظم قدره . أما (من) في قوله (من ذريته) فهي بدل اشتمال من قوله (من ظهره) وهو يوازي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾..[2] ؛ ولذا قال القرطبي عنها :" (من ظهورهم) بدل اشتمال من قوله (من بني آدم) "[3] .

والاستفهام بمعناه الحقيقي في (أي رب من هؤلاء ؟) و (أي رب من هذا ؟) و(رب كم جعلت عمره ؟) والإشارة إلى الذرية دلالة على كثرتهم ، وأنهم أمامه ، والإشارة في الابن دلالة على تعظيم آدم له ، وورد في القصة فعلان مضارعان جاءا في سياق الاستفهام الأول : في معنى الاستغراب أو الإنكار (أو لم يبق من عمري ...؟) والثاني : في معنى التقرير، وكأن آدم يستحضر ما في نفسه ليقنع الملك بحجته فعمره ألف وقد بقي منها ـ ساعة مجيء الملك ـ ستون كما في الحديث .

---

(١) تكون (من) لبيان الجنس . نحو : (خاتم من حديد) " ينظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها . لأبي الحسين أحمد بن فارس . ١٢٦ تعليق أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط١ ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .

(٢) سورة الأعراف آية (١٧٢) .

(٣) تفسير القرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ٢٧٥/ ٧ بدون تاريخ .

ويلمح الوصل بين الجمل في قوله (فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها ...يوم القيامة) وجملة (وجعل بين عيني كل إنسان وبيصا من نور) وبين جملة (فجحد آدم فحجدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته) والوصل في ذلك للتوسط بين الكمالين لمشاركتها في الحكم الإعرابي .

وعبر النبي الكريم بلفظ النسمة دون الروح وهو المناسب للمقام لأن لفظ (نسمة) كما جاء في اللغة تعني : " التنفس ، وتنسم تنفس ، والنسمة الإنسان [١] " فدل على الحياة ، إذ عبر عما هو سببها ، فلولا تتابع النفس لدى الإنسان ، وتكرار حدوثه بقدرة الله ، ما عاش وبقي على قيد الحياة ، وهذا ما يعرف بالمجاز المرسل الذي من علاقاته السببية .

وحين حاول آدم إقناع ملك الموت ببقاء شيء من عمره بادر الملك برد الحجة عليه ليقره، ويذكره ، وكأنه يريد أن يقول له تذكر يا آدم ، وارجع بمخيلتك للوراء ، واستحضر ذلك اليوم الذي كنت قد أشركت فيه ابنك داود من نصيبك العمري، وهذا ما يعرف بالمذهب الكلامي .

(١) القاموس المحيط باب النون فصل الميم : ١٥٠٠.

ومن الحوار مع بعض المؤمنين المقصرين في جنب الله ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله ـ عز وجل ـ يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .قال :يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال : يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يابن آدم استسقيتك فلم تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : أستسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي (١).

هذه القصة من غريب القصص التي رواها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصحابة ، تحاور فيها الرب ـ عز وجل ـ مع عبد من عباده ، فهي تترك في الختام أثرا في نفوس السامعين ، فتوجه إليهم الأمر بفعل الخير ، والسعي في تحصيله سواء كان بعيادة المرضى ، أو إطعام المساكين أو غير ذلك ، واليقين بثواب الله تعالى ؛ لما فيه من التكافل ، والرحمة ، والإحسان كما قال ـ صلى الله عليه وسلم - : (الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) (٢) وبذلك كانت القصة أبلغ من التوجه بالنصيحة بالسرد العادي الرتيب .

والحوار صور تتابع الأحداث فيها منذ البداية ، ونشوء العقدة بنداء الله لأحد عباده المقصرين نداء المعاتب له المقرِّ له بخطئه ، وعاقبة صدوده عن أخيه المحتاج في الدنيا ، فعبر الحوار عن حاجة كل من المريض، والفقير ، وابن السبيل إليه ؛ فالمريض في حاجة ماسة إلى من يخفف عنه ألمه ، ويواسيه في مصابه ، والجائع الفقير في حاجة ملحة إلى الطعام الذي يسد به فراغ بطنه، ويقوي به بدنه ، وابن السبيل العطشان في حاجة شديدة للماء ليرطب به ريقه ، ويبل به عروقه ، كل ذلك صوره الحوار في قوله تعالى : (أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟) ،(أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي)، (استسقاك عبدي فلان فلم تسقه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٧/ ٦.

(٢) المصدر نفسه ١٨٩/ ٦.

أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي) ، كما صور الحوار موقف العبد ، ووقوفه بين يدي الله يوم القيامة، وما هو فيه من إنكار مشوب بالحيرة عندما يسمع الله تعالى يقول له (يا بن آدم مرضت فلم تعدني ، يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني) ويرد منكرا ما يسمعه بقوله في كل مرة (يارب كيف أعودك ؟ وأنت رب العالمين) ، (يارب كيف أطعمك ؟ وأنت رب العالمين) ، (يارب كيف أسقيك ؟ وأنت رب العالمين) وبذلك عبر الحوار عن موقفين: موقف الله من العبد عند حاجة هؤلاء له، وموقف العبد تجاه ما يسمع من الرب ـ عز وجل ـ ، ونتيجة للحوار الدائر كانت الإثارة والمتعة في نفوس السامعين .

والحديث حافل بكثير من الخصائص البلاغية التي تظهر في اختيار اللفظ المناسب للموقف كإطلاق لفظ العيادة دون الزيارة ، وملائمته لكلمة (المرض) ولا يمكن أن تسد مسدها لفظة أخرى غيرها ؛ لأن معنى عاد لغة : الرجوع بعد الانصراف ، يقال : " عاد إليه رجع ، واستعاده أياه سأله إعادته ، ونسوة عوائد وعود هن اللاتي يعدن المريض ، قال الفراء: " يقال هؤلاء عود فلان وعواده وهم الذين يعودونه إذا اعتل ، وكل من أتاك مرة بعد أخرى فهو عائد وإن أشتهر ذلك في عيادة المريض حتى كأنه مختص به [(١)]".

فعيادة المريض تستلزم مواساته مرة بعد أخرى ، وتفقده كل حين حتى يشفى من مرضه، وهو اللفظ الذي قصده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يؤدي هذا القصد لفظة كـ (زار) مثلا.

ويأتي لفظ (رب) وإضافته إلى (العالمين) ثم مجيئه بعد الاستفهام عن العبادة والإطعام والسقي ، ولا يخفى ملائمة (رب) لـ (العالمين) ففي معنى رب يقول ابن منظور : " الرب هو الله رب كل شيء أي : مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له ، " أما العالمين فنقل معناه عن الزجاج بقوله : العالمين كل ما خلق الله ، وهو رب كل شيء ، وهو جمع عالم ولا واحد له من لفظه؛ لأن عالما جمع أشياء مختلفة ، فإن جعل عالم لواحد منها صار جمعا لأشياء متفقة ، وفي التنزيل رب العالمين قال ابن عباس : رب الجن والإنس ، وقال قتادة : رب الخلق كلهم [(٢)]". ففي قول ابن منظور في تفسير لفظ الرب (أي مالكه وله الربوبية)

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣٢٥، ٣٢٧ . حرف العين .

(٢) لسان العرب حرف الراء ١٠/٢٦٥ .

أنه مربيهم بنعمه ، ومتوليهم بعنايته ورعايته ، ولا ينهض بهذا المعنى لفظ الجلالة أو غيره من أسمائه الحسنى جل وعلا .

فدل هذا على أنه تعالى هو المتفضل بنعمه عليهم ، الرازق ، المعطي ، المانع فلا رب لهم سواه يلجئون إليه بالسؤال، والدعاء والرجاء لكل خير.

كما أن لفظ (العلم) أبلغ من (المعرفة) في قوله (أما علمت ..) ومناسب لمقام الحساب والمعاتبة ففيهما يقول الراغب : " المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم ، ويضاده الإنكار، ويقال : فلان يعرف الله ، ولا يقال يعلم الله متعديا إلى مفعول واحد ؛ لما كانت معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون ذاته ، ويقال : الله يعلم كذا، ولا يقال يعرف كذا لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل به بتفكر (١)." فالله تعالى يقرر العبد بشيء قد تناهى إليه علمه في الدنيا هو يعلم شدة حاجة هؤلاء إليه ، لكنه أعرض ، وصد عنهم متناسيا ما يترتب على بره بهم وإحسانه إليهم من ثواب عظيم قد يكون دخول الجنة ، وأعظم منه رضا ربه عنه .

كما أن لصيغة (استفعل) في (استطعمك ، استسقاك) تأثير في النفس ، بل إنها تجعل الصورة مستوحاة في خيال السامع يحسها ويتلمسها في نفسه ؛ فهي تدل على الطلب كما ذكر ذلك أحد الباحثين بقوله : " المعنى الذي يغلب على استفعل هو السؤال والطلب، وهو إما صريح نحو : استغفرت الله ، وإما في التقدير نحو :استخرجت الوتد ، فليس ههنا طلب في الحقيقة وإنما هو طلب مجازي ، فبمزاولة إخراجه ، والاجتهاد في تحريكه كأنه طلب منه أن يخرج (٢)." فلا يخفى ما فيها من عمق المعنى، فطلب المسكين أو ابن السبيل ومبالغتهما في إظهار حاجتهما، وإلحاحهما في الطلب لا يمكن أن تعبر عنه صيغة أخرى غير (استفعل) .

وتأكيد الخبر بـ (إن) في قوله (إن الله يقول يوم القيامة) مراعاة لحال السامعين (الصحابة) فهم في حكم المستشرف الطالب، فحسن تأكيده لهم بمؤكد واحد أو كما يقول

---

(١) المفردات في غريب القرآن : ٣٣١كتاب العين .

(٢) المغني في تصريف الأفعال د / محمد عبد الخالق عظيمة ص ١٤٩. دار الحديث القاهرة ط٣ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

بعض البلاغيين : " لكون الخبر صادرا عن اليقين المانع من النقيض [1] " وعبر بالمضارع (يقول) ؛ لاستحضار حوار الرب ـ عز وجل ـ مع العبد وتحديد ذلك بـ (يوم القيامة) يشعر بعظم الوقوف بين يدي الله ؛ فالعبد أمام محاسبة وربما معاتبة ، وكشف للأعمال الخفية ، أما بقية الأفعال فهي ماضية مثل (عدته ، وجدتني ، أطعمته ، وجدت ، سقيته) ثم إتباعها بالشرط يدل على انتفاء حصول الثواب لانتفاء فعل الخير ، فلو حصل من العبد العيادة ، والإطعام ، والسقي في الدنيا لوجد ثواب الله ، ورحمته يوم القيامة جزاء رحمته بهؤلاء. وتأكيد الخبر بالفعل الماضي وأن واللام في قوله (أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده) لأن العبد في حكم من ينكر ويبالغ في ذلك لما بدا عليه من الاستغراب في قوله (يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين) ومثله التأكيد في قوله (أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي) وقوله (أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي) والاختلاف فيما بين الجمل الثلاث هو أن الجملة الأولى قال فيها ـ عز وجل ـ (لو جدتني عنده) والثانية (لوجدت ذلك عندي) والثالثة (وجدت ذلك عندي) فأثبت في الأولى وجوده عند المريض فدل بذلك على قربه وأنه يجزي العبد خيرا ببره لأخيه ، وأثبت في الثانية الأجر العظيم الذي يناله العبد جراء إحسانه إلى المسكين ، ولكن في الثالث خلت العبارة من اللام بعكس العبارتين السابقتين فدلت على أن أجر العيادة أكبر من الإطعام والسقي لما كان المريض منهمكا وعاجزا عن القيام ببعض أموره بخلاف المسكين وابن السبيل اللذين يحاولان استجداء الطعام أو الماء ممن هو قادر على منحهما إياه فناسب ذلك التعبير بقوله (و جدتني عنده) دون الأخيرتين (وجدت ذلك عندي) ؛ ولذا يقول العيني : " قال في العيادة (لوجدتني عنده) وفي الإطعام وكذا السقى (لوجدت ذلك عندي) إرشادا إلى أن الزيارة والعيادة أكثر ثوابا منهما وقال السبكي : سر ذلك أن المريض لا يروح إلى أحد بل يأتي الناس إليه فناسب قوله (لوجدتني عنده) بخلاف ذينك فإنهما قد يأتيان لغيرهما من الناس [2]. "

---

(١) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د / عبد القادر حسين : ٣٢. دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة د . ت .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي ٢/٣١٢، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط ١ ، ١٣٥٦ .

ونداء الله للعبد بأداة النداء الموضوعة للبعيد (يا) مع قربه لتنبيهه إلى أمر جهله وغفل عنه تجلى في عيادة المريض وإطعام الفقير وسقاء ابن السبيل ، وربما لمح القارئ فرقا بين نداء الله للعبد ونداء العبد للرب ؛ ففي نداء الله للعبد ما يدل على رحمته ولطفه به حين خاطبه بوصفه (يا بن آدم) وإضافة الابن للأب (آدم) عليه السلام لتذكيره بما امتن عليه من تشريفه بإسجاد ملائكته له إذ خلقه بيده كما دل عليه قوله لإبليس ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾ ﴾(١) وبما أفاضه عليه من تكريم بقوله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ وذلك كله لبيان تقصيره ، كما هو الشأن في التعريف في (رب العالمين ، عبدي) . ونداء العبد (يارب كيف ..) يدل على ما يختلج في أعماقه من مشاعر الدهشة والاستغراب ، فاستفهامه ليس على مقتضى الظاهر بل لبيان ما يحسه من حيرة تجعله ينكر أن يكون الله طالبا وهو تعالى المتفضل المنعم على عباده ، المستغني عنهم. وكذلك الاستفهام الإلهي(أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟)(أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟) خرج أيضا عن مقتضى الظاهر إلى معنى آخر قصد به تقرير العبد بفعله ، وربما توبيخه عليه على نحو قريب من المعاتبة المبطنة بالرحمة والإشفاق.

أما تنكير (فلان) إشارة لشخص غير معين كما ذكر صاحب المطول ذلك بقوله " أما تنكير المسند إليه للقصد إلى فرد غير معين مما يصدق عليه اسم الجنس نحو قوله " تعالى ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢) " والإشارة للأجر بقوله (لوجدت ذلك عندي) لبيان عظيم المثوبة منه تعالى فهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ويظهر الإيجاز بالحذف في قوله (لو عدته) أي : في الدنيا ، والحذف في (لو سقيته) أي : سقيته ماء ، وهذا الحذف للإيجاز الذي يقتضيه موقف العتاب ، وفيه تغني اللمحة الدالة ، والاكتفاء بالمقصود دون الإطالة .

ونسبة المرض والإطعام والسقي إلى الله من باب المجاز وليس هذا على حقيقة اللفظ والله تعالى غني ذو الفضل والمنة ، ولكن قصد بهذه الأعمال ما هو سبب فيها ، وهو وجه الله تعالى على سبيل المجاز المرسل الذي من علاقاته السببية.

---

(١) سورة ص. الآية : ٧٥.

(٢) المطول ص ٢٣٤ والآية العشرون من سورة القصص .

وفي الحديث إطناب بالتكرار في قوله (أما علمت) للتنبيه من جهة ، والتأكيد من جهة أخرى على خطأ العبد ، وزيادة تقريعه ، ولتناسب فواصل الجمل من جهة ثالثة مما يعطي مزيدا من الانسياب والتناغم بين الكلم .

ومثله التناغم بين (لو عدته لوجدتني عنده) فهناك انسجام صوتي بين (عدته ، عنده) ومن بديع الحديث أيضا المذهب الكلامي في مخاطبة الله تعالى للعبد حين سأله (يارب كيف أعودك وأنت ربك العالمين ؟) فقال (أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ...) وبذلك يرد الله تعالى على العبد ويقرره حتى أنه ليعجز عن الجدل فيما لا فائدة فيه.

ومن الحوار مع بعض أهل النار ما روي عن أبي زيد أسامة بن زيد بن حارثة ـ رضي الله عنهما ـ قال :

سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه [1] ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه.)[2]

يعطي الحديث الشريف انطباعاً كريها عن هؤلاء المرائين بأعمالهم، التي لم يقصدوا بها الإخلاص لله ، والسعي في رضاه ، بل يراءون من أجل الناس، يحثون الناس على الخير ولا يأتونه ، وينهونهم عن منكرات الأمور ثم يأتونها ظناً منهم أن تخفيهم عن الناس يحميهم من العقاب ، أو تهاونا بالله ـ عز وجل ـ ، ولم يدركوا أن الله مطلع على سرائرهم ، وفي زمننا هذا نماذج كثيرة منهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [3].

والنبي الكريم نقل المشهد بصورة حية تدل على إثارة الحركة والانفعال في نفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فبدأ بالحدث دون أي مقدمات تمهد له ، وفي إلقاء الحدث بهذه الصورة الحية ما يعمق الأثر في نفوس الصحابة فيرهبون الموقف ، ويستثيرهم بأحداثه المخيفة ؛ فالأمر عظيم لا يقدر الإنسان على تحمله ـ وهو لم يره ـ فكيف لو رآه ماذا سيكون ؟ وهذا يدل

---

(١) الأقتاب : هي المعى ، ينظر : لسان العرب لابن منظور ١٩ / ١٢ حرف القاف.

(٢) متفق عليه ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : ١٢١ ، قدم له الشيخ / عبد القادر الأرناؤوط.

(٣) سورة المنافقون آية (٤)

على جرم ما اقترفه هؤلاء فأمر تعذيبهم بهذه الصورة تفجر في القلوب مكا من الخوف والرهبة ، ولو تخيل المتلقي هذا الموقف لتصور بشاعته وفظاعته ، إذ كيف يدور حول نفسه من شدة ما في الوقف من رهبة المكان يوم القيامة ؟ ! ، ورهبة العذاب في نار جهنم ؟ ! ، والافتضاح أمام الناس ، وهن مهلكات ثلاث لا ينجو من هذه إلا وهذه له بالمرصاد . يقول أحد الباحثين : " نحن أمام مشهد حيوي حافل ، يصوره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كلمات قليلة ، ولكنها معبرة أدق ما يكون التعبير عن هذا الموقف الرهيب الذي وقع فيه الرجل المنكود ، إنه مشهد غاية في الإثارة ، فهذا الرجل لا يلقى في النار وينتهي الأمر ولكن القصة تعطينا صورة مفصلة ، تحوي أبعاد الموقف من زوايا متعددة ، فللقارئ أن يتصور هيئة الرجل وقد خرجت أمعاؤه من بطنه من غير أن تنفصل عنه وليس هذا فحسب ولكنه مع ذلك يدور بها في جهنم ، في حركة مستمرة تشبه حركة الحمار ، وقد أخذ يدور بالطاحونة ، وهي صورة مزرية شنيعة جعلت أهل النار ـ مع ما هم فيه من عذاب شاغل ، وهم مقيم ـ جعلتهم يلتفتون إلى هذا الرجل المثير في حركته العجيبة وهو يدور بأمعائه كما يدور الحمار برحاه . "[(1)] ثم تأتي لحظة الكشف لأمر الرجل حين يسأله أهل النار ، وقد عهدوه يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ما به؟ فيسألونه ألم تفعل كذا وكذا ؟ ، فيقول بلى كنت أفعل ، ولكني لم أكن آتي ما أمرت به ، ولا أنتهي عما نهيت عنه.

وإذا وقف المتذوق أمام بلاغة الحديث وجمالياته سيجد ما يلي :

اختيار المفردة المعبرة عن حركة جريان أمعاء الرجل وهو يعذب في نار جهنم في لفظ (تندلق)[(2)] إذ هي صورة مخيفة تصور الحالة النفسية التي عليها من شدة كربة ، وضيق مقام ، و خوف وألم ، وفضيحة ، ويالها من اضطرابات نفسية بلغت أقصى درجات الشقاء ، وقاساها صاحبها بكل ما يتصوره الإنسان في تلك اللحظات العصيبة من فرغ وهلع ، وقد انظم إلى هذه اللفظة (يدور) وزادت من تصور تلك الحركة بحيث أنها لا تزول عن خاطر المستمعين ـ وهم

---

(1) القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية، د / محمد حسن الزير: 136، دار المطبعة السلفية، القاهرة، ط 1، ١٣٩٨هـ / 1978م.

(2) جاء في النهاية: " الاندلاق: خروج الشيء من مكان، يريد خروج أمعائه من جوفه، ومنه أندلق السيف من جفنه إذا شقه وخرج منه، ومنه. ومنه الحديث (جئت وقد أدلقني البرد) أي: أخرجني. " النهاية في غريب الحديث والأثر باب الدال مع اللام . ١/٥٧٩، ٣٨٣، ٣٨٤، وفي ترتيب مختار الصحاح للرازي : ٢٦٥ باب الدال.

الصحابة. ولو تأمل المتلقي جميع الأفعال الواردة في الحديث الشريف لوجدها أفعالاً مضارعة ، تدل على تصور المشهد فيتجدد في نفوس المخاطبين حيناً بعد حين فلا يغيب عن الخاطر . يقول أحد الباحثين : " والسياق دال على استقبال هذه الأفعال المضارعة ؛ لتصويرها مشاهد أخروية ، ولكنها قد عبر عنها بالمضارع المجرد ؛ لاستحضار صورها في الحال تقريراً لما تقص من تلك المشاهد." [1]

وفي استخدام لفظ (الحمار) ما يوحي بالمهانة ، والاحتقار ، والجهل ، والذل كما قال أحد الباحثين : " وكأن في اختيار الحمار للتشبيه دون غيره مما يدور في الأرحاء إمعاناً بتصوير المهانة والمذلة والجهل كما نجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ " [٢] ولذا كان التصوير الفني في هذا اللوحة القصصية موحياً بالمعنى من جهة ، ومن جهة أخرى جسد هذه الانفعالات ، وما يصحبها من حركة مشاهدة متخيلة لا سيما وقد اقترن كل ذلك بالحوار فزادها إثارة وحيوية ، كما يقول أحد الباحثين : " إنه يعبر بالصورة المجسمة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية كما يعبر بها عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل." [3]

وبالنظر إلى التعريف في بعض الكلمات مثل (الرجل ، يوم القيامة ، النار ، الحمار ، الرحي ، أهل النار ، المعروف ، المنكر) يلحظ أنها معرفة ؛ لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يدركونها في الحقيقة .

وفي الحديث إيجاز بالحذف ماثل في حذف المسند إليه في قوله (يؤتى بالرجل) وقوله (يلقى في النار)(وقوله (فيدور بها) وتقديرالمحذوف في قوله (يؤتى) : يأتي ملائكة العذاب

(1) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د عز الدين علي السيد : ٣٤٥.

(٢) روائع من أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم دراسات لغوية وفكرية وأدبية ١٦٧، والآية من سورة الجمعة آية (٥) .

(3) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٧١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٦٧م.

(الزبانية) بالرجل ، وفي قوله (فيلقى): فيلقي الزبانية به في النار ، وفي قوله (فيدور بها) أي : يدور الرجل بها ، وقد حذف المسند إليه فيها جميعاً ؛ لأنه معروف ومتعين لدى الصحابة.

وخرج الاستفهام في قوله: (ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟) عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر هو الاستنكار والتعجب من شأنه ، ومما يزيدهم حيرة جوابه بـ" بلى " ففيه تكذيب لكل ما يفعله ، وقد يكون من باب التعريض بكذبه . (1)

والوصل بين الجمل مشاهد في قوله (كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهي عن المنكر وآتيه) ؛ فالجملتان خبريتان لفظاً ومعنى وقصد التشريك بينهما في الحكم الإعرابي ؛ لأن الجملة الأولى خبر كان وقام حرف الواو بالربط بينهما في هذا الموقع وهذا الوصل بمثابة الوصل بين المفردات ، ومعناهما متضادين.

وفي الحديث من صور البيان الماثل التشبيه الجميل في جعل النبي حال من يأمر بالمعروف ولا يأتمر به ، وينهي عن المنكر ولا ينتهي منه ، وقد خرجت أمعاء بطنه ، فيدور حولها بحال الحمار حين يدور بالرحى ، وقد جمع بين التشبيه المرسل والتشبيه المجمل فهو تشبيه مرسل ومجمل كما يقول أحد الباحثين : " هو تشبيه مرسل لذكر الأداة وهي الكاف ، ومجمل لعدم ذكر وجه الشبه أي بجامع الحركة الذليلة المتكررة في كل ."(2) وهو تشبيه تمثيلي ، لكون الطرفين مركبين فهو تشبيه هيئة بهيئة ، ونظيره من القرآن الكريم قوله تعالى : (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ) (3) فلجهله بما يعلم كان كالحمار يقول الزمخشري : " شبه اليهود في أنهم حملة التوراة ، وقراؤها ، وحفظوا ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بتعاليمها ، ولا منتفعين بآياتها كمثل الحمار يحمل أسفاراً : أي كتباً كباراً من كتب

---

(1) قال الزجاجي في شرح الجمل في باب الجواب ببلى أو نعم : " أما التقرير نحو : ألم أعط درهماً، ولم يقم زيد ، فإن العرب تجري ذلك مجرى النفي المحض فتقول : نعم ، إن أردت تصديق النفي ، وبلى إن أردت تكذيبه ، قال تعالى:(ألست بربكم قالوا بلى) قال ابن عباس: لو قالوا نعم في الجواب لكفروا ." شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الشبيلي الشرح الكبير ، ٢/٤٨٥ ، تحقيق صاحب أبو جناح ، إحياء التراث الإسلامي بالعراق ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(2) روائع من أقوال الرسول. صلى الله عليه وسلم. دراسات لغوية وفكرية وأدبية . أ / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ص ١٦٧.

(3) سورة الجمعة. آية: ٥.

العلم، فهو يمشي بها ، ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل ." [1]

ومن البديع المقابلة التي تزيد من تأكيد المعنى في النفس وتقرره ما يتراءى في نهاية القصة في قوله (كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه ، " فقابل بين الأمر بالمعروف وهو لا يمتثل لما أمر ، وبين النهي عن المنكر وهو لا ينتهي عما نهى الناس عنه .

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١٠٣/ ٤ .

ومن حوار الله ـ تعالى ـ مع أهل النار ما روي عن أبي هريرة قال:

سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتي به ، فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .قال : كذبت ولكنك قاتلت ليقال : فلان جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به ، فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال:ما تركت من سبيل تحب ـ قال أبو عبد الرحمن : ولم أفهم تحب ـ كما أردت أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكن ليقال : إنه جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، فألقي في النار) (1).

أورد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نماذج لبعض المرائين ، وغيرهم كثير إلا من رحم ربي ، فالمنافقون يتفيئون تحت ظلال الرياء ، ويستخفون عن أنظار الناس ، ولا يبدون لهم إلا الحسن والصلاح ، وتتوجه أعمالهم إلى غايات كثيرة .

فما قدمه هؤلاء لم يبتغ به وجه الله تعالى بل كان للناس فيه حظ ونصيب ولهذا كانت أعمالهم حسرات عليهم وإن ظنوا أنهم أحسنوا صنعا لقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (2) فالحوار يصور تلك النفس الدنيئة ، يغريها ثناء الغير، وتتعلق بشغف لكل مدح ، وحب الثناء قد جبلت عليه نفوس البشر ، ولكنه في الطاعة مدخل من مداخل الشيطان يغري المسلم حتى يوقعه في شباك الشرك الخفي.

ففي الحديث إذن حث على إخلاص النية لله وحده ، ونهي عن تصنع التقوى رياء ، فكان سوقه مؤثراً في نفوس المتلقين بطريقة مشوقة تستدعي الإنصات ، والتفاعل مع مجرياته ،

---

(1) رواه النسائي في سننه وصححه الألباني ، والمجتبى من السنن ، أحمد بن شعيب أو عبد الرحمن النسائي ٦ / ٢٣ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، بحلب ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .

(2) سورة الكهف الآيتان ١٠٣. ١٠٤.

وزادهم إثارة ما تخلله من حوار حي بين الرب تبارك وتعالى وبين هؤلاء العصاة ، حين استدرج الله هؤلاء بسؤالهم وهو عالم بهم حتى يرد عليهم كذبهم وافتراءهم ، بنبرة عالية فيها قوة الزجر، وحرارة التوبيخ في قوله (كذبت) وما تبعثه هذه الكلمة في النفس عند الوقف عليها بالسكون من هيبة ، وجلال ، وعظمة لاسيما إن كان هذا التوبيخ في يوم مشهود كيوم القيامة.

أما ما في الحديث من خصائص بلاغية فيمكن لكل متذوق ملاحظتها فيما يلي:

التعبير بيوم القيامة معرفا بالإضافة لما يوحي به لفظ القيامة من الشدة حيث لا يمكن لأحد أن يتصور هول المقام بين يدي المولى ـ عز وجل ـ فدلالته معلومة لدى السامعين إلا أن تصور ما فيه من شدة وكرب مما يخفى عليهم .

كما عبر بالفعل (يسحب) دون (يجر) ونحوه وأصل السحب في اللغة : " الجر كسحب الذيل ، وسحب الإنسان على الوجه ، ومنه قوله تعالى﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [(1)] أما الجر لغة : " الجذب ، وانجر الشيء انجذب " [(2)] ، فالسحب إذن لا يكون إلا على الأرض وفيه يكون العذاب أشد وأنكى ولكن الجذب قد يكون من أي اتجاه كان ، ثم أردفه بحرف الجر (على) ولا يكون هذا السحب إلا للوجه خاصة وهو محل إكرام وتشريف للإنسان ، لكن حينما يسحب ذلك المرائي على وجهه دل على الإمعان في إهانته وتحقيره أمام الخلق في يوم تفتضح فيه السرائر . وليس غريبا كذلك أن يؤتى بلفظ (ألقي) دون (طرح) مما يؤكد دلالته على الاستهانة بشأنه وكأنه شيء لا قيمة له [(3)].

وفي الحديث عرفت بعض الكلمات مثل (العلم ، القرآن ، المال ، النار) فالتعريف بـ (أل) للعهد العلمي إذ كل ذلك معروف لدى السامع ، ونكرت بعض الكلمات مثل (رجل ، سبيل ، عالم ، قارئ ، جواد) ؛ ففي (رجل) جاء التنكير بمعنى رجل غير معين ، وربما لا يتخيل أن يكون كل واحد منهم هو بعينه فقد يكون كثير ممن يدعون ذلك ، وتنكير سبيل

---

(1) المفردات في غريب القرآن. كتاب السين ٢٢٥ والآية : ٤٨من سورة القمر .

(2) لسان العرب حرف الجيم ، ٤/١١٧.

(3) طرح كما جاء في الفروق " الطرح اسم لجنس الفعل فهو يكون استهانة بالشيء وإظهار الاستغناء عنه وقد يكون لغير ذلك " الفروق اللغوية ص ٣٣٢بتصرف.

لإفادة تعميم كل سبيل قصدها من أجل الله ، وأنه لم يترك أي منها ، وتنكير (عالم ، قارئ ، جواد) فيفيد الكثرة ، أي : كثير العلم ، وكثير القراءة ، وكثير الإنفاق والجود.

وجميع الأفعال الواردة في الحديث ماضية مثل (أتي ، فعرفه ، عملت ، قاتلت ، استشهدت ، قيل ، ألقي ، قرأت ، تعلمت ، أمر به ، سحب ، وسع ، أعطاه) وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عنها بالمضارع الدال على المستقبل ؛ لأنها سوف تكون يوم القيامة لكنه عبر عنها بالماضي ليدل على ثبوت وقوعها ، وأن تحققها كائن لامحالة .

ولا يخفى الإيجاز بالحذف في هذه الأفعال (أتي ، يقال ، أمر به ، سحب ، ألقي) فجميعها مبنية لما لم يسم فاعله ، أعني أن المسند إليه محذوف لتعلم من السياق وتقدير الكلام : أتت به الملائكة ، يقول الناس عنك كذا ، أمر الله الملائكة ، سحبته ملائكة العذاب على وجهه ، ألقته الملائكة في النار ، وكل هذا الحذف للمبادرة بذكر أهم الأحداث ؛ لأنها مناط الاهتمام ، أما المسند إليه فليس يتعلق به غرض إذ لا يهم المتلقي معرفة من حدث منه الإتيان أو القول ، أو السحب أو الإلقاء .

وكذلك خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر في قوله تعالى (فما عملت فيها ؟) هو الإبانة عن دعواهم الكاذبة ، ليعقب الحق عليها بإبطالها ، وكشف زيفها بأن يقول لكل منهم كذبت ، ثم يخبره بحقيقة ما كان منه ، وفي رده عليهم بقوله : (تعلمت العلم ليقال عالم) ألقي الخبر إلى كل واحد منهم مجردا من التأكيد ، وكان مقتضى الحال أن يؤكد ، لكنه أنزلهم منزلة من لا ينكر ذلك ؛ لعلمهم بحقيقة أنفسهم ، فهم موقنون بفساد نيتهم ، فكانوا في غنى عن تأكيد الخبر لهم ، والاستدراك في هذه الجملة (ولكنك قاتلت ليقال فلان جرئ) ومثله مع العالم والقارئ كشف لما أراد إخفاءه ، وبيان لاستحقاقه ما يترتب على شركه من جزاء.

ومن صور الإطناب التفصيل بعد الاجمال ؛ فأجمل حين قال للصحابة (أول الناس يقضي لهم يوم القيامة ثلاثة) ثم بين هؤلاء على التفصيل (رجل استشهد ...الخ) وقد يكون هذا من التوشيع بإطلاق العدد ثم بيانه وأيا ما كان الأمر في الإطناب أو التوشيع فإن المعنى يتأكد بهما.

وفي الحديث من البيان الاستعارة في الأفعال الماضية التي عبر بها عن المستقبل (أتـي ، سحب ، ألقي) ؛ حيث شبه المستقبل بالماضي بجامع تحقق الوقوع في كل ، ثم تنوسي التشبيه ، واستعير الماضي للمستقبل على سبيل الاستعارة التصريحية . (1)

ومن صور البـديع الاستفهام في (فمـا عملـت فيهـا ؟) فهـو مـن بـاب تجاهـل العـارف ليكشف الله ـ عز وجل ـ ما سيحاولوا به ستر الحقيقة من دعاوى كاذبة .

ومن البديع الجناس بين القراءة والقرآن ، وبين التعلم ، والعلم والجنـاس يضـفي علـى الكلام إيقاعاً حلواً تميل إليه النفس ، ويستدعي الإصغاء لما يقال.

---

(1) ينظر : المطول لسعد الدين التفتازاني في باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ص٢٩٦ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ج ١، ص ٣٤٨، تحقيق، د- خليل إبراهيم خليل، مكتبة عباس أحمد، دار الكتب العلمية- بيروت. لبنان ، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ومن الحوار مع أهل النار ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ:

عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو[1] الرحمن فقال له : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة .قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب .قال:(فذاك).قال أبو هريرة :اقرؤوا إن شئتم (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) [2]

رواية مثل هذه الأقصوصة على مسامع الصحابة لها غاية منشودة قصدها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي الترهيب من القطيعة ، والأمر بواجب الصلة ؛ فالقطيعة تعني الجفاء في المعاملة والكراهية بين ذوي القربى ، وليس خافيا على كل عاقل عظم شأن صلة الرحم ، وجلالة قدرها عند الله تعالى حيث اشتقت من اسمه ؛ لتدل على تلك العلاقات الملتحمة الحميمة التي تشد من أواصر البشر باسم النسب أو القربى ، وتوعده تعالى بقطيعة من يقطعها ، إذ لا يمكن أن يتصور إنسان يرجو رحمة مولاه ، ودخول جنته ، يقدم على ما يغضبه ؛ لأن ذلك مدعاة الهلاك ، وسوء المال ، فلن يدخل الجنة قاطع رحم [3]، ومن هنا كان النهي عن القطيعة حثا على وجوب امتثال أمر الله ورسوله الكريم بصلة الأقارب والأرحام ، والقيام بكل ما تستحقه الصلة من الإحسان والبر والمعروف نظر لما يترتب على ذلك من دوام الرزق ، وطول العمر كما أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [4].

وهو حوار غريب دار بين الرب ـ عز شأنه ـ وبين أمر معنوي هو علاقة القرابة تمثل في (الرحم) ، وتصوير مثل هذا المشهد الحي يجعل المتأمل يرى ، ويسمع ، ويحس بعواطف الآخرين ، ويتفاعل مع الموقف بكل جوارحه حين يتخيل الرحم شخصا عاقلا يقوم بين يدي الله قياما يشعر باستجارة الخائف ، وخضوع الذليل ؛ خشية وقوع ما يكره في قولها (هذا مقام العائذ بك من القطعية) ثم اعتصامه بعزيز يجبر الكسرة ، ويقيل العثرة ، ولا شيء يرضيه إلا

---

(1) معنى حقو كما ذكر ابن منظور : " الحقو ، والحقو والحقوة والحقاء كله : الإزار كأنه سمي بما يلاث عليه ، قال ابن بري : الأصل في الحقو معقد الإزار ثم سمي الإزار حقوا لأنه يشد على الحقو ، كما تسمى المزادة راوية لأنها على الراوية وهو الجمل " لسان العرب حرف الحاء ٤/١٨٣.

(2) رواه البخاري في صحيحه صحيح البخاري ٣/١٥٣٣.

(3) اقتباس من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا يدخل الجنة قاطع) رواه البخاري ٤/١٨٩٥.

(4) الحديث هو : (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) رواه البخاري في صحيحه صحيح البخاري ٤/١٨٩٥.

الإنصاف الرباني الذي يطيِّب خاطر كل مستجير به وتمثل في قوله (ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟) مما يعمق الثقة في نفس المستجير (الرحم). وهذا الأداء الوظيفي للحوار المرجو عند سرد أي قصة يتخللها حوار زاخر باندفاع الحركة ، وحماس الإثارة.

وعندما ييمم المتلقي الوجه وينظر للنواحي البلاغية فإنها ستبدو له في أفنان جميلة ، وسياق محكم ، ينبئ عن سهولة اللفظ وجزالة النظم ، وذلك فيما يلي :

البراعة في تخير اللفظ المناسب لما يعتمل في النفس من معان عظيمة كـ (فرغ ، العائذ ، مقام) ؛ فمعنى (فرغ) في اللغة :"عمد" ومنه قوله تعالى ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾[1] وهو مجاز فالله لا يشغله شأن عن شأن وقال أهل التفسير : سنفرغ أي نعمد ، يقال : فرغت إلى أمر كذا أي عمدت له[2]. "

وهو بذلك عبر عن انتهاءه من الخلق جملة ، وقد يكون هناك لفظ يعطي هذا المعنى كـ (انتهى) لكنه لا يفي بغرض النبي الكريم لأن :" (الإنهاء) في الأصل : إبلاغ النهي ، ثم صار متعارفا في كل إبلاغ فقيل : أنهيت إلى فلان خبر كذا أي أبلغت إليه النهاية ، وناهيك من رجل كقولك حسبك، ومعناه: أنه غاية فيما تطلبه، وينهاك عن تطلب غيره ، وناقة نهية تناهت سمنا، والنهية: العقل الناهي عن القبائح، جمعها نهى ومنه قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[3] " فدل على بلوغ غاية محددة في زمن معين ، والفراغ من الخلق لا يمكن لأحد أن يتصوره ؛ إذ لا يمكن إدراك ذلك إلا على وجه التخمين وهو يقوم على الظن وقت خلق الله للكون ؛ ولذا صدر الكلام بـ (لما) لتبين أن ثمة زمناً لكنه غير معروف بل علمه عند الله تعالى .

وكذلك لفظ (الاستعاذة) ؛ فالاستعاذة غير الاستجارة أو ما يمكن إضافته لهذا المعنى فلن تكون الاستعاذة دون أن يخامر النفس الخوف الدفين، ثم يعلن عنه صراحة في تضرع وخضوع ، فليتجئ العبد بذلك إلى الله تعالى ؛ وهذا سر اقتران الضمير المتصل بالباء في (العائذ بك) التي تدل على التحصن بالمولى وحده ؛ لأنه هو الرحمن الرحيم ، كما أن مجئ اللفظ

---

(1) سورة الرحمن، الآية: ٣١.

(2) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس . ٤/٤٩٣ باب الفاء والذال وما يثلثهما ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(3) المفردات في غريب القرآن ، كتاب النون ٥٠٧ والآية : ٥٤من سورة طه .

على صيغة الفاعل (عائذ) فيه إيماء إلى لزوم الدعاء ودوامه . و(مقام العائذ) مناسب للموقف ، ومطابق لمقتضى الحال بالتعبير بمقام العائذ لتعظيم أمر الاستعاذة [1]؛ لذا جيء باسم الإشارة الدال على القرب (هذا) ثم أتي بـ (من) الابتدائية ؛ فالاستعاذة كان ابتداؤها ومنشؤها من قبل القطيعة .

وقوله للرحم (مه؟) معناه :(كفي) وهو أمر يراد به طمأنتها باستجابته لها ، وصيانتها ، أما الاستفهام في (ألا ترضين أن أصل...؟) فهو لحض (الرحم) على قبول الرضا بوعد الله ، والتسليم بما قدر وقضى ، وهذا من قبيل المواساة لها .

وفي الحديث إيجاز بالحذف يتمثل في قوله (هذا مقام) أي : (قيامي لك مقام العائذ) فحذف المصدر (قيامي) للإيجاز ؛ لأن المقام مقام استغاثة لا يسمح بالإطناب ، وفي قوله في معرض الإجابة عن سؤال الرب ـ عز وجل ـ (بلى) أي : (بلى أرضى أن تصل من وصلني ، وتقطع من قطعني) والمحذوف هنا جملة كبرى مفعولها مصدر مؤول ومعموله ، وفي تجاوز هذه الجملة والاكتفاء بحرف الجواب (بلى) إيماء إلى الاطمئنان ، وهدوء المشاعر المهتاجة مما شأنه الاكتفاء بأقل ما يدل على الرضا المقرون بالشكر ، يعبر عنه الضمير ، ويعجز عنه بيان اللسان ، وإنما كان لدلالة ما سبق عليه في (ألا ترضين ..) وكانت الإشارة إلى ما أقر به الله (الرحم) من قبل إيجاز القصر في (فذاك) فإن المغزى : سأرضى عمن يرضيك ، وأثيبه ، وأغضب على من أضاع حقك ، وأعاقبه.

ومن بيان هذا الحديث الاستعارة المكنية ؛ حيث شبه الرحم بالإنسان المستجير ، فتنوسي التشبيه ، وأتي بشيء من لوازمه وهو الاستجارة على سبيل الاستعارة المكنية هذا هو الأرجح والأظهر .

ولكن العيني في موطن من كتابه عمدة القارئ ـ ذكر نقلاً عن الطيبي ـ أنه يحتمل أن يكون حقيقة ، وأن يكون استعارة تمثيلية حيث قال : " ثم إسناد القول إلى الرحم يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان المقال ، تتكلم كما هي ، أو يخلق الله عند كلامها

---

(1) فرق ابن منظور بين القيام فقال: " معنى القيام العزم ومنه (لما قام عبد الله) أي لما عزم، وقد يجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات، أما المقام والمقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام. " فالمعنى الأول هو ما يعنيه (المقام) في هذا الحديث. لسان العرب لابن منظور ١٢/٢٢٤. حرف القاف .

حياة وعقلاً ، وقيل : هو في الحقيقة ضرب مثل ، إذ الرحم معنى وهو إيصال القربى بين أهل النسب ، ولم يذكر احتمال إلا أن يكون استعارة مكنية "[1]

وفي موطن آخر ذكر أنه يحتمل أن يكون استعارة تمثيلية ، وأن يكون استعارة مكنية حيث قال " وهي استعارة تمثيلية... وأنه شهبت حالة الرحم وما هي عليه من الافتقار إلى الصلة والذب عنها من القطيعة بحال مستجير ، يأخذ بذيل المستجار به ، واستعمل في حالة المشبه ما كان مستعملاً في حالة المشبه به من الألفاظ بدلالة قرائن الأحوال ، ويجوز أن يكون استعارة مكنية بأن يشبه الرحم بإنسان يستجير بمن يحميه ، ويذب عنه مما يؤذيه ، ثم انعقد على سبيل الاستعارة التخيلية ما هو لازم المشبه به من القيام ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة ، ثم رشحت الاستعارة بآخر القول " [2].

وكأنه ـ بذلك ـ يرى في كلام الطيبي قصوراً ، فإن كان كذلك فهو محق ؛ فاحتمال كون الاستعارة مكنية واضحة ، بل ربما كان الحمل عليها أرجح ، فإن التمثيل يقتضي أنه تشبه حالة الرحم مع الرحمن بحال المستجير مع المستجار به ، وفي ذلك تمحل لايخفى ، كما يقول العيني : " أن هذا القول مبني على الاستعارة التمثيلية كأنه شبه حالة الرحم وما هي عليه من الافتقار إلى الصلة والذب عنها بحال مستجير يأخذ بحقو المستجار به ، ثم ترتب عليه الخلط بين الاستعارة التمثيلية والاستعارة المكنية ، لأن الاستعارة التخيلية التي هي إسناد لازم المشبه به إلى المشبه لا توجد إلا في الاستعارة المكنية ، ولا توجد في التمثيلية ، وأسند على سبيل الاستعارة التخيلية ما هو لازم المشبه به من القيام فيكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة ، ثم رشحت الاستعارة بالقول والأخذ ، وبلفظ الحقو فهو استعارة أخرى . [3]"

وفي قوله (أصل من وصلك وأقطع من قطعك) استعارة تبعية في الفعل شبه القيام بحق الرحم بالوصل في قوله (وصلك) كما شبه التفريط بالقطع في قوله (قطعك) ثم استعير الوصل للقيام بالحق ، والقطع للتفريط ، ثم اشتق من الوصل (وصلك) بمعنى قام بحقك ، ومن القطع(قطعك) بمعنى فرط في الحق على سبيل الاستعارة التبعية .

---

(1) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ١٥/١٥٦.

(2) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ١٥/١٥٦.

(3) المصدر نفسه ١٥/١٥٦.

أما الوصل والقطع في قوله (أصل)و(أقطع) فهو من المشاكلة حيث المراد من الوصل الرضا أو الثواب، ومن القطع الغضب أو العقاب، والمشاكلة فيها من اللطف البديعي ما لا يخفى ، حيث يخيل للسامع أن المراد باللفظ ظاهره ، فإذا تأمل أدرك حقيقة المراد به أو حصول المعنى بعد التأمل والطلب ، فيبعث في النفس لذة الحصول على الشيء بعد معاناة الشوق إليه .

ومن البديع المقابلة بين فعل الصلة وما هو مسبب عنها، وفعل القطيعة وما هو مسبب عنها في (أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك) وما فيها من تأكيد المعنى في النفس وتقريره، وحمل المخاطبين على امتثال الأمر[1]

---

(1) جعلت هذا الحديث من قبل أحاديث الحوار مع أهل الجنة والنار؛ لأن من وصل رحمه كان من أهل الجنة ، ومن قطعها كان من أهل النار لحديث (لا يدخل الجنة قاطع) مع العلم أن الحوار كان مع أمر معنوي تمثل في صلة الرحم .

الفصل الثاني

الحوار على الأرض

وفيه مبحثان

الأول : حوار الملائكة مع الناس .

الثاني : حوار الناس بعضهم مع بعض.

الحوار على الأرض

تمهيد:

يتناول هذا الفصل مبحثين هما : حوار الملائكة مع الناس ، وحوار الناس بعضهم مع بعض ، والحوار فيهما مبني في ترتيبه على حسب المكان ؛ وذلك لأن طبيعته مختلفة عن طبيعة الحوار في الفصل السابق ؛ فالأول في الملأ الأعلى وهذا على الأرض. وفيما يلي بيان لأحاديثه بالتحليل الذي يكشف طبيعة الحوار فيها.

حوار الملائكة مع الناس

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ من طريق إسحاق :

أنه سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك ؟ قال: لون حسن، و جلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس ...، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطي لوناً حسناً ، وجلدا حسنا . قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل، أو قال البقر ـ شك إسحاق ـ إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل ، وقال الآخر : البقر . قال : فأعطي ناقة عشراء ، فقال: بارك الله لك فيها ....، فأتى الأقرع ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال: شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس ......، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها... فأتى الأعمى، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس ...فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطي شاة والداً ، فأنتج هذان، وولد هذا.... فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.... ثم أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن ، والمال، بعيراً أتبلغ عليه في سفري. فقال: الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت ... و أتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل مارد هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت . قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال: رجل مسكين ، وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري ، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري ، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فو الله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي عنك ، وسخط على صاحبيك) (1)

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي ٣٩٨، ٦/٣٩٩.

هذه قصة عجيبة لها أثرها في نفس من سمعها من فم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن فم غيره من بعده، بدأها النبي بتمهيد بسيط تمثل في ذكر أصحاب القصة ـ أبطالها ـ وهم الأبرص والأقرع والأعمى، وهم من بني إسرائيل ، قد ابتلاهم الله ـ تعالى ـ ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، وكان الحوار هو العنصر الحيوي الذي دفع أحداث القصة للأمام ، وصعد بها نحو الذروة والعقدة ممثلة في عدم ارتياح هؤلاء مما أصابهم من العاهات التي يزدريهم الناس بسببها، وهو شعور بالنقص من ناحيتين، نقص من حيث العاهة ونقص من حيث الفقر، قال أحد الباحثين يصور هذا الشعور بقوله: " والمشاهد الثلاثة للأبطال تتماثل في إحساس كل بطل بنقصه البشري الظاهر ، وتلهفه على البرء منه ؛ لما في نفسه من عقدة يهولها خياله، هي اعتقاده أن الناس يقذرونه ، وذلك أشد ما يمض النفس ، ويعكر الصفو ، ويهيج الحقد والحسد على الأبرياء ، ويحرك الخاطر لاتهام القضاء."[1] واستمر الحوار حتى وصل إلى مرحلة التنوير ، ووصلت العقدة إلى الحل ممثلاً في رضا الله عن الأعمى الصالح، وسخطه على صاحبيه الأقرع والأبرص ؛ لأنه شكر الله، واعترف بنعمته عليه .

وكان الحوار بين ملك من الملائكة أرسله الله إلى ثلاثة نفر من بني إسرائيل، وكانت القصة ذات مغزي يتمثل في إرادة الله أن يكشف عن اختلاف طبيعة البشر ، وتنوعها بين شكر لنعمة الله ، وجحود لها ، واستحقاق ما يترتب على ذلك من جزاء في الآخرة .

وامتازت ألفاظ الحوار بالسهولة والوضوح، وكان زاخراً بالحركة مما يجعل الصحابة يعيشون أجواء القصة ، ويتصورون أحداثها، وقد بلغ الحوار حدته عندما ذهب الملك إلى الأقرع والأبرص في صورتهما وهيئتهما التي كانا عليها ، وطلب منهما شيئاً يسيراً مما أعطاهما الله لكن كان في جوابهما الزجر والنهر، أما الحوار مع الأعمى فقد اتسم بالارتياح والرضا . قال

---

(1) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د/ عز الدين علي السيد ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

أحد الباحثين : " لا تخلو المشاهد من الحوار الحاد المصور للجحد البالغ من الشقي المحروم ، والصدق البالغ من السعيد الموفق ." [1]

والحديث الشريف يحمل الخصائص البلاغية الجميلة ، وتتمثل في المفردة وتركيبها مع جاراتها من الكلمات الأخرى بحيث لا يكون لهذه الكلمة أي دلالة أو بلاغة إلا بمجاورتها لأخواتها ، فلو نظر المتذوق للبلاغة النبوية ، وتأمل لفظ " ابتلى " في قوله " يبتليهم " فإنه يرى أنه في هذا اللفظ اتساع البلاء في كل خير أو شر يكون للإنسان ، وقد تآزر معنى الابتلاء مع الفعل " أراد " وإرادة الله هنا هي القضاء ، وانتظمت معاني القضاء والقدر مع الابتلاء الإلهي ؛ فالمعنى المراد والذي يتبادر إلى أذهان المؤمنين أن الله تعالى أراد إظهار هذا الأمر بابتلاء هؤلاء[2].

وفي بداية القصة أبهم النبي ثم أوضح ؛ فأبهم في قوله (إن ثلاثة...) ثم وضح حقيقة هؤلاء على الترتيب ، وقد يكون هذا من التوشيع.

ويرى القارئ المتذوق الدقة المتناهية في اختيار الألفاظ في مثل(يبتليهم ، ومسكين ، فقيراً ، أنتج ، ولد) بحيث لا تجد كلمة ليست في محلها بل هي مناسبة ومصورة للمعنى في نفوس الصحابة ؛ فالابتلاء ليس كالامتحان ؛ لأن معنى الابتلاء أوسع من أي معنى يرادفه كالامتحان مثلاً ، فهو يكون في الخير والشر ، والابتلاء من الله وحده وليس مثله الامتحان فقد يكون بين الناس ، وبعض [3]. واللفظان " مسكين وفقير" وإن ظن البعض أنهما لمعنى واحد لكنهما في الحقيقة يختلفان من حيث الدلالة على المعنى ؛ فقوله " رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحبال .." يتخيل في هذا اللفظ انعدام وجود شيء يتقوت به في يومه ؛ إذ في السفر ينفذ ما عنده ، ويجد مشقة كبيرة في تحمل الجوع والعطش في بعض الأيام ؛ لذا جاء الكلام بعده"

---

(1) المرجع السابق: ٤٥٨.

(2) جاء في رواية البخاري في عمدة القارئ في تفسير قوله: " بدأ " بتخفيف الدال المهملة بغير همز، في علم الله فأراد إظهاره وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً؛ لأن ذلك محال في حق الله تعالى. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ١٢/٢١٤.

(3) قال ابن الأثير في النهاية : " المعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر جميعاً ومنه قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وفي حديث سعد يوم بدر " عسى أن يعطي هذا من لا يبلي بلائي " أي " لا يعمل مثل عملي في الحرب ، كأنه يريد أفعل فعلاً أختبر فيه ، ويظهر به خيري من شري ." النهاية في غريب الحديث والأثر . ١٥٩/ ١. وكذلك قال الرازي في ترتيب مختار الصحاح / ٩٤. كتاب الباء وكذلك قال الفيروز آبادي :" البلاء يكون منحة ويكون محنة ." باب الواو والياء ، فصل الباء ١٦٣٢.

انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك " أما الفقير فإنه لا يملك إلا الشيء اليسير، فالفقر ضد الغنى ، وإن كان الغنى كثرة المال والمتاع وغيره ؛ فهو امتلاك لبعض قليل منها ، قال ابن قتيبة : " الفقير والمسكين لا يكاد الناس يفرقون بينهما ، وقد فرق الله تعالى بينهما في آية الصدقات فقال جل ثناؤه : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ۝٦٠﴾ [1].

وجعل لكل صنف سهماً ، والفقير : الذي له البلغة من العيش ، والمسكين: الذي لا شيء له[2].

أما اللفظان (أنتج ، ولد) فلفظ " نتج" يستخدم مع الإبل والبقر ، أما لفظ " ولد" فيستخدم مع الغنم ، يقول العيني فيهما : " راعى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرف الاستعمال حين قال في الإبل والبقر ، أنتج وفي الغنم ولد. " [3]

وكذلك يجد النكرة في " ملكاً " بما تصوره من الماهية المعينة لهذا الملك في نظر الصحابة ، وكيف أنه تمثل لأولئك الثلاثة في هيئة رجل أرسله الله تعالى إليهم ؛ ليسألهم ، ويحاورهم ، ويسمع شكواهم ، ويقوم بالحجة عليهم، وكلمة " شيء" نكرة لإفادة الشمول ؛ فالمعنى : أي شيء مهما كان تريده وتتمنى حصوله ولو كان مما يصعب وجوده ؛ لأن الله تعالى قادر عليه . وأيضاً " لون حسن ، جلد حسن ، شعر حسن ، ناقة عشراء ، بقرة حاملاً ، شاة والداً" هذه نكرات كلها جاءت موضوعة في ذلك الإحساس النفسي الذي يراودهما بالنقص ، والشعور بالعاهة المقذرة ، فيتمنيان في لحظة سانحة أن يتخلصا مما هما فيه ، ويرتاح فؤادهما ، وتقر عيناهما ؛ لذلك قال الأبرص: لون حسن وجلد حسن ،وقال الأقرع شعر حسن ؛ أي قال الأبرص :أحب شيء إلي أن يكون لي لون جميل يبهر الناس، وقال الأقرع: أتمنى أن يكون

---

(1) سورة التوبة، آية: ٦٠.

(2) أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري ٣٤.

(3) أنتج لغة قليلة والفصيح عند أهل اللغة نتجت الناقة بضم النون وأنتج الرجل الناقة أي حمل عليها الفحل، وقد سمع أنتجت الفرس أي ولدت ، فهي نتوج ولا يقال منتج ، وقوله : ولد هذا ، بتشديد اللام أي صاحب الشاة . عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري للعيني ١٦/٤٨عنيت بنشرة وتصحيحه والتعليق عليه جماعة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية لصاحبها محمد منير الدمشقي . دار الفكر، بيروت، د. ت .
وينظر ترتيب مختار الصحاح ٧٧٢. باب النون ، وينظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٧٠٦ باب النون مع الهمزة وينظر أساس البلاغة للزمخشري ٢/٢٤٦. وينظر المفهم لما أشكل من صحيح مسلم للقرطبي ١١٧ /٧.

لي شعر جميل يتمناه غيري ، فأصبح بذلك محبوباً لدى الناس ومرغوباً فيه [1] . أما التنكير في " ناقة عشراء ، بقرة حاملا ، شاة والداً" ؛ فلبيان الحال التي هي عليه ، بحيث يستفيد كلاً منهم بما أعطي ، فبهذه العطية القليلة تتكاثر وتنتج وتولد ويزداد الخير من ورائها ، ويكون فيها النفع والفائدة.[2]

والنكرة في قوله " كابراً عن كابر " وقوله " رجل مسكين " ففي " كابراً " يتصور الصحابة فيه الغطرسة والتكبر، وكذلك الجحود، وكفر النعمة من الأبرص والأقرع، بدليل وجود لفظ الإشارة (هذا) وما يحمله من تصور في نفوس الصحابة عن مدى حرصهما، وطمعهما في جمع المال ، وإنكارهما للحقيقة ، في كون هذا المال من عند الله تعالى، والزعم بأنه كان ميراثاً عن آبائهم وأجدادهم البالغين في الشرف والسؤدد مبلغاً عظيماً [3]، وفيه تعريض بكذبهما ؛ حيث جاء الملك في هيئتهما وصورتهما ؛ ليدل على أنهما كانا في السابق بهذه الصورة ، وأن ما هما فيه من الخير إنما هو امتحان لهما، فتقوم بذلك الحجة عليهما .[4]

والنكرة في قوله " رجل مسكين" ؛ جاءت للاستعطاف ، وترقيق قلوبهم نحوه ، فيبادروا بالصدقة والإحسان ؛ لذا كانت موصوفة بقوله " مسكين " ، أي: رجل حاله حال مسكين، ولا يمكن أن يشكوا في أمره ؛ لأنه وصف حاله لهم وزاد أيضاً" انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ..." بحيث يجد المتأمل لألفاظ الحديث التأكيد في الخبر بقد والفعل الماضي (انقطعت) ؛ لزيادة ترقيق قلوبهم نحوه.

---

(1) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية٤٥٨.

(2) الناقة العشراء : هي الحامل التي أتى عليها في حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل ، وقيل يقال لها ذلك إلى أن تلد وبعدما تضع ، وهي من أنفس المال. عمدة القارئ بشح صحيح البخاري (١٦/ ٤٨) . عنيت به جماعة من العلماء .

(3) معنى " كابراً عن كابر " أي : كبيراً عن كبير في العزة والشرف ، ترتيب مختار الصحاح للرازي / ٦٧٥باب الكاف . وينظر أساس البلاغة للزمخشري ٢/١٩٩ . وفي النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٥١٧ باب الكاف مع الباء .

(4) يقول ابن حجر : " هو من المعاريض ، والمراد به ضرب المثل ليتيقظ المخاطب " . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٦٢٣.

وفي الحديث يظهر التعريف في قوله (الحقوق، هذا المال) ؛ حيث عرف لفظ (الحقوق) بأل للإيماء إلى استغراقها ما يمكن التبرع به ، مما يترتب عليه العجز عن التبرع للملك بما يريد ، وعرف لفظ (المال) بأل التي تفيد العهد العلمي الحضوري الذي يوضحه اسم الإشارة .

و الإيجاز بالحذف في الحديث كثير يتراءى للمتأمل في قوله (ثلاثة) ؛ حيث حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه مشيرة إليه والأصل : (رجالاً ثلاثة) ، ومثله قوله(وأعطي شعراً حسناً) وقوله (وأعطي بقرة .. وأعطي شاه) وقول الملك في آخر الحديث(فإنما ابتليتم). ومثله في حذف الموصوف في قول الملك للأبرص والأعمى (بالذي أعطاك) والأصل : (أسألك بالله الذي أعطاك) ، وفي قوله (لون حسن) ؛ حيث حذف المسند إليه والتقدير : (أحب شيء إلي لون...) وقد دل على المسند إليه السؤال (أي شيء أحب إليك؟) ، وفي قوله (فأعطي لوناً..) ؛ حذف المسند إليه كذلك وبني الفعل على ما لم يسم فاعله والتقدير: (فأعطاه الله لوناً ..) وفي قوله (شعر حسن) حذف المسند إليه أيضاً والأصل: (أحب شيء إلي شعر حسن) وفي قوله (الإبل، البقر، أو الغنم) حذف المسند والأصل: الإبل أو البقر أو الغنم أحب شيء إلي. وفي قول الملك للأبرص (رجل مسكين) حذف المسند إليه والأصل: (أنا رجل مسكين) ومثل قوله للأعمى (رجل مسكين . ومن حذف المسند ما يلحظ في مطلع الحديث في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ــ: إن ثلاثة من بني إسرائيل: (أبرص، وأقرع، وأعمى) حيث حذف خبر إن، والأصل: إن ثلاثة... لهم خبر عجيب .. و هذا الإيجاز تغيا تجاوز ما يفهم من السياق مسارعة إلى ما تعلقت به نفس المتلقي ، والتعويض إليه في استنطاق السياق، وإدراك ما توارى خلف المذكور ، وفي ذلك من قوة الأسلوب ، وجزالته ، وتدفق الأحداث وتواليها مالا يخفى على ذي بصيرة بأبعاد القول .

وفي الحديث تقديم فيه إيماءات لافتة منها قوله (بارك الله لك فيها) ؛ حيث تقدم لفظ الجلالة " الله " على الجار والمجرور" لك " ؛ لما في صلة البركة بمحدثها من التعظيم ، فالبركة من الله لا تعظمها بركة من غيره، وقدم الجار والمجرور " لك " على ما بعده ؛ لأن حصولها للمخاطب فيه إيماء إلى التعجيل بالمسرة ، وقدم الجار والمجرور (به) على المفعول (الناس) في قوله (فأبصر به الناس) ؛ لاختصاص الرؤية بالبصر؛ لأنه يتمنى ذلك ، وقد أكد هذا وجود الباء التي جاءت للاستعانة ، يقول ابن هشام: " وهي الداخلة على آلة الفعل ، نحو : كتبت بالقلم، ونجرت بالقدوم [1].

(1) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصاري ١/ ١٢٠ ، وجاء مثل هذا في كتاب معاني الحروف لأبي الحسن على بن عيسى النحوي، ص ٣٦، حققه وخرج شواهده وعلق عليه وقدم له د / عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠١هـ ١٩٨١م . وسماها الثعالبي باء الاعتمال ، ص ٢٦٥، فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي ، وضع الشروح والتعليق والفهارس د / ديزيره سقال ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩م .

وفي التعبير باسم الإشارة الموضوع للقريب الإشارة في قوله (فأنتج هذان وولد هذا) إيماء إلى استحضار هذه الأجناس من الإبل والبقر والغنم كأنها حاضرة يراها المخاطبون ماثلة أمام أعينهم ، والأمر نفسه نجده في التعبير به في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (- فكان لهذا ...وإلخ) ؛ ولذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (فكان لهذا واد من الإبل ، و لهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم.) ولا شك أن في التعريف باسم الإشارة ما يميز هؤلاء بالعقل عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، ويومئ إلى شدة تميز كل عن صاحبه عندهم كون اسم الإشارة موضوعا للقريب ، مع أن المشار إليه في حيز الغائب ؛ لكون القصة تاريخية ولو لم يكن لتميز شديد لقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لراغب الإبل : واد من الإبل ، ولراغب البقر : واد من البقر ، ولراغب الغنم : واد من الغنم ، ولكن اسم الإشارة للقريب استحضر كل واحد منهم كأنه مرئي مشاهد ، يشار إليه بالبنان.

والفعل (صيرك) جاء ماضياً ، وجاء مشدداً كذلك[1] ؛ لتأكيد الدعاء عليه بالشر ، من باب المبالغة ، كما يقول العيني : " أورده بلفظ الفعل الماضي ؛ لإرادة المبالغة في الدعاء عليه[2].

أما الاستفهام في قوله : (ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأغناك الله ؟ !) فهو لزيادة التقرير عليه بالحجة ، ولتذكيره بسابق حاله ، وفيه أيضاً توبيخ له ، وكأن في الإتيان بالحرف " كأن " في قوله (كأني أعرفك) تفيد الظن [3] ، وإنما عبر عن الأمر المتيقن بما يفيد الظن تعريضاً بحقارة المخاطب لما كان من جحود لنعمة الله عليه ، ونسيانه لما كان عليه من حال تذكره بلزوم العطف على ذوي الحاجة.

أما قوله (ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله) ففيه من البلاغة ما يلفت النظر لمن وهب ذوق الكلام ؛ ذلك أنه يحتمل أن يكون قوله (فقيراً) خبرا ثانيا للفعل المقرر به (تكن)، وعليه فالفصل بين المفردات (أبرص ، فقيرا) ؛ لأنهما يمثلان صورة كبيرة لما تنفر منه

---

(1) في الأكثر الأغلب يكون فعل بمعنى التكثير ، كقوله (عز وجل) : (وغلقت الأبواب) يوسف / ٢٣، وفعل يكون بمعنى أفعل ، نحو : خير وأخير ، ويكون مضاداً له نحو : أفرط ، إذا جاوزا الحد ، وفرط إذا قصر " فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي ، ص ٢٨٢. ٢٨٣ . وفي الفعل هنا يدل على كثيرة الدعاء عليه من باب المبالغة.

(2) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري ، لأبي محمد محمود العيني ، اعتنت به جماعة من العلماء ٤٩ / ١٦.

(3) يقول ابن هشام في معنى (كأن) : " ذكروا لكأن أربعة معان أحدهما ـ وهو الغالب عليها ، والمتفق عليه ـ التشبيه ، وهذا المعنى أطلقه الجمهور لكأن . " أما المعاني الباقية فهي : الشك والظن ، أو أن الكاف للتعليل وأن التوكيد ، أو التقريب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢١٦ / ١ .

النفس الإنسانية للجمع بين العلة المرضية والفقر في إطار واحد ، فنظيره في الفصل قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] وقولـــــه ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [2] ويحتمل أن يكون خبر لفعل محذوف واقع في حيز استفهام محذوف أيضا ، ودل على ذلك ما قبله والأصل : ألم تكن أبرص .. ألم تكن فقيرا ، الفصل في هذه الحالة جاء على خلاف الأصل ؛ فالجملتان إنشائيتان لفظا ومعنى وهو ما يسمى بالتوسط بين الكمالين ، وكأن الأصل أن يكون التقرير بكل من البرص والفقر على حدة ؛ لأن كل واحد منهما كفيل بأن يسأل عنه وحده ؛ لشدة النفور منه ، وعلى هذا التقرير ففي الجملة احتباك [3] ؛ حيث حذف من الجملة الاستفهامية الأولى ما ترتب عليه ، وحذف من الجملة الثانية الاستفهام والفعل الواقع في حيزه ، والأصل أن يقال : ألم تكن أبرص فشفاك الله ؟ ، ألم تكن فقيرا فأعطاك الله ؟

ويلحظ الإطناب في الكلام ومن أنواعه التذييل في قوله (أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس) ؛ فالكلام تم معناه بقوله (أن يرد الله إلي بصري) وعندما قال (فأبصر به الناس) زاد معنى عن الأول هو التأكيد لما قبله.

وإذا تأمل القارئ المتذوق جماليات الكلام وجدها في الوصل والفصل ، الذي يربط الجمل بعضها البعض في تآلف وانتظام وروعة ، كما هو الوصل في قوله (لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس) ؛ فجاءت الجملة الثانية (ويذهب عني..) موصولة بما قبلها بالواو للتوسط بين الكمالين فالجملتان خبريتان لفظاً أخبر فيهما بما يحب ؛ فهو يحب اللون الحسن ، ويحب أن يذهب عنه الذي قذره الناس من أجله وهو الجرب. وكذلك الوصل بين الجملتين في قوله : (أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس) فارتبطت الثانية بالسابقة عليها بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب إيماء إلى سببية الأولى في مضمون الثانية ، والرغبة في حصول المسبب وهو البصر فور حصول سببه وهو رد البصر . أما جملة (فكان لهذا.ولهذا...) فقد ارتبطت بالسابقة عليها وهي (فأنتج هذا وولد هذا) من جهتين : الأولى لفظية عن طريق فاء

---

(1) سورة الحشر، آية ٢٣.

(2) سورة البروج، آية ١٤.

(3) والاحتباك هو أن يحذف من العبارة من أحد طرفيها ما يدل عليه ما ذكر في الطرف الآخر كما ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن٦٠١ .

التفريع ؛ فإن اللاحقة فرع عن السابقة ، والثانية معنوية تتمثل في كون الثانية بياناً للأولى ؛ حيث عرضت الأولى المعنى في صورة مجملة (فأنتج ..وولد) وفي هذا الإجمال تشويق إلى معرفة المعنى مفصلا بعد معرفته مجملا ، فكانت الثانية حاملة هذا التفصيل ، وفي حصول العلم تفصيلا بعد العلم إجمالا لذة يعرفها متذوقو الكلام ، وهذا النسق لون من الإطناب لهذا الغرض ، أما الوصل بين جملتي (خذ ما شئت ودع ما شئت) فللتوسط بين الكمالين ؛ لأن كلا منهما إنشائية لفظا ومعنى ، وبينها من التناسب ما يحقق ذلك الوصل فالمسند إليه فيهما واحد ، وهو ضمير المخاطب المستتر، وبين المسند فيهما تناسب ماثل في التضاد بين معنييهما ولا يفوتني هنا أن أذكر أن الأمر في هاتين الجملتين مراد به الإباحة ؛ فقد أباح للرجل الأخذ أو الترك حسبما يوافق حاله ، وأن مفعول المشيئة محذوف للإيجاز ؛ فالأصل : خذ ما شئت أخذه ، ودع ما شئت أن تدعه. ومثلهما الجملتين (فقد رضي عنك ، وسخط على صاحبيك) فهما مثلهما من حيث السبب فبينهما توسط بين الكمالين ، لكونهما خبريتان لفظا ومعنى فبينهما تضاد في المعنى .

ومن الاستعارة الخفية في طيات هذا الحديث الشريف ، وداخلة في مضمونه ما يتراءى للمتذوق في قوله (فمسحه فذهب عنه) ؛ حيث صور المرض الذي أصاب القوم بالإنسان الذي من صفته الذهاب والمضي ، وحذف المشبه وهو الإنسان ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الذهاب على سبيل الاستعارة المكنية .

وفيه يتأمل كذلك الكناية في قوله (ويذهب عني الذي قذرني الناس) وهي كناية عن المرض الذي بسببه كرهه الناس ، ونفروا من عشرته ، ومجالسته . ومثلها الكناية في قوله (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن...) فهذه كناية عن النعم التي تفضل الله بها عليه .

ومن البديع الجميل الذي زاد المعنى طلاوة ، وأضفى عليه حلاوة ما يجده الناظر إلى الجملتين في قوله (خذ ما شئت ودع ما شئت) إذ فيهما تضاد زاد من تقرير المعنى في نفس المخاطبين ـ الصحابة ـ وأيضاً المقابلة بين المعنيين في قوله (فقد رضي عنك ، وسخط على صاحبيك) ففيهما مقابلة بين حرفي الجر " عنك " و" على" وبين الفعلين " رضي " و" سخط " ، وفي التضاد والمقابلة بين المعاني المختلفة زيادة تقرير للمعنى في نفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين.

من حوار الملائكة مع الناس ما روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ:

عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (العبد إذا وضع في قبره ، وتولي ، وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله .فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنة .) قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :(فيراهما جميعاً ، وأما الكافر أو المنافق : فيقول : لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين.) (1)

يخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه عن أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، لقد أخبرهم بما يكون للعبد المؤمن، والمنافق أو الكافر حين تفيض الروح إلى بارئها ، ويوضع في قبره ، ثم يعود دافنوه إلى دورهم: حيث ترد إليه روحه بمقدار ما يسمح له بالسؤال، وما يترتب عليه من نعيم القبر أو عذابه، إذ يأتيه ملكان فيقعدانه، ويسألانه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فيخبرهما المؤمن في يقين صادق وجنان ثابت بأنه يشهد أنه عبد الله ورسوله ، وأما الكافر فيحاول المراوغة فيقول : لا أدري ، فيوبخانه بقولهم: لا دريت ولا تليت ، ويضربانه بين إذنيه بمطرقة ضربة تؤلمه ألماً شديداً ، فيصيح صيحة يسمعها الكون كله إلا الإنس و الجن.

وفي الحديث استمالة وترغيب، وفيه ـ أيضاً ـ تخويف وترهيب ؛ لأن الإيمان يؤدي إلى الأمن من عذاب الله ، والكفر يؤدي إلى عقابه حتى في الوقوف على أعتاب يوم القيامة .

ويلاحظ أن الحوار متنوع بين اللطف والشدة : فقد كان هادئاً رقيقاً مع المؤمن ، عنيفاً غليظاً مع الكافر .

وعند تأمل الحديث بلاغياً فإن لمحات بلاغته تتجلى في المفردة والحكمة من اختيارها دون غيرها ، فمثلاً كلمة (أقعداه) آثرها النبي الكريم دون النظر لغيرها من المترادفات كأجلساه مثلاً ذلك أن القعود كان بمساعدتهما للعبد ، وفي ذلك إيماء إلى ضعف يحوج إلى الإعانة ، بخلاف الإجلاس ؛ فإن فيه إيماء إلى القدرة على الجلوس ؛ ولكنه يأبى هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يدل القعود على مدة طويلة ، وهذا ليس في جلس ؛ لذا يقول أحد الباحثين فيهما: " الجلوس يكون للمكث اليسير كما في لفظ المجلس التي هي حلقات العلم والذكر التي كان يعقدها النبي ـ

(1) صحيح البخاري ٣٩٧/ ١.

صلى الله عليه وسلم ـ في مسجده ؛ ولذا لم يستعمل فيها القعود ؛ لأنه يدل على طول المكوث ولذا تفرع عن هذا الأصل. طول المكوث ـ القعود عن الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن القاعد عنه لا يشترط له الجلوس بل إن لفظ القعود وما يشتق منه تطور إلى معنى الخلود الدائم كما في قوله ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [1]فمادة قعد إذن تدل على المكوث الطويل أو المعنى المستمر وهو ما لا نجده في مادة جلس " [2] وهذا هو السر في محاسبة العبد وكيفية محاسبته، وما قد يستلزم هذه المحاسبة من طول المدة حتى لتصبح على الكافر كأنها الدهر كله ، أما المؤمن فهو كما أخبر تعالى ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [3]، إذن فهما ـ أعني قعد وجلس ـ لفظان مترادفان لمعنى واحد لكن كلاً منهما يحمل معنى ليس في غيره ، يقول السيوطي : " إن في قعد معنى ليس في جلس ؛ ألا ترى أنا نقول : قام ثم قعد ، وأخذه المقيم والمقعد، وقعدت المرأة عن الحيض ، وتقول لناس من الخوارج قعد ، ثم تقول كان مضطجعاً فجلس ؛ فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس ؛ لأن الجلس المرتفع ، والجلوس ارتفاع عما هو دونه."[4]

و قد أتت الجملة الخبرية مؤكدة بأكثر من مؤكد في قوله (أنه ليسمع قرع نعالهم) ؛ للتنبيه على حقيقة قد لا يصدقها الإنسان وهي أن الميت يسمع ويرى ويدرك وهو في قبره ، والصحابة حين أخبرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا لم يكونوا شاكين في الخبر حتى يؤكده النبي الكريم بأن ولام الابتداء لكن لما كان الأمر مما يجب الاهتمام بشأنه ، والحرص على الإنصات إليه بالغ النبي في توكيده ؛ حتى يكون مؤثراً في نفوسهم ، وبذلك يحثهم على الثبات على الحق بطريقة مهذبة .

وكذلك الجملة الخبرية في قوله (أشهد أنه عبد الله ورسوله) ؛ حيث أكد الخبر بأن والجملة الاسمية " عبد الله ورسوله" ولم يكن سؤال الملك في معرض التشكيك له وإنما كان للتقرير بحجته وأنه ثابت على طاعة الله وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم .

---

(1) سورة القمر ، آية (٥٥) .

(2) من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم . دراسة في ظاهرة الترادف اللفظي . د . السيد خضر ، ص ١٠٠. ١٠١.

(3) سورة الانشقاق آية (٨).

(4) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، ١/٤٠٤ .

وتقدم المسند إليه (العبد) على المسند (وضع) لعلة بلاغية تنجلي عن تمكين الخبر في ذهن الصحابة ، فيستشرفون لمعرفته ؛ لأن في معرفة المبتدأ تشويقاً لهم. [1]

وفي الحديث أفعال مبنية للمجهول تدل على حذف المسند إليه في مثل (وضع ، يقال ، يضرب) فتقديره بالنسبة لوضع : وضعه أصحابه في القبر، و تقديره في (يقال): يقول له الملكان..، و تقديره في (يضرب): يضربه الملكان، وحذفها كان للإيجاز في القول و الاستغناء عما لا حاجة إليه .

ومن الإيجاز بحذف جملة في الحديث ما يبدو في قوله (أنظر إلى مقعدك من النار) ؛ حيث حذفت أكثر من جملة والتقدير: أن الله أبدلك مقعداً من الجنة ، فقد اعتصمت بالله ، وآمنت بكل ما جاء في كتابه وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبهذه الحجة أبدلك الله مقعداً .. الخ.

يقول القرطبي : " في قوله : فيقال له : انظر إلى مقعدك في النار ، أي لو لم تؤمن ، ولم تقم بحجتك ، قد أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة لما قمت بحجتك"[2] والحذف في هذا وذاك إيثار للإيجاز ، فالموقف موقف حساب ، وجزاء وذلك يقتضي ترك المحذوف يتراءى من ستور المذكور ، مسارعة إلى ما هو محط الاهتمام وما تتعلق به النفوس من معرفة ما ينتهي إليه الأمر .

وفي التعبير عن المضارع بالماضي في قوله (أتاه) زيادة إثبات أن الملكين لابد وأن يسألا العبد وهذا لا شك فيه ولا مراء، بحيث أصبح الأمر وكأنه محقق الوقوع، يقول ابن الأثير: " الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها " [3] وفي الفعل المضارع " يصيح " يرى المتلقي في هذا التعبير الموقف وكأنه أمام عينيه يشاهده ويشعر به .

---

(1) يقول القزويني : " يقدم المسند ليتمكن الخبر في ذهن السامع ؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه كقول أبي العلاء المعري : والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد . تلخيص المفتاح ص ٦٤.

(2) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للإمام أبي العباس أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي ، ٧/١٤٧، حققه وعلق عليه وقدم له : محي الدين ديب ، يوسف على بدوي ، أحمد محمد السيد ، محمود إبراهيم بزال ، دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت ، دار الكلم الطيب ، دمشق ـ بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

(3) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٤٩/ ٢ .

وبالنظر إلى تعريف الكلمة وتنكيرها من خلال الحديث الشريف يتجلى التعريف في قوله (هذا الرجل ، الثقلين) ؛ ففي تعريف المسند إليه " الرجل" والإشارة إليه بـ (هذا) ما يوحي بالاحتقار ؛ لاختبار المسئول " العبد " حتى يكون جوابه إقرارا على صدقه أو كذبه ، وثباته من عدمه فيكون بذلك حجة له أو عليه ، جاء في صحيح مسلم : " في قوله (ما كنت تقول في هذا الرجل) يعني بالرجل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما يقوله بهذا العبارة التي ليس فيها تعظيم امتحاناً للمسئول لئلا يتلقى تعظيمه من عبارة السائل ، ثم يثبت الله الذين آمنوا ." (1)

أما لفظ: الثقلين " فتوحي بالكثرة والزيادة. جاء في لسان العرب " سمي الله تعالى الإنس والجن الثقلين ؛ لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتمييز والعقل الذي خصا به ، قال ابن الأنباري قيل للجن والإنس الثقلان ؛ لأنهما كالثقل للأرض وعليها." (٢) وقول صاحب اللسان يجعل المجاز من قبيل الاستعارة لا من قبيل المجاز العقلي فالتجوز قائم على التشبيه .

والسر البلاغي في إتيان بعض الألفاظ نكرة في (ملكان، مقعداً، ضربه، صيحة) ؛ فهي تعطي إيحاءات كثيرة في النفوس ، وصوراً مكثفة في خيالها لا تعطيها المعرفة، فمثلاً لفظ " ملكان " لم يحددهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوصف ولا نعتهما بشيء ، لكن جاء في بعض الروايات أنهما منكر ونكير وهما ملكان عظيمان غليظان، بحيث ترك اللفظ مبهماً حتى يتصورهما الصحابة في نفوسهم فيعظم الأمر عندهم . وكذلك لفظ " مقعداً " أي مقعداً كريماً يرجوه المؤمن من الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. و لفظ " ضربة " أي ضربة قوية شديدة جعلته يصيح ألماً من قوتها، ولفظ " صيحة " أي صيحة مدوية حتى أن جميع الخلائق في المشرق والمغرب تسمعها.

---

(1) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ٣٢٠٠ـ ٤/٢٢٠١ ، وقف على طبعة وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه ملخص شرح الإمام النووي ، مع زيادات عن أئمة اللغة خادم الكتاب والسنة : محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت. لبنان ، د.ت .

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣٤١/ ١ حرف التاء . وينظر : معجم الألفاظ المثناة ، شريف يحيى الأمين ، ٨٩، دار العلم للملايين ، بيروت. لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٢م . والنهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٢١٤باب الثاء مع القاف .

أما ترابط الجمل فالوصل يتجلى في الجملتين (انظر إلى مقعدك من النار)(أبدلك الله به مقعداً من الجنة) ؛ لأن الأولى إنشائية لفظا ومعنى تفيد الأمر ، والثانية خبرية لفظا ومعنى فبينها كمال الانقطاع.

وفي الحديث من البديع السجع بين كلمتي (لا دريت ولا تليت) وجاء مراعاة لمقاطع الكلام ، وهو سجع غير متكلف جاء عفوا في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بحيث يجد المتلقي لذة في الاستماع إليه ، فينصت للحديث في متعة وأريحية [1]

(١) جاء في لسان العرب : في الحديث عن عذاب القبر : إن المنافق إذا وضع في قبره سئل عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وما جاء به فيقول لا أدري فيقال : لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ، قيل في معنى قوله : ولا تليت : ولا تلوت، أي لا قرأت ولا درست ، من تلا يتلو ، فقالوا : تليت بالياء ليعاقب بها الياء في دريت كما قالوا : إني لآتيه بالغدايا والعشايا وتجمع الغداة غدوات ، فقيل الغدايا من أجل العشايا ليزدوج الكلام ، قال وكان يونس يقول : إنما هوولا أتليت في كلام العرب معناه أي لا تتلي إبله أي لا يكون لها أولاد يتلونها وقال غيره : إنما هو لا دريت ولا أتليت على افتعلت من تلوت أي أطقت واستطعت . فكأنه قال: لا دريت ولا استطعت، والمحدثون يروون هذا الحديث. وقيل : ولا تليت ولا ائتليت ، وقيل معناه لا قرأت أي لا تلوت وقلبوا الواو ياء ليزدوج الكلام مع دريت ." لسان العرب لابن منظور ٣١٠/١ حرف التاء .

ومن حوار الملائكة مع الناس ما روي عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (جاء ملك الموت إلى موسى ابن عمران، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها... فرجع الملك إلى الله، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب، رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر [1]

قد جبلت النفوس البشرية على كره الموت والهروب منه، ولكن لابد للإنسان من نهاية تكون آخر عهده بالدنيا، وهذا ما حصل من تصرف موسى ـ عليه السلام ـ مع ملك الموت لما أدركته ساعة الموت، وكان موسى على شيء من حدة الطبع، يحمله على الشدة مواجهة ما يعرض من أحداث، وفعل ما فعله عند مجيء ملك الموت لقبض روحه، لكن الموت لا مفر منه بعد أن أخبره الملك بما أخبره، ولما أدركته ساعة الموت تمنى من الله ـ عز وجل ـ أن يدنيه من الأرض المقدسة؛ ليكون قبره هناك مع الأنبياء والصالحين، ويحظى بشرف الدفن بينهم .

و قد أورد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القصة التي تخبر عن حادثة تاريخية حصلت لنبي من أنبياء الله تعالى فيها من الإثارة والغرابة ما جعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتحمسون لها بكل مشاعرهم، وتأخذهم إلى جو إيماني مؤثر؛ لأنها توجههم بطريقة غير مباشرة إلى الاستسلام لأمر الله، والصبر على المكاره .

وقد اتسم الحوار بشيء من الجزالة والقوة، وكانت عبارات الحديث واضحة لا تحتاج إلى بحث لمعرفة معانيها، وهذه سمة بارزة لكل أحاديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وعند الوقوف على أسرار الحديث وما يزخر به من إبداعات بلاغية فإنها تتجلى في اختيار المفردة وحسن تأليفها في نظم الكلام، مثل كلمة (لطم) فلم يقل مثلاً: (ضرب)؛ فكلمة لطم تعطي معنى له دلالة أكثر من ضرب التي تفيد مجرد الضرب العادي، فهي توحي بالعنف

---

(١) مشكاة المصابيح ٣/١٥٩٢.

والقوة ، وكأن لها صوتاً أدى بها إلى فقء عين ملك الموت ، وفي إيثار الفعل(فقء) دون ما يقرب منه في أداء المعنى مثل (سمل) ما ينبئ عن شدة خروج مقلة العين ؛ لما في حروف هذا الفعل (الفاء ، والقاف ، والهمزة) من الشدة وهو يناسب ما قبله تمام المناسبة وعقب اللطم ـ لشدته ـ خرجت المقلة بلا تراخ ، وكأن المشهد ماثل أمام أعينهم ، وهذه الألفاظ منسجمة مع تركيب الجملة ، ولا يمكن أن تكون هناك لفظة غيرها أبلغ في تأدية المعنى المراد ـ كما يقول ابن الأثيرـ : " ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ، ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظين يدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا إنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه ، وجل نظره " [1]

ومثلها كلمة (توارت) لا يمكن أن يكون غيرها أحسن وأبلغ ، ولا يؤدي المعنى المراد في نفس المتكلم إلا هذه الكلمة ، وهي بمعنى أخْفَت وسترت ما تحت يده ، وكان مما وقعت عليه يده هو ما قدَّر مدة حياته ، وتحدد به أجله .[2]

ويلحظ تقديم المفعول به على المسند في قوله (الحياة تريد ؟) ؛ لقصد تأكيد الخبر، وفي هذا إيماء بالتعريض بالغفلة عن أمر لا حيلة في الخلاص منه ، وأنه النهاية المحتومة لكل كائن حي ، وكأنه ـ صلوات الله عليه ـ لدهشته حين واجهه الملك بالخبر خرج عن طوره ، كراهية للموت ، وإيثاراً للحياة عليه ينكر أن يموت ، فكان التأكيد بتقدم المفعول للتعريض بغفلته التي أوردته مورد الإنكار[3] . والتنكير في لفظ(عبد) فيه نوع من التعريض بموسى ـ عليه السلام ـ ؛

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/١٦٤.

(2) جاء في القاموس : وراه تورية : أخفاه لواراه ، والخبر : جعله وراءه وعن كذا : أراده وأظهر غيره وتوارى استتر. القاموس المحيط للفيروز آبادي ، باب الواو والياء فصل الواو : ١٧٣.

(3) جاء في الإيضاح : " في تقديم المفعول على الفعل أنه للتعريض كما في معنى قوله تعالى (وبالآخرة هم يوقنون) تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب ـ فيها يقولون من أنه " لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأنه لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ "ـ ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء ، أي بالآخرة يوقنون لا بغيرها كأهل الكتاب ." الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٣/١٦٥.

لأنه في لطمه له لم يرد الموت في قوله (لقد أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت) وقد أكد ذلك بقوله (وقد فقأ عيني) ؛ لتقبيح ما فعله تجاهه ، كما جاء في شرح الطيبي حيث قال : " يدل قول الملك على نوع من الطعن حيث نكره وشنع عليه بقوله : لا يريد الموت ، وقول الله تفخيم لشأنه وتعظيم مكانه حيث أضافه إلى نفسه رداً عليه وتنبيهاً أن ما ظهر من موسى كان دلالاً منه واعتزازاً وأننا نرضى بما يريد فجعلنا الخيرة له إكراماً."[1]

وفي الحديث إيجاز بالحذف يدركه البصير بأنساق الكلام كما في قوله (الحياة تريد ؟) ؛ حيث حذفت همزة الاستفهام ؛ لدلالة السياق عليها ، والأصل (آلحياة تريد؟) ، و حذفت طلباً للخفة ، وتيسيراً للجهد الصوتي الذي تتطلبه همزة الاستفهام مع همزة الوصل ، وكذلك الحذف في قوله : (ارجع إلى عبدي فقل... إلى قوله: ثم تموت) وتقدير الحذف بعده: فذهب إليه وقال له ما أمره الله به فقال موسى: رب أمتني من الأرض المقدسة.

وفي قوله (ثم مه) ما يستوقف المتلقي ؛ فإن فيه زيادة وحذفاً ويتمثل الحذف في ترك المسند ـ وهو ما الاستفهامية ؛ إذ الأصل : ثم ما يكون بعد ذلك ؟ ، وقد حذف لضيق المقام عن ذكره ، فالموقف موقف دهشة ، وتعجل يكتفي فيه باللمحة ، واسم الاستفهام ينبئ بها ، ومن ثم ترك المسند ـ وهو جملة (يكون ..) أما الزيادة فتتمثل في هاء السكت في (مه) ، وهي تهيئ الصوت للتوقف عن الصوت الطويل الذي تقتضيه الألف في (ما) الاستفهامية ، أو الألف ، و (ذا) فيما لو كان الأصل : ثم (ماذا) ؟ وكان في تقصير الصوت عن طريق هاء السكت إيماء إلى تعجيل الإجابة عن السؤال ، وقد واكب هذا الإيماء حذف الظرف المتعلق بالفعل في قوله (ثم تموت) ؛ إذ الأصل ثم تموت بعد ذلك. وكذلك الحذف في قوله (رب أدنني من الأرض المقدسة...) وتقديره: فأدناه الله من الأرض المقدسة.

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر) تأكيد للكلام بالقسم (والله) ولام القسم في (لأريتكم) ، ولا يشك الصحابة في صدق النبي ـ صلى لله عليه وسلم ـ وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ غني عن كل هذه المؤكدات ، لكن لما كان أمر الذهاب إلى تلك الأرض المقدسة عسيراً ، بحيث لو كان في استطاعته أن يكون عنده لأرى الصحابة مكان قبره وهذا ما يفسر مجيء (لو) الشرطية في كلامه

---

(1) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١/٣٦١٤.

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي كما هو معروف عند النحاة حرف امتناع لامتناع أي: امتناع رؤية الصحابة لقبر موسى ـ عليه السلام ـ لامتناع وجودهم هناك.[1]

ومن جماليات البديع في هذا الحديث التورية في قوله (أجب ربك) فهنا تورية في المعنى بحيث لا يقصد به إجابة الدعوة وهو المعنى القريب في الذهن ، وإنما قصد به معنى بعيدا هو قبض روح موسى ـ عليه السلام ـ امتثالا لأمر الله ـ عز وجل .

(1) جاء في الإتقان في علوم القرآن : المشهور على السنة النحاة ومشى عليه المعربون أنها حرف امتناع ، أي يدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط فقولك : لو جئت لأكرمتك ، دال على امتناع الإكرام لامتناع المجيء ، الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : ٤١٩.

ومن حوار الملائكة مع الناس ما روي عن حذيفة ـ رضي الله عنه :ـ

أنه سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (إن رجلا كان فيمن كان قبلكم، أتاه الملك ليقبض روحه ، فقيل له: هل عملت من خير ؟ قال : ما أعلم ، قيل له : انظر ، قال: ما أعلم شيئا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا ، وأجازيهم ، فأنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة.) [1]

إن حسن معاملة التجار مع الناس ـ فقيرهم وغنيهم ، والصبر عليهم ، والمساهلة معهم من المروءة وشيم الأخلاق ، والحديث الشريف يحمل هذا المعنى النبيل ؛ لأن في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة بدون تصريح للتكافل والتعاون الاجتماعي بين الناس ، بمختلف طبقاتهم الاجتماعية .

التاجر الذي يتعامل مع الناس في تجارته بالصبر والأناة جدير بأن يحترمه الناس ويحبوه ؛ فهو يمهل الموسر وهو المقتدر ، ويتجاوز عن المعسر ، فالغني منهم قد يتيسر له شيء من المال فيسدد ما عليه ، والفقير قد يحاول جاهداً مع الأيام كسب شيء ولو قليلاً ليسدد ما عليه من ديون فلا يستطيع ، فيتجاوز التاجر عنه ، وبهذه تسود الألفة والمودة في المجتمع ، الغني يحترمه ؛ لحسن معاملته حيث أمهله ، والفقير يدعو له بزيادة الرزق ، والبركة فيه ؛ لتجاوزه عنه ، فلم يكن جشعاً ، يحب المال حباً جماً ، ولم يكن مضيقاً على الخلق بالمطالبة ، لكنه أمهل الغني ، وسامح الفقير. وهذا ما عرف به هذا التاجر فسيرته بين الناس حسنة ؛ ولذا استحق بعمله هذا دخول الجنة.

ساق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثه مع الصحابة في قصة قصيرة جداً كانت شخصيتها ممثلة في (التاجر) و (ملك الموت) الذي أرسله الله لقبض روحه ، ودار بينهما حوار هادئ ودود ، كان الملك يسأل ، ويجيب التاجر عما سئل عنه ، وبهذه الأسئلة نشأ حوار ، ساعد على تنامي الأحداث ، والصعود بها إلى الذروة أو ما يسمى بالعقدة ، وكان بمجئ ملك الموت لقبض روح التاجر ، وقبل أن يقبضها سأله لعله يجد ما قد يشفع له في هذا الموقف الصعب ، وتعقد الأمر عندما حاول أن يتذكر أعماله التي عملها في الدنيا فلم يتذكر شيئاً ، ومن ثم كانت لحظة

(1) صحيح البخاري ٢/١٠٧٤.

التنوير، التي بها وصلت القصة إلى النهاية بسرعة بمجرد الكشف عن سرها الحقيقي ، وكانت في تذكر التاجر لعمله الصالح ، حين أمهل الموسر، و تجاوز عن المعسر.

والحديث الشريف يحمل خصائص بلاغية ممثلة في المفردة ، والدقة في اختيارها في (رجلا ، خير ،أعلم ، أبايع، أتجاوز) ؛ فكلمة (رجلا) جاءت نكرة ؛ وذلك لأن القصد واحد من جنس الرجال ، لكن الجملة التي بعدها أفادت نوعاً من التخصيص وهو أن الرجل كان فيمن كان قبل الجيل الذي منه أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءه الملك ليقبض روحه ؛ ليتسنى للمستمعين ـ وهم الصحابة ـ تخيل شخصية الرجل وما سيذكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خبر غريب أو عجيب يتعلق به ، وكذلك لفظ (خير) جاء نكرة للتقليل ، وأمارة هذا التقليل دخول (من) التي توحي بتلك الأعمال على ضآلتها فدلت (من) على التبعيض والتقدير : هل عملت بعضاً من الأعمال الخيرة ؟، وجاء لفظ (أعلم) دون لفظ (أعمل) ؛ لأن الرجل في معرض الإجابة عما عمله، يحاول استحضار ماضيه، وكأن الرجل لم يذكر شيئاً مما عمله لرهبة الموقف، ومن ثم ساعده الملك على التذكر، بما يجعله رابط الجأش فيتذكر شيئاً حيث قال له (انظر) وعاد الرجل إلى الجواب نفسه قائلاً (ما أعلم) ؛ فالتعبير بالفعل (أعلم) مسبوقاً بأداة النفي (ما) لإرادة نفي الحال ، وكأن الرجل يقول : (لا أعلم الآن شيئاً) (1).

ويلحظ في قوله (إني كنت) تأكيد الخبر بإن والفعل الماضي (كنت) ، حيث أنزل المخاطب (الملك) منزلة من يشك في الأمر ، مع أن الملك لم يقصد إلا السؤال فقط عن عمله في الدنيا كيف كان ، لكن أراد الإقرار أمامه بهذا العمل ، وأنه لا يوجد لديه سواه . وفي التعبير بالمضارع في قوله " أبايع ، أحجازيهم، أنظر، أتجاوز " استحضار لحاله في الدنيا وما هو عليه من سيرة .

ويلحظ في بناء الفعل" قيل" للمجهول في مواطن كثيرة إيجاز بحذف المسند إليه ؛ فالأصل: قال له الملك ، و آثر الإيجاز مراعاة لحال الصحابة حتى لا تلحقهم السآمة بالتطويل بذكر ما يلمح من بناء الكلام .

---

(1) يقول الإمام عبد القاهر في سياق تعريفه للنظم : " وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل منها بأمر فيعرف أن (ما) لنفي الحال ، و (لا) لنفي الاستقبال " ، دلائل الإعجاز ٨٢.

وبالنظر إلى الجمل وصلتها بغيرها تلحظ براعة القصر وسر جماله يكمن في قوله (ما أعلم ..غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا) حيث قصر عمله في شيئين لا ثالث لهما هما : إمهاله للموسر، وتجاوزه عن المعسر، وبذلك يتمكن هذان المعنيان في نفوس السامعين .

والجملتان جاءتا مبهمتين، فوجب تفسيرهما ؛ لذا جاءت الجملتان الأخيرتان بياناً وتوضيحاً لهما ، فكيف يبايع الناس ويجازيهم ؟ فقال : فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر.

وفي الجملتين تلمح البراعة والدقة في اختيار الحروف التي تربط الجمل بعضها ببعض ويلحظ استخدام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحرف الفاء وهذه الفاء ليست للترتيب والتعقيب بل هي فاء التفريع ، والواو بين الجملتين (أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر) فهي لمطلق الجمع ، أما في الجملة الأخيرة اتصلت بها الفاء، وهي هنا سببية ؛ أي بسبب عمله هذا كان جزاؤه الجنة .

وفي الحديث الشريف يتراءى جمال الطباق بين كلمتي (الموسر والمعسر) وبضدها تتباين الأشياء ـ كما يقول البلاغيون القدماء ـ وكذلك جاءتا مسجوعتين على وزن واحد مما يعطي تناغما صوتيا في نفس السامعين .

ومن حوار الملائكة مع الناس ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ:

عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها [1]؟ قال: لا ، غير أني أحببته في الله ـ عز وجل ـ قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.)[2]

في هذا الحديث الشريف استخدم النبي أسلوب الحوار ولكن في شكل قصة يرويها لأصحابه ، لقد روى لهم قصة تاريخية حدثت في الماضي بين ملك من الملائكة الكرام وعبد من عباد الله، خرج من قريته يوماً ليزور أخاً له في قرية أخرى ، ولم يكن الداعي لزيارته سوى أنه يحبه في الله ـ عز وجل ـ ، ويتخذه أخاً حميماً له ، وصديقاً مقرباً إلى نفسه ، وتجردت هذه العلاقة من كل ما يشوبها من منافع دنيوية ، ومصالح شخصية ، وكانت لها معان أسمى من هذا كله ، ولصدق نيته ووفائه لصاحبه ما أخرجه من قريته التي يسكن فيها ، وحمله المصاعب الشديدة ، والعناء الطويل إلا أنه يحبه في الله ـ عز وجل ـ ولذا أحبه الله .

و بهذه القصة الموجزة أكد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معنى الحب الصافي الصادق في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ وحببه إليهم ؛ لأن الروابط الأخوية بين المسلمين تقوى به، وتنشأ علاقات اجتماعية حميدة تشد الرباط في الله وتقويه ؛ فالحب في الله حبله متين ، لا يقطعه شيء من أمور الدنيا التافهة . هذا هو المعنى الكلي الذي قرره النبي لأصحابه ، والمغزى الذي أراده بتلك الألفاظ القليلة.

و للقارئ أن يتخيل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً بين أصحابه وقد تحلقوا حوله منصتين وهم يستمعون مجريات القصة، وما تنطوي عليه من أحداث متتابعة تصل إلى نهايتها بسرعة خاطفة ، ويدرك مدى تأثيرها في نفوسهم ؛ لقصرها مما جعلهم لا يشعرون بالملل والضجر لطولها ، ولا شك أن النبي أدرك ذلك وراعى مقام المخاطبين ؛ فجاء بهذه القصة لكي تعبر عن المقصود في هذا الإيجاز البليغ .

---

(1) يقال: (ربا الشيء) : أي زاد وبابه عدا ومنه الرابية وهي ما أرتفع من الأرض)، ترتيب مختار الصحاح باب الراء، ص ٢٩١.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٩٦.

فالقصة عبارة عن حوار في شكل سؤال وجواب ، زاد من سير الأحداث والوصول بها إلى ما يسمى بـ (التنوير) والكشف عن مضمونها ، وبالحوار البسيط الهادئ ، وصل الملك إلى غايته ومراده ، وبه استطاع النبي الكريم جذب أسماع الصحابة للإنصات والتخيل ؛ لأنه يبعث الحيوية والنشاط ، ويركز حاسة الانتباه عندهم ، والتراكيب تفصح عن محتواها ، فلا يجد المتأمل فيها تعقيداً ، ولا التواء ، لكن بما فيها من تكثيف كانت ملهمة للمتلقي ، فيظل يتأملها بروية حتى يشعر بسلاستها وجزالتها معاً.

وبتأمل هذا الحديث الشريف يجد المتذوق الدقة العجيبة في اختيار المفردة ، ومن خلال وضعها في السياق وبحسب ما تدل عليه القرائن يجدها متآلفة مع غيرها كأنها العقد المنظوم بإحكام ، كما هو واضح في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أرصد) ولم يقل (أوقف) و (مدرجته) ولم يقل (طريقه) و (أتى) ولم يقل (مرَّ) ؛ وبالنظر إلى لفظ (أرصد) فهو بمعنى وقف يراقبه لينتظر مرور الرجل عليه ؛ حتى يسأله عما انعقدت عليه نيته ، أما لفظ (أوقف) فلا يؤدي هذا المعنى ؛ لأنه يستعمل بمعنى آخر هو الإقلاع عن الشيء [1]، وكذلك لفظ (مدرجته) والمدرجة تعني: المذهب والمسلك ، والطريق بمعنى : المسلك فهي أعم منه ، وسميت بهذا ؛ لأن الناس يدرجون عليها ، ويطؤها بأقدامهم [2]. أيضا لفظ (أتى) للدلالة على أن الإتيان كان من قبل وجهه ولم يكن من ناحية أخرى أو أنه لم يكن متجاوزاً له ؛ لأن المرور يعني الاجتياز [٣]، وتلك فروق لا يلمحها إلا من أعطاه الله بصراً باللغة وبناء أنساق القول.

---

(1) أرصد: أي وكله بحفظ المدرجة وهي الطريق وجعله رصداً: أي حافظ معداً. ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، باب الراء مع الصاد ١/٦٥٩ . وبالنسبة للفظ (أوقف) فهو كما نقله الرازي وأمثاله من أن قولنا : أوقف لغة رديئة حيث قال : " وأوقف الدار بالألف لغة رديئة وليس في الكلام أوقف إلا حرف واحد وهو أوقفت عن الأمر الذي كنت فيه : أقلعت ، وعن أبي عمرو والكسائي أنه يقال للواقف : ما أوقفك هنا أي : أي شيء صيرك إلى الوقوف" . ترتيب مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي . باب الواو ص ٨٧٥.

(2) المدرجة بوزن المتربة وهي المذهب والمسلك، وأرض مدرجة أي ذات إدراج وهم الناس، المصدر السابق، باب الدال ص ٢٥٧.

(٣) لسان العرب لابن منظور، ٥١/ ١٤.

وتلفت النظر كلمة (قرية) فهي مرة جاءت نكرة و أخرى معرفة ومثلها كلمة (رجلا) وكلمة (أخا) و(ملكا) كلها جاءت نكرة والإتيان بالنكرة يفيد الإبهام وقد يتخيل السامع تلك الصور وما تحمله من إيحاءات ومعان مكثفة في نفسه ؛فقوله رجلا يعني واحداً من جنس الرجال كانت منه زيارة لأخيه في قرية أخرى. وقوله (ملكا) يدل على واحد من جنس الملائكة كلفه الله بإخبار الرجل محبته. كما دلت الإضافة في قوله (رسول الله) على التشريف والمكانة الرفيعة للملك المرسل.

ويجد المتأمل لعبارات الحديث أسراراً بلاغية بديعة منها: إيجاز القصر ؛ في قوله:(هل لك عليه من نعمة تربها). فهي تحمل معنى في النفس أي: نعمة صغيرة أو كبيرة تجدها وسيلة لترددك عليه ، وزيارتك له، ويجد الروعة في كلمة (لا) فهي مؤدية لمعنى جملة طويلة استغنى بها عنها ؛ فإن أصل الجواب عن السؤال السابق: لا ، ليس لي من نعمة أربها عليه.

وهذا نوع من الإيجاز درجت عليه العربية الفصحى إذ يجاب عن السؤال المراد به إثبات حكم أو نفيه أن يجاب بـ (نعم) أو (لا)، وقد استعمله النبي الكريم في هذا السياق مراعاة للحبكة القصصية.

وفي قوله(فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) يلحظ الإيجاز بالحذف ؛ فحرف الباء الداخل على أن واسمها وخبرها ، يشير إلى أن المتعلق هو جملة مكونة من عناصر عدة وتقديره: أرسلني الله لأبشرك بأن الله ... الخ.

وجاءت جملة (أحبه في الله) مضافة إلى لفظ (غير) لتمثل استدراكاً يقتضيه السياق ؛ فإنه لو اقتصر على الإجابة بالحرف (لا) لم يلب حاجة الملك في الكشف عن حقيقة السبب الداعي إلى تلك الزيارة ومن جملة (لا) والاستدراك عليها بلفظ (غير) وهو يستعمل غالباً في الاستثناء يمكن أن يكون في الكلام قصر ؛ إذ يصبح المعنى ليس ثمة سبب في الزيادة غير الحب في الله ـ قصر موصوف على صفة ـ والموصوف (السبب) والصفة (الحب في الله) فالملك يسأل عن سبب الزيارة لا عن الزيارة نفسها .

وفي الجملة : (إني رسول الله إليك) خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، فإنه يقتضي خلوها من التأكيد ؛ لخلو ذهن الرجل من مضمونها ، ولكن مضمون الخبر أمر عظيم غير متوقع ، فمن الذي لا يعجب من إرسال ملك يحمل نبأ كهذا ، ومن شأن ذلك العجب أن يثير تساؤلاً في النفس ، ولكي يتلقى الخبر بالقبول لأول سماعه ومن غير ما عجب ، ولا دهشة جاء مؤكداً هذا التأكيد المكثف (إني.. بأن الله .. قد أحبك) تنزيلاً لغير المنكر منزلة المنكر ؛ لعظم الخبر ، ومبلغ أهميته .

وفي الحديث من البيان التشبيه في قول الملك (بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) ؛ حيث شبه حب الله للرجل بحبه لأخيه ، وهو من التشبيه المرسل ؛ لذكر الأداة ولكنه مجمل لعدم ذكر الوجه ، وأغلب الظن أن الوجه هو الطهر ، والغناء عن كل غرض ، فالرجل يحب أخاه حباً طاهراً من المنافع الدنيوية ، والحق يحب هذا الرجل حباً خالصاً من الأسباب التي يتقرب بها العباد إلى الله ، كالصلاة ، وغيرها من أنواع القربى إليه ، وفي هذا التشبيه إيماء إلى رضاه ـ جل وعلا ـ عن العبد ، وإرادته الخير له .

تلك بلاغة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جسدها هذا الحوار الرائع الماثل في قصة بالغة القصر ، يمكن أن تسمى ـ وفق عرف المحدثين ـ بالأقصوصة [1].

---

(١) الأقصوصة : "نوع أدبي يتميز عن القصة أو الحكاية بأن السرد فيها مركز عامة على حادث فرد فتدرس أبعاده النفسية ، وعلى شخصيات قليلة العدد ليست رموزا أو كائنات خيالية فلا تعرض من هذه الشخصيات إلا جانبا من نفسياتهم العامة ، وتسعى الأقصوصة لأحداث شعور لدى القارئ بأن ما تتناوله هو جزء من الحياة الواقعية، وهي تتطلب الإيجاز والانتقال السريع في المواقف وإبراز الملامح المعبرة . "المعجم الأدبي تأليف جبور عبد النور ص٣٠.

المبحث الثاني

حوار الناس بعضهم مع بعض

عن أبي هريرة عن النبي- صلى الله عليه وسلم – قال:

(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج، وكان رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يارب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى يرى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم... فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت. فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي. فولدت منك. فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي.. فأقبلوا على جريج يقبلونه، ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب. قال: لا. أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا. وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع. قال: فكأني أنظر إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها... ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذلك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها.)[1]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٨٣- ٦/٨٤ .

الحديث الشريف يحتوي على ثلاث قصص في قصة واحدة، معناها ينصب على محور معين؛ فهي تدل على الإيمان بالله وحده، واللجوء إليه، والتوكل عليه عند المحن، وكذلك عدم الاغترار بالظواهر المزيفة والانسياق وراءها، وربما اغتر الناس بها وهم لا يعلمون حقيقتها، أو ربما أساؤا الظن كذلك بالأخيار والصالحين، ورشقوهم بألسنتهم افتراء عليهم. أولاها قصة عيسى بن مريم- عليه السلام- ، ولم يذكرها النبي- صلى الله عليه وسلم؛ لأنها معروفة في القرآن الكريم، وأما الأخريان فهما قصة جريج العابد، وقصة الأم مع ابنها الرضيع، يقول أحد الباحثين عن هذه القصة: "قصتان في قصة يجمعهما الموضوع والفكرة، والمقدمة شائقة؛ لأنها حديث عن خوارق قصيرة لا تتجاوز جملة واحد: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة..، وهذا من براعة الافتتاح، وقد طوت قصة وضعت لها عنواناً على سبيل الإشارة، وإحالة للسامع إلى معهود في القرآن هي قصة عيسى عليه السلام، أما الآخران فقد بدأت بأحدهما ليظل الخيال مشدوداً طوال القصة إلى الثاني منهما ، فيعيش كل الوقت مع الإعجاب بالراهن، والاشتياق إلى المنتظر [1]." وإلى القارئ بيان لما فيهما من خصائص فنية وبلاغية.

أولاً/ قصة جريج العابد:

استهل النبي- صلى الله عليه وسلم- قصة جريج العابد بتمهيد وصف فيه حال جريج بين بني إسرائيل، فهو رجل عابد ، وزاهد، وبهذا الوصف تحددت في- نظر الصحابة- شخصيته، فأخذوا يرقبون الأحداث التي سوف تحصل لهذا الرجل الزاهد، ففي القصة ما يدفعهم إلى سماعها، ويشد انتباههم إليها، ؛ لأنها من القصص المثيرة التي تأتي على غير العادة فتثير نحوها الحواس، وتبهر العقول، وتدهش الأنظار، والنفس البشرية تحب الشيء الغريب، وتنجذب إليه؛ حباً للمعرفة، واستطلاعاً للأمر، وقد أخذ النبي الكريم يعرض لهم أحداث الأمس البعيد؛ ليؤثر في نفوسهم، ويربيهم بطريقة حكيمة، على السجايا والخصال الحميدة.

أخذت أحداث القصة تتدرج نحو الأمام لتشكل في بدايتها الأولى العقدة، وذلك حينما لم يجب جريج نداء أمه ثلاث مرات على التوالي، وفضل الصلاة والعبادة على إجابة أمه ، فغضبت عليه ، ودعت الله- عز وجل- أن يبتليه بالشر، وكان البلاء عندما اتهمته البغي

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/عز الدين السيد، ص٤٥١.

بجريمة الزنا- وهو بريئ منها- حين تعرضت له في طريقه فظنت ـ لاغترارها بجمالها ـ أنها ستسلب عقل الرجل التقي جريج فتفتنه ، وتبدو لها المفارقة التي لم تتوقعها هي ، لقد عصمه الله تعالى، فلم يلتفت إليها، فلجأت إلى الراعي، وزينت له المنكر، وأمكنته من نفسها فوقع بها، وعندما وضعت وسألها القوم قالت: هو من جريج كذباً وزوراً، ويحس الصحابة- رضي الله عنهم- ما أحس به هذا الرجل من الظلم والبهتان، وهذه القصة تذكرهم بقصة يوسف- عليه السلام- مع امرأة العزيز، حين راودته عن نفسه، يقول أحد الباحثين: "من الأشياء الإيجابية في بناء القصة النبوية أن حبكتها تعمل على إثارة نوع من الانفعالات المختلفة إزاء ما يجري من أحداث ومواقف، مما يجعلنا نتجاوب مع العرض القصصي بشيء من الخوف والفزع، أو بالشفقة والعطف أو بلون من ألوان التوقع والترقب إلى غير ذلك."[1] ومن ثم تتابعت أحداث القصة حتى أصبح الموقف في قمة التأزم فاتهمه القوم بالزنا، وأخذوا يضربونه، وهدموا صومعته، وكل ذلك لأنهم لم يتبينوا حقيقة الأمر، لكن بطل القصة يصمد ، ويتوجه بالدعاء الصادق إلى الله- عز وجل- بأن يظهر براءته، وكانت الكرامة الإلهية لهذا العابد بتكلم الغلام في المهد، وظهور الحق بسببه، وبظهور الحق تخلص جريج من تلك الاتهامات، وعرف القوم أنهم مخطئون، لكن فعلهم يدل على ضلالهم ، وقلة عقولهم، حين أخذوا يتبركون به، ويقولون: نبني لك صومعتك من ذهب؟ ولكن جريج ، زهد في مباهج الحياة، وقال: لا ، أعيدوها كما كانت من طين. ونهاية القصة تترك في نفوس الصحابة إحساساً بقدرة الله- عز وجل- وكرامته لأهل الطاعة، فيزيدهم هذا يقيناً، ويثبتون على الحق؛ لأن الغلبة في النهاية ستكون للحق ولو بعد حين.

وألفاظ الحوار كما يرى القارئ واضحة المعاني، سهلة المأخذ، قريبة من الإفهام، وكذلك يجد المتلقي الحوار يتدرج من حيث الهدوء ليصل إلى العنف والشدة كما يدل عليه قوله (فأتوه، فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي؟ فولدت منك.) تصور القوم وهم يمسكون بجريج، ويخرجونه من صومعته بالقوة، وهو ينكر عليهم فعلهم ويسألهم: ما شأنكم؟ وما الذي دهاكم؟ ثم يعود الحوار كما كان عليه

---

(١) القصص في الحديث النبوي دراسة فينة وموضوعية د/محمد حسن الزير: ١٥٥.

هادئاً لطيفاً يصوره قوله (فأقبلوا على جريج يقبلونه، ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب. قال: (لا. أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا).

أما ما في الحديث من فنون بلاغية فإنها تبدو واضحة في ألفاظ الحديث الشريف، حيث يجد المتذوق الدقة في اختيار الألفاظ الدالة على المعنى المراد في النفس مثل(تذاكر، أمكنته، استنزلوه، دعوني)؛ فلفظ (تذاكر) يدل على الحال التي عليها قوم من بني إسرائيل، وأنهم كانوا يكثرون الحديث عنه ويبالغون فيه، ولا نجد هذا في (يذكرون)، ولفظ (أمكنته) أي: بالغت المرأة البغي في إغراء الراعي، حتى جاء مندفعاً لفعل السوء بها[1]، وإيثار لفظ (استنزلوه) دون (أنزلوه) تصور للصحابة كيفية هجوم هؤلاء القوم على جريج بقوة تغطيها الغفلة والجهل، حتى أمسكوا به وأجبروه على النزول رغم مدافعته إياهم.

وفي هذا المقطع من الحديث إيجاز بالحذف يتجلى في قوله: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) أي: إلا ثلاثة غلمان، وحذف لوجود القرينة التي تدل عليه وهي كلمة (المهد) ، والحذف في قوله: (عيسى بن مريم) أي: تكلم في المهد عيسى بن مريم ، وحذف المسند لذكر ما يدل عليه، وهو قوله (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) وكذلك الحذف في قوله: (وكان فيها) أي: كان يتعبد فيها، وحذف للسبب نفسه ودل عليه قوله (رجلا عابدا) والحذف في قوله: (يارب أمي وصلاتي) أي: أمي وصلاتي يقتضيان إقبالي ، فعلى أيهما أقبل؟، بدليل قوله بعد ذلك: فأقبل على صلاته ، والحذف في قوله: (وترك أمه) أي: ترك إجابة أمه، والحذف في قوله (فأقبل على صلاته) حذفت جملة بعدها من الكلام تقديرها: فلم يجب أمه، فانصرفت، وكذلك حذف المفعول وما أضيف إليه في قوله (إن شئتم...) والتقدير: أن شئتم غواية جريج لأفعلن ذلك، ، وحذفت الجملة في قوله (فلما ولدت قالت) والتقدير: (فلما ولدت وسألها بنو إسرائيل عن المولود ممن هو؟ قالت: ...)، والحذف في (امرأة بغي) حذفت الصفة الثانية لكلمة (امرأة) والتقدير: امرأة من بني إسرائيل؛ لعلم الصحابة بها، والحذف في (أمكنته) أي: أمكنت البغي الراعي من نفسها وكذلك الحذف في قوله (لا) حيث حذف مدخول (لا) وهو جملة والتقدير: لا أقبل ، على احتمال كونها نافية ، أو لا تفعلوا ، على احتمال كونها ناهية

(١) يقول ابن قتيبة في "أفعلت": " تجئ أفعلت الشيء عرضته للفعل، نحو "أقتلت الرجل" عرضته للقتل وأبعت الشيء عرضته للبيع. "أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري: ٣٠٢.

عن فعل ما عرضوه عليه- وهذه الحذوف جميعها للاختصار في الكلام ليتواصل الوعي بالأحداث ، فلا يؤدي طول الكلام إلى الغفلة عنها.

وفي هذا الجزء- أيضاً- يلحظ التعريف والتنكير في بعض ألفاظه ، فإن التعريف يظهر في (المهد ، الموسات ، البغي) ؛ فالتعريف باللام في (المهد) جاء للاستغراق العرفي ؛ فالمهد شيء معروف لدى الصحابة ، وفي (الموسات ، البغي) للعهد الذهني الذي يتحقق في هذا الجنس من النساء.

أما التنكير في قوله (رجلاً عابداً ، صومعة ، امرأة بغي ، راعياً ،) فـ (رجلاً عابداً ، امرأة بغي) كلها نكرات موصوفة ، بحيث تعطي السامعين انطباعاً عن حالهم من حيث السلوك الاجتماعي ، ومدى تأثيرهم في الناس في ذلك الزمن ؛ فالتنكير في (رجلاً) للتعظيم ، وفي (امرأة) للتهويل من قدرتها على الإغراء بالرذيلة ، أما (صومعة) جاء تنكيرها لبيان بساطة تلك الصومعة فصاحبها بناها من طين ، وجعلها للعبادة والزهد ، ولفظ (راعياً) يوحي للسامعين بتلك الهيئة المتواضعة لهذا الرجل وبداوته ، فهو ينتقل بالأغنام من مكان لآخر بحثاً عن الكلأ.

والفرق بين أداتي النداء في (يارب ، أي رب) واضح ففي قوله (يارب[1] ما يشعر ببعد شأنه وعظمته ، فهو قادر على هدايته لسلوك الطريق المستقيم ، فجريج في موقف محير يحتاج فيه إلا منقذ عظيم القدرة على انتشاله من حيرته ، فناجى ربه بنداء البعيد ؛ إيماء إلى عظمته ، وفي قوله (أي رب)[2] إيماء بشدة توسله إلى الله حتى كأنه قريب منه يعلم حاله وهو أرحم به من أن يقع في معصيته بقطع صلاته ، ويرجوه أن يغفر له ترك إجابة أمه ، والنداء في قوله (يا غلام من أبوك؟) جاء للبعيد مع أنه كان قريباً منه حين سأله وأجاب ، لكن جاء بهذا الصورة لبعد ما يتوقع من إجابته ، وأن في ندائه ما يجعله يترقب منه نطقاً بالحق وتبرئة بالحجة لجريج.

وفي حرف الإشارة (هذه) في جملة (زنيت بهذه البغي) ما يدل على احتقار أمرها ، وأن ما ظنوه في جريج محل احتقار وازدراء.

---

(١) يقول ابن هشام في (يا): حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكماً، وقد ينادي بها القريب توكيداً، وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد، وقيل: بينهما وبين المتوسط وهي أكثر أحرف النداء استعمالاً؛ ولهذا لا يقدر عند الحذف سواها، نحو (يوسف أعرض عن هذا) سورة يوسف آية (٢٩) ولا ينادى اسم الله (عز وجل)، والاسم المستغاث، وأيها وأيتها إلا بها. " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري ٤٢٩/٢.

(٢) أما بالنسبة لـ(أي) فيقول ابن هشام: " هي حرف لنداء البعيد أو القريب أو المتوسط، على خلاف في ذلك. "المصدر السابق،١/٩٠.

وقد عبر بالضمير بدلاً من الاسم الصريح له في قوله (فجاءوا به) وقوله (هو من جريج) ؛ لأنه ذكر في بداية الحديث فلم يذكر اختصاراً للكلام ، أو لأنه يستقبح ذكراسمه صراحة فذكره مضمراً ؛ لأنه ولد بطريقة غير مشروعة.

والاستفهام في قوله (يا غلام من أبوك؟) المراد به بيان حقيقته لهم ، وأنه بريء مما وصفوه به ، فكان في سؤال جريج للغلام ما يجعل القوم يستغربون من فعله ؛ لأنه لم تجر العادة بهذا ، فحين أجابه الغلام تقررت عندهم براءته. أما الاستفهام في قوله (نبني لك صومعتك من ذهب؟) فكان الغرض منه العرض المشوب بالرغبة في تحقيق البناء ، وقد حذفت أداة الاستفهام ؛ مسارعة إلى ما هو الغاية منه ، كأنهم يتعجلون الموافقة على البناء ، ولكنهم ووجهوا بالرفض ، ومن بلاغة هذا الحديث أنه يجوز أن تكون (لا) ناهية عما طواه الاستفهام من معنى ؛ كأنه قال : لا تفعلوا ما عرضتم ، ويساعد على هذا الاحتمال قوله : أعيدوها من طين ، فكان الأمر مقابلا للنهي.

و كان لحرف العطف وربطه بالجمل ما يبين العلة البلاغية في ذلك ؛ فمجيء الفاء لبيان تتابع الأحداث ، واختلاق مواقف جديدة من موقف سابق.

أما الفصل بين الجملتين في (لا ، أعيدوها من طين كما كانت) فعلى اعتبار (لا) نافية تكون الأولى خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية إنشائية لفظا ومعنى فبينهما كمال الانقطاع ، وعلى اعتبارها ناهية تكون الثانية تأكيدا للأولى ، والجملتان معا من قبيل الإنشاء لفظا ومعنى وبينهما كمال الاتصال.

ومن البديع ما يراه المتذوق من الاشتقاق بين اللفظين (اقبلوا ، يقبلونه) ؛ فالأول من الإتيان والمجيء ، والثاني من التقبيل.

ثانياً: قصة المرأة مع ابنها الرضيع:

بدأت القصة بالحدث مباشرة (بينما صبي يرضع من أمه) ومن هذا الحدث تنشأ أحداث أخرى تتآلف معاً ، فيكون العمل الأدبي متماسكاً ، يؤثر في نفس المتلقي ، فيتابع أحداثها للنهاية ، فهذه البداية جذبت أسماع الصحابة وشوقتهم إلى ما سيكون ، فقال النبي الكريم مستهلاً أحداث القصة : فمر بهما رجل سيماه العز والشرف ، وهو يختال بحسن هندامه ، فظنت الأم فيه الخير العظيم ، فبادرت بالدعاء لابنها بأن يصبح فيما بعد مثل هذا الرجل ، وهنا تظهر المفارقة التي لم تخطر لها ببال ، حين نطق ابنها في المهد ، وتأخذها الدهشة لمناقضة أمنيته

أمنيتها، ويتكرر لها نفس الموقف في رجائها ألا يكون مثل المرأة التي ظنت أنها جلبت العار، وينطق ابنها برجاء يناقض رجاءها مؤثراً أن يكون مظلوماً على أن يكون ظالماً، وأن يكون الحق له لا عليه، وحين تراجعا لكشف المناقضة أجابها قائلاً" إن الرجل كان جباراً فقلت اللهم لا تجعلني مثله، وإن المرأة لم تزن ولم تسرق فقلت اللهم أجعلني مثلها)، ولقد ساعد الحوار على رسم شخصيات القصة، وما تتصف به من صفات وما تحمله من أ فكار كما هو واضح في قوله (رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة) وقوله (ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل)؛ فالرجل كان متكبراً جباراً، وقد يكون ظالماً أما الجارية فهي امرأة لا حول لها ولا قوة لاسيما أنهم اجتمعوا عليها يضربونها بقسوة، ويقذفونها بالباطل، يقول أحد الباحثين: " ورسم الشخصيات كان بارعاً تصحبه الحركات والأفعال في الأداء، وانظر في الأداء، وانظر إلى قول أبي هريرة يحكي فعل النبي وهو يصور لهم رضاع الطفل ليقرر الخارقة (فكأني أنظر إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فيه يمصها) فصورة الجبار تظهر في شارته الحسنة على حماره الفاره، وصورة المتهمة المسكينة ، والجمهور الأحمق المندفع تظهر من جهتها في ضعفها عن المقاومة، واحتسابها ما تجد عند الله المطلع على سرها ومن جهتهم في عذابين شرسين من ضرب وتسجيل كاذب."(١)

والقصتان تحتويان على معنيين عظيمين أولهما حرص الأم على بلوغ ولدها أسمى المراتب، وثانيهما عدم الاغترار بمظاهر الحياة الدنيا، التي تغر الناس، وتحيد بهم عن طريق الصواب، فربما جاء الشر ممن أحبوه، وربما أساءوا الظن في غيرهم، واتبعوا كل ما تتناقله الألسن وغيرهم أبرياء مما ظن بهم.

أما ألفاظ الحوار في هذه القصة فواضحة، لا تحتاج إلى تنقيب في الكتب اللغوية، كما يظهر فيها طبيعة الحوار من حيث الهدوء أو العنف؛ فهي تبين حيرة الأم من كلام ابنها الصغير وطلبها منه تفسير ما قال لها وتظهر هذه الحيرة في قولها: (حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: (اللهم اجعلني مثلها).

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/ عز الدين السيد: ٤٥٣.

وهذا الجزء من الحديث الشريف تزينه فنون بلاغية شتى، تتجلى فيما يلي:

في قوله (فجعل يرتضع) الفعل المضارع (يرتضع) يصور الصبي بصورة حية في نفوس الصحابة؛ لكونه مضارعاً يومئ إلى تجدد الصورة، ويجعلها حاضرة دائماً، فيتخيل الصحابة منظر الصبي الصغير، وكيفية امتصاصه لثدي أمه، لاسيما أن النبي قد أشار إليه محاكيا ارتضاع الصبي، وفي قوله (راكب على دابة) فاسم الفاعل (راكب) يدل على الثبوت، فتلك الصفة ثابتة للرجل، إذ هو يمتطي دابته، ويسير بها في خيلاء وتكبر، ولفظ (أقبل) في قوله (وأقبل إليه فنظر إليه) وقوله (ثم أقبل على ثديه) يدل على أنه كان من جهته ومستقبلا له. يقول الفيروز آبادي: "قبل على الشيء وأقبل لزمه، وأخذ فيه، وأقبلته الشيء جعلته يلي قبالته وقابله واجهه، وتقابلا تواجها." [1] فهو يدل على أن الصبي استقبل ثدي أمه وأخذ يرضعه، أما في الجملة الثانية فدل على أنه نظر إلى الرجل المتكبر تلقاءه، وأمعن النظر فيه، وقال فيه ما قال، ولا نجد كلمة كأخذ ونحوها تدل على ما قصده الرسول الكريم إلا هذه، فهي أبلغ من أي لفظة أخرى. ومن التنويع في اختيار الألفاظ ما يلحظه المتذوق في استخدام النبي- صلى الله عليه وسلم- للفظتي (جارية ، أمة) فاللفظتان بمعنى واحد لكن لفظ الجارية في استعمال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه حسن تأدب مع هذه المرأة ؛ فالجارية تعني الفتاة الشابة، التي تكون مملوكة من قبل سيدها، أما الأمة فهي تكون مستعبدة، بخلاف الحرة، ويستمتع بها سيدها متى شاء، بخلاف الجارية تكون بملك اليمين، وقد راعى النبي الكريم الفرق بين اللفظين فقال الجارية حكاية عن المرأة المظلومة، وقال على لسان الأم: الأمة. وفي قوله (حلقى) تحمل هذه الكلمة معنى في نفسها فهي كلمة جاءت للدعاء عليه." [2]

وفي هذا الجزء من الحديث جاءت ألفاظ معرفة وأخرى نكرة والتعريف جلي في قوله (ترك الرضاع) وقوله (هذه الأمة) وقوله (ذلك الرجل)؛ فالرضاع ذكر ما يدل عليه في أول الحديث في (يرتضع) فجاء معرفاً بـ (أل) للعهد الصريح به، ومثله (الأمة) و (الرجل). أما التنكير ففي قوله (رجل، دابة فارهة، شارة حسنة، جارية)؛ فالنكرة بما يكتنفها من وصف

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي:١٣٥١، فصل القاف باب اللام.

(٢) نقل صاحب اللسان عن ابن عبيد عند بيان معنى" عقرى حلقى" عن أبي عبيد قوله: عقرى ، عقرها الله، وحلقى خلقها الله فقوله عقرى الله يعني عقر جسدها، وحلقى أصابعها الله بوجع في حلقها، وهذا القول في الدعاء على الشيء من غير إرادة لوقوعه . لسان العرب، ج١٠، ص٢٢٤.

تكثف في نفوس الصحابة المعاني والصور الحية ؛ فالرجل يتصوره الصحابة في أحسن هيئة إذ هو رجل غني أعطاه الله خيراً كثيراً ، وفي (دابة فارهة ، شارة حسنة) تصوير لبعض النعم التي تفضل الله بها عليه ، فهي في أبهي جمالها ، يركبها متباهياً ومعجباً بنفسه. وفي (جارية) تتعمق الصورة فهي ربما فتاة ، فقيرة ، مسكينة ، يرثى لحالها لا سيما حينما يضربونها بكل ظلم وقسوة ووحشية ، فتعطي النكرة المجال لكي يتصور الصحابة هذه الصور كيفما سمحت قرائحهم.

والتعريف باسم الإشارة في قوله (اللهم اجعل ابني مثل هذا) ؛ جاء للتعظيم من شأن هذا الرجل الراكب ، وفي قوله (هذه البغي) ؛ جاء للتحقير من شأن الأمة ؛ لأنها ارتكبت جرما عظيما لا يغتفر في نظر المرأة ، وقد يكون من باب التعريض بها. وفي اسم الإشارة الدال على البعيد في قوله (ذلك الرجل) ما يشير إلى ذم هذا الرجل ، فهو وإن أعجب منظره الناظرون إليه فهو مكروه من قبل الناس ، ومذموم عند أكثرهم ؛ لأنه رجل جبار ، وظالم ، ومتكبر ، وفي قوله (وهم يضربونها) خروج على مقتضى الظاهر ، فهذا الضمير ليس له مرجع يعود إليه ، وكان الأصل أن يقال : فمروا بجارية ، وقوم يضربونها إن لم يكونوا على صلة بها ملكاً كانت الصلة أو قرابة ، أو يقال : وقومها يضربونها إن كان لهم بها صلة ، ولعل السر في ذلك الإيماء إلى احتقارهم ، لظلمهم إياها كانوا ليسوا أهلاً لأن يذكروا صراحة ، فعبر عنهم بضمير الغيبة ليكون الإهمال لذلك رمز الكراهة والاحتقار.

وفي الحديث إيجاز بالحذف ويظهر في قوله (أقبل على ثديه) أي : ثدي أمه ؛ فقد حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. والحذف في قوله (فجعل يرتضع) أي : يرتضع ثدي أمه ؛ فحذف المفعول وما أضيف إليه ، والحذف في قوله (ولم تسرق ولم تزن) أي : وهي لم تسرق ولم تزن ؛ حيث حذف المسند إليه ، وهذه الحذوف قصد منها التخفيف مما يثقل كاهل الأسلوب ، حتى لا يكون مترهلاً بما فيه من إطالة لا فائدة منها.

وفي قول الصبي لأمه (إن ذلك الرجل كان...) جاء الخبر مؤكد مع خلو ذهنها من مضمونه ، وهذا أيضاً من الخروج على خلاف مقتضى الظاهر ؛ حيث ظهر من الأم ما يبعث في نفسها الشك والحيرة من أمر ابنها ، فتساءلت لم قلت ما قلت ، فكان في جوابه المؤكد بإن والجملة الاسمية ما يجلو عنها تلك الحيرة ويكشف السر.

وفي هذا الجزء من الحديث يظهر الوصل والفصل بين الجمل فإن الوصل يتجلى في قوله (حسبي الله ونعم الوكيل) ؛ فالجملتان إنشائيتان معنى خبريتان لفظا فبينهما التوسط بين

الكمالين ؛ فالأولى تحمل معنى التفويض إلى الله والثانية لإنشاء المدح ، والوصل بين الجملتين (وهم يضربونها ويقولون) الجملتان متفقتان ؛ فهما خبريتان لفظاً ومعنى و بينهما رابط ؛ حيث أريد ربط الثانية بالأولى في الموقع الإعرابي فجملة (وهم يضربونها) جملة حالية ، وجملة (يقولون) أريد لها أن تكون حالا ثانية من واو الجماعة في جملة (مروا) فهي فاعل ، والجملتان حالان من هذا الفاعل ، والقصد إلى تشريك الجملة الثانية مع الأولى في حكم إعرابي يجعل الوصل بالواو مثل عطف المفرد على المفرد.

وفي قول الأم لابنها (مر رجل ، ولا تجعلني مثله) ، (ومروا بهذه الأمة...اجعلني مثلها) وصل بين الجملتين ؛ حيث كل منهما خبرية لفظاً ومعنى فبينهما التوسط بين الكمالين.

أما الفصل في قوله (زنيت سرقت) فقد جاء على خلاف الأصل وكان الأصل أن يقال : زنيت وسرقت ، وتكون الثانية شريكة للأولى في حكم إعرابي وهو أنها مقول القول ولكن حذفت الواو على خلاف الأصل ، كأنه أريد الإيماء إلى أن كل جريمة من هاتين الجريمتين من القبح بحيث تكفي أن تكون سببا للضرب والإهانة.

وكذا وقع الفصل بين جملتي (حلقى) ، (مر رجل..) ؛ لأن الأولى خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فبينهما كمال الانقطاع.

ومن بديع الكلام المراجعة في القول بين الأم وابنها في قوله (حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت : اللهم اجعلني مثلها) لتؤكد الأم على ابنها أن ما قالت ذلك إلا لحب الخير له ، فهي تنكر عليه قوله ، و تطلب منه تفسيراً لكل ما جرى.

وفي هذه المراجعة مقابلة توضح الفرق الهائل بين أمنية الابن ، وأمنية أمه ، فبينهما من التضاد ما لا يحتاج إلى بيان.

ومن حوار الناس مع بعضهم البعض ما روي عن عن أبي هريرة – رضي الله عنه- :

عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- (أنه ذكر رجلا من نبي إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً.) [1]

استهل النبي- صلى الله عليه وسلم- هذه القصة التاريخية بتمهيد مبسط رسم أبعادها الزمنية والمكانية، وحدد شخصياتها في رجلين من بني إسرائيل، أحدهما مقرض والآخر مقترض، بعد ذلك أخذ يعرض أحداثها على مسامع أصحابه- رضي الله عنهم- بإيجاز شديد فهو لا يريد مجرد إخبارهم عن الرجلين فحسب وإنما أراد أيضاً ترغيبهم في تلك الأخلاق التي تحلى بها بطلا هذه القصة، ويحثهم على مكارمها، بطريقة مشوقة ، وبفن راق في التعامل الإنساني.

في هذه القصة صور النبي الكريم حال المقترض مع صاحبه المقرض، إذ هو رجل حريص على الوفاء بوعده وسداد ما عليه، وعندما كان يراقب البحر ليرى مركباً أو سفينة راسية على الشاطئ تحمله إلى الشاطئ الآخر؛ ليرد المال لصاحبه، لم يجد بغيته، فاحتار في أمره، يا ترى كيف أفي بوعدي وأرد المال إلى صاحبه، وقد أولاني ثقته؟ وفجأة، ألهمه الله تعالى أن يضع المال والصحيفة في خشبة ، ويلقي بها في البحر لعل الأمواج تلقي بها على

---

(١) صحيح البخاري ٦٧٧، ٢/٦٧٨.

الشاطئ ، فيصل ما بها للمقرض بحفظ الله تعالى ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1] ، وقد شاء الله أن يأتي المقرض إلى البحر فوقف على الشاطئ عله يجد المقترض قد جاء وفاء بوعده فلم يجد صاحبه فهمَّ راجعاً ، ولكنه وجد خشبة فأخذها حطباً لأهله وكانت المفاجأة أن وجد ماله بداخلها ، ومعه صحيفة تبين ما جرى.

فالقصة كلها أحداث متنامية ، وقد ساعد الحوار فيها على ارتقائها ، وإثارة جو من التفاعل والنشاط ، وترى الحبكة العجيبة لأحداث القصة[2] ، منذ الوهلة الأولى بدأت القصة بالمشكلة ، أو ما يعرف (بالعقدة) وكانت حين احتاج المقترض للمال ، والحاجة إليه ضرورة ؛ لأنه يريد تدبير أموره المعيشية ، والعقدة الثانية حين أراد إرجاع المال لصاحبه ، فلم يجد سفينة لإيصاله إليه ، ففكر ونظر ، وحسم في النهاية الأمر ، وطرأت في عقله فكرة هي أغرب ما في الأمر ، وبعد حين من الزمن التقى بصاحبه ، وقد اضطربت مشاعره وهذا واضح في ألفاظه ، وأخذ يكرر نفس القول ويعتذر إليه ، حتى أنه جاء بألف دينار أخرى ليس لأنه غير واثق في قدرة الله ، وإنما لأنه حريص على رد الحقوق لأصحابها ، فقد لا يكون المقرض قد حصل على الخشبة.

فهذه القصة تحمل إذن معنيين ساميين إلى نفوس الصحابة - رضي الله عنهم - هما الوفاء بالعهد وإرجاع الحقوق لأصحابها ، والآخر مساعدة المحتاج ، والصبر عليه ، والتعاون فيما بين المسلمين ، وأضيف إليهما الثقة بالله - عز وجل - والتوكل عليه في كل شيء ، فثمار التوكل عن قريب تحصد ويعقبها الرضا والسعادة.

وألفاظ الحديث واضحة ، لا تحتاج إلى بحث في معانيها ، وكانت ألفاظ الحوار هادئة كما هو معروف في بداية القصة ، يظهر للجميع مدى ارتياح السامع لها ، ولكن عند الخوض في تفاصيل القصة يلاحظ تدرجها من حيث الهدوء ، والبقاء على وتيرة واحدة إلى الاضطراب ، فالسامع لاشك يشعر أو ينطبع في نفسه شعور باضطراب المقترض وحيرته عندما لم يجد مركباً ، وحيرته أيضاً عندما التقى بصاحب المال.

---

(١) سورة يوسف، آية ٦٤.

(٢) الحبكة: "سياق الأحداث والأعمال وترابطها لتؤدي إلى خاتمة، أو هي سلسلة الحوادث التي تجرى فيها مرتبطة ، ترابط السببية " ينظر المعجم الأدبي ، تأليف: جبور عبد النور، وينظر مجلة المنهل، العدد٥١٣، ١٩٩٤م، القصة الحديثة وتطورها الفني، أ.د/ يوسف عز الدين ، ص٦٠.

والخصائص البلاغية في الحديث الشريف تكمن في اختيار المفردات في براعة عجيبة، وصياغة فريدة.

كما يظهر في استخدام النبي- صلى الله عليه وسلم- لـ(يسلفه، زجج، نقر، يلتمس، لعل، ما زلت جاهداً) فكل لفظة منها تنتظم في سياق الكلام، ويكون لها بانتظامها بعضها مع بعض ميزة لا تكون لغيرها من الألفاظ، بحيث تعطي معنى يكون أبلغ في النفس من غيرها؛ فالفعل (يسلف) مضارع أسلف لا ينهض بمعناه الفعل (يقرض) مضارع أقرض وإن قرب منه في الدلالة العامة- وهي إعطاء الغير مالاً يكون ديناً عليه؛ ذلك لوجود فرق دلالي بينهما ؛ فالقرض يكون بين المختلفين في الثراء بحيث لا يتوقع من المقترض أن يُقرض صاحبه في الواقع المنظور، أما السلف فإنه يكون بين المتساوين بحيث يمكن أن يأتي يوم يقدم فيه المستلف إلى من أسلفه مقداراً يحتاج إليه من المال، يومئ إلى ذلك الأصل اللغوي لكل منهما؛ فالقرض من مادة (ق، ر ، ض) وهي تؤدي معنى القطع، فكأن المقرض- حين يعطي مالاً لغيره على سبيل الدين- قطع الأمل في الحصول على مقابل سوى الأجر أو الشكر، والسلف من مادة(س، ل،ف) وهي تشير إلى تبادل العطاء فالمسلف لم يقطع الأمل في الحصول على سلف يوماً (ما) لكونه مثله أو قريباً منه في اليسار، ويومئ إلى هذا قول ابن الأثير في النهاية: "يقال: سلّفت وأسلفت تسليفاً وإسلافاً، والاسم السلف، وهو في المعاملات على وجهين: أحدهما القرض الذي لا منفعة فيه للمقرض غير الأجر والشكر، وعلى المقترض رده كما أخذه والعرب تسمي القرض سلفاً، والثاني: وهو أن يعطي مالاً في سلعة إلى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السلف، وذلك منفعة للمسلف، ويقال له سلم دون الأول[(١)]".

كذلك ما توحيه اللفظتان (زجج، نقر) من خيال في نفوس الصحابة، فيتصورون فعل الرجل المقترض ومزاولته لعملية النقر في الخشبة بمداومة النقر فيها، والحفر مرة بعد أخرى، والنقر والحفر بمعنى واحد لكن في النقر زيادة معنى ليس في حفر[(٢)]. إذ النقر إنما يكون في الأشياء التي بها صلابة كالخشب وغيره، فهو يحتاج إلى جهد أكبر بخلاف الحفر فإنه يكون في

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٧٩٥- ١/٧٩٦.

(٢) نقر: من نقر الطائر الحبة أي: التقطها، ونقر الشيء ثقبه بالمنقار، والنقرة حفرة صغيرة في الأرض ومنه نقرة القفا. ترتيب مختار الصحاح للرازي، باب النون، ص٨٠٧.

الأرض التي يسهل الضرب فيها ورفع المحفور[1]. وفي الفعل (يلتمس) معنى الترقب والطلب ؛ فهو يترقب ويتحسس مجيء المركب" السفينة" ففي هذا الفعل دون ما يقاربه كطلب مثلاً دلالة لا تلمح في الثاني . وفي (لعل) معنى هو في صميم الالتماس والطلب فهي كما يقول بعض علماء اللغة أمثال الرازي : " كلمة شك وأصلها علّ واللام في أولها زائدة ، ويقال : لعلي أفعل ولعني أفعل بمعنى.[2]" وقال الفيروز آبادي : "كلمة طمع وإشفاق ، ويقال : علي أفعل وعلني ولعلي ولعلني.[3]" وإنما كانت فهي تتآزر مع (يلتمس) وتعطي للمتلقين انطباعاً عن مدى رجاء الرجل المقترض وطمعه وما يراود نفسه من شك وخوف وما إلى ذلك من خلجات يشعر بها الرجل ويحس بومضها الصحابة- رضي الله عنهم- .

وفي قول الرجل (ما زلت جاهداً) بصيغة اسم الفاعل إيماء إلى بلوغه من المشقة والجهد الغاية ، فقد زاول هذا الفعل مراراً وتكراراً ، وقد يأتي اسم الفاعل والمراد به اسم المفعول فـ (جاهداً) هنا بمعنى مجهود. ففي كل ما ذكر آنفاً من أسرار بلاغية هي من الدقة والبراعة النبوية التي لا يرقى إلى ذروتها أكثر البلغاء.

ومما يلفت النظر استعمال لفظ الجمع في قوله (ائتني بالشهداء) واستعمال المفرد في (كفى بالله شهيدا) ؛ فليس المراد بالشهداء المفرد حتى يفسر بالشهيد بل المراد به ما يسمى بأقل الجمع وهو الاثنان اللذان يصح إشهادهما ، والتعبير بالجمع وإرادة المثنى أسلوب عربي له نظيره في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴿٨٧﴾ ﴾[4] فقوله (واجعلوا) مرادا به (واجعلا بيوتكما قبلة) وإيثار صيغة الجمع لتعظيم أثرهما في توثيق الدين حتى كأن الاثنين جمع كثير، و (أل) في هذا اللفظ مما يدخل في إطار العهد العلمي ؛ إذ المعنى الشهيدان اللذان يصح إشهادهما ، والعمل بقولهما عند الاقتضاء ، فمن المعلوم شرعا- في المعاملات- أنه لابد من وجود شاهدين. ويجد المتأمل لقول النبي- صلى الله عليه وسلم- في (كفى بالله شهيدا) زيادة الباء فيه ، وهذه الزيادة تقتضي التأكيد للأمر ، يقول عبد القاهر الجرجاني : " قولهم : بحسبك أن تفعل ، و كفى بالله ،

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور ٤/١٦٢

(٢) ترتيب مختار الصحاح للرازي، ٧١٨ باب اللام.

(٣) القاموس المحيط للفيروز آبادي، ص١٣٦٤، باب اللام فصل اللام.

(٤) سورة يونس، آية ٨٧.

إن لم تقض بزيادة"الباء" لم تجد للكلام وجهاً تصرفه إليه ، وتأويلاً تتأوله عليه ألبتة ، فلابد لك من أن تقول : إن الأصل : "حسبك أن تفعل و كفى بالله" وذلك أن الباء إذا كانت غير مزيدة كانت لتعدية الفعل إلى الاسم ، وليس في "بحسبك أن تفعل" فعل تعديه الباء إلى حسبك. ومن يتصور أن يتعدى إلى المبتدأ فعل ، والمبتدأ هو المعرى من العوامل اللفظية؟ وهكذا الأمر في"كفى" أو أقوى ، وذلك أن الاسم الداخل عليه الباء في "كفى بزيد" فاعل كفى ، ومحال أن تعدي الفعل إلى الفاعل بالباء أو غير الباء ، ففي الفعل من الاقتضاء للفاعل مالا حاجة معه إلى متوسط وموصل ومعد فاعرفه." (١)

وفي قوله (اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت...) تتراءى كلمة (اللهم) موحية بالتضرع إلى الله في هذا الموقف ، ليهيئ له ما يعينه على سداد دينه ، فليس ثمة من يقدر على العلم بالحرص على الوفاء بالدين في موعده غيره ، فهو المالك المدبر للأمور بعلمه وقدرته ، ولفظ الجلالة (الله) بدلالته على الملك والقدرة ، وتدبير الأمور هو أوفق الألفاظ في الدلالة على هذا كله ، وقد حذف لفظ النداء (يا) للدلالة على شدة القرب من المنادى وعوض عنه الميم لإطالة الصوت بالضراعة وهذا من الإطناب في الكلام لأنه جاء في معرض الدعاء والمناجاة ، ولو لم يكن كذلك لاكتفى بقوله : رد المال يارب لصاحبه ، وشتان ما بين الأسلوبين لأن الإيجاز لا يفي بما في نفسه من قلق واضطراب يطلب حيالهما التضرع والمناجاة.

ومن اللافت في الحديث تعريف المسند إليه في قول المقترض (كفى بالله شهيداً ، كفى بالله وكيلاً) بإيثار لفظ الجلالة (الله) على ما سواه من أسمائه الحسنى ؛ لما فيه من إيماء إلى المهابة التي من شأنها أن تشيع الثقة في نفس المقرض فتقنعه بالشهادة وكفالته فلا يحتاج إلى شهيد أو كفيل من جنس البشر ، وتعريف المسند إليه بالموصول في قوله (ثم قدم الذي كان أسلفه) ؛ للتشويق إلى المسند ، ولذلك جعل صدر الصلة الفعل (كان) ولو لم يكن التشويق مقصودا لقيل : (قدم الذي أسلفه) وهذا كاف في أداء المعنى ، ولكنه يكون خالياً من التشويق.

---

(١) أسرار البلاغة للإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ص٤٢٣، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م. وينظر سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني،١٤١-١٤٢/، دارسة وتحقيق د/حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. وينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/١٢٤،١٢٣، وينظر موسوعة الحروف في اللغة العربية، ١٨٦.

أما تعريف المسند إليه في قوله (فخرج الرجل) بأل فإنه يومئ إلى أنه الرجل المعروف الذي سبق ذكره في قوله (أن رجلاً من بني إسرائيل) ومن ثم وصفه بقوله (الذي كان أسلفه) وتجمل الإشارة- هنا- إلى أن تنكير المفعول في قوله (أجد مركباً) والمسند إليه في قوله (لعل مركباً قد جاء) فهو للإفراد ؛ إذ هو يريد مركباً واحداً يحمله إلى صاحب المال، أما تنكير المفعول في قوله (فما وجدت مركباً) فهو لعموم نفي الجنس ؛ إذ لم يجد أي مركب يلبي حاجته ويقله ليصل إليه ، وكذلك الحال في قوله (لم أجد مركباً قبل الذي أتيت فيه).

وفي التعبير بالماضي وإرادة الفعل المضارع في قوله"لعل مركباً قد جاء" إيماء إلى شدة رجائه مجيء المركب حتى كأنه قد جاء أولتصور رجاء وقوعه كأنه وقع.

ويروع المتلقي ذلك الاستفهام الماثل في قوله (هل كنت بعثت إلي بشيء) ؛ فهو لم يتجرد عن معناه الحقيقي تماماً بل يضم إليه معنى آخر إضافياً هو تمني أن يكون الجواب بنعم ؛ ذلك أنه يخشى أن يكون الجواب بالنفي فيكون المال الذي عثر عليه ليس وفاءً.

وفي الحديث إيجاز بالحذف يلحظه المتأمل في قوله (صدقت) ؛ حيث حذف شبه الظرف (الجار والمجرور) والأصل: صدقت فيما تقول ؛ ذلك أنه قال ذلك تعقيباً على قول صاحبه (كفى بالله شهيدا) وفي قوله (فدفعها إليها) حذف المسند إليه والتقدير: فدفعها المقرض إليه، وكذلك في قوله (فخرج في البحر) حذفت الحال وما تعلق بها ؛ إذ الأصل: فخرج عائداً إلى أرضه على مركب في البحر، وفي قوله (أبعث...الذي له) حذف الموصول، والتقدير: أبعث المال الذي له، وفي قوله (فإذا الخشبة التي فيها المال) حذف المسند، والتقدير: فإذا الخشبة التي فيها المال قريبة من الشاطئ، وفي قوله (فلما نشرها...) حذف الجار والمجرور، والأصل: فلما نشرها بالمنشار، هذا كله حذف مفرد، أما حذف ما هو أكثر من جملة فيتراءى في قوله (فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل) ؛ فإن لفظ (ثم) هنا يشير إلى الفاصل الزمني الطويل وما تلاه من صنع الرجل ؛ والتقدير: وبقي في أرضه إلى الموعد المضروب، وعندئذٍ خرج ذاهباً إلى أرض صاحبه حتى بلغ البحر، فوقف على الشاطئ ثم التمس...الخ ؛ وقد تجاوز البيان النبوي هذا كله تاركاً للمتلقي أن يستشفه من خلال السياق ومسارعة إلى ما هو مناط اهتمامه، وما تتشوف إليه نفسه، ومثل ذلك جدير بإحكام الصياغة، وقوة السبك فيبدو الكلام متجهاً إلى الغاية من أقصر طريق.

وتكثيف التأكيد في قوله (فإن الله...) فيه إشارة إلى تنزيل صاحبه منزلة المنكر، مع أنه ليس كذلك؛ فالرجل في واقع الأمر قد بعث إليه ماله، وإنما فعل ذلك ليبث الطمأنينة في نفسه؛ إذ هو في موقف من يخشى أن لا يكون قد التقط الخشبة فضاع المال وبقي الدين كما هو ولا يبعد أن يكون قد أراد الإيماء إلى أن الله الذي أشهده، وجعله كفيلاً قد هيأ الأمر لوصول المال إليه.

ومن الخصائص البلاغية في الحديث تقديم المسند إليه في قوله (فإن الله قد أدى...) إذ الغرض من تقديمه تأكيد حصول الأداء من الله تعالى وإشعار المقترض بالفرح لتزول عن نفسه كل مشاعر الخوف والاضطراب، يقول الخطيب القزويني: : يتقدم المسند إليه على المسند لتعجيل المسرة أو المساءة للتفاؤل أو التطير نحو: (سعد في دارك) و (السفاح في دار صديقك)."[1]

ومن سمات التراكيب في هذا الحديث الفصل والوصل؛ أما الفصل فيظهر في قول المقرض (ائتني بالشهداء أشهدهم)؛ فقد فصلت الثانية (أشهدهم) عن الأولى (ائتني بالشهداء)؛ لكمال الانقطاع؛ فالأولى إنشائية لفظاً ومعنى، والثانية خبرية لفظاً ومعنى، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال؛ لأن الأولى تثير سؤالاً فحواه: ما حاجتك إلى الشهداء؟ فكانت الثانية جواباً عن هذا السؤال المثار.

ويبدو الفصل أيضاً في الحوار الآتي: قال: فائتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفيلاً، قال صدقت). فقد فصلت جملة القول الثاني عن جملة القول الأول؛ لأن جملة القول الأول تثير سؤالاً فحواه ماذا قال المقترض عندما قال له صاحبه: ائتني بالكفيل؟ فكانت جملة القول الثاني إجابة هذا السؤال، وكذلك فصل جملة القول الثالث (قال صدقت) عن جملة القول الثاني، لأن جملته- أعني القول الثاني- تثير سؤالاً هو: ماذا قال المقرض عندما قال له المقترض (كفى بالله وكيلاً) فكانت جملة القول الثالث إجابة هذا السؤال. والفصل بين هذه الجمل الثلاث لشبه كمال الاتصال.

ومثل هذا الفصل يرى في قول المقترض (ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً..) والرد عليه الماثل في جملة (قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟)، وإجابة

(١) تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، ٦٥.

هذا السؤال بجملة (قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه)، والتحقيق على هذا الجواب بجملة (قال فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة) فجملة الرد الحاملة للسؤال (هل كنت) بمثابة الرد على سؤال أثارته الجملة السابقة عليها، والتقدير: فماذا قال المقرض عندما أخبره صاحبه بقوله: مازلت جاهداً في طلب مركب فما وجدت مركباً، أما جملة (قال أخبرك أني لم أجد مركباً) فقد فصلت عما قبلها، لأنها خبرية لفظاً ومعنى، والتي قبلها إنشائية لفظاً ومعنى فبينهما كمال الانقطاع وفصلت الرابعة عن الثالثة؛ لشبه كمال الاتصال؛ ذلك أن جملة (قد أدى الله عنك) بمثابة جواب عن سؤال أثارته التي قبلها، والتقدير: فماذا قال المقرض عندما قال له صاحبه المقترض: أخبرك أني لم أجد مركباً؟.

أما الوصل فيظهر في قول المقترض (اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له)؛ فقد وصلت جملة (أني جهدت...) بجملة (أني كنت تسلفت)، وكان الوصل بالواو، لكن الوصل- هنا- يتغيا تشريك الثانية مع الأولى في الحكم الإعرابي؛ ذلك أن الأولى (إن، واسمها، وخبرها) سدت مسد مفعولي (تعلم) فكان الوصل لإشراك الثانية في هذا الحكم، أعني أن تكون الثانية مثل الأولى في كونها سادة مسد مفعولي (تعلم).

وفي داخل هاتين تبرز جملتان وصلت ثانيهما بالأولى للتوسط بين الكمالين، وهما ماثلتان في قول المقترض: (اللهم...كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً، وسألني شهيداً فقتل كفى بالله شهيداً). حيث وصلت جملة (وسألني شهيداً) بجملة (فسألني كفيلاً) والمسند في الجملتين واحد وهو الضمير المستتر في (سأل)، وبين المسندين تناسب فيهما، فالكفيل والشهيد يوثقان الدين فلا يتمكن المقترض من الإنكار، ويتخلص من السداد.

ومن صور البيان في هذا الحديث الاستعارة الجميلة في قوله (ينظر لعل مركباً جاء بماله)؛ فجعل من المركب إنساناً يجيء فشبه المركب بالإنسان الذي من صفاته المجيء وحذف المشبه به وهو الإنسان وأتى بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

ومنها- أي من تلك الصور- الكناية كما في قوله(أبعث إليه الذي له) وقوله (فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت) فـ (الذي) هنا كناية عن المال ؛ حيث ذكرت الصفة وأريد الموصوف وهو المال.

ومن البديع الجميل في هذا الحديث الشريف الجناس في قوله (ائتني بالشهداء أشهدهم فقال: كفى بالله شهيداً) والجناس في قوله (مركباً يركبها) والجناس في قوله (للأجل الذي أجله) ففي الجناس الأول: كان بين الاسم والفعل وصيغة المبالغة، والثاني كان: بين الاسم والفعل، والثالث مثله، وهو مما يطلق عليه البلاغيون جناس الاشتقاق إذ هو ليس جناسا بالمعنى الدقيق للجناس ؛ لأن شرطه اختلاف اللفظين في المعنى وهذا لا يختلف فيه اللفظان في المعنى، ولكن تكرار الحروف من نفس المادة يكسب الكلام إيقاعا خاصا تميل إليه النفس[1]" .

---

(١) ومثل هذا النوع يسمى: الملحق بالجناس، ينظر تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ص٢٠٠. وعلوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، أحمد مصطفى المراغي، ص٣٥٧، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

ومن حوار الناس بعضهم مع بعض ما روي عن أبي هريرة قال:

قال النبي- صلى الله عليه وسلم- : (اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذي تحكاما إليه : ألكما ولد؟ قال أحدهما : لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا) [(١)].

ضمن النبي- صلى الله عليه وسلم- الحديث قصة تاريخية حدثت في قديم الزمن، بين رجلين اتصف كل منهما بالأمانة والنزاهة، الرجل الأول هو المشتري والرجل الآخر هوالبائع، وكان الحوار هو العنصر البارز فيها ، وبه سارت أحداث القصة قدماً حتى وصلت إلى خاتمتها، وكان متأزماً بين الرجلين؛ حيث كان كل منهما يتبرأ من جرة الذهب درءاً للشبهات، وزهداً عن المغريات، وبدأت الأحداث تتصاعد برفض جرة الذهب حتى وصلت إلى الذروة بالاحتكام إلى الرجل ليفصل القضية بالحق، وهنا بدأت مرحلة التنوير، حيث قال الحكم: (ألكما ولد؟) وانتهت بالحكم بتزويج الغلام بالجارية ، والإنفاق عليهما من هذا الذهب.

ولا ريب أن الصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا يستمعون إلى تلك القصة، ويتتبعون مجريات الحديث فيها؛ لأنها تكشف- من خلال الحوار- عن عفة الرجلين وتنزهما عما هو مشتبه في حرمته وقد استهدف النبي- صلى الله عليه وسلم- من هذه القصة توجيه الصحابة والمسلمين من بعدهم إلى الورع، والبعد عما فيه شبهة؛ صوناً لأنفسهم من الانسياق وراء الشهوات حتى لا تدفعهم إلى الوقوع في الحرام. ولو ساق النبي- صلى الله عليه وسلم- الحديث في صورة الأمر المباشر كأن يقول: ابتعدوا عما فيه شبهة الحرام حتى لا تقعوا في الحرام ، لما كان له هذا الوقع في نفوسهم، حيث تحاشى التصريح وآثر التلويح.

وعند الوقوف على اللطائف البلاغية يجد القارئ المتذوق قطوفا دانية منها: التنكير في قوله (رجل) للبائع والمشتري على حد سواء، والنكرة هنا مبهمة لم يعينها النبي الكريم بأي وصف، لكننا نفهم حالهما من خلال السياق، فهما رجلان اتصفا بالأمانة، ولذا فالتنكير

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، صحيح البخاري ٦/٤٠٩.

يعطي دلالة معينة من الصور والمعاني العميقة في تصور المستمعين وهم الصحابة- رضي الله عنهم- ولهم أن يتخيلوا ما شاءوا. وأما التعريف ففي قوله (الرجل الذي اشترى) ؛ فالرجل معرفاً بأل التي للجنس مرادا به واحد من أفراد الرجال ، وهو بهذه الصورة بمنزلة النكرة ؛ ولذلك اتبعه النبي- صلى الله عليه وسلم- بالوصف قصداً إلى تعيين أحد الرجلين، ليتميز عند الصحابة مراده- صلى الله عليه وسلم- و(عقاراً) جاءت نكرة مرة ، ومرة أخرى جاءت معرفة بالإضافة ؛ فالنكرة للإبهام حتى يتصورها السامع بصور شتى في نفسه ؛ فالعقار كما جاء في النهاية" هي الضيعة والنخل والأرض" [(١)] فقد تكون الضيعة المعروفة عند الناس في ذلك الزمن ، وقد تكون الأرض التي تكثر فيها زراعة النخيل، وجاءت معرفة، لتعيينها للمشتري، ومثلها جرة الذهب فيها من الإبهام ما يثري خيال المتلقين، فيتصورون امتلاءها بالذهب، وهذا الذهب قد يكون حلياً، وقد يكون نقوداً، ومهما يكن الذهب فهو محل إغراء لكلا الرجلين.

وتتراءى الدقة العجيبة في تقديم الكلمة أو تأخيرها، كما في قوله (خذ ذهبك مني) ولم يقل (خذ مني ذهبك) فقدم المفعول- وهو(ذهبك)- على الجار والمجرور- وهو(مني) ؛ لأن القضية المختلف فيها هي الذهب، فكان تقديم ما هو أهم وما هو محل إنكار، ولأنه ملك البائع فهو مختص به ؛ لذلك قدم المفعول على الجار والمجرور. ومثله قوله (اشتريت منك الأرض) و (لم أبتع منك الذهب) حيث قدم الجار والمجرور (منك) على المفعول (الأرض، الذهب) فـ(من) هنا لبيان جنس ما اشتراه الرجل من البائع، فالذي اشتراه كان الأرض المزروعة التي كانت ملكاً للبائع لذلك فهي خاصة به، فقدم الجار والمجرور لاختصاصه بالمفعول. و مثل هذه العلة تقدم شبه الظرف (لي) على المسند إليه في قوله (لي غلام) و (لي جارية) للدلالة على اختصاص المسند بالمسند إليه فكلاهما أب لغلام وجارية.

ومن الأساليب الجيدة في البلاغة العربية استخدام لفظ الجمع مكان لفظ المثنى في قوله (أنكحوا، أنفقوا) وكان حقه أن يقول(انكحا، أنفقا) وفيه نوع من الالتفات ؛ لأن الانكاح والإنفاق لا ينفرد به الرجلان بل يشاركهما فيه الغلام والجارية، وجاء الأمر هنا على جهة التوجيه والترغيب في زواج الغلام من الجارية لأن فيه البر والصلة والمعروف.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٢٣٥، باب العين مع القاف.

ويتضح في القصة بعض من الجمل قد بترت، في قوله (اشترى رجل من رجل) وهذا إيجاز بالحذف، كأنه قال: أراد رجل ممن كان قبلكم أن يشتري له عقاراً، فذهب إلى رجل يريد أن يبيعه عقاراً، فاشترى الرجل (المشتري) من صاحبه (البائع) العقار..) فلابد أولاً أن تقعد النية قبل العزم على الفعل، ولكن القصة جاءت مبتورة؛ لتعميق المعنى في وجدان الصحابة وتمكينه، وبالمقابل نجد إطناباً في الكلام في التكرار اللفظي للجملة (الرجل الذي اشترى العقار) وجاء لبيان القصة ، وتحديد أشخاصها للصحابة.

والاستفهام بالهمزة في قوله (ألكما ولد؟) مراد به حقيقته؛ فالحكم يريد معرفة وجود الولد لكل منهما والملحوظ حذف حرف الجواب من قول كل منهما إذا قال المشتري: لي غلام وقال البائع: لي جارية ولم يقل واحد منهما: نعم، وفي ذلك مسارعة إلى الجواب ، كأن كلاً منهما يتلهف لمعرفة ما سيقول الحكم في شأنهما، أو لعل كلاً منهما فهم مراده، وأنه سيوجههما إلى تزويج الجارية للغلام ففرحا به ، وسارع كلاهما بالجواب متجاوزاً حرف الجواب، وفي قوله (ألكما ولد) تغليب؛ حيث غلب اسم الولد على الغلام والجارية معاً، ولفظ الأولاد يطلق على الجنسين من الذكور والإناث ولكنه يغلب أكثر على الذكور.

وبالنسبة لترابط الجمل وصلتها ببعضها في تلاحم وانسجام لا مثيل له تتجلى بلاغة الوصل والفصل ، وقد فصلت جملة (إنما اشتريت منك الأرض...) عما قبلها (خذ ذهبك...)؛ لأن الأولى إنشائية لفظاً ومعنى، والثانية خبرية لفظاً ومعنى فبينهما كمال الانقطاع.

وقد وصلت جملة (ولم ابتع منك الذهب) بالواو مع ما قبلها (إنما اشتريت منك الأرض) للتوسط بين الكمالين؛ فكل منهما خبر في اللفظ والمعنى، والمسند إليه واحد فيهما، والمسند في إحداهما ضد الأخرى، وعلاقة الضدية نوع من المناسبة تتيح ربط الجملة بالأخرى. وكذا وصلت جملة (وقال الآخر: لي جارية) بالتي قبلها (قال أحدهما: لي غلام) عن طريق الواو للسبب نفسه فكل منهما خبرية لفظاً ومعنى، وبينهما مناسبة في أن كل منهما جواب عن سؤال الحكم: ألكما ولد؟. ووصلت جملتا (وأنفقوا على أنفسهما منه)، (تصدقا) بالتي قبلهما وهي (أنكحوا الغلام الجارية) للتوسط بين الكمالين، فكل من الجمل الثلاث إنشائية لفظاً ومعنى، والمسند إليه واحد فيها جميعاً، وبين المسند والمسند إليه في الثلاث مناسبة ؛ فالإنفاق والتصدق مترتب على تزويج الجارية للغلام.

وهكذا تترابط الجمل في الحديث الشريف ترابطاً عضوياً حين تقوى صلة الثانية بالأولى، ولفظياً حيث يوجد نوع من التغاير يتطلب ربطاً لفظياً من طريق الواو، والأول يسمى في عرف البلاغين فصلاً والثاني يسمى وصلاً.

وفي الجملتين (إنما اشتريت منك الأرض) قصر إفراد، حيث اعتقد البائع أن الأرض وما يكون بداخلها ملك خاص بالمشتري، وأنه باعها له بما فيها، لكن المشتري نفى هذا وأصر على أنه ما اشترى إلا الأرض ولا شيء غيرها، وهذا من قصر الصفة على الموصوف، ومثلها الجملتين (إنما بعتك الأرض وما فيها). (١)

---

(١) قصر الإفراد:" قصر قصد به الرد على من يعتقد ثبوت المقصور لكل من المقصور عليه أو بعض ما عداه، أو قل هو قصر قصد به الرد على من يعتقد الشركة". ينظر كتاب الإيضاح للقزويني ١/١٤.

ومن حوار الناس بعضهم مع بعض ما روي عن أبي هريرة- رضي الله عنه- :

عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود- عليهما السلام- ، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا . يرحمك الله ، هو ابنها، فقضى به للصغرى.[1]

كان حوار النبي- مع أصحابه- حواراً هادفاً، ويتجلى هذا الحوار الهادف من خلال عرض قصة من التاريخ القديم بطريقة مباشرة دون أن يكون للقصة أي مقدمات استهلالية، وبعيداً عن السرد الرتيب. وقد أضفى الحوار على القصة جواً من الحركة والنشاط الدائمين، وبعث في النفس النشوة والحيوية، ومن ثم الإصغاء إلى مجريات أحداثها، وخاصة بعدما تأزم الموقف، وأصبحت المرأتان تجادل كل منهما الأخرى لتنتزع الولد الذي لم يخطفه الذئب، وانتهى بهما الأمر إلى عرض القضية على سليمان، وقد ظهر الحق بتوفيق الله تعالى سليمان إليه.

ووصلت القصة إلى مرحلة تعرف عند أهل الفن بـ (العقدة) لكن هذه القصة كما يقول أحد الباحثين: "فيها عقدتان وحوار غني بالحيوية والإيحاء"[2] فالعقدة الأولى عندما تجادلتا في الولد والثانية عندما قضى داود بالولد للكبرى، فلم ترض المرأة الصغرى بحكم داود- عليه السلام.

وعندما ينظر القارئ إلى ألفاظ الحديث يجدها جزلة قوية توحي بانفعال كلتا المرأتين والمطالبة بالولد وعلو نبرة الحوار، لتصل به إلى درجة الجدل الذي يتغيا التغلب على الخصم وإن كان بعيداً عن منطق الحق.

والحديث الشريف له غاية يرمي إليها من خلال عرض هذه القصة وهي تريث القاضي، وعدم استعجال الأمور، والنظر إلى عواقبها، والتفكير السليم عند البت فيها، واستخدام العقل، والاستفادة من الأخطاء، والحذر من الوقوع فيها لاسيما عند إصدار حكم يترتب عليه ضياع حق، أو إلحاق ضرر بالغ الأثر في حياة فرد (ما)، فهذه القصة تبرز حكمة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/٣٨٢.

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي، د/محمد الصباغ، ٥٠٦.

سليمان- عليه السلام- عندما لم ترض إحدى المرأتين بحكم داود- عليه السلام- فهي متمثلة في إيهامه لهما بأنه سوف يشق الولد المتنازع فيه بالسكين إلى نصفين، يقول الطيبي" بطريق من الحيلة والملاطفة توصل سليمان- عليه السلام- إلى معرفة باطن القضية، وإنما أراد اختبار شفقتهما، لتتميز له الأم لا القطع حقيقة، فلما تميزت، حكم به للصغرى بإقرار من الكبرى لا بمجرد الشفقة"(١)

هذا هو المغزى أو الهدف الذي يرمي إليه النبي- صلى الله عليه وسلم- من عرض هذه القصة. وبالنظر في أسلوبها الذي صاغته عبقريته- صلى الله عليه وسلم- تتكشف الملامح البلاغية التي أحاول تبيانها فيما يلي:

في قول (امرأتان) جاءت المفردة دون وصف لها سوى قوله (معهما ابناهما) حيث حذف المسند وتقديره (تيسران)؛ لأنه ليس في ذكره فائدة بل يعرف السامعون هذا صراحة من خلال السياق، وأما التعريف في (الذئب) بـ (أل) فهي للجنس أي يقصد بها ذئب غير معين من الذئاب ، فالمعرف بها في معنى النكرة؛ ولذلك يوصف بالجملة مثل قوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني(٢)

وحذف المسند إليه في (فقضى به) دون ذكره للدلالة عليه من خلال السياق. ومما يلفت النظر أن ظرف الزمان (بينما) تقدم على المبتدأ (امرأتان) والخبر (تيسران) وهو متعلق بالفعل (تيسران) والأصل: كانت امرأتان تيسران معهما ابناهما فجاء الذئب- بينما هما تسيران- فذهب بابن إحداهما ، وتقدم لأنه لا يجوز الابتداء بنكرة إلا بمسوغ لها.

واستخدام النبي الكريم اسم الإشارة في (قالت هذه) للدلالة على أن المرأة كانت قريبة منها وفي صحبتها، وفي استخدام اسم الإشارة اختصار للقول دون الدخول في تفريعات لا طائل تحتها، وفي قوله (ابنك أنت) بيان لما ادعته من ذهاب الذئب بابنها؛ لتظفر هي بابن الأخرى، وقد أكدت هذا الادعاء بتكرار الضمير؛ حيث جاء الضمير المنفصل (أنت) تأكيداً للضمير المتصل علها تصل إلى ما تغيته من إيهام صاحبتها بأن الذئب ذهب بابنها.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١١/٣٦١٩.

(٢) البيت لعميرة بن جابر الحنفي، الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني ١/٢٤ .

ومجيء حرف الفاء في كل حدث من أحداث القصة، يدل على تتابعها بحيث جاء كل حدث يلي الذي بعده مباشرة.

ويتجلى الإيجاز في قوله (بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب..) ففي القصة اختصار لأحداثها، وبهذا الاختصار يتخيل السامع أن المرأتين كانتا تسيران معاً في الطريق وتحملان ابنيهما، وفجأة هجم الذئب على ابن إحداهما وهرب به، فتجادلتا في الابن الذي ظل مع إحداهما، فحين كان الجدال لا يجلب لهما أي نفع، قررتا الاحتكام إلى قاض عادل يفصل بينهما بالحق... الخ. وفي الجملتين مزاوجة بين مسير المرأتين وبين ذهاب الذئب بابن إحداهما وهي تعطي الكلام شيئاً من التنويع الذي يبعد عن النفس الرتابة والملل.

ويطالع القارئ من البلاغة النبوية ملمح خالب حيث يظهر السر البلاغي للفصل بين الجملتين الخبريتين (ائتوني بالسكين) (أشقه بينكما)؛ حيث جاءت الثانية استئنافاً بيانياً للأولى؛ لما تثيره الأولى من سؤال تقديره: ماذا تعمل بهما؟، فجاء قوله (أشقه بينكما) جواباً لهذا السؤال المقدر. فهو لم يطلب السكين إلا ليوهمهما بهذا الأمر، وهو شقه إلى نصفين. وثمة وجه آخر وهو أظهر من هذا الوجه هو أن الفصل لكمال الانقطاع؛ إذ الأولى إنشائية لفظاً ومعنى والثانية خبرية لفظاً ومعنى. والفصل في الجملتين (لا) (يرحمك الله)؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ إذ الجملة الأولى (لا) إنشائية لفظاً ومعنى، فهي جملة تحمل النهي الذي يقصد به الدعاء والتوسل إلى عدم الفعل، والأصل (لا تفعل) والثانية (يرحمك الله) خبرية لفظاً إنشائية معنى؛ حيث يقصد بها الدعاء له بالرحمة لقاء عدم الفعل، فهي جملة مستأنفة جيء بها تعليلاً لهذا النهي[(١)].

ويطالعنا القصر وما يحمله من دلالة معنوية، في قوله (إنما ذهب بابنك أنت) فهنا قصر وكان بـ (إنما) للتعريض بكذب المرأة التي ادعت الولد لها حيث أنها تعلم يقيناً أنه ابن

---

(١) هذه الصورة التعبيرية تشبه ما يسميه البلاغيون كمال الانقطاع مع الإيهام في مثل قولهم: (لا وعافاك الله)؛ فالأولى- وهي جملة (لا)- خبرية لفظاً ومعنى؛ إذ هي جواب لمن قال- مثلاً- : أشفي فلان من المرض؟، والتقدير: لم يشف من المرض، والثانية إنشائية معنى خبرية لفظاً ولكن الفصل بينهما يوهم أنها جملة واحدة يدعى بها على المخاطب، ولتفادي ذلك وجب الوصل بالواو والفرق بين الصورتين دقيق؛ ولهذا قد يقع بعض الباحثين في الخطأ لعدم إنعام النظر. ينظر: عروس الأفراح في شرح المفتاح للشيخ بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي عبد الكافي السبكي ،١ /٧٨، تحقيق، د/ خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

صاحبتها، وليس ابنها هي، فهي- إذاً- لا تجهل هذا، لكنها جحدته، لذا قصرت الجملة بإنما من قصر الصفة على الموصوف قصر أمومة الولد على أمه الحقيقية.

وهكذا تتراءى ملامح البلاغة النبوية في هذه الصورة الحوارية التي حملت طابع القصة. وقد ذكرها النبي- صلى الله عليه وسلم- لأصحابه بياناً لما ينبغي أن يكون عليه القاضي من الفطنة في استنباط الحق، وهذا ما فهمه أهل العلم من سياق هذه القصة. يقول ابن القيم: " الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الأمارات ودلائل الحال...ضيع الحقوق. فههنا فقهان لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الوقائع وأحوال الناس يميز به بين الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ومن له ذوق في الشريعة، وإطلاع على كمالها، وعدلها، وسعتها، ومصلحتها، وأن الخلق لا صلاح لهم بدونها- البتة- علم أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها، ووضعها مواضعها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة؛ فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علما، وخفيت على من خفيت عليه، ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل، هو ابنها فقضى به للصغرى؛ لما دل عليه اقتناعهما من رحمة الأم ، ودل رضا الكبرى على الاسترواح إلى التأسي بمساواتها في فقد الولد".[(١)] وهو بيان بالإيحاء والتلميح؛ إذ يفهم من سياق عرض القصة، والتعريض بهذا الأسلوب الذي يشمل قصة أو رسالة أمر يعرفه المتذوق العربي الذي يلمح من العمل الأدبي غاياته ومراميه، ويبدو أن النبي- صلى الله عليه وسلم- شق هذه الطرق التي سلكها البلغاء من بعده، كالذي كان من عمرو بن مسعدة الكاتب حين كتب رسالة يستشفع بها لمن طلب منه أن يكون عوناً له لدى المأمون للحصول على عمل. يقول أبو هلال: " ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون: أما بعد، فلقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطوّل عليه في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفع

---

(١) بدائع الفوائد، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ج٣، ص١١٧، دار الفكر، بيروت، د- ت.

بهم، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام.[1]" والذي عرض به الكاتب ولم يصرح به بل يفهم من سياق الرسالة أن يجعله المأمون من جملة الوجهاء في دولته الذين يستشفع بهم إليه عامة الناس، وهذا ما فهمه المأمون من تلك الرسالة؛ ولذلك ذيلها بتوقيع قال فيه: قد عرفنا تصريحك له، وتعريضك بنفسك، وأجبناك إليهما، وأوقفناك عليهما".[2] ومن كل ذلك تدرك البلاغة النبوية التي تستهدف غاية تتراءى خلف قصة مروية، كانت وقائعها في عصر داود وسليمان صلوات الله عليهما وعلى رسل الله أجمعين.

---

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ص ٣٦٨ لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سعل العسكري، تحقيق علي محمد الجاوي، فاطمة محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٢) المصدر نفسه. ص٣٦٨.

ومن حوار الناس بعضهم البعض ما روي عن أبي هريرة- رضي الله عنه- :

عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (بينما رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلانٍ. فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له :يا عبد الله، لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني انظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأود فيها ثلثه)[١].

ابتدأ النبي الكريم هذه القصة القصيرة بقوله (بينا رجل بفلاة) وهذا التمهيد يأخذ بعدا خاصا ؛ لأنه مشوق للسامعين وهم الصحابة- رضي الله عنهم- الذين استثارهم هذا التمهيد فشرعوا يترقبون هذا الرجل وما كان من شأنه وهنا أخذ النبي- صلى الله عليه وسلم- يسرد عليهم أحداث تلك القصة المثيرة التي عاشها رجل كان يتصدق على ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين، وتتمثل تلك الأحداث في حوار دار بين شخصيتين- هما كل شخوصها- أحدهما الذي كان يمشي في الفلاة، والآخر الذي كان يحول الماء بمسحاته ليسقي حديقته، وبين هاتين الشخصيتين جرى حوار بسيط، أفضى في النهاية إلى إجابة لسؤال محير، كان له أسبابه ودواعيه، وكانت هاتان الشخصيتان بارزتين بشكل ملموس في القصة، وقد تضاف إليهما شخصية الملك، الذي نادي صاحبه بسقاية حديقة الرجل، وإن كان شخصية ثانوية برزت في البداية استهلالاً للقصة، إلا أنها لم تكن مثل سابقتيها من حيث البروز والوضوح. ومن حيث تصاعد الأحداث وتتابعها والوصول بها إلى نهاية القصة كان الكشف عن مكنون سرها ومغزاها.

وهذه القصة عجيبة غريبة، وسر غرابتها هو ما تملك هذا الرجل من الغرابة والدهشة حين ترامى إلى سمعه صوت لم يعهد مثله من قبل، إنه صوت منبعث من سحابة يأمر السحاب بسقي حديقة شخص معين باسه الخاص به. مثل هذا الأمر بسقي حديقة المسمى بالاسم الذي وعاه سمع الماشي في الصحراء هو ما يمسى في عرف أهل الفن بتصاعد الحدث حتى يصل إلى ذروة التعقد ، فمن ذلك الرجل؟ وماذا يقوم به من عمل يستدعي أن يساق السحاب إلى حيث

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٤٠٩.

حديقته لينزل ماءه، ويسقيها؟ وحيث وصل الحديث إلى تلك الذروة بدأت مرحلة الكشف فلم يمض الرجل في مشيه إلا قليلاً حتى رأى رجلاً يحول الماء بمسحاته فبادره بالسؤال وبه كان الحوار:

الماشي: يا عبد الله ما اسمك؟

صاحب الحديقة: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة.

صاحب الحديقة: يا عبد الله؛ لم تسألني عن اسمي؟

الماشي في الصحراء: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان (لاسمك) فما تصنع فيها؟

صاحب الحديقة: أما إذ قلت هذا....الخ.

أرأيت كيف بدأ الحدث ثم تطور إلى المرحلة التي وصل فيها إلى الذروة، لقد بدأ بسماع الصوت في السحابة يأمر بسقي الحديقة، وما إن انتهى الصوت حتى بدأ السحاب يفرغ ماءه في حرة، ثم شرع الماء يتجمع في شرجة من شراج تلك الحرة، وهنا بدأ صاحب الحديقة يحول الماء بمسحاته.

لقد كان ذلك المشهد سبباً في جعل الرجل يسأل نفسه ما هذا الذي أسمع وأرى؟ ولم خص هذا الرجل الذي سمع اسمه بتلك المكرمة؟ ألخصائصه الذاتية أم سلوكه وعمله استحق أن تؤمر السحب بسقي حديقته؟ ليتني أعرف هذا الرجل لأعرف فضله، وأقف على جلية أمره.

ولم تطل به المساحة الزمنية التي داهمته فيها تلك الهواجس، لقد رأى رجلاً يحول الماء بمسحاته، ولم يكن بد من أن يسأله عن اسمه، فمن الجائز أن يكون هو فسأله، وأجاب الرجل مبيناً اسمه ، فإذا هو الذي سمعه من صوت السحابة ويكشف صاحب الحديقة سر فضل الله عليه بعد أن سأل عن سبب السؤال عن اسمه، إنها النفقة على الضعفاء من عباده، وهنا تدرك الحقيقة، ويزول الاستغراب، وتؤدي القصة غرضها وترغب في الصدقة دون أمر صريح بها، فأي تكريم للمنفق ذلك الاختصاص بالعطاء، ولا عجب فقد قال الله لعبده: انفق، انفق عليك.

وبالنظر إلى النواحي البلاغية في هذا الحديث الشريف يتجلى الحذف في المسند والمسند إليه كما في (بينا رجل بفلاة) ؛ حيث حذف المسند "يمشي" والتقدير: رجل يمشي بفلاة من

الأرض، وحذف مرة أخرى المسند إليه في (فسمع صوتاً) والتقدير: فسمع الرجل الماشي صوتاً، وحذفا للدلالة عليهما من خلال السياق، وما دام السامع يعرفهما فلا داعي لذكرهما.

والكلمات في (رجل، فلاة، سحابة، صوتاً) كلها نكرات لم يحددها الرسول- صلى الله عليه وسلم- بوصف معين؛ حتى يتسنى للسامعين وهم- الصحابة- تحديد معناها في خيالهم ووجدانهم على اختلاف تصورهم لها، فالرجل جاء نكرة لبيان حالة هذا الرجل الماشي في الفلاة، حيث كان يمشي بمفرده في شأن من شؤون حياته. و تنكير الفلاة لتعينها ببقعة صغيرة وبمساحة محددة من الأرض، فهي ليست واسعة بل كانت محدودة كما يشير إلى ذلك الحرف"من" التي تدل على التبعيض، أي جزءٌ من تلك الأرض سار فيها، ومثلها (سحابة) يدل التنكير فيها على سحابة واحدة اقتصر النداء فيها على الأمر بسقي حديقة رجل معين باسمه، وهذه السحابة اجتمع فيها الماء، وتكوَّن فيها دون غيرها، والتنكير في"صوتاً" يدل على ارتفاعه، وسماع صداه في تلك البقعة الطيبة من الأرض، ولو لم يكن كذلك لما سمعه الرجل الماشي، ولما استغرب من هذا الحدث الغريب الذي ينـدر حدوثه، أو قد لا يمكن أن يكون، لكن الله- تعالى- قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد استخدمت (إذا) الفجائية في قوله (فإذا شرجة..، فإذا رجل) لاختصاصها بالاسم" شرجة، رجل" فهي تدل على الحالة التي كانت عليها تلك الشرجة من حيث امتلاؤها بالماء واستقراره فيها ، وتدل على حال الرجل القائم بشؤون حديقته يحول الماء بمسحاته، وبهذا قال ابن هشام: " تكون (إذا) للمفاجأة، فتختص بالجمل الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال لا الاستقبال.[1]".

ويلحظ استخدام النبي الكريم للفظ الإشارة (ذلك) الدال على البعيد وعزوفه عن لفظ الإشارة (هذا) الدال على القريب، فهو يوحي ببركة ذلك السحاب وعظمة ما يحمله من الخير العظيم الذي ينشأ عن ارتواء الزرع، واستفادة صاحبه من هذه النعمة الجليلة.

وكذلك يتراءى الإيجاز والاختصار لمفردات القصة، فهناك كم من الكلمات التي قد اختصرت واقتضبت، وهي توحي للسامع بمزيد التفكر والتأمل، وتفسح المجال لخياله فيتخيل كل فرد ما شاء الله له من الصور والمعاني، كل حسب عطاء خياله، واتساع أفقه، وامتداد

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب للإمام ابن هشام الأنصاري ١/١٠٢.

تصوره. فلو كان الكلام مطنباً لقيل: بينما كان رجل يمشي منفرداً في فلاة من الأرض إذا به يسمع صوتاً منبعثاً من سحابة قريبة منه وكان هذا الصوت ملك يأمر صاحبه بسقي حديقة رجل محسن إلى الفقراء والمساكين...الخ. لكن جاء كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- موجزاً فيه من عمق المعنى ما يدل على جوامع كلمه- صلى الله عليه وسلم- .

وقد اختار النبي- صلى الله عليه وسلم- سوق القصة على هذا النحو من الإيجاز؛ حتى يقرر في نفوس الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مكانة المنفق عند الله- عز وجل- وأن الله يضاعف له الأجر بصورة يسهل استيعابها، مشيراً بذلك إلى قوله تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [1] وبذلك يستشعرون فضل الصدقة، وما لها من ثواب فيتصدقون من تلقاء أنفسهم، دون أن يواجهوا بالأمر الصريح بها، وكان هذا الأسلوب راقياً ومهذبا في تعامل النبي- صلى الله عليه وسلم- مع الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين- ؛ لأنه يأمر السامع بطريقة غير مباشرة فيمتثل للأمر بلا استعلاء عليه، أو إلزام له.

وتبدو روعة التوكيد في قوله (فإني سمعت..)؛ فالرجل الماشي حين يخبر صاحب الأرض بما رآه وسمعه لم يكن شاكاً في الخبر، لكنه من شدة استغرابه ودهشته، إذ أنه لم يعهد مثل ما رآه وسمعه في حياته أكد ذلك ليس شاكاً فيما أخبر صاحبه به بل لما سمع ما سمع شعر بعظمة ما يقال له، فتملكته مشاعر لم يستطع وصفها؛ لأن الله قد أكرمه بهذه المكرمة دون غيره، فأكد خبره للرجل بأن والفعل الماضي الدال على الثبوت، من فرط امتنانه لله- عز وجل- وهذا من باب إنزال العالم بالشيء منزلة الجاهل به، وقد يكون التأكيد هنا نابعاً من نظر المتكلم إلى حال نفسه وانفعاله بالمعنى الذي يريد، وحرصه على أن يتقرر في نفس مخاطبه كما أحسه هو. يقول أحد الباحثين: "وهناك ضروب من التأكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، هذا اللون كثير جداً، وله مذاقات حسنة" [2]".

واستخدم النبي- صلى الله عليه وسلم- "أما" في قوله (إذا قلت هذا..) فهي تشد انتباه الرجل الماشي على فضل الصدقة وفضل صاحبها، وهو من باب التأكيد على فعل الخير

---

(١) سورة البقرة آية (٢٦١).

(٢) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ٥٧.

والاجتهاد فيه ؛ لأن فيه المضاعفة للأجر، فلم لا يشمر عن ساعده؟ ، ويجتهد ويكون من المحسنين؟ ، وقد أشار إلى ما أخبر به بقوله (هذا) ؛ للدلالة على عظم هذا القول، وأنه لم يأت من فراغ بل كان محل اهتمام الرجل ومن دواعي دهشته واستغرابه ، ومن مراعاته لمشاعر صاحبه الذي احتار في أمره، وأخذت تدور في رأسه أسئلة كثيرة متشعبة، أشار إليه بلفظ الإشارة للقريب.

وأسند الفعل (يخرج) وهو- المسند- إلى ضمير الموصول (ما)- وهو المسند إليه- حيث قدم المسند إليه على المسند لتخصيص ما يخرج من الأرض بمن يتصدق عليهم، وله ولعياله، ولمن يودهم من أصدقائه ؛ ولذا جاء لفظ (منها) لبيان جنس ما يخرج من الأرض من ثمار، ولكونها لبيان الجنس هو ما بينه ابن هشام حيث يقول: "تأتي (من) لبيان الجنس، وكثيراً ما تقع بعد (ما) و (مهما)" [1].

ولدقة المعنى وخفاء أسراره وصل النبي- صلى الله عليه وسلم- جملة (فأتصدق) بالفاء وفيه من الحسن ما يدل على صفاء عباراته- صلى الله عليه وسلم- وسلاستها حيث تدل الفاء على الترتيب والتعقيب، فإنه يتمهل وينتظر متى يحصد ثمار الحديقة، فبمجرد ظهورها واستوائها على سوقها يسارع بالتصدق بها للفقراء والمساكين وكل محتاج لتلك الثمار الطيبة، فالفاء توحي بهذا المعنى العظيم وبما اتسم به الرجل من خلق نبيل. ووصل الجملتين (وآكل..) و (وأود..) بالواو ؛ لأن الوصل يدل إما على المغايرة أو التشريك، فجاءت الجملتان هنا للتشريك في الحكم ؛ فهذا الرجل يتصدق على أهله وعلى أصدقائه كل على حد سواء ، عامله معاملة واحدة.

ومن صور البيان المجاز العقلي في قوله (اسق حديقة فلان) ؛ فالملك ليس هو من يسقي حديقة الرجل بل الله سبحانه هو الساقي لها وإنما كان الملك سببا في سقي تلك الحديقة ، ويفهم هذا من سياق الكلام، وفي "تنحى" استعارة مكنية حيث جعل السحاب وهو المشبه كأنه رجل يقصد مكانا آخر، وقد أتى بشيء من لوازم المشبه به وهو القصد والتنحي عن الشيء إلى غيره، وفي "استوعبت" أيضاً استعارة مكنية فالشرجة وهي مسائل الماء في الحرار، قد امتلأت بالماء واستقر فيها والذي يؤكد هذا قوله "كله" ولذلك جعلها بمثابة الكائن الحي الذي يستقر في جوفه الشيء من الطعام أو الشراب.

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب للإمام ابن هشام الأنصاري ٣٤٩/١.

ومن حوار الناس مع بعضهم البعض ما روي عن أبي سعيد- رضي الله عنه- :

عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (أن رجلاً كان قبلكم، رغسه الله مالاً، فقال لبنيه لما حضر: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط، فإذا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرّوني في يوم عاصف، ففعلوا، فجمعه الله- عز وجل- فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته.)[1]

بدأ النبي- صلى الله عليه وسلم- هذه القصة بتمهيد لها، افتتح به مجريات أحداثها، وبه جذب انتباه الصحابة- رضي الله عنهم- لسماعها للنهاية، في ترقب لما سيكون، وبعد أن يكون؛ لأنها بدأت بالمشكلة مباشرة (العقدة) التي من خلالها تصاعدت الأحداث بسرعة خاطفة، وذلك عندما حانت وفاة الرجل وأحس بدنو أجله، ولم يكن هناك بدّ من الوصية لأبنائه، وهذا شعور الغافل عن ربه، واللاهي في حياته، شعور بالخوف والوجل، وسوء المصير، لم يهنأ بالعيش الرغيد، والمال الكثير، والأبناء، وكل تلك النعم التي حباه الله بها لم تكن وسيلة للراحة والسعادة.

هذا الرجل لم يدخر لآخرته عملاً صالحاً ينفعه يوم الحساب والجزاء، وإحساسه بتأنيب الضمير والحسرة جعله يوصي أبناءه بوصية غريبة تدل على قلة حيلته، وشدة كربته حين وصاهم بحرقه بالنار، وبعد ذلك سحق عظامه وذروها في الرياح في يوم عاصف شديد، ولما استمعوا للوصية كان لابد لهم من تنفيذها وإن كان في نظرهم خير أب، لكن شعورهم تجاهه شعور كل ابن مع والده شعور بالأسى لحاله والحزن على فراقه بل كأن في فعلهم بأبيهم ما يرقق قلوبهم نحوه فتأبي وتمانع، ولكن لابد من ذلك، لربما ترتاح نفسه ولعله عند لقاء ربه وسؤاله عن سبب ذلك يقول فعلت ذلك راغماً خوفاً من عذابك وطمعاً في مرضاتك، لعله تعالى يغفر له ذنبه، ويتجاوز عنه وهو تعالى أهل لذلك كله، كيف وقد تلقاه تعالى بواسع رحمته وغفر له زلاته وسيئاته؟!.

وبالنظر لألفاظ الحوار فهي- مع قلتها- سهلة واضحة، وتحمل في طياتها المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وكان الحوار في الحديث لطيفاً هادئاً كما يتضح ذلك في حواره تعالى مع الرجل في قوله (ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته.).

---

(١) صحيح البخاري٢/١٠٨١.

وبالنظر للخصائص البلاغية في هذا الحديث فإنها تتجلى في المفردة وسر إيثار النبي- صلى الله عليه وسلم- لها دون غيرها في قوله (رغسه) فالرغس كما جاء في القاموس: "هو النعمة ، والخير ، والبركة ، والنماء ، وأرغسه الله مالاً أكثر له ، وبارك فيه.[1]" فهي تصور مدى الخير العظيم الذي أنعمه الله تعالى ، وهي أبلغ في تأدية المعنى المراد في نفس الرسول- صلى الله عليه وسلم- من أي كلمة أخرى.

ومن خلال التنكير والتعريف يرى المتأمل لمفردات الحديث الشريف التنكير في كلمة (رجلاً ، مالاً) والنكرة هنا تعطي صوراً من هذا النعيم الذي تمتع به هذا الرجل فهو رجل غني وغناه كان في المال الكثير والأولاد وغيرها من النعم التي يرفل في كنف عيش واسع بين بنيه وأهله. والنكرة أيضاً في (خيراً) تدل على أنه لم يعمل شيئاً قليلاً من الأعمال الصالحة ، لعلها تخفف عنه شيئاً يسيراً من العذاب. وكذا النكرة في (خير أب) جاءت النكرة موصوفة[2]؛ والعلة البلاغية من ذكرها بهذا الوصف للاختصاص ، فهو موصوف بهذا الوصف للمبالغة فيه ، ولأنه في مقام يوشك فيه أن يفارقهم ، فبالغوا في ذكره بأحسن وصف فهو أب لم يبخل عليهم بشيء فاعتبروه في نظرهم (خير أب) من باب التخفيف عن أبيهم في مصابه الجلل.

ويلحظ كذلك في قوله (فإني لم أعمل خيراً قط) تأكيد الخبر بإن والفعل المنفي (لم أعمل) وكلمة (قط) وكان أمر أبيهم خافياً عليهم حين وصفوه بأنه خير أب لكنه نفى ذلك وقال ما قال ليخبرهم أن ما اعتقدوه في نفوسهم ليس صحيحاً لذا نزل الرجل أبناءه منزلة من يبالغ في اعتقاد شيء ويأتي ما ينفيه لأنهم لن يكونوا إلا بمثابة من ينكره بعد ذلك.

والإيجاز بالحذف بارز في بعض مفردات الحديث كما هو الحال في قوله (فقال لبنيه لما حضر) أي: لما حضره الموت حيث حذف المسند إليه ، والحذف في قوله (فجمعه الله) أي: جمع الله جسده ، فقد حذف المفعول به ، والحذف في قوله (ما حملك)أي: أيُّ شيء حملك

---

(١) القاموس المحيط، للفيروز آبادي ٧٠٧، باب السين فصل الراء ٦٦٩/١، وينظر ترتيب مختار الصحاح للرازي،٣١١، وينظر النهاية في غريب الحديث و الأثر باب الراء مع الغين ١/٦٦٩.

(٢) قال ابن هشام" :إن النكرة لا يبتدأ بها إلا إذا عمت أو خصت فمن أمثلة الخصوص أن تكون موصوفة إما بصفة مذكورة نحو (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) سورة البقرة آية٢٢١، أو بصفة مقدرة، كقولهم: السمن منوان بدرهم ؛ فالسمن: مبتدأ أول، ومنوان: مبتدأ ثان، وبدرهم: خبره، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، والمسوغ للابتداء بمنوان، أنه موصوف بصفة مقدرة: أي منوان منه. "شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، ١٧٥، تحقيق وتعليق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت،١٩٩٢م.

على هذه الوصية ، والحذف في قوله (مخافتك)أي : حملتني مخافتك ، فقد حذف المسند ، وكل هذا الحذف جاء للاختصار في القول ؛ لأن المخاطبين- وهم الصحابة- يدركون ما سوف يكون دون الخوض في تفاصيل لا تجلب إلا السآمة والملل[1]. وكما تمثل الإيجاز في الحذف تمثل أيضاً في المجاز العقلي ؛ فإنه لون من طي القول وتقصيره ؛ فقوله- صلى الله عليه وسلم- (في يوم عاصف) أو جز من أن يقال : في يوم ريحه عاصف حيث يسند العصف إلى زمانه وهو لفظ يوم ؛ لأن العقل يرد فعل ذلك إلى الريح التي تفرقه.[2]

ومن صور البيان في هذا الحديث ما كان في قول الرجل وهو يجيب عن سؤال الله تعالى في وجل : (مخافتك) ؛ فشبه المخافة بالإنسان الذي يحمل الشيء ويدفع إليه فحذف المشبه به وأتى بشيء من لوازمه وهو (الحمل) على سبيل الاستعارة المكنية وهذه الصورة تجعل المعنى في غاية القوة.

والمجال يتسع لمن أراد تذوق الجمل والعبارات ، واستطاع اكتشاف الدرر المكنونة من بلاغته- صلى الله عليه وسلم- .

---

(١) ينظر عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري، ٦٦/٦١، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د- ت.

(٢) معنى ذرا: يقال: ذرته الريح وأذرته تذريه إذا أطارته ومنه تذرية الطعام. "النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير باب الدال مع الراء ٦٠٤/١.

الخاتمة

الخاتمة

حاولت في هذا البحث المتواضع أن أضع بين يدي القارئ المتذوق نمطا من أنماط بيانه- صلى الله عليه وسلم- ليتجول بنظرته النقدية الثاقبة، وحسه الأدبي المرهف في هذا الروض المونق من رياض كلامه- صلى الله عليه وسلم- وهذا النمط يتمثل في ظاهرة الحوار؛ ليقف القارئ على سر إيثار النبي- صلى الله عليه وسلم- له، إذ يوقظ ما في الذهن، ويفتح الطريق إلى أعماق القلب، ويثير كوامن الوجدان وهنا يدرك سحر البيان الذي قرره- صلى الله عليه وسلم- بقوله (إن من البيان لسحرا) [(١)] وعرضت أمام القارئ- في هذا البحث- بابين؛ الأول : حوار المشافهة تمثل في ثلاثة فصول ؛ وكان الفصل الأول خاصا بالصحابة الذين لم يكونوا يفارقونه لحظة واحدة وهم أكثر من حاورهم النبي- صلى الله عليه وسلم- مشافهة، وقد اتخذ الحوار أربعة مناح تلخصت في توثيق عرى الإيمان في نفوسهم؛ إيمانهم بالله- عز وجل- وترسيخ أصول هذا الإيمان بما لا يدع مجالا للشك فيه، فيظل الإقناع والرضا أهم ثوابت الخطاب النبوي. ثم يأتي التأكيد على جانب العبادة مشتملة أركان الإسلام التي هي العماد والأساس الذي يقوم عليه صرحه، ثم ما يتفرع عنها من نوافل رغب فيها النبي الكريم.

وانفرد الجهاد بمبحث خاص- وإن كان من أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد بإخلاص وصدق لمولاه- ؛ لما فيه من المشقة ، وإكراه النفس على الموت في سبيل الله تعالى؛ لنيل الشهادة والفوز بجنة عرضها السموات والأرض ، ومن ثم كان جديرا بأن يذكر وحده بمبحث مستقل يبرز أهميته ومكانته في إعلاء الحق، والمنافحة عن الدين بالمال ، والأهل ، والنفس. ثم أفردت مبحثا ثالثا يختص بالعلاقات بنوعيها الاجتماعي والإنساني لما في أحاديثه من تأثير ملموس في نفوس الصحابة قد ينحو منحى اجتماعيا لتقويم السلوك في حياتهم العامة والخاصة، أو منحى إنسانيا يعزز الأثر الوجداني، والاتجاه الإنساني، ويكثف مشاعر الرحمة، والعطف، والحنان، وكل ما من شأنه أن يكسر جبروت وكبرياء النفوس، فتعود إلى كنف المجتمع متآزرة، ومستظلة بوارف ظلاله.

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٦٥٧.

أما الفصل الثاني فهو حواره مع زوجاته وشمل مبحثين ؛ الأول: علاقاته الأسرية مع زوجاته- صلى الله عليه وسلم- وكل ما يدور في جو أسري يتعلق بالزوجة المثالية التي هي مطلب وغاية كل رجل صالح مؤمن، والثاني: علاقاته الاجتماعية والإنسانية لتكون أمهات المؤمنين المثل الأعلى فيما يتصل بشؤون حياتهم الاجتماعية أو الإنسانية.

وقد اتسم الحوار في هذين الفصلين بالهدوء واللطف إلا ما كان في بعض المواقف التي تحتاج إلى علو النبرة؛ إيقاظا لمشاعر النبل والمروءة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم أو المسلمة.

والفصل الثالث والأخير كان حوارا مع الطارئين على المدينة آنذاك، وتنوع إلى ثلاثة مباحث تلخصت في حواره مع الملائكة- خاصة- مع جبريل- عليه السلام- وكان متوجا بإكرام المنزلة، ولطف المعاملة، وحواره مع الوفود القادمين إليه من كل مكان قاصدين إعلان انضمامهم إلى حظيرة الإسلام، والتعرف على ما يجب عليهم نحو خالقهم، ونحو بني جنسهم. ثم حواره مع الأعراب القادمين من البادية وكان في حواره مع هؤلاء وأولئك حليماً، وهادئاً بالرغم مما كان من بعض الأعراب من جفاء، وخشونة طبع في معاملتهم له.

أما الباب الثاني فاختص بحوار الرواية واشتمل على فصلين؛ تناول الأول منه الحوار في الملأ الأعلى، وهو كذلك اشتمل على مبحثين؛ الأول الحوار مع الملائكة المكرمين، والثاني الحوار مع الجنة والنار وأهلهما، وحوار الرب- تبارك وتعالى- مع ملائكته، أو جنته وناره، أو حواره مع العصاة والمذنبين تتجلى فيه المهابة والجلال، مما يبعث على خشية الله، والخوف من عقابه ومراقبته في السر والعلن، وإخلاص القول له والعمل، واكتسب هذه المهابة من كونه حواراً في الملأ الأعلى مع الله أو ملائكته.

والفصل الثاني تناول الحوار على الأرض، وشمل مبحثين هما حوار الملائكة مع الناس، وحوار الناس مع بعضهم البعض. والحوار على الأرض مختلف تماما عن الحوار في الملأ الأعلى؛ لأن الحوار مع الملائكة كان لامتحان المواقف الإنسانية، والنفوس البشرية، وتمحيص أهل الخير من الشر، ومجازاتهم على أفعالهم، فتنوع تبعا للمحاور الذي تجري الملائكة معه الحوار شدة ولينا، ولما كان الحوار بين الناس بعضهم البعض يدعو للألفة والمحبة ظهر عليه طابع اللطف والهدوء، وإثارة المشاعر الإنسانية الباعثة على الصلاح، والاستقامة على أقوم السبل.

وتبين – من خلال هذه الدراسة- ما يلي:

١ - يبدو حوار المشافهة في أكثره خالياً من القصة، وذلك حين يتعلق بعرض الأغراض التي تشغل بال فرد (ما) فيأتي ليطرح مشكلته على الرسول- صلى الله عليه وسلم- ليقرر ما يلائم هذا الغرض مما يتفق وشريعة الإسلام كالشاب الذي جاء إليه ليطلب منه أن يحل له الزنا: حيث قال له: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم أتحبه لابنتك؟ قال: لا...) [١] الخ. وقد يتضمن حوار المشافهة قصة قصيرة، وذلك حين يريد- صلى الله عليه وسلم- أن يثير لدى أصحابه سؤالا؛ ليجيبهم عنه كقوله (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش...) فهو هنا يعرض قصة الرجل مع الكلب الذي بلغ من العطش مبلغا عظيما، فرقَّ له الرجل ونزل إلى البئر، فملأ خفه وسقاه؛ ليدفع الصحابة إلى التساؤل بقولهم (وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟!) فأجابهم (في كل كبد رطبة أجر) [٢]

٢ - يكثر في حوار الرواية إيراده في صورة قصة؛ وذلك إذا استهدف النبي- صلى الله عليه وسلم- من سوقها الموعظة بصورة غير مباشرة؛ ويتجلى ذلك في قصة الأبرص، والأقرع، والأعمى حين جاءهم الملك، وسأل كلا منهم عما يؤذيه في المجتمع، وما يتطلع إليه، فلما دعا لكل منهم بالبرء من علته، وتحقيق أمله، وعاد ليختبرهم بعد أن أنعم الله عليهم، جحد الأبرص والأقرع نعمة الله وبخل، فدعا الله عليهما ليعود إلى ما كانا عليه، فكان ذلك، واعترف الأعمى بنعمة الله عليه فشكرها ولم يبخل ، فدعا الله له بالبركة ، فكان ذلك. وأمثال هذه القصة في حوار الرواية كثيرة.

٣ - في حوار الرواية قد يصدر الحوار من طرف واحد، فيحاور ذلك الطرف نفسه ومن ذلك حوار الرجل حين سقى الكلب اللاهث.

٤ - قد تعلو نبرة الحوار حينا ويشتد ويتراءى الموقف مهيبا، كقوله لأبي ذر عندما عير أحد الصحابة بأمه (أسابيت فلانا؟) فقال: نعم، قال: أفنت من أمه؟) فقال: نعم قال:

---

(١) علق عليه شعيب الأرنؤوط وقال: "إسناده صحيح ورجاله ثقات هم رجال الصحيح. "مسند أحمد بن حنبل ٥/٣٥٦.

(٢) صحيح مسلم. ٥/٤٠١- ٤٠٢.

(إنك امرؤ فيك جاهلية.) [1] وتنخفض نبرته حينا ويلين، ويتراءى الموقف لطيفا عطوفا حسب الغرض الذي يتضمنه كقوله لعائشة (إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى..... [2]).

٥ - يتسم حوار المشافهة في أكثره بالإيجاز، أما حوار الرواية فيغلب عليه الإطناب، ويمثل الأول حواره- صلى الله عليه وسلم- مع الأعرابي الذي ولدت امرأته غلاما أسود، ويمثل الثاني حوار الرب مع الملائكة الطوافين يلتمسون حلق الذكر، وحوار الملك مع الأقرع والأعمى والأبرص.

٦ - تبدو اللفظة المفردة- مع وضوحها وسهولتها- أعظم ملائمة لموقعها بحيث لا يمكن أن يحل غيرها محلها مع الوفاء بالمعنى من حيث مادتها وصورتها اسما أو فعلا، مفردة أو غير مفردة، مشتقة أو جامدة، وما إلى ذلك من الصور التي تبدو عليها.

٧ - تبدو الجملة أحيانا مرسلة خالية من التأكيد، وأحيانا مؤكدة بمؤكد واحد أو أكثر، وهي في هذا وذاك قد تكون مطابقة لظاهر مقتضى الحال أو جارية على خلاف مقتضى الظاهر، وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله- صلى الله عليه وسلم- (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم..) [3] التأكيد- هنا- جار على خلاف مقتضى الظاهر لخلو أذهان الصحابة من مضمون الخبر، والغرض من التأكيد توثيق الخبر ليتلقى بالقبول لأول وهلة.

٨ - تبدو العبارة في الحوار قصيرة إلا ما كان الغرض منه الإجمال ثم التفصيل أو غير ذلك من صور الإطناب كالتكميل أو الاحتراس والتذييل، وليس ذلك هو الغالب وإن وجد بصورة واضحة في أحاديث الحوار.

٩ - تأتي الصورة في إطار التشبيه الضمني أو الاستعارة، فيكون لها من الروعة ما يشهد ببلاغته التي عرفت له- صلى الله عليه وسلم- ومن الأول قوله للأعرابي (هل لك

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٩٠٩.

(٢) صحيح البخاري ١٦٨١/٣.

(٣) المصدر السابق ٤/٢٠١٢.

من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟...الخ)[1]،
فقد شبه مجيء الغلام الأسود من زوج أبيض بمجيء الجمل الأورق من جمل أحمر، ومن الثاني قوله- صلى الله عليه وسلم- عن الرحم (خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال له: مه؟ قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة...الخ[2].)

١٠- تبدو ألوان البديع في حواره- صلى الله عليه وسلم- قليلة ولكنها في بيانه رائقة شفافة؛ لاقتضاء السياق إياها وكأنها سوار من ألماس على معصم الحسناء.

هذه خطوط عريضة تومئ إلى محتوى البحث ولكنها لا تفصح عن تفاصيله فتفاصيله كامنة في إطاريه ومحاوره.

وقد توصلت إلى ما يلي:

١ - قلة استخدام النبي- صلى الله عليه وسلم- لفن التورية.

٢ - من طرق الحوار استخدام النبي- صلى الله عليه وسلم- للتعريض في بعض الأحاديث كقوله (ما بال أقوام..) دون التصريح بالاسم تأدبا مع من يخاطبهم، وحملهم على امتثال أمره دون أن يجرح مشاعرهم، بالإضافة إلى الاستعارة والكناية.

٣ - من طرق الحوار تقديم النبي- صلى الله عليه وسلم- قصة قصيرة؛ ليثير بها الصحابة فيبادرونه بالسؤال، مثل (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش...) [3] فهو لا يكتفي فقط بإيراد القصة للعظة كما في بعض الأحاديث، بل يثير بذلك اهتمامهم حتى يسألوه، ويبين لهم بعد ذلك ما غمض أو يعقب عليها بعبارة بليغة.

٤ - تفسيره- صلى الله عليه وسلم- لبعض الألفاظ التي جاءت من قبل المجاز اللغوي، والإتيان بمعان أخرى مناقضة لما تعارف عليه الصحابة كالمفلس، الرقوب، الصرعة.

٥ - حواره- صلى الله عليه وسلم- كرسه لإقناع الناس بالدين الإسلامي، وإرساء عقيدته في نفوسهم وأغلب حواراته على هذه الشاكلة مع شيء من الإيجاز المكثف للمعاني بأسلوب سهل لكنه ممتنع عند غيره.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/٢٢٨٤.

(٢) صحيح البخاري ٣/١٥٣٣.

(٣) صحيح مسلم.٤٠١/٥- ٤٠٢.

٦ - نظرا لكثرة الأحاديث في الحوار النبوي فإني أوصي بدراسة البقية التي لم يسعني دراستها كحواره مع الكفار، وحواره مع اليهود ، ومعاهداته مع الملوك.

٧ - قد تتعدد الروايات للحديث الواحد لذا أوصي بنقلها من مصادرها الصحيحة تجنباً للخطأ أو الوضع.

وختاماً أرجو أني قد وفقت في تقديم باقة ناضرة من روض البيان النبوي تنال رضا القارئ المتذوق، وتملأ خانة في مكتبة البيان العربي، فإن كان الأمر كذلك فهو غاية المنى ، وإلا فحسبي أنني أخلصت القصد، وبذلت غاية الجهد، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الفهـــــــــارس

وفـــيـــه

١) فهرس الآيات القرآنية .

٢) فهرس الأحاديث.

٣) فهرس الموضوعات .

٤) فهرس المصادر والمراجع .

أولاً : فهرس الآيات القرآنية

الآيــــــــــــة	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾	الإخلاص: [١]	٦٥
﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾	المؤمنون: [١١٧]	٦٥
﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴿٣٥﴾ ﴾	فاطر: [٣٥]	٧٦
﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾	النساء [٢٣]	٨٦
﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴿١٢﴾ ﴾	الحجرات:[١٢]	٨٨
﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾	آل عمران: [١٨٥]	٩٦
﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴿١٠﴾ ﴾	الممتحنة:[١٠]	١٠٠
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴿٢١﴾ ﴾	الزمر:[٢١]	١٠٩
﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾	الأعراف [٢٧]	١١١
﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾	الواقعة:[٣٥ ــ ٣٦]	١١٩
﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾	النور: [٣٠]	١٢٢
﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴿٨٦﴾	النساء:[٨٦]	١٢٢
﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾	الحشر: [٩]	١٢٥
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾	الشورى [٥٢ــ٥٣]	١٢٧
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾	الإنسان: [٢٣]	١٣٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾	الحج: [٧٧]	١٣٥

الآيـــــــة	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴿١٤﴾ ﴾	الصف: [١٤]	١٣٥
﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾	المؤمنون:[١١ – ١٤]	١٣٨
﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾	القيامة: [٣١ – ٣٥]	١٣٨
﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾	النبأ:[١ – ٢]	١٤٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ ﴾	الأحزاب: [١]	١٤٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ ﴾	التحريم: [١]	١٤٧
﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾	التحريم: [٣]	١٥٦
﴿ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾	التوبة: [٤٠]	١٦٥
﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴿٣٢﴾ ﴾	ص: [٣٢]	١٦٧
﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾	البقرة:[١٨]	١٦٩
﴿ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ﴾	الأحزاب:[٢٨ – ٢٩]	١٧٤
﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴿٨٢﴾ ﴾	يوسف:[٨٢]	٢١٦
عَرَّفَ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ عَلَيۡهِ ﴾	البقرة [١٩٤]	٢١٧
﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴿٩٦﴾ ﴾	النحل: [٩٦]	٢١٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ ﴿١﴾ ﴾	الممتحنة [١]	٢٢٠
﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾	الضحى [١٠]	٢٢١
﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾	الأعراف: [١٩٩]	٢٣٤
﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ ﴿٣١﴾ ﴾	الرعد [٣١]	٢٣٥
﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾	التكوير: [٢٠]	٢٣٦
﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾	طه:[٧٨]	٢٣٦
﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴿٢٧﴾ ﴾	نوح:[٢٦ – ٢٧]	٢٣٨

الآيـــــــــــة	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾	الحجرات: [٩]	٢٥٨
﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ (٢٠) ﴾	فاطر: [١٩ – ٢٢]	٢٦٦
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ (٣) ﴾	الطلاق: [٣]	٢٦٨
﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ (٣٥) ﴾	محمد:[٣٥]	٢٦٨
﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النَّمْلِ ﴾	البقرة:[١٧٣]	٢٧٠
﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ (٢٤) ﴾	سبأ: [٢٤]	٢٧١
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) ﴾	النازعات:[٤٢ – ٤٣]	٢٧٤
﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ (١٧) ﴾	يوسف:[١٧]	٢٨٩
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ (٣٠) ﴾	البقرة: [٣٠]	٣٠٣
﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ (١٩) ﴾	الرعد:[١٩]	٣٠٤
﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ (٢٣٨) ﴾	البقرة:[٢٣٨]	٣٠٥
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾	النجم:[٣ – ٤]	٣١٠
﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾	البقرة: ٢٠٤	٣١٥
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾	الأحزاب: [٧٢]	٣٢٦
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾	النحل: [٧٨]	٣٢٧
﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) ﴾	الرحمن: [١٠]	٣٢٨
﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ (١٧٢) ﴾	الأعراف: [١٧٢]	٣٣٠
﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ (٧٥) ﴾	ص: [٧٥]	٣٣٦
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾	الإسراء:[٧٠]	٣٣٦
﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾	القصص: [٢٠]	٣٣٦

ثانياً : فهرس الأحاديث

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً / المصادر:

- المصادر الأساس في البحث:

١- القرآن الكريم.

٢- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت، د.ت.

٣- سنن ابن ماجه، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي د ــ ت..

٤- سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح ، حققه وصححه :عبد الرحمن محمد عثمان ،دار الفكر ، بيروت،د.ت.

٥- سنن النسائي ، بشرح الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ، بيروت،د.ت.

٦- صحيح البخاري بشرح النووي، مراجعة وضبط وفهرسة : الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري ، المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت، طبعة جديدة ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م.

٧- صحيح مسلم بشرح النووي ، تقديم وتقريظ وتعريف: أد/ وهبة الزحيلي ، المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت،ط١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م.

٨- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه ملخص شرح الإمام النووي مع زيادات عن أئمة اللغة خادم الكتاب والسنة : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ــ لبنان د ــ ت .

٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، علق عليه شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة د ــ ت.

- **المصادر في السنة وشروحها وتناولها فنياً: . .**

١- البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت ، ط٦ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.

٢- الجامع الصحيح للترمذي ،أبو عيسى الترمذي ،تحقيق / محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د ــ ت.

٣- الجامع الصغير وزياداته ، ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي د ــ ت.

٤- السيرة النبوية ، أبو الحسن الحسني الندوي ، دار الشروق ، جدة ط١١ ، ١٤١٦هـ.

٥- المجتبى من السنن ، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٦- صيد الخاطر لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، اعتنى به وعلــق عليــه خالد العواد، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٧- تفسير القرطبي المسمى بالجامع لأحكام القرآن للإمام محمد بن أحمد بن أبــي بكر القرطبي د ــ ت .
٨- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للإمام أبي زكريا يحيى بن شــرف النووي، قدم له الشيخ / عبد القادر الأرناؤوط ، حققه وخرج أحاديثه وعلــق عليه / يوسف علي بديوي ، شرح غريبه / رياض عبد الحميد مــراد ، دار ابن كثير ، دمشق ــ بيروت ، ط٢ ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٩- زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية ، مؤسســة دار الرســالة، بيروت ، ط١٥ [د ــ ت.
١٠- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للإمام محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني ، صححه وعلق عليه وخرج أحاديثه / فواز أحمــد زمزلي و إبراهيم محمد الجمل ، دار الريان للتراث ، د ــ ت.
١١- عمدة القارئ ــ شرح صحيح البخاري ــ الإمام بدر الدين أبي محمــد العينــي ، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه جماعة من العلماء بمساعدة إدارة المطبعة المنيرية لصاحبها محمد منير الدمشقي،دار الفكر ــ بيروت د ــ ت.
١٢- عمدة القارئ ــ شرح صحيح البخاري ــ الإمام بدر الدين أبي محمد العيني ، مراجعة صدقي جميل العطــار، دار الفكــر ، بيــروت ـــ لبنــان ، ط١، ١٤٢٥هـ ــ ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
١٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الإمام شهاب الدين أحمد بن علــي بــن حجر العسقلاني ، تعليق أبو عبد اللهعبد السلام بن محمد بن عمر علــوش ، مكتبة الرشد ، الرياض ط١ ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م..
١٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، عبد الرءوف المناوي ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ.
١٥- مختصر الشمائل المحمدية ، الإمام أبو عيسى محمــد الترمــذي ، اختصــار وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ــ الأردن، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
١٦- مختصر الشمائل المحمدية للإمام أبي عيسى محمد بــن ســورة الترمــذي ، اختصره وحققه / محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ، الريــاض ، ط١ ، ١٤٠٥هـ، ط٢، ١٤٠٦هـ ، ط٣ ، ١٤١٠هـ ، ط٤ ، ١٤١٣هـ.
١٧- مشكاة المصابيح ، محمد بن عبد الله الخطيب التبريــزي ، تحقيــق / محمــد ناصر الدين الألباني ، المكتــب الإســلامي ، بيــروت ، دمشــق ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٨- نيل الأوطار ــ شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، محمد بن علي الشوكاني ، قدم له واعتنى به وخرج أحاديثه : رائد بن صــبري بــن أبــي علفة، بيت الأفكار الدولية ، لبنان ٢٠٠٤م.

- **المصادر في الجانب الفني والبلاغي :**

١- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: فواز بن أحمد زمرلي ،دار الكتاب العربي ، بيروت، ط ١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

٢- أدب الكاتب لابن قتيبة ، شرح وضبط وتقديم أ / علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣- أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

٤- أساس البلاغة لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق/ محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ط١ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٥- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط١ ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م.

٦- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د/ عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د ـ ت.

٧- إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب ، تحقيق/ السيد أحمد صقر، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥، د ـ ت.

٨- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر بيروت، ط٢، د، ت.

٩- أمالي ابن الشجري للإمام هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني العلوي ، تحقيق ودراسة د/ محمد الطناحي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني بمصر ـ القاهرة ، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٠- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح وتعليق د/محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ،د . ت.

١١- بدائع الفوائد ، أبو عبد الله الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزية ، دار الفكر، بيروت، د . ت.

١٢- بديع القرآن، زكي الدين بن أبي الإصبع، تحقيق د/ حفني محمد شرف، نهضة مصر، د. ت.

١٣- البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، بالقاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٤- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق:درويش جويدي، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.تحرير التحبير ، زكي الدين ابن أبي الإصبع ، تحقيق د/ حفني محمد شرف ، ط١

، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحيــاء التــراث ، القــاهرة ، ١٣٨٣هـ .
١٥- تاج العروس من جواهر القاموس للإمام محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، دراسة وتحقيق/ علي شــيري، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١٦- تحرير ألفاظ التنبيه للإمام أبي زكريا يحيى شرف النووي ، تحقيق / عبـد الغني الدقر ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٨هـ.
١٧- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ، الإمام الحافظ أبي العلى محمد بـن عبد الرحمن المباركفوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنــان ، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
١٨- التعريفات للإمام علي بن محمد بن علي الجرجــاني ، تحقيــق / إبــراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ.
١٩- تفسير التحرير والتنوير للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونســية د،ت.
٢٠- التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرءوف المناوي ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر، دمشق ، ط١ ، ١٤١٠هـ.
٢١- حاشية الصبان علي الأشموني، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، د، ت.
٢٢- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة لأبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري ، تحقيق/ مازن المبارك ، دار الفكر المعاصر بيروت ، ط١ ، د ـ ت.
٢٣- الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق: محمد علي النجــار ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م.
٢٤- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمــد شاكر ، دار المدني بجدة ، ط٣ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
٢٥- ديوان البحتري ، تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصــيرفي ٣/١٦٢٧، دار المعارف ، مصر د ـ ت.
٢٦- ديوان الشافعي تعليق محمد عفيف الزغبي ، دار المطبوعــات الحديثــة ، جدة، الطائف ، ط٦ ، ١٤٢١هـ/ ١٩٩١م.
٢٧- ديوان ابن زيدون شرح وتعليق عمر فاروق الطبــاع، دار القلــم، دمشــق للطباعة والنشر.
٢٨- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د/ سيد حنفي حسنين، مراجعة/ حسن كامــل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة للكتــاب، المكتبــة العربيــة بالقــاهرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢٩- روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، حققه وعلق عليه سيد عمـــران ، دار الحـــديث ، القـــاهرة ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٣٠- سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني ، دراسة وتحقيق د/ حسن هنداوي، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٣١- سرالفصاحة ، ابن سنان الخفاجي الحلبي ، شرح وتصحيح : عبد المتعـــال الصعيدي، مطبعة محمد صبيح ، الأزهر ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.
٣٢- شرح جمل الزجاجي لابن عصفور الشبيلي ، الشـــرح الكبيـــر ، تحقيـــق صاحب أبو جناح ، إحياء التراث الإسلامي بالعراق ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٣٣- شرح شذور الذهب في معرفة أنساب العرب لابـــن هشـــام الأنصـــاري ، تحقيق وتعليق / محمد محي لدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت ، ١٩٩٢م.
٣٤- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق عبد السلام هـــارون، دار المعـــارف، القـــاهرة، ط٤، ١٤٠٠هــــ/ ١٩٨٠م.
٣٥- شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري ، محمد محي الـــدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٣٦- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقـــوقي، مطبعـــة الاســـتقامة بالقاهرة، ط٢، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
٣٧- شروح التلخيص (وهي مختصر سعد الدين التفتـــازاني علـــى تلخـــيص المفتاح للقزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابـــن يعقـــوب المغربي وعروس الإفراح في شرح تلخيص المفتـــاح للســـبكي وحاشـــية الدسوقي والإيضاح على تلخيص المفتاح للخطيـــب القزوينـــي)، مطبعـــة عيسى الحلبي وشركاه بالقاهرة ، د . ت.
٣٨- شعر الأحوص الأنصاري/ جمعة وحققه عادل سليمان جمال، قـــدم لـــه د/ شوقي ضيف، مكتبة النحانجي، بالقاهرة، مطبعة المـــدني بالقـــاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٣٩- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن كلامها لأبي الحسين أحمـــد بن فارس ، تعليق : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٤٠- الصناعتين : الكتابة والشعر ، أبو هلال العسكري ، تحقيق: على البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصـــرية ، صـــيدا ــــ بيـــروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م.
٤١- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ، يحيـــى بـــن حمـــزة العلوي اليمني ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صـــيدا ــ بيروت، ط١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.

٤٢- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي عبد الكافي السبكي، تحقيق: د/ خليل إبراهيم خليل، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٤٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.
٤٤- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، علي الأزدي المصري ، تحقيق د/ محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي الجويني ، دار المعارف ، مصر، د . ت.
٤٥- الفروق اللغوية لأبي الحسن عبد الله بن سهل العسكري ، تعليق / محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ط٣ ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٤٦- فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي ، وضع الشروح والتعليق والفهارس د/ ديزيرة سقال ، دار الفكر العربي ، بيروت ط ١ ، ١٩٩٩م.
٤٧- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة، دار الديان للتراث، ط٢، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.
٤٨- قراءة نقدية في نظرية المفارقة، د/ جميل عبد الغني محمد علي، كلية اللغة العربية بالمنصورة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٤٩- القول البديع في علم البديع للإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، تحقيق د/ عوض بن معيوض بن زويد الجميعي ، دار التراث بمكة ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٥٠- الكاشف عن حقائق السنن، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة،د.ت.
٥١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر بيروت ، د ـــ ت.
٥٢- الكليات ـــ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية أبو البقاء أيوب بن يوسف اللغوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، د ـــ ت.
٥٣- كتاب البيان في شرح اللمع لابن جني ، إملاء / الشريف عمر إبراهيم الكوفي دراسة وتحقيق د/ علاء الدين حموية ، دار عمار ، عمان ، الأردن ط١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٥٤- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق/ علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٩٢-١٩٣، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. وما ذكره أبو هلال منقول عن الجاحظ في البيان

والتبيين ينظر البيان والتبيين ١/٧٩ تحقيـق درويـش جويـدي، المكتبـة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
٥٥- كتاب سيبويه لأبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيـق وشـرح / عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، د ـ ت.
٥٦- كنز الحفاظ في تهذيب الألفاظ ، أبو يوسف يعقـوب السـكيت ، تهـذيب الخطيب التبريزي ، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، القاهرة ، د ـ ت .
٥٧- لسان العرب ، أبو الفضل جمال الـدين السـيوطي ، المكتبـة العصـرية للطباعة ، ط١ ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.
٥٨- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثيـر ، قدمـه وعلق عليه د/ أحمد الجويني ود/ بدوي طبانة، نهضـة مصـر للطباعـة والنشر،بدون طبعة.
٥٩- المجازات النبوية ، الشريف الرضي ، قدم له وضبط عباراته وشـرحها : طه عبد الرؤوف سعد ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر،الطبعـة الأخيـرة ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
٦٠- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي ،تحقيق/ فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.
٦١- المصباح في المعاني والبيان والبديع ، بدر الدين بن مالك ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
٦٢- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للإمام سعد الدين مسعود بـن عمـر التفتازاني ، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلميـة بيـروت ، لبنان ط١ ، ١٤٢٢هـ.
٦٣- المعجم الأدبي تأليف جبور عبد النور، دار العلم للملابين بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.
٦٤- المعلم بفوائد مسلم للإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المـازري ، تقديم وتحقيق الشيخ/ محمد الشاذلي النيفر ، دار العرب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان ط١ ، ١٩٨٨م ، ط٢ ، ١٩٩٢م.
٦٥- معاني الحروف لأبي الحسن علي بن عيسى النحوي ، حققه وخرج شواهده وعلق عليه وقدم له د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، جـدة ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضـبط: محمـد سـيد كيلاني ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، د . ت .
٦٦- معاني الحروف للإمام أبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، تحقيق وتعليق الشيخ/ عرفان بن سليم العشاحشونة الدمشقي ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٦٧- معجم مصطلحات الأدب، لمجدي وهبة، مكتبة لبنان، ١٩٧٤.
٦٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، أبو محمد جمال الدين بن هشام الأنصاري ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، مطبعة المدني بالقاهرة ، د . ت .
٦٩- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف السكاكي ، دار الكتب العلمية ،تعليق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ط١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ط٢ ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٧٠- المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للإمام أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي حققه وعلق عليه وقدم له : محي الدين ديب و يوسف علي بدوي وأحمد محمد السيد ومحمود إبراهيم بزال ، دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت ، دار الكلم الطيب ، دمشق ـ بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
٧١- مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق / عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٧٢- مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن للإمام أبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي ، تعليق د/ زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٧٣- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي تحقيق د/خليل إبراهيم خليل، مكتبة عباس أحمد الباز، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٧٤- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازي ، تحقيقد/ بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٨٥م.
٧٥- النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير ، تحقيق د/ محمود محمد الطناحي ، دار إحياء التراث بيروت ،د . ت.

ثانياً / المراجع

١- الأحاديث القدسية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط ٨ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
٢- أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد الطنطاوي ، نهضة مصر ، القاهرة ، د ـ ت.
٣- أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم د/ عودة عبد عودة عبد الله ، دار النفائس ، الأردن ، ط١ ، ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٠م.
٤- أسرار التميز والنجاح ، مهارات التميز ، وفاء محمد مصطفى ،دار ابن حزم ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع ، تأليف: عبد الرحمن النحلاوي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٣ ، ١٤٢٥ هـ / ١٩٨٣ م. .
٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، د/ مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
٧- الأخلاق في الشريعة الإسلامية د/ أحمد عليان ، دار النشر الدولي ، الرياض، ط١ ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٨- الأدب النبوي د/ محمد عبد العزيز الخولي ، اعتنى به عبد الحميد طعمه الحلبي ، دار المعرفة ، بيروت ــ لبنان د ــ ت.
٩- الأدب وفنونه ، د/ عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي،القاهرة،ط٣ ، ١٩٦٥م.
١٠- البديع في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين ،دار المعارف ، مصر ، ط٥، ١٩٩٧ م.
١١- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، محمد العمري ، مطبعة إفريقيا الشرق، لبنان ، ١٩٩٨ م.
١٢- البلاغة فنونها وأفنانها ، د/ فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، ط٢ ، ١٤٠٩ هـ /١٩٨٩ م.
١٣- البيان النبوي ، د/ محمد رجب البيومي ، ط١ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٤- البيان في ضوء أساليب القرآن ، د/ عبد الفتاح لاشين ،دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
١٥- التصوير الفني في الحديث النبوي ، د/ محمد الصباغ ، المكتب، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م. الإسلامي ، بيروت ، ط١
١٦- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، د ــ ت.
١٧- الجنى الداني في علم المعاني في ضوء كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، د/ إبراهيم طه الجعلي و د/ نجلاء عبد اللطيف كردي ، مكتبة المتنبي ، الدمام ط١ ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
١٨- الحديث النبوي ، مصطلحه وبلاغته وكتبه ، د/ محمد الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط٧، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م.
١٩- الحديث النبوي رؤية فنية جمالية د/ صابر عبد الدايم ، دار الوفاء ، إسكندرية،د ــ ت.
٢٠- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، عز الدين السيد ، ١٣٩٢ م.
٢١- الحديث النبوي وعلم النفس ، د/ محمد عثمان البخاري ، مطابع الشروق ، القاهرة ، د ــ ت.
٢٢- الحوار آدابه وأهدافه الشيخ/ منصور الرفاعي عبيد ، مركز الكتاب للقاهرة ط١ ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٣- الحوار بين الجماعات الإسلامية ، د/ محمد سيد أحمد المسير ، ط١ ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة.
٢٤- الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه ، د/ منى إبراهيم اللبودي، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط١ ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.
٢٥- الحوار مع أهل الكتاب ، أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة ، تأليف: خالد بن عبد الله القاسم ، دار المسلم ، الرياض ، د ـ ت.
٢٦- الخصائص الفنية في الأدب النبوي د/ محمد سعد الدبل ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
٢٧- خصائص التراكيب ، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، القاهرة، ط٤، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
٢٨- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٩- دلالة السياق ، ردة الله بن ردة الطلحي ، معهد البحوث العلمية ، مكة ، ط١ ، ١٤٢٤هـ.
٣٠- روائع من أقوال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، عبد الرحمن الميداني ، دار القلم بدمشق، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣١- عبقرية محمد ، عباس محمود العقاد ، دار الكتاب العربي، بيروت ، صيدا ، ط٢ ، ١٩٦٩ م.
٣٢- علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
٣٣- علوم البلاغة ، د/ أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط٤ ، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م.
٣٤- فن البلاغة ، د/ عبد القادر حسين ، عالم الكتب ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.
٣٥- فن الحوار أصوله ، آدابه ، صفات المحاور ، تقديم الشيخ/ محمد إسماعيل العمراني والشيخ/ مقبل هادي الوادعي ، تأليف / فيصل عبده قائد الحاشدي ، دار الإيمان ، إسكندرية ، د ـ ت.
٣٦- فن الحوار المصطلح والتطور ، زهير محمد كتبي، ط١ ، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م.
٣٧- في البيان العربي دراسة ميسرة لفنونه وصلتها بالرمز د/ عبد الموجود متولي بهنسي مكتبة المتنبي ، الدمام ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
٣٨- القصص في الحديث النبوي ، دراسة فنية وموضوعية ، محمد حسن الزير ، دار المطعة السلفية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٣٩- المعاني في ضوء أساليب القرآن ، د/ عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م
٤٠- المغني في تصريف الأفعال د/ محمد عبد الخالق عظيمة ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

٤١- معجم الأحاديث القدسية الصحيحة،تحقيق: أبو عبد الرحمن كمال بـن بـديع بسيوني ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٤٢- معجم البلاغة العربية ، د/ بدوي طبانة ، دار الرافعـي للنشـر والتوزيـع ، الرياض ، السعودية ، ط٣ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٤٣- من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم دراسة لظاهرة الترادف اللفظي د/ السـيد خضر ، ط١ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٤٤- من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د/ فتحية محمود فرج العقدة ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ط١، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
٤٥- من بلاغة القرآن،د/ أحمد محمد بدوي ، دار النهضة ، مصر، د .ت .
٤٦- من روائع الأدب النبوي د: كامل سـلامة الـدقس ، دار الشـروق ، جـدة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٤٧- من روائع الهدي النبوي ، د/ محمد خليل هراس ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م.
٤٨- من كنوز السنة دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف للشـيخ / محمـد علي الصابوني ، دار الجيل ، د ـ ت .
٤٩- مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة د/ فرج الله عبد الباري ، دار الآفـاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م.
٥٠- موسوعة الحروف في اللغة العربية د/ إميل بـديع يعقـوب ، دار الجيـل ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٥١- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن د/ محمد عبد الله دراز ، اعتنى بتخريج أحاديثه : عبد الحميد الدخاخني ، دار طيبة ، الريـاض ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ط٢ ، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م.

ثالثاً/ الدوريات:

١- الإعجاز اللغوي والتربوي في قصص الصحيحين ، د/ مصطفى رجب ، مجلة المنهل،العدد ٥١٨ ،١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ٨٠ .
٢- أصول الحوار ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ج٣.
٣- أهم الملامح الفنية في الحديث النبوي ، د/ محمد الزير ، مجلة جامعة الإمـام محمد بن سعود ، العدد ٨٤ ، ١٤١٣ هـ/ ٩٩٣١ م، ص ٢٩٥ و ٣٥٠ .

رابعا/ المخطوطات :

١- الحوار في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي دراسة بلاغية نقدية د/ عبد الرحمن عبد العزيز الفايز (رسالة دكتورة بجامعة الإمام محمـد بـن سعود الإسلامية بالرياض) لعام ١٤٢٥هـ.
٢- القصة في الحديث النبوي دراسة أدبية بيانية أ/ حفصة مصـطفى منكـابو (رسالة ماجستير) ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ـ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

فهرسة الموضوعات